قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

روسو والثورة

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأول من المجلد العاشر

٣٩



تونس



بيروت

قصة الحضارة — الجزء العاشر

روســـو والثورة

تاريخ الحضارة فى فرنسا ، وانجلترة ، وألمـانيا
من ١٧٥٦ وفى بقية أوربا من ١٧١٥ إلى ١٧٨٩

بقـــــلم

ول وإيريل ديورانت

إلى ابنتنا الحبيبة

إثيل بنفنــوتا

التى كانت خلال هذه المجلدات كلها

عونا وإلهاما لنـــا

أيها القارىء العزيز

هذا هو المجلد الأخير فى قصة الحضارة التى كرسنا لهـا نفسينا عام ١٩٢٩ ، والتى كانت شغلنا اليومى الشاغل وسلوى حياتينا منذ ذلك التاريخ .

لقد كان هدفنا أن نؤلف « تاريخاً متكاملا » أى أن نكتشف ونسجل ألوان النشاط الاقتصادى ، والسياسى ، والروحى ، والخلقى ، والثقافى ، لكل حضارة ، فى كل عصر ، بوصف هذه الألوان عناصر وثيقة الترابط فى كل واحد يسمى الحياة ، ثم نضفى على القصة صبغة إنسانية بدراسات للأبطال فى كل فصل من فصول هذه المسرحية المتصلة الحلقات ومع أننا نسلم بأهمية الحكم والسياسة ، فقد سقنا التاريخ السياسى لكل حقبة ودولة كما تساق خلفية رويت من قبل غير مرة ، دون أن يكون لب القصة أو روحها ، وتركز جل اهتمامنا على تاريخ العقل . ومن ثم كان أكثر اعتمادنا فى شئون الإقتصاد والسياسة على المصادر الثانوية ، بعكس ما انتهجناه فى تناولنا للدين ، والفلسفة ، والعلم ، والأدب ، والموسيقى ، والفن ، فقد حاولنا الرجوع فيها إلى الأصول والمنابع : حاولنا أن نرى كل دين وهو يعمل فى منبته ، وأن ندرس أخطر الفلسفات فى مؤلفاتها الكبرى ، وأن نزور الفن فى موقعه الأصلى أو الجديد ، وأن نتذوق روائع الأدب العالمى ، فى لغاتها الأصلية فى كثير من الأحيان ، وأن تستمع إلى الألحان الموسيقية العظمى مراراً وتكراراً ، ولو باقتطاعها من جوها المعجز . وتحقيقاً لهذه الأهداف طفنا بالعالم مرتين ، وبأوربا مرات لاتحصى من ١٩١٢ إلى ١٩٦٦ .وسيدرك القارىء العطوف أنه يستحيل علينا فى الأجل الواحد الذى كتب لنا أن نرجع بالمثل إلى المصادر الأصلية فى الإقتصاد والسياسة ،خلال قرون التاريخ الستين ، وحضاراته العشرين

ولم نجد منذ وحة عن الرضى بالحدود والقيود ، والتسليم بما فينا من عجز وقصور.

ويؤسفنا أننا سمحنا لإفتتاننا بكل جزء فى ملحمة الإنسان بأن يوقفنا فى رضى كثير ، حتى ألفينا نفسينا فى خاتمة المطاف منهوكى القوى حين بلغنا الثورة الفرنسية . ونحن نعلم أن هذا الحدث لم ينه التاريخ ، ولكنه نهينا . وما من شك فى أن طريقتنا المتكاملة الشاملة أفضت بنا إلى إثقال معظم هذه المجلدات بالطول المفرط . ولو أننا كتبنا تاريخاً ممزقاً — كقصة أمة ؛ أوفترة أوموضوع واحد — فلربما وفرنا على القارىء وقته وعتاده . غير أن تصوير جميع الجوانب فى قصة واحدة ، عن عدة أمم ، فى فترة معينة ، تطلب حيزاً للتفاصيل التى لم يكن منها بد لنفخ الحياة فى الأحداث والشخصيات. وسيشعر كل قارىء من جانبه بأن الكتاب مسرف فى الطول، وأن تناوله لأمته أو لتخصصه مسرف فى القصر.

فقد يرغب قراء الإنجليزية أو الفرنسية فى أن يقصروا قراءتهم الأولى لهذا المجلد على الفصول ١ — ٨ ، ١٣ — ١٥ — و٢٠ — ٣٨ ، ويرجئوا الباقى إلى حين ، وقد ويختار قراء لغات أخرى فصولهم على هذه الشاكلة . غير أننا نأمل أن يسير بعض الأبطال الشوط كله معنا ، فيحاولوا أن يروا أوربا بوصفها كلا فى تلك السنين الثلاث والثلاثين المفعمة بالأحداث ، والممتدة من حرب السنين السبع إلى الثورة الفرنسية ، على أننا لن نقترف هذا الأسباب مرة أخرى ، ولكن لو استطعنا أن نفلت من حاصد الأرواح سنة أخرى أو سنتين ، فإننا نرجو أن نقدم للقارىء مقالا ملخصاً فى « عظات التاريخ » .

ول وإيريل ديورانت

لوس أنجيليس

أول مايو ١٩٦٧

الكتاب الأول

مقدمة

الفصل الأول

روسو جواب الآفاق

١٧١٢ – ٥٦

١ – الاعترافات

كيف حدث أن رجلا ولد فقيراً ، وفقد أمه عند مولده ، ثم هجره أبوه بعد قليل وابتلى بمرض أليم مذل ، وترك يضرب فى الآفاق إثنى عشر عاماً بين مدن غريبة ومذاهب دينية متناحرة ، مرفوضاً من المجتمع والحضارة ، رافضاً فولتير ، وديدرو ، والمسوعة ، وعمر العقل ، رجلا طورد من مكان إلى آخر باعتباره ثائراً خطراً ، واتهم بالإجرام والجنون ، وشهد فى شهور حياته الأخيرة تأليه خصمه الألد – نقول كيف حدث أن رجلا كهذا ، بعد موته ، انتصر على فولتير ، وأحيا الدين ، وقلب التعليم رأساً على عقب ، ورفع أخلاقيات فرنسا ، وألهم الحركة الرومانية ، والثورة الفرنسية ، وأثر فى فلفسة كانط وشوبنهاور ، وتمثيليات شيلر ، وروايات جوته ، وشعر وردزورث وبيرون وشلى ، واشتراكية ماركس ، وأخلاق تولستوى ، وأتيح له – على الجملة – من التأثير على الأجيال التالية ما فاق تأثير أى كاتب أو مفكر آخر فى ذلك القرن الثامن عشر ، القرن الذى فاق فيه تأثير الكتاب تأثيرهم فى أى عهد سبقه ؟ هنا تواجهنا هذه

المشكلة أن كان لها أن تواجهنا في أي موضع : ما الدور الذي لعبته العبقرية في التاريخ ، مادور الإنسان إزاء المجتمع والدولة ؟

كانت أوربا آنئذ مهيأة لأنجيل يبوىء الوجدان مكاناً فوق الفكر فلقد سئمت قيود التقاليد والأعراف ، والآداب ، والقوانين . وسمعت ما يكفى عن العقل ، والجدل العقلى ، والفلسفة ، وبدا أن كل هذه الفوضى ، فوضى العقول التى أطلق حبلها على غاربها ، قد جردت الدنيا من المعنى ، وعطلت النفوس من الخيال والرجاء ، وكان الرجال والنساء بينهم وبين أنفسهن تواقين للعودة إلى حظيرة الإيمان . لقد ملت باريس ، ملت الضجيج والعجلة ، وسجن حياة المدينة وتزاحمها المجنون ، وهفت الآن إلى حلم حياة الريف الأكثر هوناً ، الحياة التى قد يجلب نظامها الرتيب البسيط للبدن صحة وللعقل سلاما ، والتى يرى فيها الإنسان من جديد نساء تزينهن الحشمة والخفر ، والتى تلتقى فيها القرية كلها فى كنيسة الأبرشية فى هدنة أسبوعية . ثم مابال هذا « التقدم » الذى يزهون به ، و « تحرير العقل » هذا الذى يفاخرون به — هل أحلا شيئا محل مادمراه ؟ هل أعطيا الإنسان صورة للعالم ومصير الإنسان أكثر وضوحاً للأفهام أو إلهاما للنفوس ؟ هل حسنا حظوظ الفقراء ، أو أتيا بالعزاء والسلوى للمحزونين على فقد الأعزاء أو للمتألمين المكروبين ؟ سأل روسو هذه الأسئلة ، وأضفى الشكل والإحساس على هذه الشكوك ، فأصغت إليه أوربا بأسرها بعد أن أخذ صوته . وبينما كان فولتير يعيد على المسرح فى الأكاديمية (١٧٧٨) ، وبينما كان روسو الموبخ المزدرى يختبىء فى ظلام حجرة من حجرات باريس ، بدأ عصر روسو .

ولقد ألف أشهر ترجمة ذاتية فى أخريات أيامه ، وهى كتابه « الاعترافات » . ذلك أنه — وهو الرجل الحساس لكل نقد الظنون الذى خال جريم ، وديدرو ، وغيرهما يأتمرون به ليشوهوا سمعته فى صالونات باريس وفى « مذكرات » مدام دينييه — هذا الرجل بدأ عام ١٧٦٢ ، بإلحاح من أحد الناشرين ، كتابة قصته هو ليروى سيرته وخلقه . وكل التراجم الذاتية بالطبع غرور فى غرور ، غير أن روسو — الذى أدانته الكنيسة ، وحرمته من حماية

القانون ثلاث دول ، وهجره أخلص أصدقائه — كان له الحق فى الدفاع عن نفسه، بل فى الدفاع المستفيض : وحين قرأ فقرات من هذا الدفاع على بعض المحافل فى باريس حصل خصومه على أمر من الحكومة يحظر أى قراءة علنية أخرى لمخطوطته . فلما فت فى عضده ، تركها عند موته مشفوعة برجاء للأجيال التالية قال فيه :

« إليكم هذه اللوحة الإنسانية الوحيدة — المنقولة بالضبط عن الطبيعة بكل صـــدق — الموجودة الآن أو التى ستوجد إطلاقاً فى أغلب الظن . وأيما كنتم ، يامن نصبكم قدرى وثقتى حكماً على هذا السجل ، فإنى استحلفكم بحق ماأصابنى من خطوب ومحن وبحق ماتشعرون به من أخوة البشر ، وباسم الإنسانية جمعاء ، ألا تدمروا عملا نافعاً فريداً فى بابه ، قد يصلح بحثاً مقارناً من الدرجة الأولى لدراسة الإنسان . وألا تنتزعوا من شرف ذكرى هذا الأثر الصادق الوحيد الخلق ، الأثر الذى لم ينـــل من خصومى مسخاً وتشويهاً [1] .

والكتاب ، بمحاسنه ومآخذه ، نتاج لما فطر عليه مؤلفه من شدة الحساسية ، وقوة الذاتية ، ورهافة العاطفة . يقول روسو «إن قلبى الحساس كان أس بلائى كله .[2] ولكن هذا القلب أضفى ألفة حارة على أسلوبه ، وحنانا على ذكرياته ، وفى كثير من الأحيان سماحة على أحكامه ، وكلها تذيب نفورنا ونحن نمضى فى قراءة الكتاب . ففيه يغدو كل تجريد واقعاً شخصياً مجسداً ، وكل سطر شعوراً نابضاً بالحياة فهذا الكتاب أشبه بالنبع الذى تدفق منه نهر الاعترافات المستبطنة ، النبع الذى روى أدب القرن التاسع عشر ، لا لأنه لم يكن له ضريب سابق من كتب الاعترافات ، ولكن حتى القديس أوغسطين لم يستطع أن يضارع كل هذه التعرية للذات ، أو يدعى دعواها فى الأمانة والصدق . والكتاب يستهل بدفقة من البلاغة التى تتحدى المقلدين :

« إننى مقبل على مغامرة لم يسبق لها نظير ، ولن يكون لتنفيذها مقلد، أريد أن أظهر إخوانى فى الإنسانيه على إنسان فى كل صدق الطبيعة ، وهذا

الإنسان هو أنا نفسى . أنا مجرداً عن كل شىء . أننى أعرف قلبى ، وأنا عليم بالناس . ولم أخلق كأى حى من الأحياء . وإذا لم أكن خيراً منهم ، فإننى على الأقل مختلف عنهم . أما أن الطبيعة أحسنت أو أساءت بتحطيم القالب الذى صببت فيه ، فذلك شىء لا يستطيع الحكم عليه إنسان إلا بعد أن يقرأنى .

« وأياً كان موعد الساعة التى سينفخ فيها فى صور يوم الحشر ، فسوف آتى وكتابى هذا فى يمينى لأمثل أمام الديان الأعظم وسوف أقول بصوت عال : كذلك سلكت ، وكذلك فكرت ، وكذلك كنت ، لقد تحدثت إلى الأبرار والأشرار بنفس الصراحة ، وما أخفيت شيئاً فيه سوء ، ولا أضفت شيئاً فيه خير . وقد أظهرت نفسى كما أنا : حقيراً خسيساً حين كنت كذلك ، وخيراً سمحاً نبيلا حين كنت كذلك ، لقد أمطت اللثام عن أعماق نفسى [٣] .

وتتردد دعواه فى توخى الصدق الكامل فى الكتاب مراراً وتكراراً . ولكن روسو يسلم بأن تذكره لأشياء انقضى عليها خمسون عاماً كثيراً ما يكون تذكراً مبتوراً لا يمكن الركون إليه ، وللجزء الأول فى جملته جو من الصراحة يشيع الطمأنينة فى القارىء. أما الجزء الثانى فتشوهه الشكاوى المملة من الاضطهاد والتآمر . وأياً كان الكتاب ، فهو من أعظم ما نعرف من الدراسات السيكولوجية كشفاً عن النفس ، وهو قصة روح حساسة شاعرة خاضت صراعاً أليماً مع قرن واقعى قاس . وعلى أية حال ، فإن كتاب الاعترافات ، لو لم يكن ترجمة ذاتية ، لكان من إحدى الروايات العظيمة فى العالم »[٤] .[*]

(*) ما زال الجدل حول صدق « الاعترافات » حارا . وأهم ما يدور عليه هو اتهام روسو لجريم وديدرو بأنهما تآمرا على تزييف رواية علاقاته بمدام ديبينيه ، ومدام دوديتو ، وبشخصيهما . وكانت كفة الرأى الناقد راجحة ضد روسو قبل ١٩٠٠ . فى ١٨٥٠ قرر سانت بيف ، بفظاظة غير معهودة فيه ، أن روسو لا يتردد فى الكذب أقل تردد أينما تعرضت كرامته وغروره المريض للخطر ، وقد خلصت إلى أنه كذب فيما يتصل بجريم روافقه على هذا برأى قطب مؤرخى الأدب الفرنسيين ، جوستاف لانسون (١٨٩٤) ، فقال « إننا نفاجىء روسو فى كل صفحة متلبسا بأكاذيب مفضوحة — كذب ، لا مجرد —

. . . .

= خطأ ، ومع ذلك فالكتاب فى جملته ينتقد إخلاصا وصدقا — لا صـــدق الوقائع بل صدق المشاعر(٦). وقدسبق هذان الحكمان نشر كتاب السيدة فردريكا مكدونلد «جان جاك — روسو» دراسة جديدة فى النقد — (لندن ١٩٠٦) . - Jean - Jacques Rousseau A New Sfudy in Critıcism ، الذى يثبت صواب اعتبار « المذكرات التى ألفتها مدام دبينيه متأثرة بموقف جريم وديدرو المنطوى على الحقد ، إن لم تكن مملاة فعلا من هـــذا الموقف . ودراستها للوثائق تغير ولا ريب كثيراً من المزاعم التى زعمها النقاد من قبل(٧) . قارن كتاب ماسون Mason ديانة روسو (I, 184) La Religion de Rousseau « سنرى أن علينا أن نكون شديدى الحذر فى الاعتماد على هذه الروايات التى أجرى فيها ديدرو قلمه بالكثير من التعديل والتبديل » . وقد وصـــل إلى أحكام مماثلة فى صف روسو ، ماثيو جوزفسن (Jean - Ja|ques Rousseau 434 - 35, 531)واميل فاجيه (حياة روسو (Vie de Rousseau, 189 ،وجول لوميتر(Jean - Jacque Rousseau, 9 - 10) وفون C. E. Vaughn (كتابات روسو السياسية (Political Writings of Rousseau II, 295, 547 - 552 f.)

٣ — الفتى الشريد : ١٧١٢ — ٣١

« ولدت بجنيف فى ١٧١٢ ، ابنا لإسحاق روسو وسوزان برنار ، المواطنين » . والكلمة الاخيرة كانت تعنى الكثير ، لأن ألفا وستمائة فقط من بين سكان جنيف العشرين ألفــا كانوا يملكون اسم المواطن وحقوقه ، وسيشارك هذا العامل فى تاريخ جان — جاك . وكانت أسرته فرنسية الأصل ، ولكنها وطنت فى جنيف منذ ١٥٢٩ . وكان جده قسيسا كلفنيا ، وقد ظـــل الحفيد فى صميمه كلفنيا طوال تطويفه الدينى كله ؛ أما أبوه فكان من إقطاب صناعة الساعات ، رجـــلا خصب الخيال لا يستقر له قرار ، أتاه زواجه (١٧٠٤) بصداق قدره ستة عشر ألف فلورين . وبعد أن أنجب غلاما ترك زوجته (١٧٠٥) ورحل إلى الآستانة حيث مكث ست سنوات ثم عاد لاسباب مجهولة ، « وكنت الثمرة الحزينة لهذه العودة : [٨] وماتت الأم بحمى النفاس بعد أسبوع من مولد جان — جاك « جئت إلى العالم أحمل أمارات قليلة جداً على الحياة ، بحيث لم يكن هناك كبير أمل فى الابقاء على ». وكفلته خالة له وأنقذته ، وهو عمل « أغتفره لك دون تحفظ » على حد قوله . وكانت الخالة تجيد الغناء والترتيل ، ولعلها بثت فيه ذلك الشغف بالموسيقى الذى لازمه طيلة حياته . وكان طفلا عبقريا ، تعلم القراءة فى زمن وجيز ، ولمـــا كان أبوه إسحاق مولعا بالقصص الرومانسية ، فقد راح الوالد والولد يقرءان معا الروايات المتخلفة فى مكتبة أمه الصغيرة . ونشىء جان — جاك على مزيج من القصص الغرامية الفرنسية ، وتراجم بلوتارخ ، والفضائل الكلفينية ، وجعله هذا المزيج قلقا مهزوزا . وقد وصف نفسه وصفا دقيقا بأنه « أبى هش فى وقت معاً ، فى خلق أنوثه وهو مع ذلك خلق عات لا يقهر ، دأب على وضعى فى موضع التناقض مع نفسى لأنه متذبذب بين الضعف والشجاعة ، وبين الترف والعفة[٩] .

وفى ١٧٢٢ تشاجر أبوه مع رجل يدعى الكابتن جوتييه ، فأسال الدم

من أنفه ، فاستدعاه القاضى المحلى ، ولكنه هرب من المدينة أتقاء السجن ، واتخذ مقره مدينة نيون على ثلاثة عشر ميلامن جنيف . وبعد سنوات تزوج ثانية . وكفل فرانسوا وجان — جاك خالهما جابريل برنار . وألحق فرانسوا بصانع ساعات ، فهرب ، وأختفى من التاريخ . وأما جان — جاك وابن خاله أبراهام برنار فقد أرسلا إلى مدرسة داخلية يديرها القس لا مبرسييه فى قرية بوسيه القريبة . « هنا كان علينا أن نتعلم اللاتينية ، وكل اللغو التافه الذى أطلق عليه اسم التعليم . »[١٠] وكان التعليم المسيحى الكلفنى جزءا من صميم المنهج ؟

وأحب معلميه ، لا سيما أخت القسيس ، الآنسه لا مبرسييه ، وكانت فى الثلاثين ، وجان — جاك فى الحادية عشرة ، فوقع فى غرامها على طريقته العجيبة . كان إذا ساطته عقابا على سوء الأدب ، أبهجه أن يتعذب على يديها ، « فإن شيئا من الشهوانية أختلط بالألم والخزى ، مما خلف فى الرغبة فى تكرار العقوبة أكثر من الخوف منه » .[١١] فلما عاد إلى الذنب وضح التذاذه بالعقاب وضوحا صممت معه على ألا تعود إلى ضربه بالسوط ؛ وقد ظل عنصر مازوكى يلازم تكوينه العشق إلى النهاية .

« وهكذا قضيت سن المراهقة ، ببنية متقدة ، دون أن أعرف أو حتى أشتهى أى أشباع آخر لرغباتى المشبوبة غير ما أوحت به إلى الآنسة لا مبرسييه فى براءة ، وحين بلغت مبلغ الرجال لم يختف هــذا الميل الصبيانى بل إتحد مع الميل الأخر . ولقد ظلت هذه الحماقة وما صاحبها من شدة حياء فطرى تحول دائماً بينى وبين الاجتراء مع النساء ، وهكذا كنت إقضى أيامى أتحرق فى صمت شوقاً لمن أهيم بهن دون أن أجروء على البوح برغباتى . .

« وهاأنذا قــد خطوت أول خطوة وأشقها فى تيه اعترافاتى الحالك الإليم . ذلك أننا لا نستشعر فى البوح بذنب ينطوى على الإجرام فعلا ذلك النفور الشديد الذى نستشعره فى البوح بذنب لا يثير غير السخرية» [١٢] .

ويجوز أن روسو ، فى حياته اللاحقة ، وجد عنصر لذة فى شعوره بالمقاومة والصد من العالم ، ومن اعدائه ، ومن أصدقائه .

وبعد اللذة التى وجدها فى عقوبات الآنسة لامبرسييه وجد متعة فى المنظر الطبيعى الرائع الذى أحاط به ، «كان فى الريف من الفتنة . . . ما حبب إلى الحياة الريفية حباً لم يستطع الزمن أن يطفئه » . [١٣] ولعل هذين العامين اللذين أنفقهما فى بوسيه كانا أسعد سنى عمره رغم ما تكشف له من ظلم فى هذه الدنيا . فقد عوقب مرة على ذنب لم يجنه ، فاستجاب بسخط لم يفارقه قط ، وبعدها « تعلم أن يرائى ، ويتمرد ، ويكذب ، وبدأت كل الرذائل المألوفة فى حياتنا تفسد براءتنا السعيدة » . [١٤]

ولم يجاوز قط هذه المرحلة من التعليم المدرسى أو الكلاسيكى وربما كان افتقاره إلى التوازن ، وصواب الحكم ، وضبط النفس ، واخضاعه العقل للوجدان — ربما كان هذا كله راجعاً لأنهاء تعليمه المدرسى فى فترة مبكرة . ففى ١٧٢٤ ؛ حين بلغ الثانية عشرة ، أعيد هو وابن خالته إلى بيت أسرة برنار . وزار أباه فى نيون ، وهناك هام بفتاة تدعى فولسون ، فصدته عنها ، ثم بأخرى تدعى جوتون « أبت أن تسمح لى بشىء من التجاوز معها ، فى حين أباحت لنفسها أشد الحريات معى . [١٥] وبعد عام من التردد والتذبذب ألحق صبيا لحفار فى جنيف . وكان يحب الرسم ، وقد تعلم الحفر على ظروف الساعات ، ولكن معلمه كان يضربه بقسوة على ذنوب صغيرة . « فدفعنى إلى رذائل كنت أحتقرها بفطرتى ، كالكذب ، والكسل ، والسرقة » . وانقلب الصبى الذى كان من قبل سعيدا إلى غلام منطو مكتئب كاره لعشرة الناس .

ووجد السلوى فى الأدمان على قراءة الكتب التى استعارها من مكتبة قريبة ، وفى الرحلات الريفية يقوم بها فى الآحاد . وحدث مرتين أنه تباطأ فى الحقول حتى وجد أبواب المدينة مغلقة إذ حاول العودة ، فانفق الليل فى العراء ، ومضى إلى عمله نصف مشدوه ، وكان جزاؤه علقه ساخنة .

وفى رحلة ثالثة من هذه الرحلات حملته ذكرى هذا الضرب على أن يقرر إلا يعود إطلاقا فمضى قدما إلى كونفنيون فى سافوى الكاثوليكية ، على ستة أميال من بلدته ، وهو لم يبلغ بعد السادسة عشره (١٥ مارس ١٧٢٨) لا نقود معه ولا ثياب سوى ما يحمله على ظهره .

هناك طرق باب قسيس القرية الكاثوليكى الأب بنوا ديونفير ، ولعله سمع أن هـــذا الكاهن الشيخ تواق لهداية الجنيفيين الشريدين ، فهو يقدم لهم الطعام الطيب عملا بالنظرية القائلة أن المعدة الممتلئة تعين على التفكير المستقيم . وقد قدم لجان — جاك غذاء طيباً ، وقال له « إذهب إلى آنسى ، حيث تجد سيدة صالحة خيرة يتيح لهـــا كرم الملك أن تحول النفوس عن تلك الخطايا التى إقلعت عنها لحسن الحظ »[١٦]. ويضيف روسو أن هذه السيدة هى « مدام دفاران ، التى اهتدت إلى الكثلكة مؤخرا ، والتى رتب القساوسة أن يبعثوا إليها بأولئك التعساء المستعدين لبيع عقيدتهم ، وكانت إلى حد ما مضطرة إلى أن تشارك هؤلاء معاشا قدره ألفا فرنك أنعم بها عليها ملك سردانيا » . ورأى الفتى الشريد أنشطراً من ذلك المعاش قد يستأهل تغيير العقيدة . وبعد ثلاثة أيام ، فى آنسى ، مثل أمام مدام فرانسوا — لويز دلاتور ، بارونة فاران .

كانت فى التاسعة والعشرين ، امرأة حلوة ، كيسة ، دمثة ، سمحة جذابة الملبس ، « ما رأيت وجها أجل ولا جيدا أبدع ، ولا ذراعين مليحتين أروع تكوينا »[١٧] . وكانت فى مجموعها أبلغ حجة تناصر الكاثوليكية رآهـــا روسو على الاطلاق . ولدت يفيئى لأسرة طيبة ، وتزوجت وهى صغير جداً من المسيو (البارون فيما بعد) دفاران اللوزانى وبعد سنوات من التنافر الأليم تركته ، وعبرت البحيرة إلى سافوى ، ونالت حماية الملك فكتور أمادو ، وكان يومها فى إفيان . وبعد أن نزلت آنسى ، قبلت اعتناق الكاثوليكية ، معتقدة أنها لو ادت شعائرها الدينية على الوجه الصحيح لغفر الله لها غرامياتها التى تقع فيها بين الحين والحين ،

ثم إنها لم تستطع أن تصدق أن يسوع الرقيق القلب سيقذف بالرجال — فما بالك بامرأة جميلة — فى النار الابدية[١٨] .

وكان يطيب لجان — جاك أن يمكث معها لولا إنها كانت مشغولة : فنفحته ببعض المال ، وأمرته بأن يمضى إلى تورين ويتلقى التعليم فى « نزل الروح المقدس » وقد استقبل هناك فى ١٢ أبريل ١٧٢٨ ، وفى ٢١ أبريل عمد فى المذهب الكاثوليكى الرومانى . وحين استعاد ذكرى هذه الواقعة بعد أربعة وثلاثين عاماً — وقبل عودته إلى البروتستينية بثمانى سنوات — كتب يصف فى رعب تجربته فى النزل ، بما فى ذلك محاولة للاعتداء على عفته من زميل مغربى حديث الاهتداء ؛ وقد خيل إليه أن موقفه من اعتناق الكاثوليكية كان موقف النفور ، والخزى ، والتسويف الطويل . ولكن الظاهر أنه تكيف مع الظروف التى وجدها فى النزل لأنه مكث هناك دون إكراه أكثر من شهرين بعد أن قبل فى كنيسة روما[١٩] .

ثم ترك النزل فى يوليو ، مسلحا بستة وعشرين فرنكا . وبعد أن أنفق أياما فى مشاهدة معالم المدينة وجد عملا فى متجر جذبه إليه جمال السيدة الواقفة خلف منضدته . ووقع فى غرامها للتو والساعة ، وما لبث أن جثا أمامها وبذل لها عهدا بالوفاء مدى الحياة . وابتسمت مدام بازيل ، ولكنه لم تسمح له بأن يتجاوز يدها ، ثم أن زوجها كان وشيك الوصول فى أية لحظة . يقول روسو « إن عدم توفيقى مع النساء نشأ دائماً عن أفراطى فى حبهن »[٢٠] ولكن كان فى فطرته أن يجد فى التأمل لذة أعظم مما يجد فى الإشباع وقد فرج عن ضيقه بتلك « التكملة الخطرة التى تخدع الطبيعة وتنقذ الفتيان ، الذين على شاكلتى مزاجا ، من اضطرابات كثيرة ، ولكن على حساب صحتهم ، وقوتهم ، واحيانا حياتهم[٢١] .

ولعل هذه العادة ، التى تفاقمت حماها نتيجة النواهى المرهبة ، لعبت دورا خفيا فى زيادة نزقه ، وأهامه الرومانسية ، وشعوره بالقلق فى المجتمع ، وحبه للوحدة . وهنا نجد « الاعترافات » تتوخى صراحة لم يسبق لها نظير .

« كانت أفكارى في شغل شاغل بالفتيات والنساء ولكن بطريقتى الخاصة . وقد أبقت هذه الأفكار حواسى فى نشاط دائم مؤذ ... وبلغ بى التهيج مبلغا جعلنى ألهب رغباتى بأشد المناورات إسرافا بعد أن عجزت عن اشباعها . فكنت التمس الأزقة المظلمة والأركان المنزويه ، حيث استطيع أن أتعرى عن بعد أمام اشخاص من الجنس اللطيف فى الوضع الذى إشتهيت أن أكون عليه بقربهن . ولم يكن ما رأيته منى هو عورتى — فذلك ما لم يخطر لى ببال ، إنما كان العضو المثير للضحك (الأرداف) : ولا يمكننى وصف اللذة الحمقاء التى استشعرتها فى تعريتها أمام أعينهن . ولم تكن بين هذا وبين المعاملة المشتهاه (وهى الجلد) غير خطوة واحدة ؛ ولست أشك أن امرأة حازمة كانت فى مرورها ما نحتى هذه المتعة لو إننى جرؤت على التمادى فى فعلتى .

« وذات يوم ذهبت لاقف فى مؤخرة حوش به بئر تستقى منها فتيات البيت . . . وعرضت عليهن مشهداً يثير الضحك أكثر مما يثير الغواية » أما أحكمهن فتظاهرن بأنهن لا يرين شيئاً ؛ وبدأ بعضهن يضحكن ، وأحس غيرهن بالأهانة فصحن مستغيثات » .

ولكن واحدة منهن لم تتقدم للأسف لتجلده — وبدلا من ذلك حضر حارس يحمل سيفا ثقيلا وله شارب رهيب ، ومن خلفه أربع عجائز أو خمس مسلحات بالمكانس . أما روسو فنجا بأن قال فى تعليل مسلكه أنه « شاب غريب من أسرة كريمة التاث عقله » ولكن ماله قـد يمكنه فى المستقبل من مكافأتهم على غفرانهم فعلته ، « وتاثر الرجل المرعب » وخلى سبيله ، الأمر الذى اسخط العجائز غاية السخط(٢٢) .

وكان خلال ذلك قد وجد وظيفة تابع يرتدى زى الخدم فى بيت مدام دفرسللى ، وهى سيدة تورينية لها نصيب من الثقافة . هناك اقترف جريمة أثقلت ضميره طوال عمره . ذلك أنه سرق شريطا من أشرطة المدام الزاهية الألوان ، فلما أتهم بهذه السرقة ادعى أن خادمة أخرى أعطته

الشريط . ووبختها الخادمة — ماريون — البريئة تماماً من السرقة توبيخا أنطوى على نبؤة ، فقالت له « إيه ياروسو ، ظننتك ذا طبيعة خيرة . أنك تجعلني غاية في التعاسة ، ولكنني لا ارضى أن أكون في موقفك[٢٣] » . وطرد كلاهما ، ويضيف روسو في إعترافاته :

لست إدرى ما أصاب ضحية إفترائي هـــذا ، ولكن كان الاحتمال ضعيفاً جدا في أن تجد لها وظيفة حسنة بعد ذلك ، لأنها عانت من تهمة مؤذية لسمعتها من جميع الوجوه . . . ولقد ظلت الذكرى الإليمة لهـــذا العمل . تثقل ضميري إلى اليوم ، وفي وسعي أن أقول صادقا أن رغبتي في التخفيف من ألم هذه الذكرى شاركت كثيراً في تصميمي على كتابة إعترافاتي[٢٤] .

وقد تركت تلك الشهور الستة التي عمل فيها خادما بصمتها على خلقه ، فهو لم يصل قط إلى احترام نفسه رغم كل وعيه بعبقريته : وشجعه قسيس شاب لقيه وهو يخدم مدام دفرسللي على الاعتقاد بان في أستطاعته التغلب على اخطائه إذا حاول مخلصا القرب من الخلاقيات المسيح . وقال السيد جيم هذا إن أي دين صالح ما دام يشيع السلوك المسيحي ؛ ومن ثم فقد أومأ إلى أن جان — جاك يكون آمناً بالا إن هــو عاد إلى مسقط رأسه ومذهبه الأصلي . وقد استقرت هذه الآراء « لرجل من أفضل من عرفت من الرجال » طويلا في ذاكرة روسو ، وأوحت إليه بصفحات مشهورة في كتابه « إميل » . وبعد عام التقى في مدرسة سان — لازار اللاهوتية ، بقس آخر هو إذ الأبيه جاتيبه ، رجل له « قلب يفيض رقة وحنانا » فاته الترقي لأنه كان سببا في حمل عذراء في أبرشيته . يقول روسو معقبا « لقد كانت هذه الفعلة فضيحة رهيبة في أسقفية شديدة التزمت ، لا يصح فيها أبدا للقساوسة (الخاضعين لتنظيم حسن) أن يكون لهم أبناء — إلا من نساء متزوجات[٢٥] » . ومن « هذين القسيسين الفاضلين ألفت شخصية قسيس سافوا » .

وفى مطلع صيف عام ١٧٢٩ ، عاود روسو — الذى بلغ الآن السابعة عشرة — الحنين إلى حياة الترحل ، ثم أنه علل نفسه بأنه قد يجد بمعونة مدام دفاران وظيفة أقل إذلالا لكبريائه . فانطلق بصحبة غلام جنيفى مرح يدعى باكل سيراً من تورين ، واخترقا ممر جبل سنيس فى الألب إلى شامبرى وآنسى . وقد صور قلمه الرومانسى تلك الإنفعالات التى جاشت بها نفسه وهو يدنو من مسكن مدام دفاران تصويرا رائعا « فقد ارتعشت ساقاى من تحتى وغامت عيناى ، فلم أبصر ولم أسمع ولم أذكر احدا ، واضطررت مرارا إلى الوقوف لألتقط أنفاسى وأملك أحاسيسى المشدوهة [٢٦] » . ولا شك فى أنه كان غير واثق من أنها سترحب بمقدمه . فكيف يستطيع أن يفسر لها كل ما طرأ على حياته من صروف وتقلبات منذ تركها ؟ على أن « نظرتها الأولى بددت جميع مخاوفى . ووثب قلبى لسماع صوتها . وألقيت نفسى عند قدميها ، وفى نشوة من الفرح العارم ضغطت شفتاى على يدها[٢٧] » : ولم يسؤها هيامه بها ، فخصصت له حجرة فى بيتها ، وحين بدأ البعض يتقولون كان جوابها « فليقولوا ما شاءوا ، ولكنى ما دامت العناية قد ردته إلى ، فأنى عازمة على إلا اتخلى عنه » .



٣ — ماما : ١٧٢٩ — ٤٠

وتعلق بها تعلقاً شديداً ، كأى فتى يتعلق بامرأة الثلاثين كان يلثم سرآ الفراش الذى تنام عليه ، والكرسى الذى تجلس عليه « بل الأرض ذاتها حين يخطر إلى أنها مشت عليها[٢٨] » .

(هنا يخيل الينا أن المبالغة طغت على التاريخ)

وكان شديد الغيرة من كل من ينافسونه على الاستئثار بوقتها . وتركته يخرخر كالهر السعيد ، وكانت تدعوه تارة بالقط الصغير ، وتارة بالطفل ، وشيئاً فشيئاً أرتضى أن يدعوها « ماما » واستخدمته فى كتابة رسائلها وإمساك حساباتها ، وجمع الأعشاب لهـــا ، ومعاونتها فى تجاربها الكيميائية . وأعطته كتبا ليقرأ — الاسبكتاتور ، ويوفندرف ، وسانت افرمون ، وملحمة فولتير المنرياده . وكانت هى نفسها تحب أن تتصفح « قاموس بويل التاريخى النقدى » وكانت لا تسمح للاهوتها بأن يضايقها ، ولعل استمتاعها بصحبة الأب جرو ، ناظر مدرسة اللاهوت المحلية ، مرجعه أنه كان يساعدها على إحكام عقد مشدها « وبينما كان مشغولا بهذا كانت تجرى فى أرجاء الغرفة ، هنا أو هناك كما تدعو الدواعى . وكان الأب ، ناظر المدرسة ، يتبعها متذمرا تجره الأوبطة من خلفها ، وهـــو لا يفتأ يردد « أرجوك أن تقفى ساكنة ياسيدتى » . وكان هـــذا كله مشهدا مسليا حقاً[٢٩] » .

وربما كان هذا القسيس المرح هـــو الذى أشار بأن جان — جاك قد يستوعب من التعليم قدرا يؤهله لأن يكون قسيس قرية ، وذلك على الرغم من كل أمارات الغباوة البادية عليه . ووافقت مدام دفاران وهى مغتبطة بالعثور له على مهنة يرتزق منها . وعليه فى خريف ١٧٢٩ دخل

روسو مدرسة سان — لازار اللاهوتية ليحضر للقسوسية . وكان قد ألف الكاثوليكية الآن بل شغف بها[٣٠] ؛ احب فيها طقوسها المهيبة ، ومواكبها ، وموسيقاها ، وبخورها ، واجراسها التي خالها تعلن على الملأ كل يوم أن الله فى سمائه ، وأن العالم بخير أو سوف يكون بخير ، أضف إلى ذلك أن مذهبا يستهوى مدام دفاران ويغفر لها خطاياها لا يمكن أن يكون سيئاً . غير أن التعليم المدرسى الذى حصله من قبل كان من الضالة بحيث اقتضى الأمر أن يفرض عليه منهج مركز فى اللاتينية . ولكنه لم يستطع صبرا على تصاريف أسمائها وصفاتها وأفعالها ، وبعد خمسة أشهر من الجهد والعرق رده معلموه إلى مدام دفاران بتقرير يقول أنه « غلام لا بأس بتقواه » ولكنه لا يصلح كاهنا .

وحاولت مساعدته من جديد . ودعاها ما لا حظته من ميله للموسيقى إلى تقديمه إلى نيكولوز لوميتر ، عازف الأرغن فى كتدرائية آنسى وذهب جان — جاك ليعيش معه طوال شتاء ١٧٢٩ — ٣٠ ، وعزاؤه أنه لا يبعد عن ماما سوى عشرين خطوة . وراح يرتل فى فرقة الترتيل ويعزف على الفلوت ، وأحب الترانيم الكاثوليكية ، ووجد الغذاء الطيب ، وكان سعيداً . ولم يعكر عليه صفو العيش مع المسيو لوميتر غير إسراف هذا العازف فى الشراب . وذات يوم تشاجر رئيس فرقة الترتيل الصغير مع رؤسائه ، فجمع كراسات موسيقاه فى صندوق ، ورحل عن آنسى . وامرت مدام دفاران روسو أن يصحبه حتى ليون . هناك سقط لوميتر على الطريق مغشيا عليه بفعل (البطاح) أى هذيان الحمى الذى يصيب مدمنى الخمر . واستغاث جان — جاك بالمارة وقد أصابه الرعب ، وأعطاهم العنوان الذى كان مدرس الموسيقى يبحث عنه ، ثم فر راجعاً إلى آنسى وماماً . « أن تعلقى بها بكل ما فيه من حساسية وصدق اقتلع من قلبى كل مخطط يمكن تصوره وكل حماقات الطموح . فلم أر سعادة فى غير العيش بقربها ، وما كنت لأخطو خطوة دون أن أشعر أن المسافة بيننا قد بعدت[٣١] » . ولكن علينا أن نذكر أنه لم يتجاوز يومها الثامنة عشرة .

فلما وصل إلى آنسى وجد أن المدام قد رحلت إلى باريس ولا أحد يعرف متى تعود. وأحس أنه وحيد مهجور، فراح ينفق اليوم تلو اليوم هائماً على وجهه فى الريف، يتأمى بالنظر إلى ألوان الربيع المشرقة وسماع زقزقة الطيور اللطيفة — هذه الطيور العاشقة بلا ريب. وكان أحب الأشياء إليه أن يستيقظ مبكراً ويرقب الشمس تطلع ظافرة فوق الأفق. ورأى فى إحدى جولاته تلك آنستين راكبتين، تحثان جواديهما المترددين على خوض غدير أمامهما. وفى نوبة من نوبات البطولة أمسك بعنان أحد الجوادين وعبره الماء والآخر يتبعه. وكان على وشك المضى إلى حال سبيله لولا أن الفتاتين أصرتا على أن يصحبهما إلى كوخ يجفف فيه حذاءه وجواربه، فوثب على ظهر أحد الجوادين خلف الآنسه ج. تلبية لدعوتها «فلما اضطررت إلى الإمساك بها لأستقر فى مكانى راح قلبى يدق وكانت دقاته من العنف بحيث أحست بها» (٣٢) فى تلك اللحظة بدأ يكبر على هيامه بمدام دفاران. وأنفق الشباب الثلاثة يومهم فى رحلة خلوية معاً، وتجرأ روسو فقبل يد إحدى الفتاتين ثم تركتاه، فقفل إلى آنسى منتشياً لايكاد يعبأ بغياب ماما عنها. وقد حاول العثور على الآنستين ثانية، ولكن دون جدوى.

وما لبث أن عاد يضرب فى الأرض من جديد، واصطحب هذه المرة خادمة مدام دفاران إلى فريبورج. وإذا اخترق جنيف «ألفيتنى متأثراً بالغ التأثر حتى لم أكد أقوى على المضى فى طريقى... فقد رفعت صورة الحرية (الجمهورية) روحى إلى الذرى» (٣٣). ومن فريبورج مشى إلى لوزان. ولم يعرف التاريخ كاتباً شديد الولع بالمشى مثله. فمن جنيف إلى تورين إلى أنسى إلى لوزان إلى نوشاتل إلى برن إلى شامبيرى إلى ليون عرف الطريق واستمتع شاكراً بالمناظر والروائح والأصوات.

«يطيب لى أن أمشى على سجيتى، وأن أقف حيث اشتهى، فحياة المشى ضرورية لى. والسفر على الأقدام، فى ريف جميل، وجو بديع،

وبهدف لطيف أختم به رحلتى — هذا أنسب ما يروقنى من ضروب العيش » (٣٤) .

ذلك أنه لعدم شعوره بالإطمئنان فى حضرة الرجال الذين أصابوا حظاً من التعليم ، وبالخجل والعى فى حضرة النساء الجميلات ، كان يسعد إذا انفرد بالغابات والحقول ، والماء ، والسماء ، فجعل من الطبيعة مستودع سره ونجواه وأفضى إليها بغرامياته وأحلامه فى حديث صامت ، وخيل إليه أن حالات الطبيعة المتقلبة تمتزج أحياناً فى تناغم صوفى مع حالته النفسية . ولم يكن أول من أشعر الناس بجمال الطبيعة ، إلا أنه كان أشد رسلها تحمساً لها وتأثيراً فيهم فنصف شعر الطبيعة منذ روسو هو جزء من تراثه ، لقد شعر هاللر من قبل بجلال جبال الآلب ووصفه ، ولكن روسو جعل من سفوح سويسرة على طول الساحل الشمالى لبحيرة جنيف ملكه الخاص ، وأورث الأجيال عبير كرومها المدرجة . فلما أراد اختيار موقع لبيت يسكنه شخصيتى جولى وفولمار أسكنهما هنا ، فى كلارنس بين فيفيه ومونترو ، فى فردوس أرضى امتزجت فيه الجبال والخضرة والماء والشمس والثلوج .

وانتقل إلى نوشاتل حين لم يصب نجاحا فى لوزان « هنا . . . بفضل تدريسى للموسيقى اكتسبت بعض الإلمام بها دون وعى منى . » (٣٥)

وفى بلدة قريبة تدعى بودرى التقى بحبر يونانى يلتمس بعض المال لترميم كنيسة القبر المقدس فى أورشليم ، فرافقه روسو مترجماً له ، ولكنه تركه فى سوليو ومشى خارجاً من سويسرة داخلا فرنسا . وفى أثناء سيره دخل كوخا وسأل صاحبه أيستطيع شراء طعام ، فقدم له الفلاح خبز الشعير واللبن ، وقال إن هذا كل ما يملك ، ولكنه حين رأى أن جان — جاك ليس جابى ضرائب فتح باباً مسحوراً نزل منه ثم عاد بخبز قمح ، وبيض ، ونبيذ . وعرض روسو أن يدفع ثمن طعامه ، ولكن الفلاح أبى أن يقبله ، وعلل سلوكه بأنه مضطر إلى إخفاء خير الطعام مخافة أن يفرض عليه المزيد من الضرائب . » إن ما قاله لى .. خلف فى ذهنى أثراً لا يمحى ،

وبذر بذور تلك الكراهية التى لاتطفأ والتى نمت منذ ذلك الحين فى قلبى ، الكراهية لما يقاسيه هؤلاء التعساء من عنت ، والسخط الشديد على ظالميهم . (٣٦)

وفى ليون أنفق أياماً بغير مأوى ، يفترش المقاعد فى الحدائق العامة أوينام على الأرض ، واستخدم حيناً فى نسخ الموسيقى . فلما سمع أن مدام دفاران .

تسكن شامبرى (على أربعة وخمسين ميلا إلى الشرق) ، انطلق لينضم إليها من جديد . ووجدت له وظيفة سكرتير لملاحظ الأقاليم(١٧٣٢–٣٤) وكان خلال ذلك يعيش تحت سقفها ، لاينقص من سعادته بعض الشىء غير ماكشف من أن مدير أعمالها كلود آنية هو أيضاً يعشقها . ويتضح ما طرأ على غرامه من فتور من هذه الفقرة الفريدة فى اعترافاته :

« لم أستطع أن أعلم ، دون ألم ، أنها تعيش فى مودة أوثق مع شخص غيرى . . . ومع ذلك فبدلا من أن أشعر بأى كراهية للشخص الذى تفوق على على هذا النحو وجدت الود الذى أكنه لها يمتد فعلا إليه ، فلقد تمنيت لها السعادة فوق كل شىء وإذ كان معنياً بخطتها التى توسلت بها للسعادة ، فقد رضيت له السعادة هو أيضاً واعتنق خلال ذلك أفكار خليلته تماماً وشعر بصداقة مخلصة لى . . . وهكذا عشنا فى وحدة أسعدتنا جميعاً ، وحدة لايقوى على فصم عراها غير الموت . ومما يدل على سمو خلق هذه المرأة الودود أن كل الذين أحبوها أحبوا بعضهم بعضاً ، فحتى الغيرة والتنافس أذعنا للعاطفة الأقوى التى ألهمتهم أياها وما رأيت قط واحداً ممن أحاطوا بها يضمر أقل حقد للآخرين . فليتوقف القارىء هنيه عند هذا المديح ، وإذا استطاع أن يتذكر أى أمرأة أخرى تستحقه فليرتبط بها أن أراد لنفسه السعادة (٣٧).

أما الخطوة التالية فى هذه الرواية الغرامية المتعدده الأطراف فكانت هى

أيضاً نقيضاً لكل قواعد الزنا . ذلك أن مدام دفاران حين أدركت أن جارة لها تدعى المدام دمانتون تتطلع إلى أن تكون أول من يعلم جان — جاك فنون الغرام ، عرضت نفسها عليه خليلة دون أن يكون فى هذا الوضع إضرار بخدماتها المماثلة لآنية ، إما لأنها أبت أن تسلم بالتفوق لجارتها وإما لأنها أرادت أن تحمى الفتى من ذراعين أقل حنانا من ذراعيها وأنفق جان — جاك ثمانية أيام يدير الأمر فى رأسه ، فقد كان من أثر طول ألفته بها أن أفكاره عنها كانت بنوية أكثر منها شهوانية . يقول « لقد أحببتها حبا منعنى من أن اشتهيها[٣٨] » وكان آنئذ يعانى من الأمراض التى قدر لها أن تطارده حتى النهاية ، وهى التهاب المثانة وضيق مجرى البول. وأخيرا ، وبكل الحياء المنتظر منه ، ارتضى العمل باقتراحها . يقول :

« واخيرا جاء اليوم الذى كنت أخشاه أكثر مما أتوق إليه . . . . فلقد كان قلبى يحبذ غرامياتى دون أن يشتهى الجائزه . ولكنى حصلت عليها رغم ذلك . ورأيتنى لأول مرة بين ذراعى امرأة ، وامرأة أعبدها . أكنت سعيدا ؟ لا لقد ذقت اللذة ، ولكنى لا أدرى أى حزن طاغ سمم هذه التعويذه فلقد شعرت كأنى أقترف سفاح المحارم . وبينما كنت أضمها بين ذراعى فى نشوة الفرح اغرقت صدرها مرتين أو ثلاثا بدموعى . أما هى فلم تكن بالحزينة ولا بالفرحة ، بل كانت هادئة وهى تعانقنى وتقبلنى ولم تستشعر أى إنتشاء ، ولا أحست بالندم قط ، لأنها لم تكن شهوانية على الأطلاق ، ولم تكن تبحث عن اللذة بتاتا[٣٩] .

وقد عزا روسو إلى سم الفلسفة مناورات هذه السيدة وهـــو يستحضر ذكرى هذا الحدث البارز فيما بعد . قال :

« أكرر أن كل مشاعرها كانت نتيجة خطئها لا نتيجة شهواتها . فلقد كانت كريمة المولد ، نقية القلب ، نبيلة السلوك ، وكانت رغباتها سوية فاضلة ، وذوقها رقيقا مرهفا . وبدا أنها خلقت لذلك الطهر الرائع — طهر الآداب — الذى أحبته على الدوام ولكنها لم تمارسه قط ، لأنها بدلا من أن تصغى إلى أوامر قلبها اتبعت أوامر عقلها الذى ضللها . . . . ومن

سوء حظها أنها كانت تعتز بالفلسفة ، وكان من أثر المبادىء الخلقية التي استخلصتها من هذه الفلسفة إفساد الفضيلة التي أشار بها قلبها[٤٠] .

ومات آنيه في ١٧٣٤ . واستقال روسو من وظيفته في خدمة ملاحظ الإقليم ، وتولى إدارة أعمال المدام وقد وجدها في حال خطرة من الخلل تشرف على الأفلاس فحصل على بعض المال بتدريس الموسيقى ، وفي ١٧٣٧ آلت إليه ثلاثة آلاف فرنك إستحقت له من ميراث أمه . فأنفق بعضها على الكتب ، وأعطى الباقي لمدام دفاران . ثم لزم الفراش ، فرضته ماماً بحنان . ولما لم يكن لبيتها حديقة فقد استأجرت (١٧٣٦) كوخا في ضاحية يسمى الشارميت هناك « سارت حياتي سيراً هادئا غاية الهدوء » ومع أنه « لم يكن يحب قط أن يصلي في قاعة » فإن الخلاء خارج الكوخ حفزه لشكر الله على جمال الطبيعة وعلى مدام دفاران ، ولطلب البركة الألهية على رباطهما . وكان يومها شديد التعلق باللاهوت الكاثوليكي مع شائبة حزينة من الجانسنية « فكثيرا ما عذبني خوف الجحيم[٤١] » .

وكان يقلقه أكتئاب هو ضرب من الوهم كان رائجا في ذلك العهد . وقد خيل إليه أن هناك ورما في غشاء قريب من قلبه ، فقصد مونبلييه في مركبة البريد : وفي الطريق هدأ من أكتئابه بما زعم أنه تحقيق لوصال بمدام دلارناج (١٧٣٨) وكانت أما لفتاة في الخامسة عشرة . فلما عاد إلى شامبري وجد أن مدام دفاران تجرب علاجا مماثلا ، وأنها اتخذت عشيقا جديداً لها من صانع باروكات شاب يدعى جان فنتسنريد . واحتج روسو؛ فقالت له إنه يسلك كالأطفال ، وأكدت له أن في حبها متسعا لاثنين باسم جان . ولكنه أبي أن « يحط من كرامتها على هذا النحو » ، فاقترح عليها أن يعود إلى وضعه القديم ، فزعمت أنها موافقة ، ولكن أستياءها من تخليه عنها بهذه السرعة أصاب محبتها له بالفتور . وأعتكف في شارميت وأقبل على دراسة الفلسفة .

ولأول مرة (حوالي ١٧٣٨) وعى بنسائم « التنوير » الهابة من باريس وسيريه . فقرأ بعض أعمال نيوتن ، وليبنتز ، وبوب ، وقلب في متاهات

قاموس بيل . ثم عاد إلى درس اللاتينية ، وأحرز فى ذلك بجهده وحده تقدما أكثر مما أحرز من قبل على يد معلميه ووفق إلى أن يقرأ شذرات من فرجل ، وهوراس ، وتاسيتوس ، وترجمة لا تينية لمحاورات افلاطون . وطلع عليه لا بروبير ، وبسكال ، وفنيلون ، وبريفوست ، وفولتير ، وكأنهم رؤيا أدارت رأسه « لم يفتنا شيء مما كتبه فولتير » ؛ والواقع أن كتب فولتير هى التى « أوحت إلى بالرغبة فى أن أتأنق فى الكتابه ، وحملتنى على محاولة تقليد تلوينات ذلك الكاتب الذى فتنت به أي فتنة[٤٢] » وعلى غير وعى منه فقد اللاهوت القديم الذى كان من قبل إطار إفكاره ، شكله وصرامته ، فوجد نفسه يفكر دون رعب فى عشرات الهرطقات التى كانت تبدو له فى شبابه فاضحة شائنه . وحل محل إله الكتاب المقدس إيمان حار يوشك أن يكون مشبوبا هو الإيمان بوحدة الوجود . هناك إله ، نعم ، والحياة بدونه لا معنى لها ولا يطيقها الإنسان ، ولكنه ليس ذلك الإله الخارجى ، المنتقم ، الذى تصوره الناس القساة الجبناء ؛ إنما هو روح الطبيعة ، والطبيعة فى صميمها جميلة ، والطبيعة البشرية فى أساسها خيره . وعلى هذا الإيمان ، وعلى بسكال ، سيقيم روسو فلسفته .

وفى ١٧٤٠ وجدت له مدام دفاران وظيفة معلم خاص لولدى المسيو بونو دمابليه ، رئيس بلدية ليون وافترق عنها دون لوم ولا عتاب من أحد الطرفين ، وأعدت له ثياب الرحلة ، وخاطت لها بعض الملابس بيديها اللتين كانتا فتنة له يوما ما .



٤ — ليون والبندقية وباريس : ١٧٤٠ — ٤٩

كانت أسرة مابليه حافزا فكريا جديداً لروسو . وكان رئيس البلدية أكبر إخوة ثلاثة نابهين ، أحدهم جابرييل بونو دمابليه الذى اقترب من الشيوعية ، والآخر هو الأبيه إتيين بونو دكوندياك ، الذى أوشك أن يكون ماديا . وقد التقى روسو بثلاثتهم . وبالطبع وقع فى غرام مدام دمابليه ، ولكنها كانت من السماحة بحيث لم تعر الأمر أهمية . واضطر جان — جاك أن ينصرف إلى مهمته ، وهى تعليم ولديها . فأعد للسيد دمابليه بيانا بأفكاره التربوية ، وكانت فى بعضها تتفق والمبادىء التحررية التى ستعرض عرضا رومانسيا ممتازا فى كتابه « إميل » بعد اثنين وعشرين عاماً ، وفى بعضها تناقض رفضه اللاحق لـ « الحضارة » ، لأنها اعترفت بقيمة الفنون والعلوم فى تطوير النوع الإنسانى . وكان يلتقى مراراً برجال كالأستاذ بورد عضو أكاديمية ليون (وكان صديقاً لفولتير) ، فتشرب قدرا أكبر من «التنوير»، وتعلم أن يهزأ بالجهل والخرافة الشائعين بين الجماهير . ولكنه ظل طوال حياته مراهقا . فذات يوم رأى شابة عارية تماماً إذ اختلس النظر إليها وهى تستحم فى الحمامات العامة ، وتوقف قلبه عن النبض ، فلما خلا إلى نفسه فى حجرته وجه إليها خطابا جريئا غفلا من التوقيع قال فيه :

« لا أكاد أجرؤ على الاعتراف لك يا آنسة بالظروف التى أدين لها بسعادة رؤيتى أياك وعذاب حبى لك . فقد فتننى فيك ما هـو أكثر من ذلك الجسد النحيل اللطيف الذى لا ينتقص العرى من جماله ، وذلك القوام الأنيق ، وتلك الخطوط الرشيقه . . . ما هـو أكثر من نضارة الزنبق المنثور على شخصك بهذا السخاء الكثير . . . أنها حمرة الخجل الناعمة التى رأيتها تكسو جبينك حين أسفرت عن وجودى لعينيك بعد أن جردتك بخبث شديد — بغناء بيتين من الشعر[٤٣] .

وكان الآن قد شب إلى السن التى تغريه بعشق الصبايا ، فكادت كل

فتاة حسنة الطلعة تثير أشواقه وأحلامه ، ولكنه تعلق على الأخص بسوزان سير . « مرة — واأسفاه ، مرة واحدة فقط فى حياتى ؟ لمس فمى فمها . إيه أيتها الذكرى ؟ هل أفقدك فى القبر ؟ » وبدأ يفكر فى الزواج منها ، ولكنه اعترف لها قائلا « ليس لدى ما أقدمه لك سوى قلبي [٤٤] » ولما لم يكن قلبه عملة قانونية ، فإن سوزان قبلت يد غـيره ، وانكفأ روسو إلى إحلامه من جديد .

إنه لم يخلق ليكون عاشقا ناجحا ولا معلما كفئا .

« كان لدى من المعرفه القدر اللازم تقريبا لمدرس خاص . . . وبدا أن رقة طبعى الفطرية تهيئنى لهـذا العمل ، لولا أن تعجل الأمور اختلط بهذا الطبع فإذا سارت الأمور رخاء ورأيت أن الجهود التى لم أضن بها أثمرت كنت ملاكا ، إما إذا اخفقت فقد كنت أنقلب شيطانا . فإذا لم يفهمنى تلميذاى تعجلت الشرح ، وإذا أظهرا أى أمارات على الطبع المشاكس كان ذلك يستفزنى استفزازا يكاد يحملنى على قتلهما . . . . وصممت على تركهما بعد أن اقتنعت بأننى لن انجح إبدا فى تعليمهما التعليم الصحيح : وتبين المسيو دمابليه هـذا بالوضوح الذى تبينته به وأن كنت ميالا إلى الاعتقاد بأنه ما كان ليطردنى قط لولا أننى أعفيته من هذا العناء » .

وهكذا أستقل مركبة البريد قافلا إلى شامبرى بعد أن أستقال وهو حزين ، أو طرد طرداً كريما . والتمس العزاء من جديد بين ذراعى ماماً : فاستقبلته هى فى تلطف وأفسحت له مكاناً على ما ثدتها مـع عشيقها : ولكنه لم يكن سعيدا فى هذا الموقف ، فاغرق نفسه فى الكتب والموسيقى ، وابتكر طريقة للتدوين الموسيقى تستخدم الأرقام بدلا من الرموز . ولمـا عزم على الذهاب إلى باريس وعرض اختراعة على أكاديمية العلوم أثنى الجميع على قراره . وفى يوليو ١٧٤٢ عاد إلى ليون ملتمسا خطابات تقدم إلى الأعيان فى العاصمه . وأعطاه آل مابليه خطابات إلى فونتنيل

والكونت دكايلوس "وقدمه بورد إلى الدوق درشليو . ومن ليون أستقل المركبة العامة إلى باريس تداعب رأسه أحلام المجد

وكانت فرنسا آنذاك مشتبكة فى حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠—٤٨) ولكن الحرب كانت تدور رحاها على أرض أجنبيه ، وعليه فقد سارت باريس سيرتها الأولى وواصلت حياة المرح البهى والاضطراب الفكرى ، حياة المسارح الناطقة بمسرحيات راسين ، والصالونات المتألقه بالهرطقات والسخريات ، والأساقفة الذين يقرءون فولتير ، والشحاذين الذين ينافسون البغايا ، والباعة الجوالين الذين ينادون على بضائعهم ، والصناع الذين يبذلون العرق فى سبيل لقمة العيش إلى هذه الدوامة أقبل جان - جاك روسو ، وهو فى الثلاثين من عمره ، فى أغسطس ١٧٤٢ ، وفى كيسه من المال خمسة عشر جنيها . واستأجر حجرة فى فندق سان - كنتان بشارع الكوردلييه قرب السوربون — « شارع حقير وفندق تعس ، وحجرة بائسه (٤٦) » وفى ٢٢ أغسطس قدم إلى الأكاديمية « مشروعا عن علامات جديدة للتدوين الموسيقى » . ورفض العلماء مشروعه فى مجاملة لطيفة . وشرح له رامو رأيهم قائلا « أن علاماتك حسنه جدا . . . ولكن عليها إعتراضا ، هو أنها تحتاج إلى إعمال الذهن ، وهو أمر لا يمكن دائما أن يرافق سرعة التنفيذ . أما موضع علاماتنا فيصور للعين دون تزامن مع هذه العملية » واعترف روسو بأن الأعتراض لا يمكن التغلب عليه (٤٧) .

وأتاحت له خطابات التقديم التى إتخذها معه خلال ذلك الاتصال بفونتنيل الذى كان وهو فى عامه الخامس والثمانين أحرص على طاقته من أن يأخذ روسو مأخذ الجد ، والاتصال بماريفو الذى قرأ مخطوطة مسرحية روسو الهزلية « نارسيس » واقترح أن يدخل عليها تحسينات ، وذلك رغم إنشغاله بنجاحه روائيا وكاتبا مسرحيا وقابل الوافد الجديد ديدرو ، الذى لم يكن بعد قد نشر أى مؤلف يؤبه به ، وكان يومها يصغر جان — جاك بعام واحد .

« كان ولوعا بالموسيقى ، يعرفها نظريا . . . وقد حدثنى بعض

مشروعاته الأدبية . . . وسرعان ما وثق هذا بيننا صلة دامت خمسة عشر عاماً ،وأغلب ظني أنها كانت ستدوم إلى اليوم لولا أننا لسوء الحظ... أبناء حرفة واحدة »[٤٨] .

وكان يصاحب ديدرو إلى المسرح أويلاعبه الشطرنج ، والتقى روسو فى تلك اللعبة بفيليدرو وغيره من مهرة لاعبيها ، و« لم يكن عندى شك فى أننى فى النهاية سأتفوق عليهم جميعاً».[٤٩] ووجد سبيله إلى بيت مدام دوبان وصالونها ، وكانت ابنة المصرفى صموئيل برنار ، وعقد صداقة مع ابن زوجها كلود دوبان دفرانكوى وخلال ذلك أوشكت نقوده على النضوب .

وبدأ يبحث من حوله عن عمل يستكمل به جهود أصدقائه فى إطعامه . فعرضت عليه بنفوذ مدام بزنفال وظيفة سكرتير للسفارة الفرنسية فى البندقية . وبعد أن قطع رحلة طويلة محفوفة بالخطر بسبب الحرب ، وصل إليها فى ربيع ١٧٤٣ وقدم نفسه إلى السفير الكونت دمونتاجو . ويؤكد لنا روسو أن هذا الكونت كان أمياً تقريباً ، وكان على السكرتير أن يفك شفرة الوثائق وأن يحررها ، وكان يقدم رسائل الحكومة الفرنسية إلى مجلس شيوخ البندقية بشخصه لأنه لم ينس الإيطالية التى كان قد تعلمها فى تورين وكان فخوراً بمنصبه الجديد ، وشكا من أن مركباً تجارياً زاره لم يطلق المدافع تحية له مع أن هذه « التحية نالها من هم أقل شأناً » .[٥٠] وتشاجر الرئيس والمرؤوس على أيهما يظفر بالرسوم التى تدفع نظير استخراج السكرتير لجوازات السفر إلى فرنسا . وقد صلحت حال روسو بفضل نصيبه من هذه الرسوم ، فتناول الطعام الطيب على غير العادة ، واختلف إلى المسرح والأوبرا ، ووقع فى غرام الموسيقى الإيطالية والفتيات الإيطاليات .

وذات يوم زار مومساً تسمى لابدوانا « لكيلا أبدو شديد البلاهة أمام رفاقى » وطلب إليها أن تغنى فغنت ، فنقدها دوكاتيه وهم بالإنصراف ، ولكنها رفضت أن تأخذ قطعة النقود دون أن تكون قد بذلت فى نيلها

جهداً . فأرضاها ، وعاد إلى مسكنه « مقتنعا كل الاقتناع بأنى سأتجرع عواقب هذه الفعله ، فكان أول شىء فعلته أننى استدعيت جراح الملك لألتمس منه الدواء « ولكن الطبيب » أقنعنى بأن فى خلقى ما يجعلنى لاأقبل العدوى بسهولة » [٥١] وبعد فترة أقام له أصدقاؤه حفلة يثاب فيها بجائزة هى الغانية الجميلة زوليتا فدعته إلى حجرتها وخلعت ثيابها . « وفجأة ، بدلا من أن اضطرم بنار الشهوة أحسست ببرودة قاتله تسرى فى عروقى ، وباشمئزاز ينفذ إلى أعماقى ، فجلست وانخرطت فى البكاء كالأطفال » . وقد علل عجزه هذا فيما بعد بأن أحد ثديى المرأة كان مشوها . أما زوليتا فقد انقلبت عليه هازئة وقالت له « دع النساء وشأنهن . وانصرف إلى درس الرياضة » [٥٢].

وأوقف المسيو دمونتاجو صرف راتب روسو لأن راتبه هو كان متأخراً . فعادا إلى الشجار ، ورفت السكرتير (١٧٤٤) وشكا روسو إلى أصحابه فى باريس وأرسل استفسار إلى السفير فأجاب « يجب أن أبلغكم كم كنا مخدوعين فى السيد روسو . ذلك أن حدة طبعه ووقاحته الناجمين عن شدة اعتداده بنفسه . وعن جنونه . هما اللذان أفضيا به إلى الحال الذى وجدناه عليه . لذلك طردته كما يطرد خادم سىء » [٥٣] وقفل جان — جاك إلى باريس (١١ أكتوبر) وطرح على الموظفين المختصين فى الحكومة وجهة نظره فى النزاع فلم ينصفوه . فلجأ إلى مدام دبزنفال . ولكنها رفضت أن تستقبله . فأرسل إليها خطابا عنيفاً نستطيع أن نحس فيه لفحات الثورة الفرنسية البعيدة :

« كنت مخطئاً يا سيدتى . فقد ظننتك منصفة فإذا بك « نبيلة » فقط ، وكان يجب على أن أذكر هذا وأن أدرك أنه لا يليق بى — وأنا رجل غريب أنتمى إلى طبقة العامة — أن أشكر أحد السادة . ولو أن قدرى رمانى ثانية فى قبضة سفير بهذا الخلق لكابدت آلامى دون شكوى . فإذا كان مفتقراً إلى الإحساس بالكرامة ، ينقصه سمو النفس ، فذلك لأن النبالة فى غنى عن هذا كله ، وإذا اقترن بكل ما هو حقير دنىء فى بلد من أشـد بلاد الله

فسادا ، فذلك لأن أجداده خلقوا له من الشرف ما يكفيه ؛ وإذا عاشر الأوغاد ، أو كان هو نفسه وغدا ، وإذا أكل على خادم أجره ، إذن ياسيدتى فلن أخلص إلا إلى هذا الرأى ، وهو أن من حسن حظ المرء إلا يكون وليد افعاله هو . فهولاء الاجداد — من كانوا ؟ أشخاص لا شهرة لهم ، ولا مال ، نظرائى ، كان لهم موهبة من نوع ما ، وبنوا لأنفسهم سمعة ، ولكن الطبيعة التى تبذر بذرة الخير والشر ، اعطتهم نسلا حقيرا[٥٤] » .

ثم إضاف روسو فى « الإعترافات » :

« لقد خلفت عدالة شكاواى وعدم جدواها فى ذهنى بذور السخط على نظمنا الاجتماعية الحمقاء التى تضحى فيها دائماً رفاهية الشعب والعدل الحقيق فى سبيل مظهر للنظام ما أنزل الله به من سلطان ، لا ثمرة له إلا أنه يضيف موافقة السلطة العامة إلى ظلم الضعفاء وبغى الأقوياء[٥٥] .

ولما عاد مونتاجو إلى باريس أرسل إلى روسو « بعض المال تسوية لحسابى . . . وتسلمت ما أعطانى وسددت كل ديونى ، وعدت يا مولاى كما خلقتنى . » واستقر ثانية فى فندق سان — كنتان وارتزق بنسخ مدونات الموسيقى . ولما سمع النبيل الذى كان يحمل آنئذ لقب دوق أوليان بفقره أعطاه كراسات موسيقى لينسخها مشفوعة بخمسين جنيها ذهبيا ، فاحتجز روسو منها خمسة ورد الباقى لأنه يزيد على حقه . [٥٦]

وكان ما يكسبه أقل كثيراً مما يتيح له أن يعول زوجة ، ولكنه رأى أن فى استطاعته أن يعول خليلة إذا أحكم التدبير وكان من بين من يؤاكلونه فى فندق سان — كنتان صاحبة الفندق ، وبعض الآباء الدينيين المفلسين ، وشابة تخدم الفندق غسالة أو خياطة . وكان فى هذه المرأة ، وإسمها تريز لفاسير ، ما فى جان — جاك من إحجام وتردد ، ووعى بالفقر وأن لم تكن فخوره بفقرها مثله . وكان يدافع عنها إذا عاكسها الآباء . وانتهى بها الأمر إلى أن ترى فيه حاميها ، وسرعان ما وجد الواحد منهما سبيله إلى حضن صاحبه (١٧٤٦) وبدأت إصارحها بأنى لن أتخلى عنها ولن أتزوجها[٥٧] » .
وإعترفت بأنها ليست عذراء ، ولكنها أكدت له أنها لم تأثم غير مرة واحدة ،

وكان ذلك منذ أمد بعيد . فصفح عنها صفحاً جميلا ، مؤكداً لها أن عذراء العشرين مخلوق نادر الوجود فى باريس على أى حال .

وكانت مخلوقة بسيطة لا سحر فيها ولا دلال ، لا تستطيع الكلام فى الفلسفه أو السياسة كنساء الصالونات ، ولكنها تعرف كيف تطهو ، وتدبر شئون البيت وتحتمل فى صبر نزواته وعاداته الغريبة . وكان يتكلم عنها عادة باعتبارها « مدبرة البيت » أما هى فتقول عنه « رجلى » وندر أن اصطحبها فى زياراته لا صدقائه ، لأنها ظلت على الدوام مراهقة ذهنيا ، كما ظل هو على الدوام مراهقا خلقيا .

« حاولت أول الأمر أن أصلح عقلها ، ولكن جهودى ذهبت أدراج الرياح . ذلك أن عقلها بقى على ما فطرته الطبيعة ، فهو لا يقبل التثقيف . ولا يخجلنى أن أعترف أنها لم تعرف قط كيف تقرأ جيداً ، وإن كانت تكتب كتابة لا بأس بها . . ولم تستطع قط أن تتلو شهور السنة بالترتيب ، أو تميز بين عدد وآخر رغم ما بذلت من عناء فى محاولة تعليمها . وهى لا تعرف كيف تعد النقود ، ولا تحسب ثمن أى شىء فإذا تكلمت كانت الكلمة التى تخطر لها هى فى احيان كثيرة عكس الكلمة التى تقصدها . وقد صنفت فيما مضى قاموسا بعباراتها لأروح به عن المسيو دلكمسبورج ، وكثيراً ما ذاع أمر اغلاطها بين اخص اصحابى[٨٥] » .

فلما حملت « أرتبك أشد إرتباك » فماذا هو صانع بالأطفال ؟ وأكد له بعض اصحابه أنه من المألوف إرسال الأطفال غير المرغوب فيهم إلى ملجأ للقطاء . فلما ولد الطفل فعل هذا رغم احتجاجات تريز ، ولكن بتعاون أمها (١٧٤٧) وخلال الاعوام الثانية التالية ولد له أربعة أطفال تصرف فيهم على هذا النحو . وقد ألمع بعض الشكاك إلى أن روسو لم يرزق اطفالا ، وأنه اخترع هذه القصة ليخفى عجزه الجنسى ، ولكن كثرة دفاعه عن تنصله هذا من المسئولية تجعل هذه النظرية بعيدة الاحتمال . وقد اعترف سراً بتصرفه فى هذا الأمر لديدرو ، وجريم ، ومدام دبينيه[٥٩] ؛ واعترف به ضمنا فى كتابه « إميل » ؛ واستشاط غضبا على فولتير لأنه أذاع خبره ، ثم أقر به صراحة فى كتابه « الاعترافات » واعرب عن ندمه . إنه لم يخلق للحياة العائلية ، لأنه كان حزمة مرهفة من

الأعصاب ، وجواباً شريداً فى الجسد والروح . وكان يعوزه ذلك الأهتمام بالأطفال الذى يجعل الأب صاحبا رزينا ، ولم تكتمل رجولته قط .

فى نحو هذه الفترة اسعده الحظ بأن يجد وظيفة مريحة . فقد أشتغل سكرتيراً لمدام دوبان ، ثم لأبن أخيها . وحين أصبح دوبان دفرانكوى أمينا عاما للصندوق رقى روسو صرافا براتب ألف فرنك فى السنة . واتخذ الآن الضفيرة الذهبية ، والجوارب البيض ، والباروكة ، والسيف ، وكلها شارات حاكى بها الأدباء ثياب الطبقة الارستقراطية ليجدوا طريقهم إلى بيوت النبلاء[٦٠] . وفى وسعنا أن نتصور ضيقه بشخصيته المنقسمه على ذاتها . وقد أستقبل فى عدة صالونات وصنع أصدقاء جدد ، منهم رينال ، وما رمونيتل ، ودوكلو ، ومدام دينيه ، ثم فريدرش ملشيور جريم ، الذى ارتبط به ارتباطاً حميما جداً ومؤذيا جداً . واختلف إلى حفلات العشاء المثيرة فى بيت البارون دولباخ حيث كان ديدرو يقتل الآلهة بسلاح سماه خصومه فلك خمار . فى وكر الملحدين ذاك ذاب وتلاشى جل كتلكة جان — جاك .

وألف الموسيقى خلال ذلك . وكان قد بدأ فى ١٧٤٣ مزيجا من الأوبرآ والباليه سماه « ربات الفنون الرشيقات » يحيي به غراميات أناكربون ، وأوفيد ، وتاسو ، وأخرجت الاوبرا فى ١٧٤٥ محدثة بعض الضجة فى بيت جابى الضرائب لابولفير ، وقد سخر منها رامو وزعم إنها محاكاة لانتحالات من الملحنين الإيطاليين ، ولكن الدوق رشليو أعجب بها وعهد إلى روسو بتنقيح أوبرا وباليه تسمى « أعياد رامير » أعدها رامو وفولتير على سبيل التجربة . وفى ١١ ديسمبر ١٧٤٥ كتب روسو أول رساله لأمير أدباء فرنسا :

« لقد ظللت خمسة عشر عاماً أكد وأكدح لأجعل نفسى جديرا باحترامك وبالعطف الذى تحبو به شباب الإدباء الذين تكتشف فيهم الموهبة . ولكنى بفضل كتابتى موسيقى أحدى الأوبرات أجدنى قد انقلبت موسيقيا . وأيا كان النجاح الذى تحققه جهودى الضعيفة فإنها ستكون فى نظرى جهودا

رائعه لوكسبت لى شرف معرفتك أياى ، والأعراب عن الأعجاب والاحترام العميق اللذين يشرفنى أن يكنهما لك خادمك المتواضع المطيع جداً[٦١] » .

وأجاب فولتير : « سيدى ، إنك تجمع فى شخصك موهبتين وجدتا على الدوام منفصلتين حتى الآن ، فهذا مبرران طيبان يحملانى على تقديرك ومحبتك » .

وبهذين الخطابين من خطابات الحب بدأت خصومتهما الشهيرة .

٥ — هل الحضارة مرض ؟

فى عام ١٧٤٩ سجن ديدرو فى فانسين عقابا له على فقرات مهينة فى كتابه « رسائل عن المكفوفين » وكتب روسو إلى مدام دبومبادور يلتمس الأفراج عن صديقه أو الإذن له بأن يشاركه سجنه . وخلال ذلك الصيف قام غير مرة برحلة دائرية طولها عشرة أميال بين باريس وفانسين ليزور ديدرو . وفى واحدة منها أخذ نسخة من مجلة المركير دفرانس ليقرأ اثناء سيره . وهكذا وقع على الإعلان عن جائزة تقدمها أكاديمية دجون لأفضل مقال يجيب عن هذا السؤال « هل أعان إحياء العلوم والآداب والفنون على إفساد الإخلاق أم على تطهيرها ؟ » وأغراه الإعلان بدخول المسابقة ، فهو الآن فى السابعة والثلاثين ، وقد آن الأوان ليحقق لنفسه الشهرة . ولكن هل بلغ من الإحاطة بالعلم أو الفن أو التاريخ مبلغا يكفى لمناقشة مثل هـذه الموضوعات دون أن يفضح ما فى تعليمه من قصور ؟ وقد وصف فى خطاب كتبه إلى مالزيرب فى ١٢ مايو ١٧٦٢ بحماسته العاطفية المتميزة تلك الرؤيا التى تراءت له أثناء هذه المسيرة . قال :

« وفجأة أحسست أن مئات الأضواء المتلالئة تخطف بصرى . وتزاحمت حشود من الخواطر النابضة بالحياة فى ذهنى بقوة وأختلاط جعلانى أضطرب أضطراباً لا يوصف واحسست برأسى يدوّم فى دوار كأننى مخمور ؛ وضاق

صدری بخفقان عنیف . فلما عجزت عن السير لصعوبة التنفس أرتميت تحت شجرة على الطريق وقضيت نصف ساعة فى حال من الأنفعال الشديد حتى أننى حين قمت وجدت مقدمة صدريتى كلها مبللة بالدموع . . أواه ، لو أتيح لى أن أكتب ولو ربع ما رأيت وأحسست تحت تلك الشجرة ، فبأى وضوح كنت أميط اللثام عن كل تناقضات نظامنا الاجتماعى ! بأى بساطة كنت أبين أن الإنسان بفطرته خير ، وأن نظمنا هى التى جعلته شريراً(٦٢) » .

وهذه العبارة الأخيره ستكون نشيد حياته المتردد ، وتلك الدموع التى تدفقت على صدريته كانت منبعاً من المنابع العليا التى أنبثقت منها الحركة الرومانسية فى فرنسا وألمانيا . لقد كان فى وسعه الآن أن يسكب قلبه فى هجوم على كل تكلف باريس وتصنعها ، وفساد أخلاقها ، وزيف سلوكها المصقول ، وأباحية أدبها ، وشهوانية فنها ، وتعالى طبقيتها ، وسفه أغنيائها الغليظ الذى تموله أبتزازاتهم من الفقراء ، وجفاف الروح لحلول العلم محل الدين ، والمنطق محل الوجدان . إنه بإعلانه الحرب على هذا الانحلال يستطيع أن يبرر بساطة ثقافته ، وعاداته الريفية ، وقلقه وضيقه فى المجتمع ، ونفوره من حيث القيل والقال ، ومن الفكاهة التى تجردت من الاحترام ، ويبرر احتفاظه المتحدى بإيمانه الدينى وسط إلحاد أصحابه . لقد عاد فى أعماق نفسه كلفنيا كما كان ، وذكر بشىء من الحنين تلك العفة التى لقنها فى صباه . إنه بدخوله مسابقة ديجون سيرفع وطنه جنيف فوق باريس ، وسيشرح لنفسه ولغيره لم كان سعيداً فى ليشارميت ، وشقياً غاية الشقاء فى صالونات باريس ؟

فلما وصل إلى فانسين كاشف ديدرو بنيته فى دخول المسابقة . فهلل ديدرو للفكرة ، وأشار عليه بأن يهاجم حضارة جيلهما بكل ما وسعه من قوة . فلن يجرؤ متسابق آخر على اتخاذ هذا الموقف ، وسيكون موقف روسو فريداً فى بابه(*) وعاد جان — جاك إلى مسكنه وهو يتحرق شوقاً

(*) هناك جدل صغير يبهم القصة فى هذه النقطة . فقد روى ديدرو فى ١٧٨١ زيارة -

لهدم الآداب والعلوم التى كان ديدرو يستعد للإشاده بها فى « الموسوعة أو القاموس العقلانى للعلوم والآداب والحرف : (١٧٥١ وما يليها) وكتبت « المقال » بطريقة فريدة جدا . . . فكرست له ساعات الليل التى جفانى فيها النوم ، وكنت أتأمل فى فراشى وجفناى مغمضتان ، وأدير فى ذهنى المرة بعد المرة عباراتى بعناية واهتمام لا يصدقان . . . وحالما فرغت من المقال دفعته لديدرو فرضى عنه ، وأشار ببعض تصويبات تجب فى رأية إجراؤها . . . وأرسلت المقال دون أن أخبر بأمره أحدا غيره ، اللهم إلا جريم فيما إذكر[٦٥] .

أما أكاديمية ديجون فقد توجت مقاله بالجائزه الأولى (٢٣ أغسطس ١٧٤٠) — وهى مداليه ذهبية وثلاثمائة فرنك ، وإتخذ ديدرو الإجراءات بما عهد فيه من حماسة ، لنشر المقال الذى سمى « مقالا فى الآداب والفنون والعلوم » وسرعان ماكتب إلى المؤلف يبلغه النبأ إن مقالك ساحر إلى حد فاق كل تصور ، فلم يكن لهذا النجاح ضريب على الأطلاق[٦٦] . وكأنى بباريس وقد أدركت أنه هاهنا ، فى قلب حركة التنوير تماماً ، قام رجل يتحدى عصر العقل ، ويتحداه بصوت سيصغى إليه العالم .

أما المقال فقد بدا فى استهلاله مشيدا بانتصارات عصره :

« أنه لمشهد جليل جميل أن نرى الإنسان يرفع نفسه — إن جاز هذا التعبير — من العدم بجهوده هو ؛ فيبدد بنور العقل كل السحب الكثيفة التى أكتنفته بالطبعة فسما فوق نفسه ، وحلق بالفكر إلى أجواز الفضاء ،

= روسو له بطريقة يمكن التوفيق بينها وبين رواية روسو . قال : حين جاءنى روسو يستشيرنى فى الموقف الذى ينبغى أن يتخذه قلت له : أن موقفك هو الذى سيرفضه الآخرون ، فقال إنك على حق (٦٣) » وحوالى عام ١٧٩٣ روى مارمونتيل عن ديدرو إنه ثنى روسو عن إتخاذ موقف الموافقة ، فقال له روسو سأعمل بنصيحتك (٦٤) » .

وأشتمل بخطى عملاقة آفاق الكون الشاسعه كأنه الشمس ؛ وأجل من ذلك وأعجب أنه انكفأ إلى نفسه ليدرس الإنسان ويصل إلى معرفة فطرته وواجباته وهدفه . . كل هــذه المعجزات رأيناها تجدد خلال الأجيال القليلة الأخيره[٦٧] » .

ولابد أن فولتير جاد بابتسامة الرضى عن فرحة هذا الأستهلال ، فهاهنا تلميذ جديد لجماعة « الفلاسفة » ؛ وللرفاق الطيبين الذين سيقضون على الخرافة « والعار » ؛ ثم ألم يكن لوشنقار الفتى هــذا مساهما فى الموسوعة فعلا ؟ ولكن ما إن جاءت الصفحة التالية حتى إتخذت المناقشة وجهة مؤسفة . فقال روسو أن تقدم المعرفة هذا كله جعل الحكومات أعظم سطوة ، فسحقت حرية الفرد وإستبدلت بالفضائل البسيطه والكلام الصريح لعهد أكثر خشونه وبدائية ، نفاق اللباقة الاجتماعية .

« لقد أقصيت من بين الناس الصداقة المخلصة ، والاحترام الحقيقى ، والثقة الكاملةوتسترت الغيرة والريبة، والخوف ، وبرودة العاطفة،والتحفظ والكراهية، والغش ، دائماً وراء ذلك القناع الواحد الخدّاع ، قناع التأدب، والصراحة والكياسة اللتين يتباهى بها الناس ، ذلك القناع الذى ندين به لنور عصرنا وقيادته . . فلتطالب الآداب والفنون والعلوم بنصيبها الذى أسهمت به فى هذا العمل المفيد »[٦٨].

ويكاد فساد الفضائل والأخلاق نتيجة لتقدم المعرفة والفن أن يكون قانونا من قوانين التاريخ « لقدغدت مصر أم الفلسفة والفنون الجميلة،وسرعان ماغزاها الغزاة ». [٦٩] أما اليونان التى كان يسكنها الأبطال يوما ما فقد قهرت آسيا مرتين ، وكانت « الآداب» يومها فى المهد ، ولم تكن فضائل اسبرطة قد حلت محلها — مثلا إغريقياً أعلى — تلك الثقافة الأثينية المهذبة،وسفسطة السفطائيين ، وتماثل براكسيتيلبس الشهوانية ؛ فلما بلغت تلك « الحضارة » أوجها ، أطاح بها قليب المقدونى بضربةواحدة،ثم قبلتنير روما فىاستكانة. أما روما فقد غزت عالم البحر المتوسط كله يوم كانت أمــة من الفلاحين

والجند ، متمرسة بنظام صارم ، فلما أسلمت نفسها للذات الأبيقورية ، وأشادت ببذاءات أوفيد وكاتللوس ، ومارتيال ، باتت مرتعاً للرذيلة » وهزؤا بين الأمم ، وهدفاً لاحتقار الشعوب حتى الهمج منها (٧٠). وحين عادت روما إلى الحياة فى حركة النهضة الأوربية ، عادت الفنون والآداب تنخر فى عافية المحكومين والحاكمين ، وخلفت إيطاليا أوهى من أن تثبت للهجوم . فأخضع شارل الثامن ملك فرنسا توسكانيا ونابلى دون أن يمتشق حساما تقريباً ، وعزت حاشيته كلها هذا النجاح غير المتوقع إلى انصراف أمراء إيطاليا ونبلائها باهتمام أعظم إلى تثقيف عقولهم دون الاهتمامات النشيطة والأعمال العسكرية (٧١) » .

والأدب ذاته عنصر من عناصر الفناء :

« يحكى أن الخليفة عمر حين سئل فى أمر مكتبة الاسكندرية وما يفعله بها أجاب : «وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها مايوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها » وقد ساق أدباؤنا هذا الأسلوب فى التفكير على أنه بلغ غاية السخف ، ولكن لو أن البابا جريجورى الأكبر كان فى مكان عمر ، والإنجيل فى مكان القرآن ، لأحرقت المكتبة رغم ذلك ، ولربما عد هذا أروع عمل قام به فى حياته »(٧٢).

أنظر إلى تأثير الفلسفة الممزق فبعض « محبى الحكمة » هؤلاء يخبروننا بأنه ليس هناك شيء اسمه المادة ، وغيرهم يؤكدون لنا أنه لا وجود لشيء إلا للمادة وليس إله آخر غير الكون ذاته ؛ وفريق ثالث يعلن أن الفضيلة والرذيله ليستا سوى اسمين ، وأنه لا اعتبار لشيء إلا للقوة والمهارة فهؤلاء الفلاسفة « يقوضون أسس إيماننا ويحطمون الفضيلة . إنهم يسخرون من الكلمات القديمة التى نستعملها مثل « الوطنية» و «الدين » ويكرسون مواهبهم لهدم وتشوية كل مانقدسه غاية التقديس (٧٣) . ومثل هذا الهراء ما كان ليعمر فى العصور القديمة بعد موت صاحبه ، أما الآن فبفضل الطباعة « ستبقى إلى الأبد . تأملات هوبز وسينوزا المؤذية . إذن فاختراع الطباعة كان من أفدح

الكوارث فى تاريخ الإنسانية ، ومن السهل أن نرى أن الملوك فى المستقبل سيحرصون على اقصاء هذا الفن الرهيب عن ممالكهم حرصهم من قبل على تشجيعه » (٧٤).

ولنلاحظ ماأوتيت الشعوب التى لم تعرف قط الفلسفة أو العلم أو الأدب من قوة وتفوق؛ الفرس فى عصر كورشن أو الألمان كما وصفهم تاسيتوس ، أو « فى زمانناهذا الأمة البسيطة (سويسرة) التى لم تقو حتى الشدائدو الكوارث على قهر بسالتها المشهورة، والتى لم يستطع أى مثال أن يفسد أمانتها » وأضاف الجنيفى الفخور إلى هذه الشعوب « تلك الأمم السعيدة التى لم تعرف حتى أسماء الكثير من الرزائل التى يصعب القضاء عليها ، متوحشى أمريكا الذين لم يتردد مونتينى فى تفضيل طريقة حكمهم البسيطة الفطرية ، لا على قوانين أفلاطون فحسب ، بل على أكمل الرؤى التى تستطيع الفلسفة أن تستشرفها » (٧٥).

إذن فأى نتيجة ينبغى أن نخلص إليها ؟ هى أن « الترف والإسراف ، والرق ، كانت فى جميـــع الأجيال سوط عذاب سلط على جهود كبريائنا للخروج من حالة الجهالة السعيدة تلك التى وضعتنا فيها حكمة العناية الإلهية . فليتعلم البشر ولو مرة أن الطبيعة كانت تحميهم من العلم ، تماماً كما تخطف الأم سلاحاً خطراً من يدى ولدها » (٧٦) .

والجواب عن سؤال الأكاديمية العالمة هو أن العلم إذا تجرد من الفضيلة كان فخاً ، وإن التقدم الحقيقى الوحيد هو التقدم الخلقى ، وإن رقى العلم قد أفسد أخلاق البشر أكثر مما طهرها ، وإن الحضارة ليست ارتقاء الإنسان إلى وضع أسمى ، بل سقوطه من بساطة ريفية كانت فردوس البراءة والسعادة.

وقبيل ختام المقال كبح روسو جماح قلمه وألقى ببصره فى شىء من الخوف على أشلاء العلم ، والفن ، والأدب ، والفلسفة ، التى خلفها فى إثره وتذكر أن صديقه ديدرو يعد موسوعة كرسها لتقدم العلم . فاكتشف فجأة أن بعض الفلاسفة — كبيكن وديكارت — كانوا « معلمين عظاما » ورأى أن النماذج الحية من هذه السلالة ينبغى أن يرحب بهم حكام الدول مشيرين لهم . ألم يعين

شيشيرون قنصلا لروما ، وأعظم الفلاسفة المحدثين قاضياً لقضاة انجلتره(٧٧)؟ ولعل ديدرو حشر تلك السطور فى المقال ، ولكن جان جاك كان صاحب الكلمة الأخيرة :

« أما نحن البشر العاديين الذين لم تشأ السماء أن تحبونا مواهب عظيمة فلنظل فى جهالتنا . ولنترك لغيرنا مهمة تعليم الناس واجباتهم ، ولننصرف إلى القيام بواجباتنا . أيتها الفضيلة أيتها المعرفة السامية للعقول البسيطة أليست مبادئك منقوشة على كل قلب ؟ وهل نحن فى حاجة ، لكى نتعلم نواميسك إلى أكثر من . . الإصغاء لصوت الضمير ؟ هذه هى الفلسفة الصادقة التى يجب أن نتعلم القناعة بها (٧٨).

ولم تدر باريس أتأخذ هذا المقال مأخذ الجد ، أم تفسره على أنه محاولة ماكرة فى المبالغة والمفارقة كتبها المؤلف بخبث . وقال بعضهم (فيما روى روسو) (٧٩) أنه لم يصدق كلمة واحدة مما كتب . أما ديدرو الذى آمن بالعلم وضاق بقيود العرف والأخلاق فيبدو أنه استحسن مبالغات روسو باعتبارها عقاباً افتقر إليه المجتمع الباريسى . وأما حاشية الملك فقد حبذت المقال باعتباره توبيخاً للفلاسفة السفهاء الهدامين كانوا يستحقونه منذ أمدبعيد.(٨٠) ولابد أن نفوساً حساسة كثيرة ضاقت كهذا الكاتب البليغ بما فى باريس من ثرثرة حمقاء وبريق كاذب . وقد عبر روسو عن مشكلة تظهر فى كل مجتمع متقدم . فهل ثمرات التكنولوجيا تستأهل مافى الحياة المصنعة من عجلة ، وتوترات ، ومناظر ، وضجيج ، وروائح ؟ وهل التوتر يقوض الأخلاق؟ وهل من الحكمة أن نمضى وراء العلم إلى خراب شامل ، ووراء الفلسفة إلى اليأس من كل رجاء مشدد للعزائم ؟ .

وانبرى العديد من النقاد بالدفاع عن الحضارة منهم بورد عضو أكاديمية ليون ، ولا ا عضر أكاديمية روان ، وفورميه عضو أكاديمية برلين ، ولا .س ستانسلاس لسكفنسكى ، الطيب القلب ملك بولندة السابق ودوق اللورين اللاحق . وأشار الأدباء إلى أن هذا الهجاء لم يزد على أن توسع

فى الشكوك التى أعرب عنها مونتينى فى مقاله « عن أكلة لحوم البشر » . وسمع غيرهم فيه صوت بسكال يرتد من العلم إلى الدين ، وبالطبع كان مئات من « اللاهوتيين والقديسين » قد أدانوا الحضارة منذ زمن بعيد باعتبارها مرضاً أو خطيئة . وكان فى وسع اللاهوتيين أن يزعموا أن « براءة » الحالة الطبيعية وسعادتها التى قال بها روسو ، والتى سقط منها الإنسان ، ليست إلا قصة جنة عدن معادة ، فحلت «الحضارة» محل «الخطيئة الأصلية» علة فى سقوط الإنسان ، وفى كلتا الحالتين قضت الرغبة فى المعرفة على سعادة الإنسان . أما المفكرون المعتزون بعلمهم مثل فولتير فقد عجبوا لرحل فى السابعة والثلاثين يكتب هذه المرثية الصبيانية ليهاجم منجزات العلم ، ونعمة السلوك المهذب ، وإلهامات الفن . وإما الفنانون أمثال بوشيه فلعلهم كانوا يتلوون ألما تحت سوط روسو ، ولكن فنانين آخرين مثل شاردان ولا توركان فى وسعهم أن يرموه بالتعميم العشوائى ، وأما الجنود فقد سخروا من إشادة هذا الموسيقار الرقيق بالصفات العسكرية وبالتأهب الدائم للحرب .

واعترض جريم ، صديق روسو ، على أى رجوع إلى « الطبقية » فقال متعجبا «يا له من هراء شيطانى ! : ثم سأل سؤالا شائكاً ، ما الطبقية[٨١]؟ فلقد لاحظ بيل أنه لا تكاد توجد كلمة تستعمل استعمالا أكثر غموضاً من كلمة ... الطبيعة . . . وليس من المؤكد « أنه لأن شيئاً ما مصدره الطبيعة فهو إذن خير وصواب : فنحن نرى فى النوع البشرى أشياء سيئة جداً مع أنه لا يتطرق إلينا شك فى انها من عمل الطبيعة ».[٨٢] ولا ريب أن مفهوم روسو عن الطبيعة البدائية كان تصويراً رومانسيا للطبيعة فى حالتها المثالية ، فالطبيعة (أى الحياة دون تنظيم وحماية اجتماعيين) « حمراء فى الناب والمخلب » وناموسها الأساسى هو : اقتل وإلا قتلت . والطبيعة التى أحبها جان — جاك ؛ كما يتجلى حبه فى قيقيه أو كلارنس كان ضربا متحضرا من الطبيعة ، روضها وهذبها الإنسان . والحق أنه لم يرد أن يرتد إلى الأحوال البدائية بكل ما انطوت عليه من قذارة ، وخطر ، وعنف بدنى ، إنما أراد أن يعود إلى الأسرة الأبوية التى تفلح الأرض وتعيش على ثمارها ، وهفت

نفسه إلى التحرر من قواعد المجتمع المهذب وقيوده — ومن الأسلوب الكلاسيكى ، أسلوب الاعتدال والعقل . وقد أبغض باريس وحن إلى شارميت وقبيل ختام حياته ، فى كتابه « أحلام جوال وحيد » صور هذه الفكرة القاصرة تصويرا مثاليا فقال :

ولدت أكثر الناس ثقة بالناس ، ولم تخذل هذه الثقة ولو مرة واحدة طوال أربعين سنة . فلما وقعت فجأة بين صنف آخر من الأشخاص والأشياء انزلقت إلى مئات الفخاخ ..واقتنعت أنه ليس فى مظهر الابتسامات المتكلفة التى أغدقت على غير الغش والكذب ، فانتقلت بسرعة من النقيض إلى النقيض . . . . وأصبحت أشمئز من الناس ... وأنا لم أعتد قط اعتيادا حقيقيا على المجتمع الحضرى الذى كل ما فيه هم وإكراه والتزام ، والذى يجعلنى استقلالى الفطرى عاجزاً فيه على الدوام عن ألوان الخضوع التى لا مندوحة عنها لكل من يريد العيش بين الناس [٨٣] .

وفى « الاعترافات » سلم فى شجاعة بأن هذا « المقال » الأول (كان مفتقرا الافتقار كله إلى المنطق والنظام وإن زخر بالقوة والحرارة ؛ فهو أضعف ما كتبت إطلاقاً من حيث الحجه ، وأخلاه من الإيقاع والانسجام» [٨٤]

ومع ذلك فقد رد على نقاده بقوة ، وأكد مفارقاته من جديد . ومجاملة لستانسلاس استثنى شيئاً واحدا : فقال أنه بعد الروية قرر إلا تحرق المكتبات أو تغلق الجامعات والأكاديميات . «لأننا لن نجنى من وراء هذا الإغراق أوربا مرةأخرى فى دياجير الهمجية[٨٥] ؛و «حين يفسدالبشر فإن من الخير لهم أن يكونوا متعلمين عن أن يكونوا جهلة» [٨٦] . ولكنه لم يعدل عن أى فقرة من اتهامه للمجتمع الباريسى . ودليلا على انسحابه منه أقلع عن لبس السيف والضفيرة الذهبية والجوارب البيضاء ، وارتدى ما يرتديه رجال الطبقة الوسطى من رداء بسيط وباروكة أصغر . قال مارمونتيل « وهكذا منذ تلك اللحظة اختار الدور الذى سيلعبه ، والقناع الذى سيلبسه .» فإن كان هذا قناعا فإنه أحسن لبسه ، وأصر عليه إصراراً شديداً ، حتى لقد أصبح جزءاً من صميم الرجل وغير وجه التاريخ .

٦ — باريس وجنيف ١٧٥٠ — ٥٤

فى ديسمبر ١٧٥٠ اشتد على روسو مرض المثانة حتى ألزمه الفراش ستة أسابيع وزادته هـــذه المحنة نزوعا إلى الاكتئاب والعزلة ، وأرسل إليه معارفه الأغنيـــاء اطباءهم ليعودوه ، ولكن تطبيب ذلك الزمان لم يؤهلهم لمساعدته « فكلما امتثلت لأوامرهم ازددت شحوبا ونحولا وهزالا . ولم يوح لى خيالى ... على هذا الجانب من القبر ، بغير الآلام المتصلة كابدتها من الرمل والحصاة وحصر البول ، وكان كل ما يخفف من آلام غيرى من المرضى كنقيع الشعير ، والحمامات والفصد — يضاعف من عذابى»(٨٨).

وفى مطلع عام ١٧٥١ انجبت له تريز طفلا ثالثاً تبع أخويه إلى ملجأ اللقطاء . وقد علل هذا فى فترة لاحقة بأنه كان أفقر من أن يربى أطفالا ، وأنه لو وكلهم إلى آل لقاسير لكان فى ذلك بوارهم ، وأنهم كانوا سيعبثون عبثا منكرا بعمله كاتبا وموسيقيا وأكرهه المرض على الاستقالة من وظيفته صرافاً لدويان دفرانكوى رالتخلى عن دخله منها ، وراح منذ الآن يكسب معظم قوته بنسخ كراسات الموسيقى بواقع عشرة سنوات للصفحة . ولم يتلق روسو أى دخل من بيع « المقال » سواء كان السبب اهمال ديدرو أوشح الناشرين وتبين أن موسيقاه اكسب له من فلسفته .

وفى ١٨ اكتوبر ١٧٥٢ ، وبفضل نفوذ دوكلو ، مثلت أوبريت روسو « عراف القرية » أمام الملك والبلاط فى فونتنبلو ، ولقيت من النجاح ما أتاح لها عرضا ثانيا بعد أسبوع وظفرت حفلة للجمهور فى باريس (أول مارس ١٧٥٣) باستحسان أشمل ، ووجد المؤلف المعتكف نفسه مرة أخرى رجلا يشار اليه بالبنان . وكان هذا « الفاصل » الصغير ، الذى ألف روسو كلماته وموسيقاه ، أشبه بالمحن المصاحب « المقال » : فالراعية كوليت ، التى احزنتها مغازلات كولان لفتيات المدينة ، يرشدها عراف القرية إلى استمالته ثانية بمغازلة غيره من الرجال ، فيغار عليها كولان ويعود

البيا ، ثم ينشدان معا أغانى راقصة تشيد بحياة الريف وتذم حياة المدينة . وحضر روسو الحفلة الافتتاحية وكاد يرضى عن المجتمع بعد خصام .

« غير مسموح بالتصفيق أمام الملك . وعليه فقد كان كل شيء مسموعا ، وهذا يخدم المؤلف والتمثيلية . وسمعت من حولى همس النساء اللاتى يبدون فى حسن الملائكة . وكانت الواحدة تقول للأخرى فى صوت خافت : « هذا رائع ، هذا خلاب ، ليس هناك لحن واحد لاينفذ الى الفؤاد » وقد أثار دموعى سرورى بأنى أشعرت هذا العدد الكبير من الأشخاص اللطفاء بهذه العاطفة ، ولم استطع أن أمسكها فى اللحن الثانى الأول حين لاحظت أننى لم أكن الوحيد الذى يبكى ». (٨٩)

فى ذلك المساء بعث اليه الدوق دومون كلمة يطلب اليه الحضور الى القصر فى الساعة الحادية عشرة من صباح الغد ليقدم الى الملك ، وأضاف الرسول أن من المتوقع أن ينفح الملك المؤلف معاشا . ولكن مثانة روسو أفسدت الخطة . يقول :

« أيصدق أحد أن ليلة هذا النهار الرائع كانت لى ليلة عذاب وحيرة ؟ فقد كان أول خاطر لى إننى بعد أن أقدم للملك سأضطر إلى الانسحاب غير مرة وكانت هذه الضرورة قد سببت لى معاناه شديدة فى المسرح : وقد تعذبنى فى الغد وأنا فى البهو أو فى حجرة الملك ، بين جميع العظماء ، منتظرا خروج جلالته . لقد كانت علتى هى السبب الأهم فى الحيلولة بينى وبين الاختلاط بالجماعات الراقية والاستمتاع بحديث الحسان ... ولا يستطيع غير من خبر هذا الموقف أن يحكم بالفزع الذى يوحى به التعرض لخطره (٩٠)

وعليه فقد أرسل كلمة يعتذر من الحضور . وبعد يومين وبخه ديدرو على تضييعه فرصة كهذه تتيح رزقا أنسب له ولتريز » وتحدث عن المعاش بحرارة أكثر مما كنت أتوقع فى موضوع كهذا من فيلسوف .... ومع أننى شكرت له تمنياته الطيبة ، فإننى لم استطع أن أسيغ مبادئه ، الأمر الذى أثار بيننا نقاشا حاميا هو أول ما وقع بيننا من نزاع » (٩١) على أنه لم يحرم كل

وبح من وراء تمثيليته . فقد أعجبت بها مدام ديومبادور إعجابا حملها على أن تمثل هى نفسها دور كوليت فى عرضها الثانى فى البلاط ، وأرسلت له خمسين جنيها ذهبياً ، وأرسل له لويس مائة.[91] وراح الملك نفسه ، « بأنكر صوت فى مملكته يتغنى بلحن كوليت الحزين « لقد فقدت خادمى » — وكان هذا إرهاصا بظهور جلوك .

وكان روسو خلال ذلك يعد مقالات عن الموسيقى للموسوعة « وقد كتبتها فى عجلة شديدة ، وكتابة سيئة لهذا السبب ، فى الشهور الثلاثة التى أتاحها لى ديدرو . وقسا رامو فى نقد هذه المقالات فى كتيب سماه « أخطاء حول الموسيقى فى الموسوعة » (١٧٥٥) وعدل روسو فى المقالات ، وجعلها أساسا لـ « قاموس للموسيقى » (١٧٦٧) واعتبره معاصروه ، باستثناء رامو ، موسيقيا من أعلى طراز [93] وينبغى أن نعده الآن مؤلفاً مجيدا فى فرع صغير من فروع الموسيقى ، ولكنه كان ولاشك أكثر من كتب عن الموسيقى طرافة وامتاعا فى ذلك الجيل .

ولما غزت فرقة من مغنى الأوبرا الإيطالية باريس فى ١٧٥٢ تفجر الجدل حول مزايا كل من الموسيقى الفرنسية والإيطالية . وقفز روسو إلى المعركة بـ « رسالة فى الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) يقول جريم إنه « يثبت فيها إستحالة تلحين الموسيقى فى الفاظ فرنسية ، وأن اللغة الفرنسية لا تصلح إطلاقا للموسيقى ، وإنه لم يكن قط للفرنسيين ولن يكون لهم أبدا موسيقى[94] » . وكان روسو بكليته فى صف إتساق الألحان (الميلوديا) . كتب فى روايته « أحلام جوال وحيد » « يقول « غنينا أغنية قديمة كانت أفضل كثيراً من النشاز الحديث[95] » وأى جيل لم يسمع تلك الشكوى ؟ وفى مقاله « الأوبرا » الذى تضمنه قاموسه الموسيقى أعطانا إلماعا لفاجنر ، فعرف الأوبرا بأنها « مشهد درامى غنائى يحاول الجمع من جديد بين جميع مفاتن الفنون الجميلة فى تمثيل حركة عاطفية مشبوبة . . . ومقومات الأوبرا هى القصيدة الشعرية ، والموسيقى ، والزخرفة : فالشعر يتحدث إلى الروح ،

والموسيقى إلى الأذن ، والصورة إلى العين . . . والدرامات اليونانية كان يمكن أن تسمى أوبرات [٩٦] » .

وحوالى تلك الفتره (١٧٥٢) رسم موريس كنتان دلاتور صورة لروسو بالباستل [٩٧] ، التقط فيها ملامح جان — جاك مبتسما : وسيما ، أنيقا ، وقد أنكر ديدرو الصورة لأنها لا تتفق والحقيقه [٩٨] . ووصف مارمونتيل روسو كما رآه فى تلك السنوات فى حفلات عشاء دولباخ فقال « كان قد ربح لتوه الجائزة . . فى ديجون . . . فيه تأدب يشوبه الإحجام ، قد . . . يبلغ من التواضع مبلغا يقرب من التذلل . ترى عدم الثقه واضحة من خلال تحفظة المشوب بالخوف . وكانت عيناه المطرقتان ترقبان كل شىء بنظرة ملؤها الإرتياب الحزين . وقل أن شارك فى حديث ، وندر أن كشف لنا عن دخيلة نفسة [٩٩] » .

وغدا مركز روسو بعد تنديده بالعلم والفلسفه بهذا العنف حرجا بين جماعة الفلاسفة الذين سيطروا على الصالونات . وكان مقاله قد ألزمه بالدفاع عن الدين . وتروى مدام دينيه أنه فى عشاء دعت إليه مدام كينو ، وجدت المضيفة أن الحديث عن الدين أصبح نابياً ، فرجت ضيوفها « أن يحترموا على الأقل الدين الطبيعى » وبادر بالرد المركيز دسان — لامبر ، الذى كان مؤخراً مزاحما لفولتير على حب مدام دوشاتاليه ، وسيكون عما قليل مزاحما لروسو على حب مدام دوديتو فقال « أنه لا يستحق من الاحترام أكثر من أى دين آخر . » وتواصل مدام دينيه كلامها فتقول.» : فلما سمع روسو هذا الرد غضب وتمتم بكلام أضحك الجماعة عليه . قال « إذا كان من الجبن أن يسمح الإنسان لآخر أن يغتاب صديقاً فإن من الاجرام أن يسمح لأحد بأن يتحدث بسوء عن إلهه الذى هــو حاضر ، وأنا أو من بالله ياساده . . . وإتجهت إلى سان لامبير وقالت له « أنك ياسيدى وأنت شاعر ، ستوافقنى على أن وجود كائن خالد ، كلى السلطان ، عظيم الذكاء ، هو البذرة لأروع ضروب الحماسة » . فأجاب « اعترف بأنه جميل أن نرى هذا الإله يوجه وجهه إلى الأرض ، . . . ولكنها بذرة

الحماقات »، وقاطعه روسو قائلا « سيدى ، سأبرح الحجرة أن زدت كلمة واحدة » . والواقع أنه كان قد قام عن كرسيه وكان يفكر جدياً فى الهروب لولا أن أعلن عن قدوم الأمير[١٠٠] » .

ونسى الجميع موضوع الجدل . وفى رواية وردت فى مذكرات مدام دينيه، أن روسو قال لها أن هؤلاء الكفره يستحقون النار الابدية[١٠١] .

وجدد رسو الحرب على الحضارة فى مقدمة مسرحيته الهـزلية « نارسيس » ، التى مثلتها فرقة الكوميدى فرانسيز فى ١٨ ديسمبر ١٧٥٢ « أن الميل إلى الآداب يكون دائماً إيذانا فى الشعب ببداية فساد سرعان ما يعجل به هذا الميل . ولا ينبعث هذا الميل فى أمة إلا من منبعين خبيثين . . . التبطل ، وشهوة الامتياز [١٠٢]» . ومع ذلك استمر حتى عام ١٧٥٤ يختلف إلى « مجمع » دولباخ المؤلف من أحرار الفكر . هناك استمع مارمونتل ، وجريم ، وسان — لامبير ، وغيرهم إلى الابيه بتى يقرأ مأساة من تأليفه ، فوجدوها عملا تافها يدعو للرثاء ، ولكنهم أطروها اطراء جميلا ، وكان الابيه قد ثمل بالخمر إلى حد أعماه عن إدراك ما فى ثنائهم من تهكم ، فأنتفخت أوداجه رضى وغبطة ، أما روسو الذى غاظه نفاق أصحابه فقد انقض على الأب بتقريع لا هوادة فيه ، فقال له « أن تمثيلياتك لا قيمة لها . . . وكل هؤلاء السادة يسخرون منك ، فانصرف وعد لتكون قسيساً فى قريتك[١٠٣] » . ووبخ دولباخ روسو على نظاظته ، فانصرف غاضباً وانقطع عن الجماعة عاماً .

لقد دمر رفاقه كثلكته ، ولكنهم لم يدمروا إيمانه بمقومات المسيحية. وعادت بروتستنتية صباه تطفو فى الوقت الذى تغوص فيه كثلكته . فتصور جنيف صباه كاملة مبرأة من العيوب ، وخيل إليه أنه سيكون فيها أكثر راحة واطمئناناً منه فى بلد أضنى روحه كباريس . ولو عاد إلى جنيف لاكتسب من جديد لقبا يبعث على الفخر ، هو لقب المواطن ، ومعه الامتيازات الخاصه التى ينطوى عليها هـذا اللقب . وعليه ففى يونيو سنة ١٧٥٤ استقل مركبة البريد إلى شامبرى وهناك وجد مدام دفاران

فقيرة تعسة ، ففتح لها كيس نقوده ، ثم وأصل رحلته إلى جنيف ، هناك رحب به القوم أبنا ضالا قد ثاب إلى رشده : ويبدو أنه وقع إقراراً يؤكد فيه من جديد عقيدته الكلفنية(١٠٤) ؛ واغتبط رجال الدين الجنيفيون باستعادتهم « موسوعيا » إلى حظيرة إيمانهم الانجيلي ورد إليه اعتباره مواطنا ، وراح بعدها يوقع فى فخر « جان ـ جاك روسو ، المواطن » : قال :

« تأثرت تأثرا بالغاً بما لقيت من عطف . . . المجلس (المدنى) والمجمع (الكنسى) وعظيم احترام القضاة ، والوزراء ، والمواطنين ، وحفاوتهم بى . . . . حتى إننى اقلعت عن فكرة العودة إلى باريس إلا لفض إدارة البيت ، والعثور على عمل للسيد لفاسير وزوجته ، أو تدبير أمر معاشهما ، ثم العودة مع تريز إلى جينيف لأستقر فيها ما بقى لى من عمر(١٠٥) » .

واستطاع الآن أن يتذوق جمال البحيرة وشواطئها تذوقا أكمل مما فعل فى صباه « لقد احتفظت بذكرى حية . . . لطرف البحيرة الأبعد ، وكتبت له وصفا بعد سنوات فى هلويز الجديدة » : ودخل الفلاحون السويسريون فى حلم الفردوس الريفى الذى سيصفه فى تلك الرواية : فهم ملاك لمزارعهم لا يخضعون لضريبة رؤس أو سخرة ، يشغلون أنفسهم بالحرف المنزلية فى الشتاء ، ويقفون فى قناعة بمنأى عن ضجيج العالم وصراعه . وكانت ذكرى دويلات المدن السويسريه عالقة بذهنه وهو يصف مثله السياسى الأعلى فى كتاب « العقد الاجتماعى » .

وفى أكتوبر ١٧٥٤ قصد باريس على وعد بالعودة منها سريعاً . ووصل فولتير إلى جينيف بعد رحيل روسو عنها بشهرين ، واستقر به المقام فى فيلا ديليس . واستأنف جان ـ جاك فى باريس صداقته لديدرو وجريم ، دون أن تبلغ من الثقة ما بلغته من قبل . ولما نمى إليه نبأ موت مدام دولباخ كتب إلى البارون خطاب تعزية رقيقا ؛ وتصالح الرجلان ، وعاد روسو يؤاكل الزنادقة ، وظل ثلاثة أعوام أخر يبدو من جميع

الوجوه واحداً من جماعة الفلاسفة . ولم يبحث كثيراً فى عقيدته الكلفنيه الجديدة . واستغرقه الآن الإشراف على طبع « مقاله » الثانى الذى قدر له أن يهز الدنيا أكثر مما هزها سابقه .

٧ — جرائم الحضارة

فى نوفمبر ١٧٥٣ أعلنت أكاديمية ديجون عن مسابقة أخرى ، أما السؤال الجديد فكان « ما الأصل فى عدم المساواة بين البشر ، وهل يقره قانون الطبيعة » ؟ يقول روسو « استرعى أنتباهى هذا السؤال الخطير ، وأدهشنى أن الأكاديمية اجترأت على طرحه للنقاش ، ولكن مادامت قد أظهرت شجاعتها . . . فقد عكفت فورا على مناقشته[١٠٦] » . واختار لبحثه هذا العنوان « مقال فى أصل وأسس عدم المساواة بين البشر » . وفى شامبرى فى ١٢ يونيو ١٧٥٤ أهدى هذا المقال الثانى « إلى جمهورية جنيف » وإضاف خطاباً موجهاً إلى « سادتها الحاكمين » الرفيعى الشرف والمجد . « يعرب عن بعض الاراء الفذه فى السياسة :

« فى بحوثى عن خير القواعد التى يمكن أن يرسيها الإدراك السليم عن تكوين الحكومة أدهشنى أن أجدها كلها تحققت فعلا فى حكومتكم ، بحيث أننى لو لم أولد بين أسوار مدينتكم لرأيته لزاما على أن أقدم هذه الصورة عن المجتمع الإنسانى إلى ذلك الشعب الذى يبدو أنه انفرد دون سائر الشعوب بحيازته لاعظم مزاياها ، ووفر لنفسه أفضل وقاية من مساوئها[١٠٧] » .

ثم هنأ جنيف بعبارات تصدق تماماً على سويسرة اليوم :

« بلد انصرف عن شهوة الغزو الهمجيه لا فتقاره السعيد للقوة ، وأمن بفضل موقعه الأسعد حظا من خوف الوقوع غنيمة فى يد غيره من الدول : مدينة حرة تتوسط عدة أمم ، لا مصلحةلواحدة منها فى العدوان عليها ، ومصلحة كل منها فى منع غيرها من هذا العدوان[١٠٨] » .

وبارك معبود الثورة الفرنسية المستقبل تلك القيود المفروضة على الديمقراطية فى جينف ، حيث لا حق فى التصويت إلا لثمانية فى المائه من السكان :

« لكى نتقى خدمة المصالح الخاصه والمشروعات الطائشة وجميع البدع الخطرة التى إنتهت بالقضاء على الأثنيين ، ينبغى إلا تطلق الحرية لكل رجل فى اقتراح القوانين الجديدة على هواه ، بل يقصر هذا الحق على القضاة دون غيرهم . . . فقدم القوانين هو أهم عامل فى إضفاء القدسية والاحترام عليها ، والناس سرعان ما يتعلمون الاستهانة بالقوانين التى يرونها تبدل وتغير كل يوم ، ولو اعتادت الدول أن تهمل تقاليدها القديمة بحجة التحسين والإصلاح ، لجلبت من الشرور فى الغالب ما هو اسوأ مما تحاول أن تقضى عليه[١٠٩] » .

أكان هذا مجرد ذريعة يلتمس بها العودة إلى المواطنة الجنيفية ؟

أما وقد تحقق لروسو هذا الهدف فإنه قدم مقاله لأكاديمية ديجون . ولم يمنح الجائزة ، ولكن حين نشر المقال فى يونيو ١٧٥٥ ، سره أن يصبح من جديد الحـــديث المثير لصالونات باريس . ذلك أنه لم يترك مفارقة إلا تناولها ليثير الجدل حولها . فهو لم ينكر عدم المساواة « الطبيعى » أو الالزامى ، وسلم بأن هناك افرادا هم بحكم مولدهم أصح أو أقوى من غيرهم فى البدن أو الخلق أو الذهن . ولكنه زعم أن كل ضروب عدم المساواه الأخرى — الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والخلقية ، غير طبيعية ، نشأت حين ترك البشر « الحالة الطبيعية » . وأقاموا الملكية الخاصة وأسسوا دولا تحمى الثروه والامتياز .

« فالإنسان بطبيعته طيب[١١٠] » ، وأكثر ما يجعله شريرا تلك النظم الاجتماعية التى تقيد أو تفسد ميوله للسلوك الطبيعى . وقد صور روسو حالة فطرية مثالية كان معظم الناس فيها أقوياء الأطراف ، خفاف الأقدام ،

حديدى البصر(*) ، يعيشون حياة الحركة والعمل ، حياة كان الفكر فيها دائماً أداة للعمل وتابعا له ، لا بديلا مضعفا عنه . ثم قارن بين هذه الصحة الفطرية وبين الأمراض المتكاثرة التى تنجم فى الحضارة عن الثروة والأعمال التى تتطلب القعود الكثير :

« أن أغلب عللنا من صنعنا ، وكان يسيراً علينا أن نتجنبها ، كلها تقريبا ، بالتزام أسلوب الحياة البسيط ، المتماثل ، المنعزل ، الذى قررته الطبيعة . فإذا كانت الطبيعة. قد قضت بأن يكون الإنسان سليما صحيحاً ، فأننى أجرؤ على الزعم بأن حالة التفكير والتأمل حالة تناقض الطبيعة ، وأن (l'homme qui médite est un aminal dépraré.)

وحين نفكر فى بنية المتوحشين القوية — على الأقل أولئك الذين لم ندمرهم بمشروباتنا الروحية — وفى أنهم لايكادون يعانون من أى علل غير الجروح والشيخوخة ، يغرينا هذا بالأعتقاد بأننا فى تتبعنا لتاريخ المجتمع المدنى ؛ إنما نحن نروى تاريخ أمراض البشر[١١٢] » .

ويسلم روسو بأن هذه الحالة المثالية « الحالة الطبيعية .. .. ربما لم توجد قط ؛ وأغلب الظن أنها لن توجد أبدا[١١٣] » . فهو لا يعرضها بوصفها حقيقة واقعة من حقائق التاريخ بل مقياسا للمقارنة . وهــذا ماعناه بهذا الاقتراح المفزع « فلنبدأ إذن بتنحية الحقائق جانبا لأنها لاتمس السؤال . والتحقيقات التى يصح أن نخوض فيها .... يجب ألا تعالج على أنها حقائق تاريخية ، بل حجج مشروطة وفرضية[١١٤] » : على أننا قد نكون فكرة عن حياة الإنسان قبل قيام النظام الاجتماعى ، بملاحظة حال الدول الحديثة وسلوكها ، لأن « الدول اليوم مازلت فى حالة طبيعية[١١٥] » . فكل منها ذات سيادة فردية ، لا تعرف فعلا أى قانون إلا قوانين المكر والقوة ، ويجوز أن نفرض أن الإنسان الذى سبق تكوين المجتمعات كان يحيا فى حالة مشابهة من السيادة الفردية ، وعدم الأمان ، والفوضى

(*) « مالست أياه ، فإنه عندى الله والفضيلة » نيتشه[١١١] الإنسان الذى يتأمل هو حيوان فاسد :

الجماعية ، والعنف بين الحين والحين . ولم يكن مثل روسو الأعلى هو هذه الحياة المتخيلة التي سبقت المجتمعات [لأن المجتمع قد يكون قديما قدم الإنسان] ، بل مرحلة لاحقة من التطور عاش فيها الناس في أسر أبوية النظام وجماعات قبلية ، ولم ينشئوا بعد نظام الملكية الخاصة « إن أقدم المجتمعات قاطبة ، والمجتمع الطبيعي الوحيد ، هو الأسرة(١١٦) » .

ذلك كان العصر الذي بلغت فيه سعادة البشر أقصاها . حقاً أنه لم يخل من عيوب ، وآلام ، وعقوبات . ولكنه خلا من القوانين . اللهم إلا السلطة الأبوية والنظام الأسرى ؛ « لقد كانت هـــذه الحالة في جملتها أفضل حالة يستطيع الإنسان ممارستها ، فلم يكن ليعدل عنها لولا أن اصابه خطب فادح(١١٧) . وهذا الخطب هو إقامة الملكية الفردية ، وما نجم عن ذلك من تفرقة اقتصادية ، وسياسية ، واجتماعية ، ومعظم شرور الحياة الحديثة .

« أن أول رجل سور قطعة من الأرض ثم خطر له أن يقول « هذه ملكي » ووجد الناس من البساطة بحيث يصدقونه ؛ هذا الرجل كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المتمدن . ليت شعرى كم من الجرائم ، والحروب ، والاغتيالات ، كم من الفظائع والكوارث ، لم يكن في إستطاعة أي إنسان أن ينقذ البشرية منها باقتلاع الأوتاد المحددة للأرض أو ردم القناة المحيطة بها والصياح بإخوانه أن احذروا الاستماع إلى هذا النصاب ، إنكم إن نسيتم أن ثمرات الأرض ملك لنا جميعاً ، وأن الأرض ذاتها ليست ملكا « لأحد » كان في ذلك هلاككم(١١٨) » .

ومن هذا الأغتصاب الذي سمح به الناس انبعثت لعنات الحضارة : كالأنقسامات الطبيعية ، والعبودية ، ورق الأرض ، والحسد ، والسرقة ، والحرب ، والظلم القانوني ، والفساد السياسي ، والغش التجاري ، والأختراعات ، والعلم والأدب ، والفن ، و« التقدم » — وبكلمة واحدة ، الانحطاط . فلحماية الملكية الخاصة نظمت القوة ثم أصبحت هي الدولة ، ولتيسير الحكم طور القانون لتعويد الضعفاء الإذعان للاقوياء

بأقل قدر من الإكراه والتكلفة[١١٩] . وهكذا نشأ هذا الوضع الذى نرى فيه « القلة المميزة تكتظ بالكماليات ، على حين تفتقر الجماهير الجائعة إلى أبسط ضروريات الحياة[١٢٠]». يضاف إلى هذه المظا لم الأساسية طائفة آخرى متفرعة عنها «كالوسائل المخزية التى يمارسها الناس احياناً لمنع ولادة البشر ، والأجهاض ، وقتل الأطفال ، وخصى الذكور ، والأنحرافات الجنسية ، وترك الكثيرين من الأطفال الذين يقعون فريسة لإملاق أبويهم فى العراء أو قتلهم[١٢١]» . هـــذه الكوارث كلها مفسدة مضعفة ، والحيوانات لا تعرفها ؛ وهى تجعل « الحضارة » سرطانا ينهش جسد البشرية . وعلى نقيض هذا الفساد والإنحراف المتعدد الأشكال ، نجد حياة المتوحشين صحيحة ، سليمة ، رحيمة . أينبغى أن نعود إذن إلى الهمجية ؟ « إيجب أن تلغى المجتمعات إطـــلاقا ؟ وتبطل عبارة « ملكى » و « ملـــكك » ، ونعود إلى الغابة لنحيا بين السباع ؟ » لم يعد هذا فى وسعنا ، فسم الحضارة يسرى فى دمائنا ، ولن ننتزعه بالهروب إلى الغابات ، والقضاء على الملكية الخاصة ، والحكومة ؛ والقانون ، معناه الزج بالناس فى فوضى هى شر من الحضارة . « لن يستطيع الإنسان العودة أبدا إلى زمان البراءة والمساواة متى تركه[١٢٢]» . وقد تبرر الثورة ،لأن القوة قد تطيح عدلا بما إقامته القوة وساندته[١٢٣] ، ولكن الثورة ليست مستحبة الآن . وخير ما نستطيعه هـــو أن ندرس الأناجيل من جديد ، ونحاول تطهير دوافعنا الشريرة بممارسة أخلاق المسيحية[١٢٤] . وفى إستطاعتنا أن نجعل من العطف الفطرى على أخواننا البشر أساساً للأخلاق والنظام الاجتماعى . ونستطيع العزم على أن نحيا حياة أقل تعقيداً ، نقنع فيها بالضروريات ، ونحتقر أسباب البذخ والترف ، ونجتنب سباق « التقدم » وحماه . نستطيع أن ننبذ ما فى الحضارة من ضروب الزيف ، والنفاق ، والفساد ، واحداً بعد الآخر ، ونعيد تشكيل أنفسنا على الأمانة والطبيعية ، والاخلاص . نستطيع أن نترك ضوضاء مدننا وصخبها ، وأحقادها ، وفسقها ، وجرائمها ، ونذهب لنعيش فى بساطة الريف ومسئوليات

الأسرة وقناعتها . نستطيع أن نطلق دعاوى الفلسفة ومسالكها المسدودة ، ونعود إلى إيمان ديني يشد أزرنا حين نواجه الألم والموت » .

ونحن نحس اليوم شيئاً من التكلف فى هذا السخط البار بعد أن سمعنا هذا كله مائة مرة . فلسنا على ثقة من أن الشرور التى وصفها روسو تنجم عن الأنظمة الفاسدة أكثر مما تنجم عن طبيعة البشر ، وعلى أية حال فالطبيعة البشرية هى التى صنعت الأنظمة . ويوم كتب جان - جاك «مقاله» الثانى كانت الأشادة بذلك « الهمجى اللطيف المعشر ، المتدفق العاطفة » قد بلغت ذروتها . ففى ١٦٤٠ كان ولتر هاموند قد نشر كتيبا « يثبت أن أهل مدغشقر أسعد شعوب الأرض(١٢٥) » . وبدا أن القصص التى رواها اليسوعيون عن هنود هورون وإيروكوا مصداق للصورة التى رسمها الروائى ديفو لخادم روبنصن كروزو اللطيف « فرايداى » . أما فولتير فكان يسخر عموماً من أسطورة الهمجى الشريف ، ولكنه إستخدمها بمرح فى قصته « الساذج » وداعبها ديدرو فى قصته « تذييل لرحلة بوجانفيل » ولكن هلفيتيوس هزأ باشادة روسو بالهمجى مثلا أعلى(١٢٦) ، وزعم دوكلو - رغم أنه كان صديقاً وفيا لجان — جاك — أن « الهمج هم الذين تستشرى بينهم الجريمة ، وطفولة أمة ما ليست عصر براءتها(١٢٧) » . ويمكن القول على الجملة أن المناخ الفكرى كان مواتيا لنظرية روسو .

أما ضحايا مطاعن روسو فقد هدأوا ضمائرهم بالزعم بأن هذا المقال الثانى متكلف كسابقه . ووصفته مدام دو د فان صراحة بأنه دجال(١٢٨) . وسخر الشكاك من إدعاءاته بسلامة عقيدته المسيحية . وبتفسيره الحرفى لسفر التكوين(١٢٩) وبدأ جماعة الفلاسفة يرتابون فيه لأنه يقلب خططهم الرامية إلى إستمالة الحكومة إلى أفكارهم فى الأصلاح الاجتماعى ، ولم يحبذوا إستثارة كراهيات الفقراء . وسلموا بحقيقة الاستغلال ، ولكنهم لم يروا أى مبدأ بناء فى أحلال الغوغاء محل القضاة . أما الحكومة فلم تحتج على إتهامات روسو ، والراجح أن القصر لم ير فى المقال إلا تدريبا على الخطابة . وكان روسو فخور ببلاغته ، فأرسل نسخة من المقال إلى فولتير ، وترقب

فى شوق كلمة ثناء منه . وجواب فولتير درة من درر الأدب والحكمة وآداب السلوك الفرنسية . قال :

« تلقيت ياسيدى كتابك الجديد الذى يهاجم النوع الإنسانى . وأنى أشكرك عليه . وأنك لتسر الناس الذين تخبرهم بحقائق تهمهم ، ولكنك لن تقوم بذلك أعوجاجهم . إنك ترسم بألوان صادقة جداً فظائع المجتمع الإنسانى ، . . . وأن احدا لم يبذل قط مثل هذا الذكاء الكثير ليقنع الناس بأن يكونوا وحوشا . والمرء حين يقرأ كتابك تتملكه الرغبة فى أن يمشى على أربع [marcher à quatre pattes] ولكن بما أننى فقدت تلك العادة منذ أكثر من ستين عاماً ، فأنى لسوء الحظ أشعر أنه يستحيل على استئنافها . . .

« وإنى متفق معك على أن الآداب والعلوم كانت أحيانا علة الكثير من الشرور . . . [ولكنى] إقرر أنه لا شيشرون ، ولا قارو ، ولا لوكريتيوس ، ولا فرجيل ، ولا هوراس ، كان لهم أقل نصيب فى تحريمات ومصادرات ماريوس ، وصلا ، وانطونيوس ، وليبدوس ، وأوكتافيوس . . . وعليك أن تعترف بأن بترارك وبوكاشيو لم يكونا السبب فيما عانته إيطاليا من متاعب داخلية ، وأن مزاح مارو لم يكن السبب فى مذبحة القديس برتولومى ، وأن مسرحية كورنيى « السيد » لم تثر حروب الفروند . إن الجرائم الكبرى قد إقترفها رجال مشهورون ولكنهم جهلة . والذى جعل هذه الدنيا ، وسوف يجعلها على الدوام . واديا للدموع هو جشع الناس الذى لا يشبع وغرورهم الذى لا يفتر .. أن الأدب يغذى الروح ، ويقومها ، ويعزيها . أنه يخلق مجدك فى ذات الوقت الذى تهاجمه فيه . . .

« لقد انبأنى السد شابوى أن صحتك سيئة للغاية . فعليك أن تحضر وتستردها فى جو وطنك ، وتستمتع بالحرية . وتشرب معى لبن أبقارنا ، وتعيش على أعشابنا . وأنى ياسيدى بكل ، الفلسفة وكل التقدير المشرب بالمحبة ، خادمك المتواضع جداً ، المطيع جداً(١٣٠) .

ورد روسو التحية بمثلها ، ووعد بأن يزور فيللا المباهج عند عودته إلى سويسرة[١٣١] . ولكن حز فى نفسه كثيراً ذلك الاستقبال الذى استقبل به مقاله فى جنيف التى أهداها أياه بمثل هذا المديح السار . والظاهر أن الاوليجاركيه الصغيرة المحكمة التى تسلطت على الجمهورية أوجعتها بعض تعليقات ذلك المقال اللاذعة . ولم تسغ تنديد روسو الشامل بالملكية ، والحكومة ، والقانون « لم أحس أن جنيفياً واحدا سر بما حواه المقال من حماسة قلبية[١٣٢] . وعليه فقد قرر أن الوقت لم يحن بعد لعودته إلى جنيف .

٨ — المحـــافظ

شهد عام ١٧٥٥ ، الذى نشر فيه المقال الثانى ، ظهور مقال طويل بقلم روسو فى المجلد الخامس من الموسوعة عنوانه ، مقال فى الاقتصاد السياسى . وهو جدير بالملاحظة لأنه خالف المقالين السابقين عليه فى بعض تفاصيله الهامة . ففى هذا المقال نرى الكاتب بجل المجتمع ، والحكومة ، والقانون ، باعتبارها نتائج طبيعية لفطرة الإنسان وحاجاته ، ويصف الملــكية الخاصة بأنها عطية اجتماعية وحق أساسى . « من المؤكد أن حق الملكية أقدس حقوق المواطنة ، بل أنه من بعض الوجوة أهم من الحرية ذاتها . فالملكية هى الأساس الصحيح للمجتمع المدنى ، والضمان الحقيقى لتعهدات المواطنين[١٣٣] بمعنى أن الناس لن يعملوا فوق ما تتطلب أبسط حاجاتهم مالم يحتفظوا بالناتج الفائض لأنفسهم ، ليستهلكوه أو ينقلوه لغيرهم كما يشاءون . ويوافق روسو الآن على أن يورث الآباء ثروتهم لأبنائهم ، ويقبل فى اغتباط ما يتمخض عنه هذا من انقسامات طبقية . « مامن شىء أضر بالفضيلة وبالجمهورية من انتقال المراتب والثروات باستمرار بين المواطنين : ومثل هذه التغيرات هى الدليل على وجود مئات من ضروب الخلل والاضطراب ، وهى مصدرها فى الوقت نفسه ، ومن شأنها أن تقلب كل شىء رأساً على عقب وتفسده[١٣٤] .

ولكنه يواصل التنديد بالظلم الاجتماعى وبما فى القانون من محاباة طبقية . فكما أن من واجب الدولة أن تحمى الملكية الخاصة ووراثتها القانونية ، كذلك

ينبغى أن يسهم أعضاء المجتمع ببعض ثروتهم لإعالة الدولة . وينبغى أن تفرض ضريبة صارمة على جميع الأشخاص بنسبة تصاعدية مع ثروتهم و « فائض ممتلكاتهم »[١٣٥]، وألا تفرض ضريبة على الضروريات ، وأن تفرض ضريبة مرتفعة على الكماليات ، وينبغى أن تمول الدولة نظاماً قومياً للتعليم . « أن الأطفال إذا نشئوا معاً (فى مدارس قومية) فى حضن المساواة وإذا أشربوا قوانين الدولة ومبادىء الإدارة العامة . . فلن نشك فى أنهم سيحبون بعضهم بعضاً كما يفعل الإخوة . ليصبحوا فى الوقت المناسب مدافعين وآباء الوطن الذى كانوا أبناؤه [١٣٦] . والوطنية خير من العالمية أو التظاهر المزيل بالعطف العالمى [١٣٧]. »

وكما طغت النزعة الفردية على المقالين الأولين ، طغت النزعة الاجتماعية على مقال الاقتصاد السياسى . وهنا يصرح روسو لأول مرة بعقيدته الغريبة وهى أن فى كل مجتمع « إرادة عامة » فوق المجموع العـــددى لما يحبه الأفراد الذين يؤلفونه ومايكرهون . فالمجتمع ، فى فلسفة روسو المقطورة ، كائن اجتماعى له روحه الخاصة ؟

« أن الدولة هى أيضاً كائن معنوى ، يملك الإرادة ، وهذه الإرادة العامة التى تنحو دائماً إلى صيانة ورفاهية الدولة كلها وكل جزء فيها ، هى مصدر القوانين ، وهى التى تشكل لجميع أعضاء الدولة ، فى علاقاتهم بعضهم ببعض القاعدة التى تفرق بين العدل والظلم [١٣٨] .

وحول هذا المفهوم يقيم روسو الأخلاق والسياسة التى ستغلب منذ الآن على آرائه فى الشئون العامة . فنرى الثائر الذى اعتبر الفضيلة تعبير الإنسان الحر الطبيعى يعرفها الآن بأنها « ليست سوى مطابقة الإرادات الفردية للإرادة العامة »[١٣٩] . ونرى الرجل الذى كان ينظر إلى القانون مؤخراً جداً على أنه إثم من آثام الحضارة ، وأنه أداة مريحة لفرض النظام الطيع على الجماهير المستغلة ، يصرح الآن بأن القانون وحده هو الذى يدين له الناس بالعدل والحرية ، وهذا الجهاز النافع من أجهزة الإرادة الجماعية هو الذى يرسى ،

فى الحق المدنى ، المساواة الطبيعية بين البشر ، أنه الصوت السماوى الذى يملى على كل مواطن مبادىء العقل العام »[١٤٠] .

ولعل محررى الموسوعة المطاردين كانوا قد نبهوا روسو إلى التخفيف فى هذا المقال من هجومه على الحضارة . وسنجده بعد سبع سنوات ، فى كتابه « العقد الاجتماعى » يدافع عن الجماعة ضد الفرد ، ويقيم فلسفته السياسة على فكرة الإرادة العامة المقدسة السامية . على أنه لم يزل خلال ذلك فردياً وثائراً يبغض باريس ، ويؤكد ذاته ضد أصدقائه ، ويصنع كل يوم أعداء جدداً .

٩ — الهروب من باريس ١٧٥٦

كان أصدقاؤه الحميمون الآن هم جريم ، وديدرو ، ومدام دينييه . أما جريم فقد ولد فى راتزبون عام ١٧٢٣ ، فكان بذلك يصغر روسو بأحد عشر عاماً . وقد تعلم فى ليبزج فى العقد الأخير من حياة باخ ، وتلقى عن يوهان أوجست إرنشتى أساساً مكيناً فى لغتى اليونان والرومان وآدابهما . فلما وفد على باريس فى ١٧٤٩ تعلم الفرنسية بما عرف عن الألمان من اتقان ودقة ، وما لبث أن وافى مجلة المركيز بمقالاته . وفى ١٧٥٠ أصبح السكرتير الخاص للكونت فون فريزن . وأغراه حبه للموسيقى بالتعلق بروسو ، كما رماه جوع أكثر عمقاً تحت قدمى الآنسة فل المغنية بالأوبرا ، فلما آثرت عليه المسيو كاهوزاك ، يقول روسو أن جريم :

« حز هذا فى نفسه حتى أصبحت أمارات خطبه مأساوية — فكان ينفق الأيام والليالى فى تراخ وتبلد . ويرقد وعيناه مفتوحتان . . لا يتكلم ، ولا يأكل ، ولا يتحرك . . وكنت والا بيه رينال نرعاه ، فالابيه — وكان أشد منى وأصح — يسهر عليه ليلا ، وأنا أرعاه نهاراً ، فلا نغيب عنه معاً فى وقت واحد »[١٤١] .

واستدعى فون فريزن طبيباً يعوده ، فأبى أن يصف له دواء غير الزمن . وأخيراً ذات صباح ، قام جريم ، وارتدى ثيابه ، واستأنف نظام حياته العادى ، دون أن يذكر يومها أو بعدها . . هذا التبلد الشاذ[١٤٢] .

وقدم روسو جريم إلى ديدرو ، وراح ثلاثتهم يحلمون بالذهاب معاً إلى إيطاليا . واستوعب جريم فى نهم سيل الأفكار المتدفق من معين عقل ديدرو وتعلم لغة « الفلاسفة » الخالية من التوقير ؛ وألف كتابا لا أدريا « فى التعليم الدينى للأطفال » وأشار على فون فريزن بأن يتخذ ثلاث خليلات فى وقت واحد « تذكاراً للثالوث الأقدس » (١٤٣) وأقلقت روسو تلك الألفة النامية بين جريم ، الذى سيصفه سانت بوف بأنه « أكثر الألمان فرنسية » ، وبين ديدرو « أكثر الفرنسيين ألمانية » (١٤٤) وقال روسو شاكيا « إنك تهملنى ياجريم ، وأنا أغفر لك هذا » وأخذه جريم عند كلمته . فقال لى إننى مصيب . . . ثم حطم كل قيـــد ، فلم أعد أراه إلا فى صحبة أصدقائنا المشتركين (١٤٥) .

وفى سنة ١٧٤٧ كان الابيه رينال قد بدأ يرسل للمكتتبين الفرنسيين والأجانب خطاب أتباء نصف شهرى سماه « الأنباء الأدبية » يورد فيه الوقائع فى دنيا الأدب والعلوم والفلسفة والفنون الفرنسية — وفى ١٧٥٣ عهد بالمشروع إلى جريم الذى — واصله بمعونة من ديدرو وآخرين حتى ١٧٩٠ . وأثناء اضطلاع جريم بالمجلة كان من بين من وافوها بمقالاتهم إفراد بارزون . كملكة السويد لويزا أوريلكا وملك بولندة السابق ستانسلاس لسكيزنسكى ، وكاترين الثانية قيصرة روسيا ، وأميرة ساكس — جوتا ، وأمير وأميرة هيسى — دارمشتات ، ودوقة ساكس — كوبورج ودوق تسكانيا الكبير ، والدوق كارل أوجست أمير ساكس — فيمار . أما فردريك الأكبر فقد احجم حينا عن المشاركة فيها لكثرة عدد من يبادلهم الرسائل فى فرنسا وأخيراً وافق على أن يتسلم المجلة ، ولكنه لم يدفع لها مالا قط . وقد أذاع جريم العدد الأول من المجلة عقب إضطلاعه بأصدارها (مايو ١٧٥٣) :

فى الصفحات المطلوبة منا لن نضيع وقتا على النشرات التى تغرق باريس كل يوم ، . . . بل سنحاول أن نعطى تقريراً دقيقا ، وتحليلا منطقيا (critique raisonnée) للكتب التى تستحق أن يهتم بها الجمهور ،

وستكون الدراما جزءا هاماً من تقريرنا لأنها فرع رائع من فروع الأدب الفرنسي وعلى العموم لن نغفل شيئاً جديراً بفضول غيرنا من الشعوب(١٤٦).

وهذه الرسائل الأدبية المشهورة هي الآن سجل رئيسي نفيس لتاريخ فرنسا الفكري في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وقد استطاع جريم أن يكون صريحاً في مقالاته النقدية ، لأنها لم تكن معروفة للجمهور الفرنسي أو للمؤلف الذي تتناوله . وكان يتوخى الإنصاف عادة ، إلا مع روسو في فترة لاحقة . وقد أصدر الكثير من الأحكام الصائبة ، ولكنه أساء الحكم على « كانديد » فزعم أنها لا تثبت — للنقد الجاد ، على أن هـذا الرأى لم يدفق إليه تحامل على فولتير ، فقد وصفه بأنه : « أعظم الرجال في أوربا جاذبية وأكثرهم لطفا ، وأبعدهم صيتاً(١٤٧) . »

ورد فولتير التحية بطريقته الشيطانية فقال : « ما الذي يتراوى لهذا البوهيمي أن يبزنا ذكاء وفطنة ؟ »(١٤٨) ورسائل جريم هذه هي التي أذاعت في أرجاء أوربا أفكار التنوير الفرنسي أكثر من أي كتابات أخرى باستثناء مؤلفات فولتير . ومع ذلك خامرته الشكوك في جماعة الفلاسفة وفي ايمانهم بالتقدم ، فقال : « إنما العالم مركب من : شرور لا يحاول إصلاحها غير إنسان معتوه »(١٤٩) وفي ١٧٥٧ كتب يقول :

« يبدو أن القرن الثامن عشر فاق كل القرون في المدائح التي كالها لنفسه . . . . ولو تمادى في هذا قليلا لأقنع خيرة المفكرين أنفسهم بأن دولة الفلسفة ، الهادئة المسالمة ، أوشكت أن تسود بعد عواصف الجنون الطويلة ، وأن ترسى إلى الأبد سلام البشر وهدوءهم وسعادتهم . . . ولكن الفيلسوف الصادق ، لسوء الحظ ، لديه أفكار أقل تعزية ولكنها أصح وأدق . . . . وهيهات أن أصدق أننا مقتربون من عصر العقل ، وأكاد اعتقد أن أوربا تتهددها ثورة مدمرة »(١٥٠) .

ونلمح هنا أثراً من الكبرياء والغرور اللذين كانا يغيظان إصدقاء جريم أحيانا . فلقد كان هذا المتفرنس أكثر من الفرنسيين ، ينفق الساعات في

التزين ، وذر المساحيق على وجه وشعره ، والأسراف فى التعطر إسرافا لقب من أجله بدب المسك[١٥١] . وهو يبدو فى رسائله ينثر التحيات بمنة ويسرة بيد تتوقع الرد عليها . وقد اشترط فردريك للأشتراك فى الرسائل أن « يعفينى جريم من تحياته[١٥٢] . ومثل هذا التملق كان بالطبع جزءا من أسلوب الرسائل فى ظل « النظام القديم » .

واسترعى جريم أنتباه باريس ، وهو الوجل البارد المتزن عادة ، باشرافه على الموت هياما بالآنسة فل ، وبدخوله فى مبارزة من أجل مدام ديبينيه . وكانت هذه الأخيرة — لويز — فلورانس تارديوديسكلاڤيل — أبنه بارون من ڤالنسين مات فى خدمة الملك عام ١٧٣٧ . وبعد ثمانية أعوام حين بلغت لويز العشرين ، تزوجت من دنيس — جوزف لاليف ديبينيه وكان ابن جاب غنى . وذهبا للعيش فى قصر ريفى جميل يدعى الشاتو دلاشيفريت ، على تسعة أميال من باريس ، بقرب غابة مونمورنسى . وفاضت حياتها سعادة ، فتساءلت « أيستطيع قلبى أن يحتمل هذه السعادة؟ وكتبت إلى أبنة عم لها تقول » كان يعزف على البيان القيثارى ، وأنا جالسة على مسند كرسيه ويسراى على كتفه ، ويمناى تقلب الأوراق ، فلم يفته قط أن يقبلها فى كل مرة تمر أمام شفتيه[١٥٣] .

ولم تكن جميلة ، بل صغيرة الجسم أنيقة على نحو ساحر ، بديعة التكوين trés bien faite (كما تنبئنا)[١٥٤] ؛ وستفتن عيناها السودا وان النجلاوان فولتير بعد حين . ولكن « الأحساس دائماً بنفس الشىء يصبح بعد قليل « تماماً كالأحساس بلا شىء »[١٥٥] ، فلم يمض غير عام حتى كف ديبنيه عن ملاحظة هاتين العينين . لقد كان قبل الزواج فاسقا عربيدا فعاد الآن كما كان ، يسرف فى الشراب ، ويسرف فى القمار ، وينفق المال الطائل على الأختين فريير ، اللتين أسكنهما كوخا على مقربة من لاشيفريت وولدت له زوجته خلال ذلك طفلين . وفى ١٧٤٨ عاد من رحلة فى الإقاليم ، وضاجع امرأته ، فنقل إليها عدوى الزهرى . وحصلت على انفصال شرعى عن زوجها بعد أن أعتلت صحتها وتحطمت

روحها . ووافق على تسوية سخية ؛ وورثت هي ثروة عمها ، فاحتفظت بلاشيفريت ، وحاولت أن تنسى تعاستها فى الحدب على طفليها ورعاية صديقاتها . فلما أصيبت احداهن — وهى مدام دجوللى — بالجدرى إصابة مميتة ذهبت لويز لتمرضها ، ومكثت معها إلى النهاية ، معرضة نفسها لعدوى قد تودى بها أو تشوهها مدى الحياة .

وأجمعت صديقاتها على أنه يحسن بها أن تتخذ عشيقا . وجاء عشيق (١٧٤٦) وهو دوبان دفرانكوى ، الرجل الذى وظف روسو عنده . وقد بدأ بالموسيقى ، وإنتهى بالزهرى ، ولم يلبث أن شفى من هذا الداء فى حين ظلت هى تعانى منه[١٥٦] . وإنضم إلى زوجها فى إقتسام الآنستين دفيرير . وقال لهـــا دوكلو فى صراحة جافية « أن فرانكوى وزوجك يقتسمان الأختين فيما بينهما[١٥٧] » . فأصيبت بحمى وهذيان داما ثلاثين ساعة . وحاول دوكلو الحلول محل دوبان ، ولكنها طردته . ثم كانت مأساة أخرى حين أعطتها مدام دجوللى وهى على فراش الموت حزمة أوراق تفضح غرامياتها وألحت عليها فى أن تحرقها ، ففعلت . واتهمها المسيو دجوللى بأنها أحرقت عن عمد شهادات مديونيتها هى له . وأنكرت التهمة ولكن القرائن كانت ضدها ، إذ كان معروفا أنها كانت تعين زوجها بالمال رغم انفصالها عنه .

فى هذه الأزمة دخل جريم الدراما ، وكان روسو قد قدمه إلى لويز فى ١٧٥١ ، وكثيراً ما إشترك ثلاثتهم فى عزف الموسيقى أو الغناء معا . وذات مساء فى حفلة أقامها الكونت فون فريزن أعرب أحد الضيوف عن اعتقاده بأن مدام ديبنيه مذنبة . . ودافع عنها جريم ؛ واحتد النقاش إلى حد المساس بالشرف ، وتبارز صاحب الأتهام والمدافع ، فجرح جريم جرحا طفيفا . وبعد حين وجدت الوثائق المفقودة ؛ وبرئت ساحة السيدة ، فشكرت جريم باعتباره « فارسها الهمام » ونما تقدير الواحد منهما لصاحبه فاكتمل حباً من أبقى وأثبت ما شهده ذلك العصر القلب : وحين أتلف الحزن صحة البارون دولباخ لموت زوجته ، وسافر جريم

بالعناية به فى الريف ، سألته لويز « ولكن من سيكون فارسى ياسيدى إن هاجمنى أحد فى غيابك » ؟ فأجاب جريم « هو ما كان من قبل — حياتك الماضية[١٥٨] » . ولم يكن الجواب قاطعاً مانعا ، ولكنه فاق حدود الثناء .

وكان روسو قد التقى بمدام ديبنيه فى ١٧٤٨ فى بيت مدام دويان . ودعته إلى لاشيفريت . وفى « مذكراتها » وصف له :

« أنه يقدم التحيات والمجاملات ، ولكنه ليس مؤدبا ، أو على الأقل يعوزه مظهر التأدب . والظاهر أنه جاهل بعادات المجتمع ، ولكن من الواضح أنه مفرط الذكاء . وله بشرة سمراء ، وعينان بيضاوان تتوهجان وتضفيان الحيوية على قسماته . . . . . ويقال إنه عليل ، ويتجلد لعذاب يحرص على كتمانه . . . . وهذا فى ظنى هو الذى يضفى عليه أحياناً .... ، مظهر الاكتئاب[١٥٩] » .

أما الصورة التى رسمها لها فلم تكن شديدة التأنق :

« لم يكن حديثها الخاص ممتعاً ، وأن لم يعوزه اللطف فى حضرة الجنسين . . . وأسعدنى أن أبدى لهـا بعض المجاملات ، وقبلتها قبلات أخوية صغيرة ، لم تبد أكثر شهوانية منها هى . . . . لقد كانت غاية فى النحول ، والشحوب ، ولها صدر كظاهر يدها . وكان هذا العيب وحده كافيا للتخفيف من أحر رغباتى[١٦٠] » .

وظل سبع سنوات يلقى الترحيب فى بيت مدام ديبنيه . فلما رأت مبلغ ضيقه فى باريس فكرت فى سبل تقديم المعونة له ، ولكنها كانت تعلم أنه سيرفض المال . وبينما كانا ذات يوم يسيران فى حديقتها خلف لاشيفريت ، أرته كوخا يسمى « الارميتاج (الصومعة) » كان من قبل ملكاً لزوجها . وكان مهجوراً متهدماً ، ولكن موقعه على حافة غابة مونمورنسى حمل روسو على أن يقول فى انفعال : « يا له من مسكن مبهج يا سـيدتى ! كأن هذا الملجأ أعد لى خصيصاً »[١٦١] . ولم تجب السيدة ، ولكن حين عاودا السير إلى الكوخ فى سبتمبر ١٧٥٥ ، أدهش روسو أن يجـده قد رمم ، وأثثت

حجراته الست ، ونظفت الأرض المحيطة به ورتبت : وينقل عنها أنها قالت « يا عزيزى ، إليك ملجأك ، فأنت الذى اخترته ، أن الصداقة تقدمه لك . وأرجو أن يزيل هذا فكرتك القاسية ، فكرة الانفصال عنى » وكانت تعلم أنه فكر من قبل فى أن يقيم فى سويسرة ، ولعلها لم تعرف ما طرأ من فتور على تحمسه لجنيف . و « فاضت دموعى على اليد الكريمة » يد صديقته ، ولكنه تردد فى قبول عرضها . فأغرت تريز ومدام لفاسير بقبول خطتها ، و « أخيراً تغلبت على جميع قراراتى » .

وفى أحد القيامة ، ١٧٥٦ ، ولكى تجمل الهدية باللياقة ، جاءت باريس فى مركبتها ، وأخذت « دبها » كما كانت تدعوه ، هو وخليلته وحماته ، إلى الارميتاج . ولم يلذ تريز فراقها لباريس ، أما روسو ، فما إن استنشق هواء الخلاء حتى شعر بأنه أسعد منه فى أى وقت منذ أيام فردوسه الريفى مع مدام دفاران . « فى ٩ إبريل ١٧٥٦ بدأت أحيا » (١٦٢) ، ولكن جريم أفسد الفرحة بتحذير لمدام دبينيه :

« إنك تضرين روسو ضررا بليغاً بإعطائه الارميتاج ، ولكنك تضرين نفسك ضرراً أبلغ . فستكمل العزلة مهمة تسويد خياله ، وسيبدو كل أصدقائه فى عينيه ظلمة جاحدين ، وأنت أولهم ، إن رفضت ولو مرة واحدة أن تمتثلى لأوامره » (١٦٣) .

وانطلق بعد ذلك جريم ، الذى أصبح الآن سكرتيراً للمرشال دستريه ، ليلعب دوره فى الحرب التى سترسم خريطة العالم من جديد .



الفصل الثانى

حرب السنين السبع

١٧٥٦ — ١٧٦٣

١ — كيف تشعل نار الحرب

حين وافت سنة ١٧٥٦ كانت أوربا قد عرفت ثمانية أعوام من السلم . غير أن حرب الوراثة النمساوية لم تحسم شيئا . فقد تركت النمسا قلقة فى بوهيميا وإيطاليا ، وبروسيا قلقة فى سيليزيا ، وبريطانيا قلقة فى هانوفر ، وفرنسا قلقة فى الهند ، وأمريكا ، وعلى الرين . ولم تحقق معاهدة إكس لا شابل (١٧٤٨) تسوية للأراضى يمكن أن تقارن فى ثباتها بالتسوية التى حققتها معاهدة وستفاليا قبل قرن من الزمان . وتزعزع توازن القوى القديم نتيجة لنمو الجيش البروسى والبحرية البريطانية ؛ فقد ينطلق ذلك الجيش ليلتهم أقاليم جديدة ، ولا تحتاج تلك البحرية إلا إلى الوقت لتقتنص مستعمرات فرنسا : وهولندة ، وأسبانيا . وتغذت الروح القومية الصاعدة فى إنجلترة على أرباح التجارة وفرصها ، وفى بروسيا على الحرب الظافرة ، وفى فرنسا على تفرق ثقافى يشعر شعورا غير مريح بالاضمحلال العسكرى . وكان الصراع بين الكاثوليكية والبروتستنتية قد انتهى إلى مأزق ، فترقب الطرفان تحولا فى الحظ ليجددا حرب الثلاثين . طمعا فى الاستيلاء على الروح الأوربيـــة .

وكانت النمسا بادئة بالاستعداد لرمية جديدة للفرد البشرى . ذلك أن ماريا تريزا ، التى لم تزل رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة الجميل رغم بلوغها التاسعة والثلاثين ، اجتمع لها كل كبرياء أجدادها الهابسبروج ، وكل غضب المرأة المهانة ؛ فكيف تحيا بعد أن بترت سيليزيا من ملكها الموروث ، الملك الذى كفلت كل دول أوربا العظمى وحدة أراضيه ؟ كيف وهى المرأة التى سيثنى بعد حين ، حتى فردريك هذا الذى أذلها من قبل ، على

« بسالتها وكفايتها » ويمتدح الطريقة التي « فطنت بها هذه الحاكمة الأصغر سنا إلى سر الحكم وعدت الروح المسيطرة على مجلسها . . . حين بدا أن الأحداث تأتمر بها لتدمرها. [1] لقد جعلت من الصلح هدنة فقط بعد أن هزمت وسلمت سيليزيا ثمنا للسلام . ثم كرست نفسها للنهوض بالحكم : واصلاح جيوشها المحطمة ، واكتساب حلفــاء أقوياء . فترددت على المعسكرات التي يتدرب فيها جيشها ؛ ولهذا الغرض سافرت إلى براغ في بوهيميا ، وإلى أولمتز في مورافيا ، وشجعت جنودها بالمكافآت والأوسمة ، وأكثر من ذلك بحضرتها ، حضرة الملكة والمرأة معا . ولم يكن هناك داع لأن يقسم قوادها يمين الولاء لها ، فالولاء في دمهم وفروسيتهم ؛ وآية ذلك أن أمير ليشتنشتين أنفق ٢٠٠٠,٠٠٠ ايكو (١,٥٠٠,٠٠٠ دولار ؟) من ماله الخاص ليجند ويجهز لها سلاح المدفعية كاملا . وأنشأت قرب فيينا كلية حربية لصغار النبلاء ، وجلبت لها خيرة معلمي الهندسة ، والجغرافيا ، والتحصين والتاريخ . يقول فردريك « في عهدها بلغت العسكرية النمساوية درجة من الكمال لم يعرفها أسلافها قط ، وقامت امرأة بتنفيذ خطط جديرة برجل عظيم . » [2]

وكانت الدبلوماسية هي الوجه الآخر لخطتها . فأرسلت مبعوثيها إلى كل بلد لتكتسب أصدقاء للنمسا وتثير العداء لفردريك . لاحظت قوة روسيا الصاعدة ، بعد أن نظمها بطرس الأكبر واطلعت بشئونها الآن القيصرة اليزافيتا بتروفنا ؛ فعملت على أن تصل تعليقات فردريك الساخرة على غراميات القيصرة إلى أذنيها . وكانت ماريا تريزا تتمنى لو جددت تحالفها مع انجلترة ، ولكن ذلك التحالف كدره الصلح المنفصل الذي أبرمته انجلترة مع بروسيا (١٧٤٥) والذي اكره النمسا على التخلي عن سيليزيا . وكانت سياسة انجلترا الخارجية تتجه الآن إلى حماية تجارتها في البحر البلطي من سطوة روسيا ، وإحكام قبضتها على هانوفر لتقيها أي خطر يتهددها من بروسيا أو فرنسا . وقد اعتمدت على روسيا في تزويدها بما يلزم بحريتها من أخشاب ، واعتمدت على بحريتها في احراز النصر في الحرب . ومن ثم وقعت انجلترة في ٣٠ سبتمبر ١٧٥٥ معاهدة تعهدت فيها روسيا ،

نظير معونات مالية من انجلترة ، بأن تحتفظ بجيش من ٥٥ر٠٠٠ مقاتل فى ليفونيا ، وعلل الانجليز أنفسهم بأن هذا الجيش سيعوق فردريك عن أى مغامرات توسعية صوب الغرب .

ولكن كيف تتصرف انجلترة مع فرنسا ؟ لقد ظلت فرنسا عدوا لها مئات السنين ، وما أكثر ما أثارت فرنسا أو مولت الأعمال العدائية التى قامت بها اسكتلندة ضد انجلترة ؛ وكم من مرة تأهبت لغزو الجزر البريطانية أو هددت بهذا الغزو . وقد أصبحت فرنسا الآن الدولة الوحيدة التى تتحدى بريطانيا فى البحار أو المستعمرات ؛ فلو أن بريطانيا ألحقت بفرنسا هزيمة فاصلة لظفرت بمستعمراتها فى أمريكا والهند ، ودمرت بحريتها أو شلت حركتها ، وعندها لن تكون الإمبراطورية البريطانية آمنه من الخطر فحسب ، بل سيدا غير منازع . كذلك كان وليم بت الأب يجادل البرلمان يوما بعد يوم ، بأبلغ ما سمع ذلك المحفل طوال عمره من خطب الخطباء ولكن أيمكن أن تهزم فرنسا ؟ وقال بت ، أجل ، وذلك بحلف بين بروسيا وانجلترة . وأليس خطرا كبيرا أن يسمح لبروسيا بأن تزداد قوة على قوة ؟ وأجاب بت : لا ، فإن لبروسيا جيشا عظيما سيساعد انجلترة ، بناء على هذه الخطة ، على حماية هانوفر ، ولكن ليس لها بحرية ، ومن ثم لن تقوى على منافسة بريطانيا فى البحر ، وبدا أن من الأحكم أن يسمح لبروسيا البروستنتية بالحلول محل فرنسا الكاثوليكية ، أو النمسا الكاثوليكية ، قوة « غالبة فى القارة ، أن كان فى هذا تمكينا لبريطانيا من « أن تسود البحـــار » وتستولى على المستعمرات . وأى انتصارات يحرزها فردريك فى أوربا من شأنها أن تدعم قوة إنجلترة وراء البحار ، ومن هنا تفاخر بت بأنه سيكسب أمريكا والهند على ساحات القتال فى القارة . فستقدم إنجلترة المال ، ويخوض فردريك معارك اليابس ، وتكسب انجلترة نصف العالم . ووافق البرلمان ، وعرضت بريطانيا على بروسيا ميثاقا للدفاع المشترك .

واضطر فردريك لقبول هذه الخطة ، لأن تطور الأحداث حجب

بهاء انتصاراته . كان يعلم أن فرنسا تحاول التقرب من النمسا ، فلو أن فرنسا والنمسا ومعهما روسيا أيضاً ؛ وهو وضع أسوأ — اتحدت ضده لما إستطاع أن يقاومها كلها ، وفى مأزق كهذا لن يقوى على نجدته غير انجلترة . ولو أبرم الميثاق الذى عرضته عليه انجلترا لاستطاع أن يطالبها بمنع روسيا من مهاجمته ولو كفت روسيا لجاز ثنى النمسا عن الحرب . وهكذا وقع فردريك فى ١٦ يناير ١٧٥٦ معاهدة وستمنستر ، التى تعهدت فيها انجلترة وبروسيا بمعارضة دخول الجيوش الأجنبية إلى المانيا ، وكان الحليفان يأملان أن تحمى هذه المادة الوحيدة بروسيا من روسيا ، وهانوفر من فرنسا .

وشعرت فرنسا ، والنمسا ، وروسيا جميعا أن هذه المعاهدة خيانة من حليفتيهم . صحيح إنه لم يحدث إنهاء رسمى للحلفين اللذين ربطا إنجلترة بالنمسا ، وفرنسا ببروسيا ، فى حرب الوراثة النمساوية . وصعقت ماريا تريزا — كما قالت للسفير البريطانى — حين علمت أن أصدقائها الانجليز أبرموا ميثاقا مع « الخصم اللدود المقيم لشخصى ولأسرتى[٣] » . وشكا لويس الخامس عشر من أن فردريك خدعه . ورد فردريك بأن المعاهدة دفاعية بحتة وينبغى ألا تسىء إلى أى قوة لا تنوى الإساءة . أما مدام دبومبادور ، التى كانت تختار الوزراء الفرنسيين وتهيمن عليهم ، فقد تذكرت أن فردريك كان قد اتهمها بإيداع المبالغ الطائلة فى المصارف البريطانية ، وسماها « الآنسة سمكة la demoiselle Poisson و Cotillon IV (الجونلة الرابعة — أى رابعة خليلات لويس الخامس عشر) . وأما لويس فقد تذكر أن فردريك سخر من أخلاق ملك فرنسا السوقية . ووقع هذا الخذلان لفرنسا على رأسها فى وقت كانت فيه جيوشها مرهقة ، وخزائنها خاوية ، وبحريتها بادئة فقط بالإفاقة من الإهمال الذى لقيته فى وزاره الكردينال فلورى المسالمة . ففى ١٧٥٦ كان لفرنسا خمس وأربعون بارجة ، وانجلترة مائة وثلاثون بارجة[٤] ، وكان تموين البحرية تعوقه الرشوة والسرقة ، ونظامها تفسده ترقية غير الأكفاء من ذوى الألقاب ترقية مثيرة للسخط كما يفسده

تعدد الهزائم . فالى من تتجه فرنسا الآن حليفا لها » ؟ إلى روسيا ؟ ولكن إنجلترة سبقتها . إلى النمسا ؟ — ولكن فى الحرب الأخيرة خرقت فرنسا تعهداتها بضمان ميراث ماريا تريزا ، وإنضمت إلى بروسيا فى مهاجمتها ، وواصلت الهجوم عليها حتى بعد أن عقد فردريك الصلح معها . لقد كانت النمسا تحت حكم الهابسبروج ، وفرنسا تحت حكم البوربون ، عدوين قرونا عدة ، فكيف يمكن أن تصبحا صديقين هما وشعباهما بعد طول ما ألفا من كراهية متبادلة ؟

ومع ذلك كان هذا بالضبط « قلب الاحلاف » الذى إقترحته حكومة النمسا الآن على فرنسا . وقد ولدت هذه الخطة أول ما ولدت — على قدر ما تستطيع الآن تتبع تاريخها — فى ذهن الكونت فنتزل أنطون فون كاونتز ، أقدر من أنجبته القارة الأوربية فى القرن الثامن عشر من الدبلوماسيين وأثقبهم بصيرة وأشدهم إصرارا . وقد قدر لحرب السنين السبع أن تكون صراعاً فى السلاح بين فردريك الأكبر والمارشال داون ، وصراعا فى الذكاء بين كاونتز . بت . يقول فردريك « إن للأمير كاونتز أحكم رأس فى أوربا(٥) » .

كانت أسرة كاونتز قد طلبت إليه أن يعد نفسه للقسوسية لأنه الأبن الثانى ، أما هو فأصبح فى دخيلة نفسه تلميذا لفولتير(٦) . ولما كان أبوه سفيراً لدى الفاتيكان وحاكما لمورافيا ، فقد ورث أبنه الدبلوماسية فى دمه . وهكذا أصبح وهو فى الحادية والثلاثين مبعوث النمسا فى تورين . وكانت أول رسالة منه إلى حكومته مبنية منطقيا على ملاحظة للحقائق السياسية بلغت من الدقة مبلغا حمل الكونت فون أولفلد على أن يقول لماريا تريزا وهو يعرضها : « هاك وزيرك الأول(٧) » . وفى عامه السابع والثلاثين كان المفوض النمساوى فى مؤتمر أكس لا شابل . وهناك دافع عن مصالح ماريا تريزاً بأصرار وبراعة جعلا الإمبراطورة حتى فى هزيمتها تشكر له خدماته واخلاصه . ولما فاتحها فى تاريخ مبكر (١٧٤٩) بخطة التحالف مع فرنسا ، تقبلت بذهن مفتوح فكرة معانقة العدو التقليدى لبيتها . لقد كانت

مصممة على هزيمة فردريك واستعادة سيليزيا ، ولكن كاونتز بين لهـا أن هذا محال بالتحالف مع انجلترة التى ركزت قوتها فى البحار ، إنما هو يتطلب التحالف مع فرنسا وروسيا اللتين تركزان قوتيهما فى اليابس . وبين شقى الرحى هذين — فرنسا وروسيا من ناحية ، والنمسا من ناحية — يمكن أن يسحق فردريك . وأمرت الإمبراطورة كاونتز بأن يسعى لتحقيق هذا الهدف المنشود .

وفى ١٧٥١ بعث سفيراً إلى باريس . وأدهش جماعة النبلاء ببهاء مقدمه الرسمى على المدينة ، وأبهج عامة الشعب باحساناته ، ورفه عن الصالونات بثيابه الفاخرة ، وتنوع عطوره وأسباب تجمله ، وخصل شعره المبدرة بعناية[٨] . قال عنه كارليل « رجل شديد الخيلاء ، غريب الأطوار ، وقح بعض الشىء[٩] » . ولكنه وقع فى نفس الملك ، وخليلته ، ووزرائهما ؛ موقعا طيباً بفضل اطلاعه على بواطن الأمور وحسن تقديره لشئون السياسة . وراح يعد أذهانهم بالتدريج للتحالف مع النمسا . فصور لهم إمكان اقناع روسيا ، وبولندة ، وسكسونيا ، بالإسهام فى تأديب فردريك . وتساءل ما الذى جنته فرنسا من وراء تحالفها مع بروسيا — اللهم إلا تضخيم قوة دولة برية تتحدى زعامة فرنسا على القارة ، ثم ألم يحنث فردريك المرة بعد المرة بعهده حين وجد الحنث فى صالحه ؟

وكان كاونتز يحرز تقدما طيباً حين استدعته ماريا تريزا إلى فيينا ليكون مستشاراً لهـا ، وخولت له كامل السلطة فى الشئون الداخلية والخارجية (١٧٥٣) وعارض النبلاء الشيوخ فى بلاط فيينا خطته طويلا ، فشرحها ودافع عنها فى صبر ، وأيدته الإمبراطورة ؛ وفى ٢١ أغسطس ١٧٥٥ نال اقتراح التحالف مع فرنسا الموافقة الرسمية للوزارة الإمبراطورية . وصدرت التعليمات للكونت جيورج فون شتارهمبرج ، الذى خلف كاونتز سفيرا فى باريس ، بأن يروج للخطة الكبرى فى كل فرصة تتاح له لدى لويس الخامس عشر ومدام ديومبادور . وأرسل كاونتز خطابا كلـه إطراء إلى « الخليلة الرسمية » (٣٠ أغسطس ١٧٥٥) أرفق به مذكرة رجاها أن

تسلمها للمث سراً . ففعلت . وكانت المذكرة من ماريا تيريزا ، وهذا نصها .

« إننى بصفتى إمبراطورة وملكة ، أعد بألا يذاع شىء على الإطلاق من كل ما سيعرضه الكونت شتارهمبرج باسمى على الملك المسيحى جداً ، وبأن يحتفظ دائماً بأعمق السرية فى هذا الأمر ؛ سواء نجحت المفاوضات أو فشلت . ومن المفهوم بالطبع أن الملك سيعطى إقراراً ووعداً مماثلين .

فيينا ، ٢١ يونيو ١٧٥٥[١٠] .

وعين لويس الأبيه دبرنيس والمركيزة دبومبادور للاجتماع سرا بشتارهمبرج فى جناحها « بابيول » . هناك إقترح السفير باسم الإمبراطورة أن تتخلى فرنسا عن تحالفها مع بروسيا ، وأن تتعهد بأن تقدم للنمسا على الأقل معونة مالية فى حالة نشوب الحرب . وقال إن فردريك حليف عديم الفائدة ، لا يركن إليه . ولمح بأن فردريك ، حتى فى تلك اللحظة ، مشغول باتصالات سرية مع الوزراة البريطانية . وتعد النمسا من جانبها بأن تمتنع عن أى عمل عدائى ضد فرنسا إذا دخلت فرنسا فى حرب مع انجلترة ، وفى حالة نشوب هـــذه الحرب تسمح النمسا لفرنسا باحتلال أوستند ونيويورت ، وقد تسمح نهائيا بأن تكون الأراضى المنخفضة النمساوية من نصيب فرنسا .

ولاحظ لويس أن هذا الميثاق سيورطه فى حرب نمساوية ضد بروسيا ، ولكنه لايلزم النمسا بأن تعين فرنسا على انجلترة . وكان له عذر فى أن يخشى جيش فردريك أكثر من الجيش النمساوى — الذى طالما هزم ، والذى كانت قيادته فى الحرب الأخيرة غاية فى السوء . فأمر لويس أن يرد بأن فرنسا لن تغير تحالفها مع بروسيا مالم تقدم لهـــا البراهين على اتصالات فردريك بانجلترة . ولم يستطع كاونتز حتى ذلك التاريخ أن يقدم هذه البراهين ، فتوقف سير خطته مؤقتا . ولكن حين تلقى لويس اعتراف فردريك بمعاهدة وستمنستر الانجليزية البروسية ، رأى أن تحالفه مع بروسيا مات فى الحقيقة والواقع . وربما خطر له ، وهو غارق فى آثامه ، أنه قد

يسترضى الله بتوحيد الدول الكاثوليكية — فرنسا ، والنمسا ، وبولندة ، واسبانيا — فى مخطط يهيمن به على مصائر أوربا[١١] . وعليه ففى أول مايو ١٧٥٦ أتمت معاهدة فرساى قلب الاحلاف رأسا على عقب . وأعلنت ديباجة المعاهدة أن هدفها الوحيد هو المحافظة على سلام أوربا وتوازن القوى . فإذا تعرض أحد الطرفين المتعاقدين لتهديد فى ممتلكاته الأوربية من أى دولة غير انجلترا ، خف الطرف الأخر لنجدته بالوساطة الدبلوماسية ، وبالمعونات المالية أو الجيوش إذا اقتضى الأمر . ولا تعد النمسا بمساعدة فرنسا ضد انجلترا ، ولا تعين فرنسا النمسا على بروسيا مالم تكن بروسيا هى المعتدية على نحو واضح . وإذ لم ير لويس أى احتمال لأن تعرض بروسيا مكاسبها للخطر بعودتها إلى مهاجمة النمسا ، فقد استطاع هـو وخليلته أن يوهما نفسيهما بأن الحلف الجديد يعين على السلام فى القارة .

لم يحقق كاونتز إلى الآن كل هدفه فى الحصول على المعونة الفرنسية ضد بروسيا . ولكنه تزرع بالصبر ، فلعله يستطيع إثارة فردريك ليهاجم النمسا ولم يجد أثناء ذلك صعوبة تذكر فى إقناع القيصرة بالأنضمام إلى الحلف الجديد ، فقد كانت اليزافينا تتوق إلى إزالة العقبة البروسية من طريق توسع روسيا غربا . وعرضت أن تهاجم بروسيا قبل نهاية عام ١٧٥٦ إن وعدت النمسا بأن تهاجمها هى أيضاً ، ووعدت بأنها فى هذه الحالة لن تعقد صلحا مع بروسيا إلا إذا ردت سيليزيا كاملة إلى النمسا . وأبهجها أن تعلم بأن فرنسا أبرمت معاهدة فرساى . واضطر كاونتز إلى كبح حماستها ، فهـو يعلم أن جيوشها لن تكون مهيأة لخوض حملة كبرى قبل ١٧٥٧ . فتريث حتى ٣١ ديسمبر ١٧٥٦ ، ثم وقع الاتفاقية التى أنضمت روسيا بمقتضاها إلى الحلف الفرنسى النمساوى .

وخلال ذلك كانت انجلترة ؛ الواثقة من أن تحالفها مع فردريك سيشل حركة النمسا ، قد بدأت فعلا عملياتها البحرية ضد فرنسا دون أى إعلان للحرب . وراحت السفن الحربية الانجليزية من يونير ١٧٥٥ تستولى على السفن الفرنسية كلما إستطاعت . وردت فرنسا بالأستعداد لغزو انجلترة ،

وبتجريد أسطول من خمس عشرة سفينة تحت إمرة الدوق دريشليو ليهاجم جزيرة مينورقة التى كان البريطانيون قد أستولوا عليها فى حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٩) . وتعزيزا للحامية البريطانية الصغيرة فى الجزيرة أرسلت بريطانيا عشر سفن يقودها الأميرال جون بينج ، وأنضمت إليها ثلاث سفن إضافية فى جبـــل طارق . وفى ٢٠ مايو ١٧٥٦ أشتبك الأسطولان العدوان قرب مينورقة . فهزم الفرنسيون ، ولكن الأسطول الانجليزى أصيب بأضرار حملت بينج على العودة به إلى جبل طارق دون محاولة لانزال تعزيزات على بر مينورقة . وسلمت الحامية العاجزة ، وأصبح لفرنسا الآن موقع استراتيجى فى البحر المتوسط . وأشاد القوم بريشليو بطلا فى باريس وفرساى ، وإعدم بينج على سطح سفينته فى ميناء بورتسموث (١٤ مارس ١٧٥٧) بتهمة عدم بذله قصارى جهده للأنتصار . وعبثا تشفع له فولتير وريشليو ، وقال فولتير إن هـــذا هو الأسلوب الذى تتبعه انجلترة فى « تشجيع الآخرين » الذين يتولون القيادات البريطانية . وفى ١٧ مايو ١٧٥٦ أعلنت انجلترة الحرب على فرنسا ، ولكن البداية الرسمية لحرب السنين السبع تركت لفردريك .

وكان عليما بأن فتحه لسيليزيا عرضه لمحاولة أستردادها فى أى وقت تجد فيه ماريا تريزا موارد وحلفاء جددا . وكانت موارده هـــو محدودة بشكل خطر ، ومملكته اخلاطا من الأوصال المقطعة ؛ فبروسيا الشرقية تفصلها بولندة عن بروسيا ، والإقاليم البروسية فى وستفاليا وفرزيا الشرقية تفصلها الدويلات الإلمانية المستقلة عن براندنبورج . وكان سكان بروسيا بما فيها هذه الاجزاء التمناثرة وسيليزيا يبلغون نحو أربعة ملايين نسمة عام ١٧٥٦ ، وسكان انجلترة ثمانية ملايين ، وسكان فرنسا عشرين مليونا . وكان شطر كبير من سكان بروسيا فى سيليزيا ، التى ظل نصفها كاثوليكيا متعاطفا مـــع النمسا . وعلى سبعة أميال فقط من برلين كانت حدود سكسونيا المعادية ، التى كان أميرها : الناخب ، أوغسطس الثالث ملك

بولندة الكاثوليكى ، ينظر إلى فردريك نظره إلى زنديق وقح جشع ؟ فكيف السبيل إلى البقاء وسط هذا المرجل الذى يغلى بالعداء له ؟

ليس إلا بالعقل الراجح ، والاقتصاد ، والجيش القوى ، والقواد الأكفاء ، أما عقله فقريع فى حدة ذكائه لأى عقل آخر ؛ وهـــو أفضل حكام عصره تعليما ، وقد أثبت جدارته فى رسائله وأحاديثه ، وجدله مع فولتير . ولكن لسانه كان أحد من أن يسمح العقل باطلاقه على الناس ، ولعل أموره كانت تجرى بأيسر مما جرت لو أنه لم يصف الزافيتا بتروفنا ، وماريا تريزا ، ومدام دبومباهور ، بأنهن « ثلاثة من كبار عاهرات أوربا[١٢] » ؛ ومن بواعث العزاء لنا أن نرى أنه حتى عظماء الرجال قد يسلكون مسلك الحمقى بين الحين والحين . أما عن اقتصاد بروسيا ، فأن فردريك أخضعه لسيطرة الدولة ولما رآه ضرورات لا غنى عنها لحرب ممكنة . فى هذه الظروف لم يجرؤ على تغيير الهيكل الإقطاعى للحياة البروسية مخافة أن يختل التنظيم الإقطاعى لجيشه . فلقد كان الجيش خلاصه ودينه . أنفق على صيانته تسعين فى المائة من موارده[١٣] وسماه « أطلس » الذى حملت كتفاه القويتان الدولة[١٤] . وزاده من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل خلفهم له أبوه حتى بلغ به ١٥٠,٠٠٠ فى ١٧٥٦ . ودربه بالعقوبات الصارمة على الطاعة الفورية الصارمة ؛ وعلى الصـــبر فى ثبات صوب الخط المواجه له دون أن يطلق طلقة حتى يصدر إليه الأمر ، وعلى تغيير إتجاهه ، والمناورة بكتلته كلها ، وهو تحت نيران العدو . وكان على رأس الجيش فى بداية الحرب خيرة القواد فى أوربا بعد فردريك نفسه — شفيرين ، وسيدلتز ، وجيمس كيث .

ولم يكن أقل من قواده أهمية أولئك الجواسيس الذين بثهم بين أعدائه ولم يترك له جواسيسه شكا فى أن ماريا تريزا تؤلف حوله نطاقا من القوى المعادية . وفى ١٧٥٣ — ١٧٥٥ حصل جواسيسه فى درسدن ووارسو على نسخ من رسائل سرية تبادلتها الوزارتان السكسونية والنمساوية ، أقنعته بأن هذين البلاطين يأتمران للهجوم على بروسيا وتقطيع أوصالها أن حالفهما الحظ ،

وأن فرنسا تتستر على المؤامرة[١٥]. وفى ٢٣ يونيو ١٧٥٦ أصدر أمره للقائد البروسى فى كونجزبرج بأن يستعد لمقابلة هجوم عليه من روسيا . وأبلغ الحكومة البريطانية بأن « لدى بلاط فيينا ثلاث خطط تشير إليها خطاه الحالية : أن يوطد حكمه الاستبدادى فى الإمبراطورية ، وأن يقضى على البروتستنتية ، وأن يعيد فتح سيليزيا[١٦] » . وعلم أن سكسونيا تدبر زيادة جيشها من سبعة عشر ألف مقاتل إلى أربعين ألفا خلال الشتاء[١٧] . وخمن أن الحلفاء يترقبون ربيع ١٧٥٧ ليزحفوا عليه من ثلاث جهات ، فصمم على أن يضرب ضربته قبل أن تكتمل تعبئة قواتهم .

وقد شعر أن فرصته الوحيدة للنجاة من الخطر الذى يتهدده هى شل حركة عدو واحد على الأقل من إعدائه قبل أن يستطيعوا توحيد صفوفهم فى مقاتلته . ووافقه شقرين ، ولكن أحد وزرائه المسمى الكونت فون بوديفيلس رجاه إلا يعطى اعداءه ذريعة لاتهامه بأنه المعتدى . ولقبه فردريك « السيد صاحب السياسة الجبانة[١٨] » وكان قبل ذلك بزمن طويل ، فى « ميثاق سياسى » سرى (١٧٥٢) قد نصح خليفته بأن يفتح سكسونيا فيتيح بفتحها لبروسيا الوحدة الجغرافية ، والموارد الاقتصادية ، والقوة السياسية التى لاغنى عنها لمن يريد البقاء[١٩] . ولكنه نحى الفكرة جانبا باعتبارها فكرة لا يقوى على تحقيقها . أما الآن فقد رآها ضرورة حربية فلا بد له من حماية حدوده الغربية بتجريد سكسونيا من السلاح .

وكان حتى فى كتابه القريب من المثالية . « المعارض لمكيافللى » (١٧٤٠) قد وافق على الحرب الهجومية إذا أريد بها الحيلولة دون هجوم داهم من العدو[٢٠] . وأخبره متشل ، الوزير البروسى فى إنجلتره ، أنه رغم رغبة الحكومة البريطانية القوية فى الحفاظ على السلام فى القارة ، فهى تدرك الضرورة القاهرة التى يواجهها فردريك ولن تعتبره « ملوما » على الإطلاق إذا هو حاول أن يسبق أعداءه بالهجوم بدلا من الإنتظار حتى ينفذوا فيه نياتهم العدائية[٢١] .

وفى يوليو ١٧٥٦ أوفد مبعوثاً إلى ماريا تريزا يطلب تأكيدا بأن النمسا

لا تنوى القيام بأى هجوم على بروسيا لا فى تلك السنة ولا فى السنة التالية. ورأى عضو فى الوزارة النمساوية أن الواجب إعطاء هذا التأكيد ؛ ولكن كاونتز رفض إرساله ؛ فكل ما تود ماريا تريزا أن تقول هو أنه « فى الأزمة الراهنة أراه ضروريا أن أتخذ تدابير لتأمين نفسى وحلفائى ، وليس من شأن هذه التدابير الإضرار بأحد[٢٢] » . وأرسل فردريك رسالة ثانية للامبراطورة يسألها جواباً صريحاً على طلب التأكيد ؛ فأجابت بأنها « لم تبرم حلفا هجوميا ، ومع أن موقف أوربا الدقيق يضطرها إلى التسلح ، فإنها لا تنوى خرق معاهدة درسدن (التى تعهدت فيها بمسالمة فردريك) ، ولكنها لن تربط نفسها بأى وعد يمنعها من التصرف وفقا لمقتضيات الظروف[٢٣] » . وكان فردريك يتوقع هذا الجواب ، وقبل أن يصله قاد جيشه إلى سكسونيا (٢٩ أغسطس ١٧٥٦) . وهكذا بدأت حرب السنين السبع .

٢ — طريد القانون

١٧٥٦ — ١٧٥٧

وبذل فردريك محاولة فاترة ليجند ناخب سكسونيا حليفا له ، فعرض عليه بوهيميا رشوة . وكانت ملكا لماريا تريزا . ولكن أغسطس احتقر هذا التصدق بمال الغير ، وأمر قواده بوقف زحف فردريك ، ثم فر إلى وارسو . وكانت القوة السكسونية أصغر من أن تقاوم أعظم جيش فى أوربا ، فانسحبت إلى القلعة فى بيرنا ، ودخل فردريك درسدن دون مقاومة (٩ سبتمبر ١٧٥٦) وأمر عملاءه للفور بأن يفتحوا المحفوظات للسكسونية ويأتوه بأصول تلك الوثائق التى كشفت من قبل عن اشتراك سكسونيا فى الخطة المرسومة لتأديب بروسيا وربما لتقطيع أوصالها . ووقفت الملكة الناخبة العجوز بشخصها لتحول دون الوصول إلى المحفوظات ، وطالبت فردريك بأن يحترم حقها فى عدم العدوان عليها . أما هو فأمر بازالتها من الطريق ، ففرت ، ووضع يده على الوثائق ؛

وأرسلت ماريا تريزا جيشا من بوهيميا لازاحة الغازى من مكانه ، فالتقى به فردريك وهزمه فى لوبوزيتس ، على الطريق من براغ إلى درسدن (أول أكتوبر) وعاد ليحاصر بيرنا ، فسلمت له (١٥ أكتوبر) ، وحشد الأربعة عشر ألف جندى من أسرى السكسونيين فى فرقه ، وحجته أن هذا أرخص له من اطعامهم وهم أسرى حرب ، فلقد كان شره الألمان للطعام أمرا مشهورا ولا فخر . وأعلن أنه فتح سكسونيا ، واستخدم مواردها لتلبية حاجاته . ونشر على الملأ خلال الشتاء الوثائق السكسونية . فزعمت ماريا تريزا أنها مزيفة ، واستنجدت بفرنسا وروسيا وكل المسيحيين الذين يخافون الله واستعدتهم على ذلك الرجل الذى زج بعدوانه الصارخ أوربا فى خضم الحرب من جديد .

واتفقت أوربا عموما على ادانة فردريك.وأعلنت الأمارات الألمانية الحرب على بروسيا (١٧ يناير ١٧٥٧) مخافة أن يحيق بها ما حاق بسكسونيا إذا انتصر فردريك ، وجمعت جيشا امبراطوريا لقتال ملك بروسيا . ولم يضيع كاونتز وقتا فى تذكير لويس الخامس عشر أن فرنسا قد وعدت النمسا بالمعونة إذا تعرضت للخطر . وألحت الدوقينة ؛ ابنة ناخب سكسونيا ، على حميها فى أن ينقذ أباها . أما مدام دبومبادور ، التى عللت نفسها من قبل بأمل الاستمتاع بملكها فى سلام ، فقد مالت الآن إلى الحرب . وتقديرا لمعوناتها أهدتها ماريا تريزا صورة ملكية رصعت بالجواهر وقدرت بمبلغ ٧٧،٢٧٨ جنيها ؛ [١٤] وانقلبت دبومبادور امرأة حربية . أما لويس الذى كان عادة بطىء الحسم ، فقد اتخذ قراره بعزيمة لاتنثنى . والتزمت فرنسا الآن بمقتضى معاهدة فرساى الثانية (أول مايو ١٧٥٧) بتحالف دفاعى هجومى مع النمسا ، وتعهدت لها بمعونة سنوية قدرها اثنى عشر مليون فلورين ، ووافقت على تجهيز جيشين ألمانيين ، وعرضت تخصيص قوة فرنسية قوامها ١٠٥،٠٠٠ مقاتل لتدمير بروسيا تدميرا تاما . » ووعدت بألا تعقد صلحا على الاطلاق مع بروسيا حتى ترد سيليزيا إلى النمسا . فإذا ردت حصلت فرنسا على خمس مدن حدود فى الأراضى الواطئة

النمساوية ، ونقلت ملكية هذه الأراضى الواطئة الجنوبية إلى ولية عهد أسبانيا البوربونية لقاء دوقيات أسبانية فى إيطاليا . ولعل فرنسا كانت تتخلى على وعى منها عن مستعمراتها للفتح البريطانى بتكريس مواردها كلها تقريبا لالتهام « بلجيكا » . واستطاع كاونتز أن يحس بأنه أحرز نصرا دبلوماسيا عزيزا .

ولم يجد الآن مشقة فى أن يستميل روسيا إلى مد يد العون النشيط إلى النمسا . وتعهدت روسيا والنمسا بمقتضى اتفاقية سانت بطرسبورج (٢ فبراير ١٧٥٧) بأن تضع كل منها ثمانين ألف جندى فى الميدان ، وأن تخوض الحرب إلى أن توحد سليزيا مع النمسا من جديد وتختزل بروسيا إلى دولة صغيرة . ثم اتجه كاونتز إلى السويد فأدخلها الحلف بأن كفل لها فى حالة الانتصار كل الشطر البومرانى الذى سلم لها فى معاهدة وستفاليا . وفرض على السويد أن تقدم ٢٥٫٠٠٠ مقاتل ، وعلى النمسا وفرنسا أن تمولا هذا الجيش . وتعهدت بولندة التى كان يحكمها الملك اللاجئ أوغسطس الثالث بتقديم مواردها المتواضعة إلى الحلف الفرنسى النمساوى ، وهكذا تكتلت ضد فردريك كل أوربا باستثناء إنجلترا ، وهانوفر ، والدنمرك ، وهولندة ، وسويسرة ، وتركيا ، وهسى — كاسل .

ووجدت إنجلترة من الأسباب ما يغريها بترك فردريك لمصيره . ذلك أن جورج الثانى رأى فى فزع أن موطنه المحبوب هانوفر الإمارة الناخبة التى قدم منها أبوه ليحكم بريطانيا ، وقفت عاجزة عن الدفاع عن نفسها فى طريق جيش عرمرم ، بينما كان فردريك أعجز من أن يقدم لهـا عونا ذا بال وبينه وبينها هذه الشقة والأعداء يشددون عليه النكير . وأصبح هذا الاغراء أمرا لا يكاد يقاوم حين عرض كاونتز عدم المساس بهانوفر إذا ظلت انجلترة بمعزل عن الحرب القاربة ؛ فى تلك اللحظة كان مصير فردريك فى خطر . وكان بت ، الذى عين وزيرا للخارجية فى ١٩ نوفبر ١٧٥٦ ميالا أول الأمر لترك بروسيا وهانوفر تذودان عن نفسيهما دون عون من الخارج ، بينما تركز انجلترة كل مواردها الحربية على

الصراع على المستعمرات ، لا عجب إذن أن يبغض جورج الثانى المتعلق بهانوفر وزيره بت ولكن بت لم يلبث أن غير رأيه . وصرح أن فرنسا المنتصرة على فردريك ستغدو سيدة على أوربا ، وعلى انجلترة أيضاً بعد قليل ، فعلى البرلمان إذن أن يوافق على إرسال المال لفردريك والجنود لهانوفر ، ولابد من أكراه فرنسا على استنزاف قوتها فى أوربا ، بينما تنتزع إنجلترة المستعمرات والاسواق من البحار التى تفتحها .

وعليه فى يناير ١٧٥٧ ، أبرمت بريطانيا حلفاً ثانياً مع بروسيا ، تعهدت فيه بالعون المالى لفردريك ، وبالجنود لهانوفر . ولكن حدث أن أقيل بت فجأة (٥ أبريل) وأربكت أهواء السياسة حكمتها ، وتعطل إرسال العون لفردريك ، وظل عاماً تقريباً يقف وحيدا ، ومعه ١٤٥,٠٠٠ مقاتل، أمام جيوش تحدق به من كل صوب ، ففى القرب ١٠٥,٠٠٠ مقاتل من فرنسا ، ٢٠,٠٠٠ من الدويلات الألمانية ، وفى الجنوب ١٣٣,٠٠٠ من النمسا ، وفى الشرق ٦٠,٠٠٠ من روسيا ، وفى الشمال ١٦,٠٠٠ من السويد . فى ذلك اليوم الذى شهد سقوط بت ، وسم الإمبراطور فرانسيس الأول — زوج ماريا تريزا ، اللطيف الوديع عادة — فردريك رسميا بأنه خارج على القانون ، ودعا كل الرجال الصالحين إلى تعقبه وتصيده لأنه عدو للنوع الإنسانى عاص فاجر .

من براغ إلى روسباخ (١٧٥٧)

فى ١٠ يناير أرسل فردريك إلى وزراته فى برلين تعليمات سرية : « يجب أن تجرى الأمور مجراها دون أدنى تغيير إن قتلت، وإن تعثر حظى فأسرت ، فإنى أمنع أقل اعتبار اشخصى ، أو أدنى التفات لأى شىء قد أكتبه وأنا فى الأسر . [٢٥]

وكانت لفتة عديمة الجدوى ، لأن بروسيا كانت ضائعة لا محالة بدون عبقريته الحربية . وكان أمله الوحيد فى ملاقاة أعدائه كل على حدة قبل أن يستطيعوا التجمع عليه . ولم يكن الفرنسيون مستعدين للمعركة ، وربما

استطاعت الفرق التى ترسلها انجلترا لهانوفر اعاقتهم برهة . أما النمساويون فيحشدون فى بوهيميا ومورافيا القريبتين مخازن هائلة من الأسلحة والمؤن لتجهيز جيوشهما لغزو سليزيا . وقرر فردريك أن يبدأ بالاستيلاء على هذه المخازن الثمينة ، ومقاتلة النمساويين ، ثم العودة لملاقاة الفرنسيين . فقاد قوته من سكسونيا ، وأمر دوق برنزويك — بيفرن من المانيا الشرقية ، والمرشال شيفرين من سيليزيا ، بالزحف فى بوهيميا وملاقاته فى التلال المشرفة على براغ من الغرب . وقد تم هذا ، واستولى فردريك على المخازن ، وفى ٦ مايوعلى مقربة من براغ ، التقى ٦٤٫٠٠٠ بروسى بجيش تساوى عدته ٦١٫٠٠٠ مقاتل تحت إمرة شارل أمير اللورين فى فاتحة المعارك الكبرى فى هذه الحرب .

ولم يكن الفاصل فى المعركة هو الكثرة ، ولا الاستراتيجية ، بل الشجاعة . ذلك أن فرق شيفرين زحفت تحت نيران النمساويين مخترقة المستنقعات والماء يغطى خصور الجند ثم اكتافهم . وأدركهم اليأس حيناً وهموا بالفرار ، فجمع شملهم شيفرين البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاما ولف العلم حول بدنه ، وركب رأسا فى مواجهة العدو ، فضرب بخمس رصاصات فى وقت واحد ، وخر صريعاً ، أما رجاله الذين كاد حبهم له يفوق خوفهم من الموت ، فقد حملوا على العدو فى غضبة مضرية ، وحولوا الهزيمة نصرا . وكان التقتيل فى الجانبين رهيباً ، وشملت خسائر فردريك أربعمائة ضابط وخير قائد عنده ، فى هذه الحرب لم يكن القواد يموتون حتف أنوفهم . وتقهقر من بقى من النمساويون وعددهم ٤٦٫٠٠٠ إلى القلعة فى براغ ، وتهيأوا لمقاومة الحصار .

ولكن فردريك وجد الحصار عسيرا ، لأن المرشال ليوبولد فون داون ، أكفأ القواد النمساويين ، كان قادماً من مورافيــا على رأس ٦٤٫٠٠٠ مقاتل آخرين . فسار فردريك شرقا يقود ٣٢٫٠٠٠ مقاتل بعد أن ترك جزءا من جيشه ليحاصر القلعة ، والتقى بالجحافل الزاحفة

عند كولن (١٦ يونيو) ، وكانت ميزة العدو عليه كبيرة جدا وبراعة داون الحربية فى هذه الحالة تفوق براعته . وعصى اثنان من قواد فردريك أوامره فأحدثوا خللا فى الجيش ، وفقد فردريك أعصابه وصاح بفرسانه المتقهقرين « هل أنتم مخلدون ؟ »(٢٦) . أما المشاه فرفضوا الزحف وقد هالهم التقتيل . وانسحب فردريك من ساحة القتال جزعا ، بعد أن ترك عليها ١٤٫٠٠٠ بروسى ما بين قتيل وجريح وأسير . وعاد بالأحياء وعددهم ١٨٫٠٠٠ إلى براغ ؛ وأقلع عن الحصار ورجع بما بقى له من جيشه صوب سكسونيا .

وفى لايتميريتس أراح جيشه ثلاثة أسابيع . وفى ٢ يوليو تلقى هناك نبأ موت أمه صوفيا دوروتيا . وانهار رجل الحرب الفولاذى ، وبكى ، واعتزل الناس يوما ، ولعله ساءل نفسه الآن ألم يكن هجومه على سيليزيا قبل سبعة عشر عاما إغراء أحمق زينته له ربة الانتقام . وشاطرته الحزن شقيقته فلهلمينى ، أميرة بايرويت ، التى أحبها أكثر من أى مخلوق آخر ، ففى ٧ يوليو أرسل إليها نداء يائساً بعد أن أوشكت كبرياؤه على النضوب :

ما دمت يا شقيقتى العزيزة تصرين على الاضطلاع بمهمة السلام العظمى فأرجوك أن تتفضلى بالكتابة الى المسيو دميرابو . . . ليعرض على السيدة المقربة (مدام دبومبادور سابقا كوتيون الرابعة) مبلغا يصل إلى ٥٠٠٫٠٠٠ كراون ثمنا للصلح . . . إنى أترك الأمر كله لك . . . أنت التى أعبدها ، والتى هى ذاتى الثانية ، وأن كنت أكثر منى كياسة بما لايقاس (٢٧) .

ولكن المحاولة لم تأت بنتيجة . فجربت فلهلمينى طريقة أخرى : كتبت إلى فولتير الذى كان يقيم فى سويسرا ورجته أن يستعمل نفوذه . ونقل فولتير اقتراحها الى الكردينال دتانسان ، الذى كان قد عارض فى الحلف

الفرنسي — النمساوى ، وحاول تانسان ولكنه أخفق[٢٨]، فقد كان الحلفاء يشمون ريح النصر وراحت ماريا تريزا تتحدث عن تمزق أوصال ملك فردريك إربا ، فلا يكفى أن ترد لها سيليزيا وجلاتز ، بل يجب أن تعطى مجدبورج وهالبرشتات إلى أوغسطس الثالث وتعود بومرانيا إلى السويد ويكافأ ناخب البالاتين بكليفز ورافنسبورج .

وقد بدت آمالها معقولة . ذلك أن « جيش الدوفينة » الفرنسى كان قد دخل ألمانيا ، وكان شطر منه بقيادة أمير سوبيز ، القائد الأثير لدى بومبادور ، فى الطريق للانضمام إلى الجيش الأمبراطورى عند إوفورت ، وزحف شطر آخر بقيادة المرشال دستربه ليلتقى بقوة هانوفرية يقودها الدوق كمبرلاند ، وهو ابن جورج الثانى . وعلى مقربة من قرية هاشتنبيك هزم الفرنسيون هذه القوة هزيمة منكرة (٢٦ يوليو) أكرهت الدوق على أن يبرم فى كلوستر — تسيفين (٨ سبتمبر) « اتفاقاً » تعهد بمقتضاه أن يمنع جنوده الهانوفريين من أى اشتباك مع فرنسا .

وربما بلغ فردريك نبأ هذا التسليم المذل تقريباً فى نفس الوقت الذى بلغته فيه الأنباء بأن جيشاً سويدياً نزل أرض بومرانيا ، وجيشاً روسيا عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة المرشال ستيبان أبراكسين غزا بروسيا الشرقية وسحق قوة من ٣٠,٠٠٠ بروسى عند جروس — ييجرزدورف (٣٠ نوليو) وكادت هذه الهزائم بالإضافة إلى الكارثة التى أصابته فى بوهيميا تقضى على أمل فردريك فى قهر أعداء بهذه الكثرة وهذا التعزيز باحتياطيات من العتاد والرجال . أما وقد كفر بفضائل المسيحية كما كفر بلا هوتها ، فإنه لجأ إلى أخلاقيات الرواقيين وفكر فى الانتحار . وظل إلى نهاية الحرب يحمل معه قنينة سم اذ عقد النية على ألا يضع أعداؤه أيديهم عليه إلا جثة هامدة . وفى ٢٤ أغسطس أرسل الى فهلمينى خطابا يسبح فيه بحمد الموت فيما يشبه الهستيريا :

« والآن يا مروجي الأكاذيب المقدسة ، امضوا فى سحب الجبناء من أنوفهم . . . أما أنا فقد انتهى فى نظرى سحر الحياة واختفت تعويذتها . ولست أرى فى الخلق جميعاً غير ألعوبة فى يد القدر ، فإن كان هناك حقاً كائن عابس لا يرحم ، يسمح لقطيع محتقر من المخلوقات بأن يتكاثر هنا ، فهو لا يرى لهم وزناً ، وهو ينظر من عليائه إلى مخلوق مثل فالاريس متوجاً ، أو مثل سقراط مكبلا بالأغلال ، إلى فضائلنا ورذائلنا ، إلى أهوال الحرب والأوبئة الرهيبة التى تدمر الأرض ، وكأنها أشياء لا تهمه. لذلك كان ملجأى الوحيد وملاذى الذى لا ملاذ غيره يا شقيقتى العزيزة ، إنما هو فى حضن الموت » .(٢٩)

وردت على خطابه (١٥ سبتمبر) بأن أقسمت أن تنتحر مثله :

يا شقيقى العزيز ، لقد كاد يقتلنى خطابك ، والخطاب الذى بعثت به إلى فولتير . يا إلهى القدير ، أى قرارات رهيبة ! أواه يا أخى العزيز ، تقول إنك تحبنى ، ومع ذلك فأنت تغمد خنجراً فى قلبى . إن خطابك جعلنى أذرف أنهاراً من الدموع . وأنا الآن خجلة من هذا الضعف . . . ومصيرك سيكون مصيرى . فلن أعيش بعد عثرات حظك وحظ البيت الذى أنتمى إليه . ولك أن تعتبر هذا قرارى الذى لن أحيد عنه .

« ولكن بعد هذا العهد دعنى أتوسل إليك أن تعود بفكرك إلى ما كان عليه العدو من حال سيئة وأنت مرابط أمام براغ . إنها دورة الحظ الفجائية تصيب الفريقين . لقد كان قيصر مرة عبداً للقراصنة ، ثم أصبح سيداً على العالم . وإن عبقرية هائلة كعبقريتك لتجد لها المنافذ حتى حين يبدو أن كل شىء ضاع . إننى أقاسى أكثر ألف مرة مما أستطيع ذكره لك ، ومع ذلك لا يفارقنى الأمل . . . على أن أختم الآن ، ولكنى سأظل دائماً ، مع أعمق الاحترام ، أختك فلهلمينى » .(٣١)

ولجأت إلى فولتير ليعزز رجاءها ، فأمن على حججها فى مطلع أكتوبر فى أول خطاب كتبه لفردريك منذ ١٧٥٣ . وقال :

« ان المقاتلين من أمثال كاتو وأوتو ، الذين ترى جلالتكم أن موتهم كان شرفاً لهم ، ما كان فى استطاعتهم أن يفعلوا شيئاً آخر غير القتـال أو الموت . » . يجب أن تذكركم من بلاط يرى فى غزوك لسكسونيا انتهاكا للقانون الدولى . . . وأن أخلاقنا ومركزك فى غير حاجه اطلاقا لهذه الفعلة (الانتحار) وحياتك ضرورية وأنت تعلم كم هى غالية فى نظر أسرة كثيرة العدد . . . وأحوال أوربا لاتستقر طويلا على أساس واحد ، والواجب على رجل مثلك أن يتماسك استعدادا للأحداث . . . ولو أن بسالتك أفضت بك إلى ذلك التطرف البطولى لما استحسنها الناس فانصارك سيدينونها ، وخصومك سينتصرون (٣١) » .

وأجاب فردريك نثرا وشعراً وقال :

« أما أنا المهدد بالغرق ، فعلى وأنا أتصدى للعاصفة أن أفكر ، وأحيا وأموت ملكا (٣٢) » .

وبين قصائد الشعر (التى نظمها دائما بالفرنسية) راح يبحث عن الجيش الفرنسى ، وتاقت نفسه الآن إلى معركة تحسم له مشكلة الحياة أو الموت. وحين كان فى ايبزج ، فى ١٥ اكتوبر أرسل فى طلب يوهان كرستوف جوتشيد (الذى كان يقرض الشعر بالألمانية) وحاول اقناعه بأن الشعر الألمانى ضرب من المحال . ففيه فرقعات كثيرة جداً — وحتى فى اسم الأستاذ هناك خمسة فى صف واحد ، فكيف تحدث اتساقا فى الأصوات من لغة كهذه ؟ واحتج جوتشيد . وكان على فردريك أن يعد لزحف جديد ؛ ولكن بعد عشرة أيام ، حين عاد إلى ليبزج ، استقبل الشاعر الشيخ ثانية ، ووجد متسعاً من وقته ليستمع إلى قصيدة غنائية بالألمانية من نظم جوتشيد ، وأهداه علبة نشوق ذهبية عربون الرضى وهو يودعه .

وخلال ذلك الفاصل الأدبى جاءته أنباء أسوأ : فقوة من الكروات يقودها الكونت هاديك ترحف على برلين ، والشائعات ترجف بأن الكتائب السويدية والفرنسية تزحف لتطبق على العاصمة البروسيه . وكان

فردريك قد ترك فيها حامية ولكنها أصغر كثيرا من أن تصد هذا السيل العارم : ولو سقطت برلين لوقع فى يد العدو أهم مصدر لامداداته من السلاح ، والبارود ، والملابس ، وهرع بجيشه لينقذ المدينة وأسرته . وخلال زحفه أنبىء بأن ليس هناك قوات فرنسية ولا سويدية تزحف على برلين ، وأن هاديك توقف فى ضواحى العاصمة واقتضى فدية قدرها ٢٧٫٠٠٠ جنيه من برلين ، ثم رحل بجنده الكروات راضيا (١٦ اكتوبر) . وجاءه نبأ آخر سرى عنه ، هو أن الروس بقيادة أبراكسين انسحبوا من بروسيا الشرقيه إلى بولندا بعد أن نال منهم المرض والجوع .

وأتته رسائل لم تشرح صدره ، تقول إن الجيش الفرنسى بقيادة سوبيز دخل سكسونيا ، ونهب المدن الغربية ، وانضم إلى الجيش الأمبراطورى الذى يقوده دوق ساكس — هيلدبورجهاوزن . وعاد الملك المرهق ادراجه ، وقاد جنده إلى قرب روسباخ ، على نحو ثلاثين ميلا غربى ليبزج .

هناك التقى جيشه المتعب الذى تقلص إلى ٢١٫٠٠٠ مقاتل فى خاتمة المطاف وجها لوجه بجيوش فرنسا والرايش وعدتها ٤١٫٠٠٠ مقاتل . ورغم هذا أشار سوبيز بعدم المجازفة بخوض المعركة ، وقال أنه خير منها المضى فى تجنب الإلتحام بفردريك وارهاقه بمسيرات عقيمة حتى يكرهه تفوق الحلفاء عددا وعدة على التسليم . وكان سوبيز عليما بانهيار النظام فى صفوف جيشه ، وافتقار جنود الرايش ومعظمهم من البروتستنت إلى الحماسة فى مقاتلة فردريك (٣٣) . غير أن هيلبورجهاوزن الح فى طلب القتال ، فأذعن سوبيز . وقاد القائد الألمانى جيشه على منعطف طويل ليهاجم البروسيين على ميسرتهم . فما كان من فردريك وهو يرقب العدو من سطح بيت فى روسباخ إلا أن أمر فرسانه بقيادة سيدلتز أن يقوموا بحركة مضادة على ميمنة العدو . وحمل الفرسان البروسيون ، وعدتهم ٣و٨٠٠ مقاتل ، تحجبهم التلال وهم يسيرون بسرعة مدربة ، على وجود الحلفاء من تحتهم وهزموهم قبل أن يستطيعوا اعادة تشكيل صفوفهم .

وأقبل الفرنسيون بعد الأوان ، فمزقتهم المدفعية البروسية أشد تمزق ، وما مضت تسعون دقيقة حتى انتهت معركة روسباخ الفاصلة (٥ نوفمبر ١٧٥٧) . وتقهقر الحلفاء فى فوضى تاركين ٧٠٠ر٧ قتيل فى ساحة القتال ، أما البروسيون فلم يفقدوا غير ٥٥٠ رجلا . وأمر فردريك بالرفق بالأسرى : ودعا الضباط المأسورين إلى مائدته : وفى كياسه وظرف فرنسيين اعتذر عن قلة الطعام قائلا :

Mais, messieurs, Je ne vous attendais pas si tot, en si grdànd nombre.

« ولكنى أيها السادة لم أتوقع مجيئكم بهذه السرعة ، وبهذه الكثرة[٣٤]

وتعجب العسكريون من جميع الأطراف من ذلك البون الشاسع فى الخسائر ، ومن براعة القيادة التى أتاحت هذه النتيجة : وحتى فرنسا اعترفت باعجابها ، ولم يستطيع الشعب الفرنسى الذى كان حليفا لبروسيا حتى الأمس القريب أن ينظر بعد إلى فردريك نظرته إلى عدو لهم : ألم يكن يجيد الحديث والكتابة بالفرنسية ؟ دهشت جماعة الفلاسفة لإنتصاراته وأشادوا به مكافحا عن حرية الفكر أمام الظلامية الدينية التى يحاربونها فى وطنهم [٣٥] واستجاب فردريك لعواطف الفرنسيين النبيلة فقال : (لم أعتبر الفرنسيين أعداء لى) [٣٦] ولكنه كتب سرا — بالفرنسية — قصيدة أعرب فيها عن اغتباطه بأن ركل الفرنسيون فى (إستهم) وهى كلمة ترفق كارليل فترجمها (مقعدة الشرف)[٣٧] .

واغتبطت انجلترة معه ، وجددت ايمانها بحليفها . واحتفلت لندن بعيد ميلاده بالصواريخ فى شوارعها ، وأشاد المثوديون الأتقياء بهذا الزنديق منقذا للمذهب الحق الوحيد . وكان بت قد أعيد لبرأس الحكومة (٢٩ يوليو ١٧٥٧) ، فغدا منذ الآن النصير الثابت الوفى للملك البروسى . وقال فردريك (لقد أنفقت انجلترة وقتا طويلا لتنجب رجلا عظيما كفئا لهذا الصراع ، ولكن هاهو قد جاء فى النهاية [٣٨]) ، وندد بت باتفاقية كلوستر — تسيفين لأنها ليست إلا جبنا وخيانة — وذلك رغم

أن ابن الملك وقعها ، ثم أقنع البرلمان بأن يرسل جيشا أفضل لحماية هانوفر ومعاونة فردريك (اكتوبر) ، وبينما كان المبلغ الذى أقره البرلمان من قبل لجيش كمبرلاند (جيش المراقبة) لايزيد عن ١٦٤٫٠٠٠ جنيه ، وافق الآن على ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنية لتمويل (جيش عمليات) ؛ واتفق بت وفردريك على أن يختار لقيادة هذه القوة الجديدة صهر فردريك وتلميذه الحربى ، الدوق فرديناند البرنزويكى ، البالغ من العمر ستة وثلاثين عاما ، الرجل الوسيم ، المثقف ، الشجاع ، الذى قال عنه بيرنى أنه يجيد العزف على الكمان إجادة كان يمكن أن يجمع من ورائها ثروة طائلة (٣٩) . هاهنا أداة صالحة صلاحية رفيعة لمصاحبة ناى فردريك .

٤ — الثعلب يكره على الدفاع

١٧٥٧ — ١٧٦٠

لم يتح لفردريك متسع من الوقت للابتهاج ، فما زال جيش فرنسى بقيادة ريشليو واضعاً يده على جزء كبير من هانوفر . وفى اليوم الذى وقعت فيه معركة روسباخ ضرب ٤٣,٠٠٠ نمساوى الحصار على شفايدنتز ، أهم معقل ومستودع للبروسيين فى سيليزيا . وكان فردريك قد ترك بها ٤١,٠٠٠ رجل ولكن عددهم تناقص إلى ٢٨,٠٠٠ نتيجة الهروب أو الموت ، وكان على رأسهم قائد غير كفء هو دوق برنزويك — بيفرن ، الذى تجاهل أمر الملك بمهاجمة المحاصرين ، وفى ١١ نوفمبر سلم الحصن ، وسلم للنمساويين ٧,٠٠٠ أسير ، و ٣٣٠,٠٠٠ طالر ، ومؤناً تكفى لإعاشة ٨٨,٠٠٠ رجل مدى شهرين . وواصل المنتصرون السير إلى برزلاو ، بعد أن زاد ، عددهم إلى ٨٣,٠٠٠ بفضل انضمامهم إلى قوات يقودها الأمير شارل والمارشال داون ؛ وفى ٢٢ نوفمبر قهروا قوة صغيرة من البروسيين ، وسقطت برزلاو ورد معظم سيليزيا الآن إلى ماريا تريزا الظافرة . وحق لفردريك أن يشعر أن انتصاره فى روسباخ قد بطل مفعوله .

ولكن ذلك الانتصار كان قد جدد شجاعته ، فلم يعد يتحدث عن الانتحار . كذلك كان جيشه قد أفاق من مسراته ومعاركه ، وبدا ساخطاً على الغارات التى دنس بها الجنودالفرنسيون الكنائس الكاثوليكية فى سكسونيا وناشد فردريك رجاله أن يعينوه على استرداد سيليزيا . فساروا ١٧٠ ميلا فى إثنى عشر يوماً قارسة البرد ، مخترقين أرضاً وعرة. وانضم إليهم فى الطريق فلول القوات البروسية التى هزمت فى شفايدنتز وبرزلاو . وفى ٣ ديسمبر لمح فردريك ومعه ٤٣ ألف مقاتل تمساوياً من ٧٢,٠٠٠ مقاتل يعسكر قرب لويتن على الطريق إلى برزلاو. فى ذلك المساء خطب فردريك فى كبار ضباطه سبق به خطب نابليون الحربية الرنانة ، قال :

« أيها السادة ، أنكم لاتجهلون أى نكبات حلت بنا هنا بينما كنا مشتبكين مع الجيوش الفرنسية والامبراطورية . فلقد ضاعت شفايدنتز . .. وضاعت برزلاو ومعها كل مستوعادتنا الحربية ، وضاع أكثر سيليزيا . ولولا ثقتى التى لاحد لها بشجاعتكم وولائكم وحبكم لوطنكم ، لمـــا أفقت من عوامل ضيقى وارتباكى .. فليس بينكم رجل لم يبرز بعمل ممتاز من أعمال البطولة لذلك أعالل نفسى بأنكم فى الفرصة القادمة لن تضنوا بأى تضحية يطالبكم بها الوطن .

والفرصة سانحة الآن . وإننى لأشعر أننى لم أحقق شيئاً لو تركت سليزيا فى قبضة النمسا . فدعونى إذن أخبركم إننى أنوى مهاجمة جيش الأمير شارل — وهو ثلاثة أضعاف جيشنا — أينما لقيته : متحدياً فى ذلك جميع قواعد فن الحرب . فليست العبرة بكثرة جنده أو قوة موقعه ، فأنا آمل — بفضل بسالة جنودنا ، وتنفيذ خططنا بعناية — أن أذلل هـــذا كله . ولا مندوحة لى عن اتخاذ هذه الخطوة ، وإلا دفنا تحت مدافعه . كذلك أرى الموقف ، وكذلك سأتصرف .

فأبلغوا تصميمى إلى جميع ضباط الجيش ، وأعدوا الجنود للعمل الذى لابد آت ، وأخبروهم أننى أشعر بأن لدى من الأسباب مايبرر مطالبتى إياهم بتنفيذ الأوامر بكل دقة . أما أنتم ، فهل يخطر ببالى — وأنا أذكر

أنكم بروسيون — أنكم ستتصرفون تصرفاً غير نبيل ، ولكن إذا كان بينكم رجل يخاف أن يشاطرني جميع المخاطر (وهنا تفرس فردريك في كل وجه بدوره) فبي استطاعته أن يسرح هذا المساء ، دون أدنى لوم مني . . . .

كنت عليما بأن أحداً منكم لن يتركني . وعليه فأنا معتمد كل الاعتماد على معونتكم الصادقة ، وعلى النصر الأكيد . فإن مت قبل أن أجزيكم على إخلاصكم فلا بد أن الوطن فاعل . عودوا الآن إلى معسكركم وانقلوا إلى جنودكم ماسمعتموه مني .

وسأجرد فرقة الفرسان التي لا تلقى بنفسها فور سماع الأمر على العدو بمجرد انتهاء المعركة ، وأحيلها إلى فرقة حامية . أما كتيبة المشاة ، حتى أن بدأت تتردد ، أياً كان الخطر الذى تواجهه ، فإنها ستفقد رايتها ، وسيوفها ، والنوط الذهبي من ستراتها .

« الآن طابت ليلتكم أيها السادة . عما قليل سنكون قد هزمنا العدو ، وإلا فلن يرى بعضنا البعض بعد اليوم »(٤٠) .

وكان النمساويون إلى الآن يتحاشون الالتحام فى معركة مع فردريك متبعين فى ذلك سياسة فابيوس الرومانى ، وترددوا فى وضع جنودهم وقوادهم أمام انضباط الجيش البروسى وعقبرية فردريك التكتيكية ، أما الآن بعد أن شجعهم كثرة جيوشهم وانتصاراتهم الأخيرة ، فقد قرروا مواجهة الملك فى المعركة مخالفين فى ذلك نصيحة المرشال داون . وعليه . ففى ٥ ديسمبر ١٧٥٧ زحفت هــذه البيادق فى لعبة المنافسة بين الأسر المالكة — ٤٣,٠٠٠ مقابل ٧٣,٠٠٠ — على سيوف بعضهم بعض ومدافعهم فى أعظم معارك هذه الحرب . يقول نابليون : « كانت تلك المعركة آية من الأيات وهى وحدها تبوىء فردريك مكاناً فى الطليعة بين القواد »(٤١) وقد استهلها بمحاولة الوصول إلى التلال تمكيناً لمدفعيته من إطلاق نيرانها فوق رؤس مشاته لتصيب صفوف العدو . ووزع جنوده بنظام منحرف استعمله قديمــاً ابامينونداس الطيبى ، بحيث تتحرك طوابير منفصلة بزاوية ٤٥ درجة تقريباً

لتضرب العدو من الجنب فتشيع الخلل فى خط دفاعه . وتظاهر فردريك بأنه يوجه أقوى ضغوطه إلى الميمنة النمساوية ، فأضعف الأمير شارل ميسرته تعزيزا للميمنة ، وهنا صب فردريك خيرة رجاله فوق الميسرة التى تناقصت ، فدمرها ، ثم انقلب ليهاجم الجناح الأيمن فى جيشه، بينما هبط الفرسان البروسيون على الجناح ذاته من مخبئهم فى التلال . وانتصر النظام على الفوضى ، فسلم النمساويون أو لاذوا بالفرار ، وأسر منهم ٢٠٫٠٠٠ — وهو صيد لم يسبق له نظير فى تاريخ الحرب [٤٢]) ، وترك ٣٫٠٠٠ آخرون قتلى ، ووقعت ١١٦ قطعة من قطع المدفعية فى أيدى البروسيين . كذلك كانت خسائر البروسيين كبيرة — ١٫١٤١ قتلى ، و٥٫١١٨ جرحى، و٨٥ أسرى . فلما انتهت المذبحة شكر فردريك قواده قائلا : (هذا اليوم سيذيع أسمكم واسم أمتكم إلى آخر الدهر[٤٣]) .

وواصل المنتصر انتصاره فى عزيمة صادقة ليسترد سيليزيا . فلم يمضى يوم على المعركة حتى حاصر جيشه الحامية النمساوية فى برزلاو . وأقام قائدها شبريشر اللافتات فى أرجاء المدينة ينذر فيها بالموت الناجز كل من يهمس بكلمة تسليم ، ولكن لم ينقض اثنا عشر يوما حتى سلم (١٨ ديسمبر) واستولى فردريك هناك على ١٧٫٠٠٠ أسيرا وعلى مخازن حربية ثمينة . وما لبثت سيليزيا كلها أن عادت إلى قبضة البروسيين باستثناء شفايدنتز ذات الحامية الكبيرة والحصون المنيعة . واعتكف الأمير شارل فى ضيعته بالنمسا بعد أن وجد نفسه ذليلا أمام لوم داون الصامت، ونصح برنيس وغيره من الزعماء الفرنسين لويس الخامس عشر بعقد الصلح ولكن دبومباور تغلبت عليهم ، وأحلت الدوق دشوازيل وزيرا للشئون الخارجية محل برنيس (١٧٥٨) ، بيد أن فرنسا فقدت حماستها للحرب إذ خامرها الشعور بأنها تحارب دفاعاً عن النمسا بينما تضحى بمستعمراتها . أما ريشليو فلم يبد حماسة تذكر ، ولا رغبة صادقة فى مواصلة الافادة من ميزته فى هانوفر ، بحيث استدعى من قيادته للجيش (فبراير ١٧٥٨) وعين بدلا منه الكونت دكليرمون ، وهو رئيس دير صرح له البابا بأن

يحتفظ بدخل منصبه الدينى وهو يلعب دور القائد [٤٤] : وأخلى الفرنسيون هانوفر أمام خطى الزحف المصممة التى تقدم بها الدوق فريناند البرنزويكى، فسلموا له ميندن فى مارس ، وما لبثت وستفاليا كلها أن حررت من قبضة الفرنسيين الذين بغضوا الشعب فيهم هنا أيضاً بأعمال النهب والتدمير[٤٥]. وزحف فرديناند غربا وهزم قوة كليرمون الرئيسية بقوة لا تزيد على نصف رجال العدو فى كريفيلد على الرين (٢٣ يونيو) ، وسلم كليرمون موقعه للدوق دكونتا ، وانضم سوبيز إلى الجيش المهزوم بامداد فرنسية جديدة وفلول من مقاتلى معركة روسباخ ، وأمام هذه القوة المتحدة تقهقر فرديناند إلى مونستر وبادربورن .

وتشجعت انجلترة بموسم الانتصارات هذا ، فأبرمت (١١ أبريل) معاهدة ثالثة مع فردريك ، ووعدته فيها بمعونة قدرها ٦٧٠٫٠٠٠ جنيه قبيل أكتوبر ، وتعهدت بعدم إبرام صلح منفرد [٤٦] . وفرض فردريك أثناء ذلك ضرائب على سكسونيا وغيرها من الأقاليم التى فتحها ، مسويا فى ذلك بينهما وبين بروسيا التى أرهقت بالضرائب : وأصدر عملات مغشوشة ، واستأجر (كفولتير) الماليين اليهود ليعقدوا له صفقات رابحة بالعملة الأجنبية[٤٧]، فما حل ربيع ١٧٥٨ حتى كان قد أعاد بناء جيشه فأبلغه ١٤٥٫٠٠٠ مقاتل . وفى أبريل هاجم شفايدنتز واستردها ، وتحرك صوب الجنوب على رأس ٧٠٫٠٠٠ مقاتل إلى أولموتز فى موافيا متحاشيا الإلتقاء بالجيش النمساوى الرئيسى (الذى نظم من جديد تحت قيادةداون) وعلل نفسه بالزحف على فيينا ذاتها إذا استطاع الإستيلاء على هــذا الحصن النمساوى .

ولكن فى نحو هذا الوقت ذاته اكتسح ٥٠٫٠٠٠ روسى يقودهم كونت فيرمور بروسيا الشرقية وهاجموا كوسترين ، التى لاتبعد عن برلين شرقا سوى خمسين ميلا ، وترك فردريك حصارا أولموتز وهرع الى الشمال على رأس ١٥٫٠٠٠ مقاتل . وفى الطريق نمى إليه بنأ مرضى

فلهلمينى الذى بلغ مرحلة التأزم ، فتوقف فى جروساو ليرسل لها رسالة قلقة قال فيها « ياأعز أهلى ، ياأقرب إلى قلبى فى هذه الدنيا — لأجل كل ماهو غال عزيز لديك ، احتفظى بحياتك ، ودعينى اتعزى بزرف الدموع على صدرك »(٤٨) .

وبعد أن واصل السير أياماً وليالى انضم إلى قوة بروسية يقودها الكونت تسودولا قرب كوسترين . وفى ٢٥ أغسطس ١٧٥٨ ، وبقوة قوامها ٣٦,٠٠٠ رجل التقى بجيش فيرمور وعدته ٤٢,٠٠٠ روسى عند تسورندورف . واستحال عليه هنا استعمال تكتيكه المفضل ، وهو الهجوم على الجناح ، بسبب الأرض المليئة بالمنافع ، وتبين أن فيرمور لا يقل عن فردريك براعة فى القيادة وقاتل الروس ببسالة وإصرار ندر أن عرفها البروسيون فى النمساويين أو الفرنسيين وكسب سيدلتز وفرسانه ما أمكن أن يقع لهم من أمجاد يوم تنافس فيه العدوان فى التقتيل . وتقهقر الروس فى نظام حسن تاركين ٢١,٠٠٠ بين قتيل وجريح وأسير ؛ وخسر البروسيون ١٢,٥٠٠ بين قتيل وجريح و ١,٠٠٠ أسير .

ولكن منذا الذى يستطيع مواصلة القتال على كل هذه الجبهات فى وقت واحد ؟ بينما كان فردريك فى الشمال قاد داون جيشه إلى نقطة اتصل فيها بالفرق الإمبراطورية ، وشرع الآن فى حصار درسدن التى كان فردريك قد ترك فيها حامية بقيادة الأمير هنرى . وزحفت قوة من ١٦,٠٠ سويدى مخترقة بومرانيا ، وانضمت إلى الروس فى تدمير شطر كبير من إمارة برندنبورج ؛ وربما استطاعت معهم تهديد برلين ثانية . ودخل جيش جديد من ٣٠,٠٠٠ نمساوى ومجرى ، يقودهم الجنرال هارش ، سيليزيا واتجه إلى برزلاو . فأى هذه العواصم الثلاث يجب الدفاع عنها أولا ؟ وزحف فردريك بجيشه بسرعة اثنين وعشرين ميلا فى اليوم مخترقاً بروسيا إلى سكسونيا ، بعد أن أعاد تنظيم جنوده الذين ثبطت همتهم وأخذوا الآن يتمردون ، فوصل إلى صهره المحاصر فى الوقت المناسب لثنى داون عن الهجوم وبعد أن أراح رجاله أسبوعين ، انطلق ليطرد هارش من سيليزيا وعند هوخكيرش بسيليزيا سد عليه داون الطريق . فضرب فردريك خيامه قرب العدو ، وانتظر

أربعة أيام وصول المؤن من درسدن . وفجأة ، فى الخامسة من صباح ١٤ أكتوبر ١٧٥٨ ، هاجم داون جناح البروسيين الأيمن ، وكان فردريك قد اطمأن إلى أنه سيتجنب المبادأة . وتخفت حركة النمساويين وراء ضباب كثيف ، وأخذ البروسيون على غرةوهم نيام فعلا ، فلم يتسع الوقت لتكوين الخطوط التكتيكية التى رسمها فردريك . وعرض فردريك نفسه للخطر فى تهور وهو يحاول استعادة النظام ، فوفق فى ذلك ، ولكن بعد أن فات أوان إصلاح الموقف . وبعد خمس ساعات من قتال اشتبك فيه ٣٧,٠٠٠ بيدق مع ٩٠,٠٠٠ ، أعطى الإشارة للتقهقر ، تاركا ٩,٤٥٠ رجلا على ساحة المعركة مقابل ٧,٥٩٠ خسرهم النمساويون .

وعاد يفكر فى الانتحار . فأمام قائد كفء كداون يقود النمساويين ، وأمام قائد كفء كسالتيوكوف يحشد جيشاً روسياً جديداً ، وأمام قواته المضمحلة عدداً ، ونوعاً ونظاماً ، فى الوقت الذى يستطيع فيه أعداؤه تعويض أى خسارة ، أمام هذا كله وضح أن لا أمل فى انتصار البروسيين إلا بمعجزة ، وفردريك لا يؤمن بالمعجزات ، ففى غداة هوخكيرش اطلع قارئه ديكات على « دفاع عن الانتحار » كان قد كتبه ، وقال له « فى استطاعتى أن أختم المأساة حين أشاء »[٤٩] . فى ذلك اليوم (١٥ أكتوبر ١٧٥٨) ماتت فلهلمينى تاركة تعليمات بأن توضع خطابات أخيها على صدرها فى قبرها[٥٠] . وناشد فردريك فولتير أن يكتب شيئاً فى ذكراها ، فاستجاب فولتير ، ولكن قصيدته « للنفس الباسلة النقية »[٥١] لم تستطع أن ترقى إلى مستوى الحرارة والبساطة اللتين نجدهما فى رثاء الملك الذى ضمنه « تاريخ حرب السنين السبع » قال :

« إن طيبة قلبها ، وأريحتها وسماحتها ، ونبل روحها وسموها ، وحلاوة طبعها ، جمعت فيها مواهب العقل اللامعة مع أساس من الفضيلة المكينة . وكان يربط الملك (وقد استعمل فردريك لفظ الغائب) بهذه الشقيقة الفاضلة أرق صداقة وأثبتها وقد تكونت هذه الروابط فى بواكير صباهما ، ثم وثق بينهما اشتراكهما فى تربية واحدة وعواطف واحدة ، وأصبحت هذه الروابط لا تقبل الانفصام بفضل وفائهما المتبادل فى كل امتحان يبتليان به »[٥٢] .

وأتى الربيع بمزيد من الجيوش الفرنسية فى ساحة القتال. فى ١٣ أبريل ١٧٥٩ فى بيرجن (قرب فرانكفوت على المين) أذاقت قوة يقودها دبرولى بكفاية فرديناند البرنزويكى طعم الهزيمة . ولكن فرديناند كفر عن هزيمته فى مندن ؛ فهناك (أول أغسطس) بجيش قوامه ٤٣,٠٠٠ ألمانى، وإنجليزى، واسكتلندى هزم ٦٠,٠٠٠ فرنسى يقودهم برولى وكونتار هزيمة منكرة ؛ وبخسارة قليلة جداً نسبياً ، بحيث استطاع أن يرسل ١٢,٠٠٠ جندى إلى فردريك ليعوض عما حل بجيش الملك من ضعف إثر حملة مشئومة فى الشرق .

ذلك أنه فى ٢٣ يوليو قهر جيش سالتيكوف المؤلف من ٤٠,٠٠٠ روسى وكرواتى وقوازق ، عند تسوليشاو ، جيشاً بروسيا قوامه ٢٦,٠٠٠ مقاتل كان فردريك قد تركهم لحراسة مداخل البلاد من بولندة إلى برلين ، ولم يقف الآن شىء فى طريق سيل روسى عرم قد يتدفق على العاصمة البروسية . ولم يكن أمام الملك من سبيل إلا الاعتماد على صهره ليدافع عن درسدن أمام داون ، بينما سار هو بنفسه للقاء الروس ، ووصلته التعزيزات فى الطريق ، فاستطاع أن يحشد ٤٨,٠٠٠ مقاتل ، ولكن ١٨,٠٠٠ نمساوى يقودهم الجنرال لاودون كانو أثناء ذلك قد انضموا إلى الروس ، فبلغ مجموع جيش سالتيكوف ٦٨,٠٠٠ . وفى ١٢ أغسطس ١٧٥٩ التحم هذان الجيشان — اللذان كانا أضخم كتلتين من اللحم البشرى القابل للاستهلاك منذ المذابح التى تبارى فيها الأعداء فى حرب الوراثة الاسبانية — وخاصا عند كونرزدوف (على ستين ميلا شرقى برلين) أقسى معارك هذه الحرب — وأفجعها على فردريك . فبعد قتال دام اثنتى عشرة ساعة لاح أن الحظ فى جانبه ، وهنا هجم رجال لاودون الاحتياطيون — وعددهم ١٨,٠٠٠ — على البروسيين المنهوكى القوى وطاردوهم فى هزيمة نكراء . واقتحم فردريك كل خطر ليلم شعث جنوده ، وقادهم بشخصه ثلاث مرات فى الهجوم ، وضربت بالنار ثلاثة جياد من تحته ، وأوقفت علبة ذهبية صغيرة فى جيبه رصاصة كان يمكن أن تودى بحياته . ولم يكن سعيداً بفكرة الهروب ، فصاح « هلا أصابتنى طلقة لعينة ؟ » (٥٣) وتوسل إليه جنوده أن ينجو بنفسه ،

ولم يلبثوا أن ضربوا له المثل بأنفسهم فناشدهم قائلا : « ياأبنائى لا تتركونى الآن ، أنا مليككم ، وأبوكم ! » ولكن مامن حض كان قادراً على اقناعهم بالتقدم مرة أخرى . فلقد حارب الكثيرون منهم ست ساعات تحت شمس محرقة ، دون وقت أو فرصة يتناولون فيها قدحاً من الماء . فلاذوا بالفرار وأخيراً لحق هو بهم ، مخلفاً وراءه ٢٠,٠٠٠ مابين أسير ، وجريح ،وقتيل مقابل خسارة للأعداء قدرها ١٥,٧٠٠ . وبين الذين جرحوا جروحاً مميتة إيفالد فون كلايست ، أعظم شعراء العصر الألمانى .

وحالما وجد فردريك مكاناً يستريح فيه أرسل إلى الأمير هنرى رسالة يقول فيها « لم يبق لى فى هذه اللحظة سوى ٣,٠٠٠ من جيش بلغ ٤٨,٠٠٠ مقاتل، ولم أعد السيد المسيطر على قواتى .. أنها لكارثة فادحة ، ولن أعيش بعدها » . وأبلغ قواده أنه يوصى بالقيادة للأمير هنرى . ثم أرتمى على بعض القش واستغرق فى النوم .

وفى الغد وجد أن ٢٣,٠٠٠ من الهاربين من المعركة عادوا إلى فرقهم خجلين من هروبهم ، مستعدين للعودة إلى خدمته إن لم يكن لشيء فلأنهم يتوقون إلى الطعام . ونسى فردريك أن يقتل نفسه ، وبدلا من هذا أعادتنظيم هؤلاء وغيرهم من الجنود المساكين فى جيش جديد بلغ رجاله ٣٢,٠٠٠ ، واتخذ له موقعاً على الطريق من كونرزدورف إلى برلين ، متوقعاً أن يبذل آخر محاولة لحماية عاصمته . ولكن سالتيكوف لم يأت . فرجاله أيضاً يجب أن يطعموا ، لأنهم كانوا فى أرض العدو ووجدوا الحصول على الطعام محفوفاً بالخطر ، وخط المواصلات مع بولندة طويل وغير مأمون . ورأى سالتيكوف أن قد آن الأوان ليأخذ النمساويون دورهم فى قتال فردريك .ومن ثم أصدر أمره بالتقهقر .

ووافق داون على أن الخطوة التالية يجب أن تكون خطوته وأحس بأن هذا هو وقت الاستيلاء على درسدن . وكان الأمير هنرى قد سحب قوة من المدينة لتنجد فردريك ، ولم يترك سوى ٣٠,٠٠٠ مقاتل لحراسة القلعة ، ولكن التحصينات القوية كانت قد أقيمت لصد الهجوم . وكان القائد الجديد

فى درسدن ، وهوكورت فون شمتاو ، خادماً وفياً للملك ، ولكنه حين تلقى كلمة من فردريك ذاته ، بعد كونرزدورف ، بأن كل شىء قد ضاع ، يئس من المقاومة المجدية . وكان جيش امبراطورى عدته ١٥,٠٠٠ مقاتل قادماً على درسدن من الغرب ، وداون ماض بهمة فى قذف المدينة بالمدافع من الشرق. وعليه فنى ٤ سبتمبر سلم شمتاو ، وفى ٥ سبتمبر جاءته رسالة من فردريك تأمره بالمقاومة لأن المدد فى الطريق إليه .. وأحال داون ، ومعه ٧٢,٠٠٠ مقاتل ، درسدن مقراً شتوياً لجيشه الآن . ووصل فردريك إلى فرايبورج القريبة منها وعسكر فى الشتاء بنصف هذا العدد .

وكان شتاء ١٧٥٩ — ١٧٦٠ قارس البرد جداً . فظل الثلج يكسوا الأرض إلى الركب أسابيع عديدة . ولم يجد غير الضباط مأوى فى البيوت ؛ أما عامة جنود فردريك فسكنوا أكشاكاً مؤقتة ، وراحوا يحتضنون النيران ليتدفأوا ، ويكدون فى قطع الخشب وجلبه وقوداً لها ، ولا يكادون يصيبون من الطعام غير الخبز وكانوا ينامون متلاصقين طلباً للدفء ، واقتضى المرض المعسكرين من الأرواح ماكاد يعدل ما اقتضته المعركة من قبل ، فنى ستة عشر يوماً فقد جيش داون على هذا النحو أربعة آلاف رجل[٥٤]. وفى ١٩ نوفمبر كتب فردريك إلى فولتير يقول : « لو طالت هذه الحرب لارتدت أوربا إلى دياجير الجهل ، ولأصبح معاصرونا أشبه بالوحوش الضارية »[٥٥].

وأشرفت فرنسا على الإفلاس على عظم ثرائها عن بروسيا فى المال والرجال ومع ذلك جهز شوازيل أسطولا ليغزو انجلترة ، ولكن الإنجليز دمروه فى خليج كويبيرون (٢٠ نوفمبر ١٧٥٩) وضوعفت الضرائب بكل ما أوتيت الحكومات ورجال المال من براعة . وفى ٤ مارس ١٧٥٩ كانت المركيزة دمبادور قد وفقت فى تعيين إتيين دسلوويت مراقباً عاماً للمالية . فاقترح اختزال المعاشات ، وفرض الضرائب على ضياع النبلاء ، وتحويل فضياتهم نقوداً ، وحتى فرض ضريبة على الملتزمين العاملين بجمع الضرائب . وشكا الأغنياء من أنهم يحالون إلى مجرد « ظل » لما كانوا عليه من قبل ، ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمة Silhouette دليلا على شكل اختزل إلى أبسط صوره.

وفى ٦ أكتوبر أوقفت الحكومة الفرنسية دفع التزاماتها . وفى ٥ نوفمبر صهر لويس الخامس عشر أطباقه القضية ليكون الأسوة الحسنه لشعبه ، ولكن حين اقترح سلوويت أن يستغنى الملك عن المبالغ التى تخصص عادة لقماره وألعابه ، وافق لويس ولكن فى ألم واضح جداً ، مما حمل شوازيل على الاعتراض على الفكرة . وفى ٢١ نوفمبر أقيل سيلوويت .

وأحس الملك كما أحس الفرنسيون جميعاً أنه شبع حربا ، وكان على استعداد للاستماع إلى مقترحات للصلح . وكان فولتير قد جس نبض فردريك فى أمر الصلح فى يونيو ، فأجاب فردريك (٢ يوليو) : « أنى أحب الصلح بقدر ما تتمنى ، ولكن أريده حسنا ، متينا ، شريفا » ، وفى ٢٢ سبتمبر أضاف فى رسالة أخرى لفولتير هناك شرطان للصلح لن أحيد عنهما أبدا : أولا : أن يبرم مشاركة مع حلفائى الأوفياء . . . ثانياً : أن يكون صلحاً شريفاً مجيدا (٥٦) . ونقل فولتير هذه الردود الأبية (التى كتب احدها بعد هزيمة كونرزدورف الساحقة) إلى شوازيل الذى لم يجد فيها ما يعين على المفاوضة . ثم هناك الحليف الوفى بت ، المشغول بالتهام المستعمرات الفرنسية فكيف يبرم الصلح قبل أن يبنى الامبراطورية البريطانية ؟

٥ — بناء الامبراطورية البريطانية

أن أهم طور من أطوار حرب السنين السبع لم يقاتل فيه الخصوم فى أوروبا ، ففى أوروبا لم يحدث غير تغييرات صغيرة فى خريطة القوة . ولكنهم اقتتلوا على الأطلنطى ، وفى أمريكا الشمالية ، وفى الهند . فى تلك المناطق كانت نتائج الحرب هائلة طويلة البقاء .

كانت أول خطوة تكوين الأمبراطورية البريطانية قد اتخذت فى القرن السابع عشر ، وذلك بانتقال التفوق البحرى من أيدى الهولنديين إلى أيدى الانجليز . أما الثانية فحددتها معاهدة أوترخت (١٧١٣) التى منحت انجلترة احتكار توريد العبيد الأفارقة للمستعمرات الأسبانية والانجليزية

فى أمريكا . وكان العبيد ينتجون الأرز والتبغ والسكر ، وكان جزء من السكر يحول إلى شراب الروم ، وشاركت تجارة الروم فى إثراء تجار انجلترة (القديمة والجديدة) ومولت أرباح التجارة التوسع فى الأسطول البريطانى. فما حلت سنة ٥٨ [٥٧] حتى كان للانجليز ١٥٦ سفينة حربية ، ولم يكن لفرنسا غير ٥٧٧٧ ومن ثم كانت الخطوة الثالثة فى بناء الأمبراطورية هى اضعاف القوة الفرنسية فى البحار . وقطع هذه العملية انتصار ريشيليو فى مينورقة ، ولكنها استؤنفت بتدمير أسطول فرنسى أمام لاجوس ، بالبرتغال (١٣ ابريل ١٧٥٩) ، وأسطول آخر فى خليج كويبيرون . ونتيجة لذلك هبطت تجارة فرنسا مع مستعمراتها من ثلاثين مليونا من الجنيهات فى ١٧٥٥ إلى أربعة ملايين فى ١٧٦٠ .

أما وقد تمت السيادة على الأطلنطى ، فقد انفتح الطريق أمام البريطانيين ليفتحوا أمريكا الفرنسية ، ولم تقتصر هذه على حوض نهر سانت لورنس واقليم البحيرات العظمى ، بل شملت حوض المسيسبى من البحيرات إلى خليج المكسيك ، لا بل أن وادى نهر أوهايو كان فى قبضة الفرنسيين . وسيطرت القلاع الفرنسية على شيكاغو ، وديترويت ، وبتسبرج — التى كان تغيير اسمها من فوردوكين رمزا لنتائج الحرب . وكانت الممتلكات الفرنسية تقف عقبة أمام توسع المستعمرات الانجليزية فى أمريكا نحو الغرب . ولولم تنتصر انجلترة فى حرب السنين السبع لإنقسمت أمريكا الشمالية إلى انجلترا جديدة فى الشرق ، وفرنسا جديدة فى الوسط ، وأسبانيا جديدة فى الغرب ، ولتكررت نسخة من انقسامات أوربا وصراعاتها فى أمريكا . وقد حذر بنيامين فرانكلين المسالم المستعمرين الانجليز من أنهم لن يكونوا آمنين فى ممتلكاتهم ، ولا أحرارا فى نموهم ، مالم يوقف الفرنسيين فى توسعهم الأمريكى ، وقد دخل جورج واشنطن التاريخ بمحاولته الاستيلاء على فور دوكين .

كانت كندا ولويزيانا مدخلى أمريكا الفرنسية ، وأقربهما إلى انجلترة

وفرنسا هى كندا فعن طريق السنت لورنس كانت تصل المؤن والجنود إلى « المستوطنين » ؛ وكانت تحرس ذلك الباب قلعة لويبورج الفرنسية على رأس جزيرة بريتون عند مصب النهر العظيم . وفى ٢ يونيو ١٧٥٨ حاصر لويبررج اسطول انجليزى صغير من اثنين وأربعين سفينة تحمل ١٨٫٠٠٠ جندى يقودهم الأميرال إدورد بوسكاون . ودافع عن الحصن عشر سفن و٦٫٢٠٠ مقاتل ، واعترض الأسطول البريطانى التعزيزات المرسلة من فرنسا . وقاتات الحامية ببسالة ، ولكن سرعان ما حطمت المواقع البريطانية وسائل دفاعها . وكان تسليم الحصن (٢٦ يوليو ١٧٥٨) بداية الفتح البريطانى لكندا .

ولم تفلح استراتيجية المركيز دمونكالم وبطولته فى تعطيل سير العملية إلا قليلا . فبعد أن أوفدته فرنسا (١٧٥٦) ليقود الجنود النظاميين فى كندا ، ظفر بالنجاح تلو النجاح إلى أن احبطه ما تفشى فى الإدارة الفرنسية — الكندية من فساد وخلل ، وما تبين من عجز فرنسا عن موافاته بالمدد : وفى ١٧٥٧ حاصر قلعة وليم هنرى واستولى عليها ؛ وهى تقع على رأس بحيرة جورج . وفى ١٧٥٨ هزم ١٥٫٠٠٠ من جنود بريطانيا والمستعمرات عند تيكوند روجا بقوة قوامها ٣٫٨٠٠ مقاتل . ولكنه التقى بقريعه حين دافع عن كويبك بقوة قوامها ١٥٫٠٠٠ رجل ضد القائد الانجليزى جيمس وولف الذى لم يكن تحت قيادته أكثر من ٩٠٠٠ جندى . وتقدم وولف بنفسه جنوده فى تسلق المرتفعات إلى سهول ابراهام . وجرح مونكالم جرحا مميتا وهو يدير الدفاع ، وجرح وولف جرحا مميتا على ساحة النصر (١٢ — ١٣ سبتمبر ١٧٥٩) . وفى ٨ سبتمبر ١٧٦٠ سلم فودريى — كافانيال ، حاكم كندا الفرنسى ، وبسطت بريطانيا سلطانها على هذا الاقليم الكبير .

وبعد أن وجه الانجليز مراكبهم صوب الجنوب هاجموا الجزر الفرنسية فى البحر الكاريبى . فاستولوا على جودلوب فى ١٧٥٩ ، وعلى المارتنيك فى ١٧٦٢ ، ووقعت كل الممتلكات الفرنسية فى جزر الهند الغربية —

باستثناء سان — دومنج — فى قبضة بريطانيا . وطلبا للمزيد من مكاسب النصر أرسل بت الأساطيل إلى افريقا للاستيلاء على محطات النخاسة الفرنسية على الساحل الغربى ، فاستولت عليها ، وانهارت تجارة الرقيق الفرنسية ، واضمحل ثغرها الرئيسى فى فرنسا وهو نانت . وارتفع ثمن العبيد فى جزر الهند الغربية ، وحقق تجار الرقيق البريطانيون ثروات جديدة بتلبية الطلب على العبيد (٥٨). وينبغى أن نضيف هنا أن الانجليز لم يكونوا أكثر قسوة فى هذه العملية الأمبريالية من الأسبان أو الفرنسيين ، إنما كانوا أكفأ منهم وفى انجلترة بدأت حركة مقاومه الرق تتخذ شكلا فعالا .

وفى غضون ذلك كانت روح المغامرة البريطانية — الحربية والبحرية ، والتجارية — مشغولة بالتهام الهند — فقد أقامت شركة الهند الشرقية الانجليزية معاقل لها فى مدراس (١٦٣٩) ، وبمباى (١٦٦٨) وبوندتشيرى ، جنوبى مدراس (١٦٨٣) ، وفى شندرناجور شمال كلكتا . كل مراكز القوة هذه اتسعت فى الوقت الذى اضمحل فيه حكم المغول فى الهند ، واستعمل كل فريق الرشوة والقوة العسكرية لمد منطقة نفوذه وكانت فرنسا وانجلترة قد اشتبكتا معاً فى الهنـــد ابان حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ — ٤٨) ولم يفعل صلح إكس لا شابل أكثر من قطع الصراع فترة ، والآن جددته حرب السنين السبع . ففى مارس ١٧٥٧ استطاع أسطول إنجليزى يقوده الأميرال تشارلز وطسن ، ويعاونه جنود شركة الهند الشرقية بقيادة غلام من شرويشيريدعى روبرت كلايف أن ينتزع شندرناجور من الفرنسيين ، وفى ٢٣ يونيو ، وبقوة لاتزيد على ٣٫٢٠٠ جندى ، هزم كلايف ٥٠٫٠٠٠ هندوكى وفرنسى عند بلاسى (على ثمانين ميلا شمال كلكتا) فى معركة أكدت السيادة البريطانية على شمال شرق الهند . وفى أغسطس ١٧٥٨ طرد أسطول انجليزى بقيادة الأميرال جورج بوكوك من المياه الهندية الأسطول الفرنسى الذى كان يحمى الممتلكات الفرنسية على طول الساحل . بعد ذلك بفضل ما امتاز به البريطانيون على الفرنسيين من القدرة

على جلب الرجال والمؤن ، لم يكن انتصار انجلترة إلا مسألة شهور. فى ١٧٥٩ أحبط وصول المؤن والامداد البريطانية بحرا الحصار الفرنسى الذى فرضه على مدراس الكونت دلاللى . وهزم الفرنسيون هزيمة فاصلة فى وانديووش فى ٢٢ يناير ١٧٦٠ ، وسلمت بوندتشيرى للبريطانيين فى ١٦ يناير ١٧٦١ وقد ردت هذه المحطة الأمامية ، وهى آخر المحطات الفرنسية إلى فرنسا ١٧٦٣ ولكن كان مفهوما للجميع أن بقاء السيادة للفرنسية رهن برضاء بريطانيا .

وظلت الهند وكندا حتى عصرنا هذا معقلين ، فى الشرق والغرب ، لامبراطورية بنيت بالمال والشجاعة ، والقسوة والذكاء ، فى توافق تام مع أخلاقيات القرن الثامن عشر الدولية . ونحن ندرك الآن فى استعراضنا للماضى بعد هذه الفترة الطويلة أن تلك الأمبراطورية كانت نتاجا طبيعيا للطبيعة البشرية والأحوال المادية . وأن البديل لها لم يكن استقلال الشعوب العاجزة بل امبراطوية نظيرها تؤسسها فرنسا . ويمكن القول إنه فى المدى الطويل ، برغم رجال من أمثال كلايف وهيستنجز وكبانج ، فان حكم نصف العالم بواسطة البحرية البريطانية — أى الحفاظ على النظام حفاظا انسانيا وحسما نسبيا وسط الفوضى المهددة أبداً — كان نعمة لا نقمة على البشر .

٦ — الأعياء : ١٧٦٠ — ٦٢

ترى ماذا كان الثعلب البروسى المطارد يفعل فى شتاء ١٧٥٩—٦٠ القارس؟ كان يجمع المال ويزيف العملة ، يجند الرجال ويدربهم ، ويقرض الشعر ويذيعه على الناس . فى يناير أصدر ناشر باريسى لص « أعمال فيلسوف صان— سوسى » وطبع فى اغتباط تلك القصائد المستهترة التى كان فولتير قد حملها معه من بوتسدام عام ١٧٥٣ والتى بسببها أوقفت رحلته بأمر فردريك وحبس فى فرانكفورت — على المين. وقدر الناشر أن تلك القصائد ستضحك الرؤوس غير المتوجة ، ولكنها ستجعل الباروكات الملكية ترتعد غضباً ، بما فيها باروكات جورج الثانى حليف فردريك .وأكد فردريك أن المطبوع المسروق

شوهته إضافات مدسوسة خبيثة ، وأمر صديقه المركيز دارجانس (مدير الفنون الجميلة فى أكاديمية برلين) بأن يصدر للفور « طبعة صحيحة » منقاة بعناية . فما لبثت الطبعة أن صدرت فى مارس ، واستطاع فردريك أن يفرغ للحرب من جديد . وفى ٢٤ فبراير كتب إلى فولتير يقول :

لقد نشر الحديد والموت بيننا الخراب الرهيب والحزن أننا لم نبلغ بعد نهاية المأساة . ومن السهل أن تتصور أثر هذه الصدمات القاسية فى نفسى . وأنا ألوز بالرواقية ما استطعت . لقد غدوت عجوزاً ، محطماً ، أشيب الشعر مجعد البشرة ؛ وأنا أفقد أسنانى ومرحى [٥٩].

وكانت الحشود الهائلة من الجند تساق للفصل فى أى الحكام سيضنى أكثر الرجال . كان سالتيكوف عائداً من روسيا فى إبريل على رأس ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وكان للأودون ٥٠,٠٠٠ تمساوى فى سليزيا مقابل ٣٤,٠٠٠ يقودهم الأمير هنرى ؛ وكان داون فى درسدن بمقاتليه المائة ألف يأمل أن يشق له طريقاً وسط رجال فردريك البالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ والمعسكرين الآن قرب مايسن ؛ وكان الفرنسيون وعددهم ١٢٥,٠٠٠ ينتظرون للزحف على ٧٠,٠٠٠ يقودهم فرديناند ، وبلغت جملة المقاتلين الموجهين إلى برلين ٣٧٥,٠٠٠ رجل . وفى ٢١ مارس ١٧٦٠ جددت النمسا وروسيا تحالفهما وأضافتا مادة سرية تعطى بروسيا لروسيا بمجرد رد سيليزيا إلى النمسا [٦٠].

وكان لاودون البادىء بإراقة دماء عام ١٧٦٠ ، إذ سحق ١٣,٠٠٠ بروسى عند لانديشوت (٢٣ يوليو) . وفى ١٠ يوليو شرع فردريك فى حصار درسدن بمدفعية ثقيلة ، فدمر الجزء الأكبر من أجمل مدينة فى ألمانيا ، ولكن القصف لم يجده شيئاً ، فلما نمى إليه أن لاودون يقترب من برزلاو أقلع عن الحصار ، وسير رجاله مائة ميل فى خمسة أيام والتقى بجيش لاودون فى ليبرج (١٥ أغسطس ١٧٦٠) وكبده خسارة ١٠,٠٠٠ رجل ، ثم دخل برزلاو . ولكن فى ٩ أكتوبر استولى جيش قوازقى يقوده فرمور على برلين ، ونهب مستودعاتها الحربية ، وفرض عليها فدية مقدارها مليوناً طالر — وهذا يساوى نصف المعونة المالية التى كان فردريك يتلقاها سنوياً من بريطانيا . وخف لنجدة عاصمته ، ففر

الروس حال سماعهم بقدومه ، وقفل فردريك إلى سكسونيا ، وفى طريقه كتب إلى فولتير (٣٠ أكتوبر) يقول « إنك محظوظ باتباعك نصيحة كانديد والاكتفاء بزرع حديقتك وما كل إنسان يتاح له أن يفعل ماتفعل . فعلى الثور أن يحرث الأرض ، وعلى البلبل أن يغنى ، وعلى الدرفيل أن يسبح ، وعلىّ أن أقاتل » (٦١).

وعند تورجاو على نهر الألب (٣ نوفمبر) التقى رجاله وعددهم ٤٤,٠٠٠ بجيش نمساوى قوامه ٥٠,٠٠٠ ؛ وأرسل فردريك نصف جيشه بقيادة يوهان تسيتن ليطوق العدو ويهاجمه فى المؤخرة ؛ ولكن المناورة أخفقت لأن فصيلة للعدو عطلت تسيتن فى الطريق . وقاد فردريك كتائبه بشخصه إلى وطيس المعركة ؛ هنا أيضاً أطلقت النار على ثلاثة جياد من تحته وأصابته قذيفة فى صدره ، ولكنها كانت قد فقدت مفعولها ، وصرع على الأرض فاقد الوعى ولكنه سرعان ماأفاق فقال : « حادث تافه » ثم عاد إلى المعركة . وكان انتصاره غالى الثمن ، فقد ارتد النمساويون بعد أن فقدوا ١١,٢٦٠ رجلا ولكن فردريك ترك ١٣,١٢٠ بروسيا على أرض المعركة ، وانسحب إلى برزلاو التى أصبحت الآن أهم مركز لامداداته . وكان داون لا يزال محتفظاً بدرسدن منتظراً فى صبر موت فردريك . ثم منح الشتاء الأحياء مهلة ثانية .

وكانت سنة ١٧٦١ سنة دبلوماسية أكثر منها سنة حرب . فى انجلترا كان موت جورج الثانى (٢٥ أكتوبر ١٧٦٠) الذى كان عميق الاهتمام بهانوفر ، وارتقاء جورج الثالث العرش ، وكان اهتمامه بها الأقل بكثير ، بمثابة تصديق ملكى على كراهية الشعب لحرب تكلف المالية الإنجليزية عبئاً باهظاً . وجرب شوازيل أن تجس فرنسا نبض انجلترة لعقد صلح منفرد ، ولكن بت رفض ، وظل على وفائه المطلق لفردريك ، ولكن القوة البريطانية فى هانوفر خفض عددها ، واضطر فرديناند إلى التخلى برنزويك وفولفنبوتل للفرنسيين . واتجه شوازيل إلى أسبانيا ، وعقد معها « ميثاقاً عائلياً » بين الملكين البوربونيين ؛ أغراها فيه بالإنضمام إلى الحلف المعادى لبروسيا ، وتضافرت التطورات الحربيه مع هذه النكسات الدبلوماسية لدفع فرديك مرة

أخرى إلى شفا الهزيمة النكراء . فقد استطاع لاودون بجيش من ٧٢,٠٠٠ مقاتل أن ينضم إلى ٥٠,٠٠٠ مقاتل روسى ، فعزلوا فردريك عن بروسيا عزلا تاماً ، ووضعوا الخطط للاستيلاء على برلين والاحتفاظ بها . وفى أول سبتمبر ١٧٦١ عاد النمساويون للاستيلاء على شقايدنتز ومستودعاتهـا . وفى ٥ أكتوبر استقال بت ، مؤثراً الاستقالة على خيانة فردريك بعد أن غلبته على أمره مطالبة الشعب بالصلح . ورأى خلفه إيرل بيوت أن قضية فردريك ميئوس منها ، وأن المفاوضة للصلح وسيلة لدعم مركز جورج الثالث ضد البرلمان . فألح على فردريك فى أن يسلم بالهزيمة ولو إلى حد التنازل عن جزء من سليزيا للنمسا . وتردد فردريك ، وقبض عنه بيوت المزيد من العون المالى ودعت أوربا كلها تقريباً ، بما فيها الكثير من البروسيين ، فردريك إلى بذل التنازلات . وكان جنوده قد فقدوا كل أمل فى النصر ، وأنذروا ضباطهم بأنهم لن يهاجموا العدو مرة أخرى ، وأنهم يستسلمون إذا هوجموا [٦٢] وما اختتم عام ١٧٦١ حتى وجد فردريك نفسه يقف وحيداً أمام أكثر من عشرة أعداء . واعترف بأن لا خلاص إلا بمعجزة .

وقد أنقذته معجزة . ففى ٥ يناير ١٧٦٢ ،[٦٣] ماتت القيصرة اليزافيتا التى تمقت فردريك ، وخلفها بطرس الثالث الذى كان يعجب به مثلا أعلى للفاتح والملك . فلما سمع فردريك النبأ أمر أن يكسى جميع الأسرى الروس ويعطوا نعالا ويطعموا ويطلق سراحهم . وفى ٢٣ فبراير أعلن بطرس نهاية الحرب مع بروسيا . وفى ٥ مايو وقع معاهدة صلح وضعها فردريك بنفسه بناء على طلبه . وفى ٢٢ مايو حذت السويد حذو روسيا . وفى يونيو دخل بطرس الحرب من جديد ، ولكن حليفاً لبروسيا ، وارتدى حـلة عسكرية بروسية وتطوع للخدمة « تحت قيادة مولاى الملك » . فكان هـذا من أعجب الانقلابات فى التاريخ .

ولقد أدفأ صدر فردريك ، ورفع روح جيشه ، ولكنه وافق أعداءه بعض الشىء على أن بطرس رجل مختل العقل ، وأفزعه أن يسمع برغبة بطرس فى مهاجمة الدنمرك ليستعيد هولشتين . فبذل فردريك قصارى

جهده ليثنيه ، ولكن بطرس أصر ، وأخيرا — فى رواية فردريك — « اضطررت لإلتزام الصمت ، وترك هذا الملك المسكين إلى هذا الاعتداد بالنفس الذى دمره »[٦٤] .

أما بيوت ، الذى انقلب الآن عدوا نشيطاً لفردريك ، فقد طلب إلى بطرس أن يترك العشرين ألف روسى الموجودين فى الجيش النمساوى حيث هم . وأرسل بطرس نسخة من الخطاب إلى فردريك ، وأصدر أمره للجنود الروسية بالانضمام إلى فردريك والخدمة فى صفوفه ، وعرض بيوت على النمسا صلحا منفردا ، واعدا اياها بتأييد التخلى لها عن أقاليم بروسية ، ولكن اونتر رفض ،وندد فردريك ببيوت لأنه وغد[٦٥] .وسره أن يسمع بأن فرنسا أنهت معونتها المالية للنمسا ، وأن الترك يهاجمون النمساويين فى المجر (مايو ١٧٦٢) .

وفى ٢٨ يونيو عزل بطرس بانقلاب أجلس على العرش كاترين الثانية « امبراطورة للاقاليم الروسية كلها » ، وفى ٦ يوليو اعتقل بطرس ، وأصدرت كاترين الأمر لكزرنيكيف ، الذى تولى قيادة الروس تحت فردريك ، بأن يعود بهم إلى أرض الوطن فورا . وكان فردريك يتجهز لهجوم على داون . فطلب إلى كزرنيكيف أن يخفى نبأ تعليمات القيصرة ثلاثة أيام . وهزم فردريك داون فى بوركرزدورف (٢١ يوليو) دون أن يستخدم هؤلاء الروس الاحتياطيين . وسحب كزرنيكيف الآن جنوده ، ولم تعد روسيا تشارك بأى دور فى الحرب . أما وقد خف الخطر عن الملك فى الشمال ، فأنه ساق النمساويين أمامه ، واستولى من جديد على شفايدنتز وفى ٢٩ اكتوبر هزم الأمير هنرى ، بجيش من ٢٤٫٠٠٠ مقاتل ، ٣٩٫٠٠٠ نمساوى وجندى امبراطورى عند فرايبورج بسكسونيا . وكانت هذه هى العملية الحربية الكبرى الوحيدة للتى انتصر فيها البروسيون دون أن يكونوا تحت قيادة فردريك . وكانت أيضا آخر المعارك الهامة فى حرب السنين السبع .

٧ — الصلح

لقد أدرك الأعياء غرب أوربا كلها ، وأولها بروسيا ، التى جند فيها الصبية ذوو الأربعة عشر ربيعا ، ودمرت المزارع ، وأفلس التجار من جراء خنق التجارة ، أما النمسا فكانت تملك من الرجال أكثر مما تملك من المال ، وقد فقدت المعونة الروسية القيمة . وأما أسبانيا ففقدت هافانا ، ومانيلا لاستيلاء الانجليز عليهما ، فضلا عن تدمير بحريتها كلها تقريبا . وأما فرنسا فقد أفلست ، وضاعت مستعمراتهـا ، وأوشكت تجارتها أن تختفى من البحار . وأما انجلترة فقد احتاجت إلى السلام لتدعم مغانمها .

وفى ٥ سبتمبر ١٧٦٢ أوفد بيوت دوق بدفورد إلى باريس ليفاوض شوازيل فى تسوية للصراع . فاذا نزلت فرنسا عن كندا والهند فان انجلترة سترد جواديلوب والمارتنيك ، ولفرنسا أن تحتفظ ، بموافقة بريطانيا ، باقليمى فردريك الغربيين ، وهما فيزل وجلدرلاند[٦٦] . وندد بت بهذه المقترحات ببلاغة ملتهبة ، ولكن الرأى العام أيد بيوت ، وفى ٥ نوفمبر وقعت انجلترة والبرتغال مع فرنسا وأسبانيا صلح فونتنبلو . ونزلت فرنسا عن كندا ، والهند ، ومينورقة ، وردت انجلترة لفرنسا وأسبانيا فتوحها فى البحر الكاريبى . ووعدت فرنسا بأن تلتزم الحياد من بروسيا والنمسا ، وأن تسحب جيوشها من الأراضى البروسية فى غرب ألمانيا . وأكد هذه الترتيبات صلح آخر يسمى صلح باريس (١٠ فبراير ١٧٦٣) ، ولكنه ترك لفرنسا حقوق صيدها قرب نيوفوندلند ، وبعض المحطات التجارية فى الهند ، ونزلت أسبانيا عن فلوريدا لانجلترة ، ولكنها أخذت لويزيانا من فرنسا . وكانت هذه الترتيبات ، من الناحية القانونية انتهاكا لتعهد بريطانيا بألا تبرم صلحا منفردا ، ولكنها من الناحية العملية كانت نعمة لفردريك . لأنها أخفته من جميع خصومه إلا اثنين ، النمسا والرايش ، وكان على ثقة الآن بأن فى استطاعته أن يثبت لهذين العدوين اللذين ثبطت همتهما .

وراضت ماريا تريزا نفسها على الصلح مع أبغض أعدائها إلى قلبها . فقد تخلى عنها جميع حلفائها الكبار ، وكان ١٠٠ر٠٠٠ تركى يزحفون على المجر ، فأوفدت مبعوثا لفردريك يعرض عليه الهدنة ، فقبلها ، وفى هوبرتوزبرج (قرب ايبزج) ، فى ٥ — ١٥ فبراير ١٧٦٣ ، وقعت بروسيا ، والنمسا ، وسكسونيا ، والأمراء الألمان ، المعاهدة التى أنهت حرب السنين السبع . وبعد كل ما أريق من دماء ودوقاتيات ، وروبلات ، وطالرات وكرونات ، وفرنكات ، وجنيهات ، أعيد «الوضع السابق للحرب» فى القارة . واحتفظ فردريك بسيليزيا ، وجلاتز ، وفيزل ، وجلدرلاند ، وأخلى سكسونيا ، ووعد بأن يؤيد ترشيح جوزيف ابن ماريا تريزا ملكا على الرومان ، وإذن امبراطورا مستقبلا . وعند التوقيع النهائى هنأ فردريك مساعدوه على « أسعد أيام حياتك » ، فأجاب بأن أسعد أيام حياته سيكون آخرها (٦٧) .

ماذا كانت نتائج الحرب ؟ على النمسا فقد سيليزيا نهائيا مع دين حرب قدره ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ إيكو . وقضى على هيبة الحكام النمساويين باعتبارهم الأصحاب التقليديين للقب الأمبراطورى ، وقد عامل فردريك ماريا تريزا معاملته لحاكمة لامبراطورية نمساوية — مجرية ، لا رومانية مقدسة ، وترك أمراء الأمبراطورية الألمان الآن وشأنهم ، وسرعان ما سيخضعون لزعامة بروسيا فى الرايش ، لقد اضمحل سلطان آل هابسبورج وصعد سلطان آل هوهنتسولرن ، وأصبح الطريق ممهدا لبسمارك . وبدأت النزعتان الوطنية والقومية تفكران تفكير ألمانيا الموحدة بدلا من تفكير الدولة المعتزة باستقلالها عن غيرها من الدويلات . وحفز الأدب الألمانى فأنجب شتورم ودرانج ، ثم صعد إلى جوته وشيلر .

أما السويد ففقدت ٢٥,٠٠٠ رجل ، ولم تغنم غير الديون . وأما الروسيا ففقدت ١٢٠,٠٠٠ رجل بين المعارك ، والشدائد ، والأمراض ، ولكنها ستعوضهم عما قليل ، ولقد فتحت عهدا جديداً فى تاريخها الحديث بزحف جيوشها فى الغرب ، وأصبح تقسيم بولندة الآن أمرا لا مناص منه ، وأما فرنسا فلم تجن غير الخسائر الفادحة فى مستعمراتها وتجارتها ، وحالة

قريبة من الافلاس دفعتها خطوة أخرى إلى الأنهيار . وأما انجلترة فكانت النتائج بالنسبة لها أعظم حتى مما قدر زعماؤها ، السيطرة على البحار ، والسيطرة على عالم المستعمرات ، وتأسيس امبراطورية عظيمة ، وبداية ١٨٢ سنة من السيادة فى العالم . وأما بروسيا فخسرت خراب أراضيها وتدمير ثلاثة عشر ألف منزل فيها ، وإحراق مائة مدينة وقرية سويت بالتراب ، واقتلاع آلاف الأسر من مواطنها ، ومات ١٨٠,٠٠٠ بروسى (حسب تقدير فردريك) [٦٨] فى المعارك أو المعسكرات أو الأسر ، ومات حتى أكثر من هؤلاء لنقص الدواء أو الطعام ، وفى بعض المناطق لم يبق غير النساء والشيوخ ليزرعوا الحقول ، وهبط السكان من ٤,٥٠٠,٠٠٠ فى ١٧٥٦ ، إلى ٤,٠٠٠,٠٠٠ فى ١٧٦٣ .

وغدا فردريك الآن بطل ألمانيا بأسرها (عدا سكسونيا !) فدخل برلين دخول الظافر بعد غياب ستة أعوام . وتوهجت المدينة بالأضواء ترحيبا به ، وأشادت به منقذا لها ، وذلك رغم عوزها وفجيعة كل أسرة فيها . ولانت روح هذا المحارب القديم التى قدت من فولاذ فهتف « عاش شعبى العزيز طويلا ! عاش أبنائى طويلا . » [٦٩] لقد كان فى قدرته أن يتواضع ؛ وفى الساعة التى تملقه فيها الجميع لم ينسى الأخطاء الكثيرة التى ارتكبها قائداً — مع أنه أعظم القواد الذين أنجبهم العصر الحديث باستثناء نابليون . ولم يغب عن بصره آلاف الشبان البروسيين الذين بذلوا دماءهم ثمناً لسيليزيا . ولقد بذل هو أيضاً الثمن ، فشاخ قبل أوانه وهو بعد فى الحادية والخمسين ، واحدودب ظهره ، وهزل وجهه وجسمه ، وسقطت أسنانه ، وشاب أحد مفرقيه ، واضطربت أحشاؤه بالمغص ، والإسهال ، والبواسير [٧٠] وقال معقبا « إن أصلح مكان له الآن هو ملجأ للعجائز ذوى العلل المزمنة : وقد عمر ثلاثة وعشرين عاما أخر ، وحاول أن يكفر عن آثامه بحكم يتسم بالسلام والنظام .

أما أهم نتائج حرب السنين السبع من الناحية السياسية فهى ظهور الامبراطورية البريطانية ، وانبعاث بروسيا دولة من الطراز الأول ، أما من الناحية الاقتصادية فهى التقدم صوب الرأسمالية الصناعية : فقد كانت

تلك الجيوش العملاقة أسواقاً رائعة للاستهلاك الجماعى للسلع المنتجة بمقادير كبيرة ، فأى زبون أفضل من ذاك الذى يعد بتدمير السلع المشتراه فى أقرب فرصة وطلب غيرها ؟ وأما من الناحية الخلقية فأن الحرب أعانت على التشاؤم ، والكلبية ؛ والفوضى الخلقية ، فالحياة رخصت ، والموت قريب ، والعذاب هو القاعدة ، والنهب مباح ، واللذة تقتنص حيثما وجدت ولو لحظة . قال جريم فى وستفاليا عام ١٧٥٧ « لولا هذه الحملة لما أدركت قط إلى أى مدى بعيد يمكن أن تبلغ أهوال الفقر وظلم الإنسان » [٧٢] ولم تكن الحرب إلا فى بدايتها . وقد أعان العذاب الدين كما عوقه . فإذا كانت قلة من الناس تحولت إلى الكفر لواقعية الشر الصارخة ، فأن الكثرة دفعت إلى التقوى لحاجتها إلى الإيمان بانتصار الخير فى النهاية . وعما قليل ستكون عودة إلى الدين فى فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا وقد أنقذت البروتستنتية فى انجلترة من الدمار ، ولو أن فردريك خسر الحرب لحل ببروسيا فى أغلب الظن ما حل ببوهيميا بعد عام ١٦٢٠ ، فأكرهت على العودة إلى المذهب والقوة الكاثوليكيين ؛ أن انتصار الخيال على الواقع ثروة من نزوات التاريخ .

الكتاب الثاني

فرنسا قبل الطوفان

١٧٥٧ – ١٧٧٤

الفصل الثالث

حياة الدولة

١ – رحيل الخليلة

كانت مدام دبومبادور إحدى ضحايا الحرب . فقد ظل سحر شخصيتها حينا يسترق لب الملك بينما الأمة تنوح ، ولكن بعد أن حاول داميان إغتياله (٥ يناير ١٧٥٧) أرسل إليها لويس الخامس عشر كلمة يأمرها فيها بالرحيل فوراً ، وكأنه شعر فجأة بوجود الله . ولكنه أرتكب غلطة إنسانية حين أتى ليودعها ، ووجدها تحزم حقائبها هادئة حزينة ، فغلبه بعض ما بقى له من رقة وحنان ، وطلب إليها أن تبقى[١] . وسرعان ما ردت إليها كل امتيازاتها وسلطاتها السابقة ، فكانت تفاوض الدبلوماسين والسفراء ، وترفع الوزراء والقواد وتخفضهم . وكان مارك بيير دفواييه ، كونت دارجنسون ، قد قاومها فى كل خطوة ، وحاولت أن تسترضيه قصدها ، فأفلحت الآن فى أن تحل الابيه دبرنيس محله وزيرا للشئون الخارجية ، ثم شوازيل (١٧٥٨) . واحتفظت بحنانها لأقربائها وللملك فقط ، وواجهت غير هؤلاء بقلب من حديد فى هيكل مريض ، وزجت ببعض خصومها فى الباستيل وتركتهم فيه سنوات[٢] . وفى غضون ذلك راحت تدخر لغدها ، وزينت قصورها ، وأمرت بتشيد ضريح فخم لها تحت ميدان فاندوم .

وقد حملت فى نظر الشعب ، وفى البرلمان ، وفى القصر ، أكثر التبعة على هزائم فرنسا فى الحرب ، ولكنها لم تنل أى ثناء على إنتصاراتها ؛ فاعتبرت مسئولة عن الحلف البغيض مع النمسا ، وأن لم تكن سوى عامل صغير من عوامل ذلك التزاوج ، وأدينت بسبب الكارثة التى حاقت بالجيش فى روسباخ حيث قاد الفرنسيين رجلها سوبيز ، ولم يعرف نقادها — أو رأوه غير ذى صلة بالموضوع — أن سوبيز أشار بعدم خوض المعركة ، وأنه أكره عليها بتهور القائد الإلمانى . ولو أن الأمر كان بيد سوبيز ، ولو اتبعت خطته التى أشار بها — وهى تدويخ فردريك بالمسيرات وبهروب الجند من جيشه — ، ولو أن القيصرة اليزافيتا لم تمت فى هذا الظرف غير المواتى ولم تترك روسيا لفتى من عباد فردريك — لو أن هذا حدث فربما أنهارت مقاومة بروسيا ، ونالت فرنسا الأراضى الواطئة النمساوية ، وحملت بومبادور فوق بحر من الدماء لتهتف لها الأمة . ولكنها أخفقت فى استرضاء إله الصدفة العظيم .

وأبغضها البرلمـــان لأنها شجعت الملك على أن يتجاهله ، وأبغضها الأكليروس لأنها صديقة لفولتير ولكتاب الموسوعة ، وقال كرستوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، أنه « يتمنى أن يراها تحرق بالنار[٣] » . وحين عانت الجماهير الباريسية من غلاء الخبز صاحت « أن تلك البغى التى تحكم المملكة تجر عليها الخراب » . وارتفع صوت من الغوغاء فى اليون دلا تورنل يقول « لو وقعت فى أيدينا هنا لما تخلف منها ما يكفى لاحالتها إلى رفات[٤] » . ولم تجرؤ على الظهور فى شوارع باريس ، وكان الأعداء يحيطون بها فى فرساى . وكتبت للمركيزة دفونتناى تقول « أننى وحيدة تماما فى وسط هـــذا الحشد من صغار النبلاء ، الذين يبغضوننى والذين احتقرهم . أما أكثر النساء فحديثهن يصيبنى بصداع أليم . فغرورهن ، وخيلاؤهن ، وسفالتهن ، وخياناتهن ، تجعلنى لا أطيقهن[٥] » .

فلما استطالت الحرب ، ورأت فرنسا كندا والهند تختطفان منها ، وضيق فرديناند البرنزويكى الخناق على الجيش الفرنسى ، وظهر الجنود العائدون ،

جرحى أو مشوهين ، فى شوارع باريس ، وضح للملك أنه ارتكب خطأ محزنا بالأصغاء لكاونتز وبومبادور ، وفى ١٧٦١ التمس العزاء فى أحضان خليلة جديدة هى الآنسة رومان ، التى ولدت له الولد الذى سيصبح الآبيه دبوربون . وأرجفت الشائعات أن بومبادور ثأرت لنفسها بقبول شوازيل عشيقا لها[٦] ، ولكنها كانت أضعف ، وشوازيل كان أذكى ، من أن يسمحا بهذا الغرام ؛ لقد أسامت لشوازيل قوتها لا حبها ، ولعلها فاهت الآن بهذه النبوءة اليائسة « بعدى الطوفان[٧] » .

كانت على الدوام واهنة الجسد ، بصقت الدم حتى فى شبابها ، ومع أننا لسنا واثقين من أنها كانت تشكو السل ، فأننا نعلم أن سعالهــا ازداد ازديادا مؤلما وهى تقترب من الأربعين ، واستحال الصوت المرنم الذى كان يوما ما يأسر قلب الملك وحاشيته صوتا مبحوحا متوترا . وأفزع هزالها إصدقائها . وفى فبراير ١٧٦٤ لزمت فراشها بحمى مرتفعة والتهاب دموى فى الرئتين . وفى إبريل ساءت حالتها حتى أنها إستدعت موثقاً لتكتب وصيتها الأخيرة . فتركت فيها هبات لأقربائها ، وأصدقائها ، وخدمها ، وأضافت « أن كنت قد نسيت أيا من أقربائى فى هــذه الوصية فأنى أرجو أخى أن يدبر معاشهم » . وأوصت للويس الخامس عشر بقصرها الباريسى ، الذى يشغله الآن رئيس جمهورية فرنسا باسم قصر الإليزيه . وكان الملك ينفق الساعات الكثيرة بجوار فراشها ، وندر أن ترك حجرتها فى أيامها الأخيرة ، وكتب الدوفين (ولى العهد) الذى كان عدوها دائماً إلى أسقف فردان يقول « إنها تموت بشجاعة يندر أن توجد بين الرجال أو النساء ورئتاها مملوءتان ماء أو صديدا ، وقلبها محتقن أو متضخم . إنه موت قاس مؤلم إلى حد لا يصدق[٨] » . وكانت — حتى لهذه المعركة الأخيرة ، ترتدى الثياب الفاخرة وتحمر خديها الجافين . وظلت تملك حتى النهاية تقريباً . وأحاط أفراد الحاشية بأريكتها ، وراحت توزع الأنعامات ، وتعين الأشخاص فى المناصب الكبرى ، وكان الملك ينفذ الكثير من توصياتها .

وأخيرا سلمت بالهزيمة . ففى ١٤ أبريل تلقت شاكرة القربان الأخير

الذى حاول التخفيف من الموت بالرجاء . وحاولت الآن ، وهى التى ظلت طويلا صديقة للفلاسفة ، أن تستعيد أيمان طفولتها . فصلت كما يصلى الطفل :

« أستودع الله روحى ، متوسلة إليه أن يرحمها ، وأن يغفر لى آثامى ، وأن يمنحنى نعمة الندم عليها والموت جديرة بمراحمه ، راجية أن أرضى عدله ببهاء الدم الثمين ، دم يسوع المسيح مخلصى ، وبشفاعة العذراء مريم وجميع القديسين فى الفردويس(٩) » .

وهمست فى إذن القسيس الذى كان يبرح الحجرة وهى تعالج سكرات الموت : « إنتظر لحظة» سنبرح البيت معاً(١٠) . وماتت فى ١٥ أبريل ١٧٦٤ مختنقة باحتقان فى رئتيها ، وكانت فى عامها الثانى والأربعين .

وليس صحيحا أن لويس تقبل موتها فى غير مبالاة ، فهو أنما أخفى حزنه فقط(١١) قال الدوفين : « أن الملك فى كرب شديد وإن تمالك نفسه أمامنا وأمام جميع الناس(١٢) » . فنى ١٧ أبريل ، حين حمل جثمان المرأة التى ظلت نصف حياته طوال عشرين عاماً ، من قصر فرساى فى يوم قارس البرد شديد المطر ، خرج إلى الشرفة ليطل عليها وهى تبرح القصر وقال لتابعه شامبلوست « ستلقى المركيزة جواً رديئاً جداً » ولم تكن هذه ملاحظة عابثة ، فقد روى شامبلوست أن فى عينى الملك دموعا تترقرق ، وأن لويس إضاف قائلا فى حزن « هذه هى التعزية الوحيدة التى أستطيع تقديمها لها(١٣) » . ودفنت بناء على رغبتها جنبا إلى جنب مع طفلتها الكسندرين ، وفى كنيسة الكبوشيين التى اختفت الآن — فى ميدان فاندوم .

واغتبط البلاط لتحرره من سلطانها ، أما الشعب الذى لم يحس بسحرها فقد لعن إسرافها الشديد ، ولم يلبث أن نسيها ؛ وأما الفنانون والكتاب الذين ساعدتهم فقد حزنوا لفقد صديقة منعمة متفهمة . على أن ديدرو كان قاسيا فى حديثه عنها إذ قال : « إذن ماذا بقى من هذه المرأة التى كلفتنا هذا الثمن الغالى فى المال والرجال ، وتركتنا دون شرف ولا همة ، وقلبت نظام أوربا السياسى بأسره ؟ حفنة من تراب » وأما فولتير فقد كتب من فرنيه يقول :

« يحزننى جداً موت مدام دبومبادور . كنت مدينا لها بالفضل ، وأنا ابكيها عرفانا بصنيعها . ويبدو من السخف أنه فى الوقت الذى يظل فيه على قيد الحياة كاتب عجوز لا يكاد يقوى على المشى ، تموت امرأة حسناء فى عنفوان مجدها وهى بعد فى الأربعين . ولو أنها استطاعت أن تعيش كما أعيش فى هدوء ، فربما كانت اليوم حية . . . لقد أوتيت إنصافا فى عقلها وقلبها . . . إنها نهاية حلم . . . »[١٤]

٢ — انتعاش فرنسا

لم تفق فرنسا عن حرب السنين السبع إفاقة كاملة حتى جاء نابليون . ذلك أن الضرائب الثقيلة كانت قد ثبطت الزراعة أيام لويس الرابع عشر ، وظلت تثبطها أيام لويس الخامس عشر ، فتركت آلاف الأفدنة التى كانت تزرع فى القرن السابع عشر بورا فى ١٧٦٠ وأخذت تتحول إلى برارى قاحلة .[١٥] واستنزفت الماشية والأغنام ، وشحت المخصبات ، وجفت التربة . وتشبث الفلاحون بطرق الفلاحة القديمة الرديئة ، لأن الضرائب كانت تزاد مع كل تحسين يزيد من ثروتهم . وافتقر كثير من الفلاحون إلى الدفء فى بيوتهم فى الشتاء إلا أن يلتمسوه من الماشية التى تسكن معهم . وأتلفت نوبات شاذة من الصقيع فى ١٧٦٠ و ١٧٦٧ المحاصيل والكروم خلال نموها . وكان محصول سيىء واحد كفيلا بأن يقرب قرية من المجاعة ، ومن الخوف من الذئاب الجائعة الرابضة حولها .

ومع ذلك بدأ الانتعاش الاقتصادى بمجرد توقيع الصلح . كانت الحكومة عاجزة فاسدة ، لكن إجراءات كثيرة اتخذت لاعانة الفلاحين . فوزع نظار الزراعة الملكيون البذار وشقوا الطرق ، ونشرت الجمعيات الزراعية المعلومات الزراعية ، وأقامت المسابقات ، ومنحت الجوائز[١٦] . واستجاب الكثير من السادة الاقطاعيين لحفز جماعة الفزيوقراطيين فاهتموا بتحسين وسائل الزراعة ومنتجاتها . وازداد عدد الملاك من الفلاحين . ففى عام ١٧٧٤ كان هناك ٦ ٪ فقط من السكان الفرنسيين يرزحون تحت نير القنية .[١٧] ولكن كل زيادة فى الانتاج كانت تجلب معها زيادة فى

السكان ، فالأرض غنية ، ولكن متوسط ملكية الفلاح صغير ، وهكذا ظل الفقر جاثما على الصدور .

ومن أصلاب الفلاحين جاء الفائض البشرى الذى زود الصناعات فى المدن النامية بالرجال . وكانت الصناعة باستثناءات قليلة لا تزال فى المرحلة البيتية واليدوية . وسيطرت منظمات رأسمالية واسعة النطاق على صناعة المعادن ، والتعدين ، وصناعة الصابون ، والمنسوجات . وكان بمرسيليا عام ١٧٦٠ خمسة وثلاثون مصنعا للصابون تستخدم ألف عامل .[١٨] وكانت ليون معتمدة فى رخائها على السوق المتنقلة لناتج أنوالها . وقد أدخلت آلات التمشيط الانجليزية حوالى عام ١٧٥٠ ، وحوالى عام ١٧٧٠ بدأ دولاب الغزل الذى يدير ثمانية وأربعون مغزلا فى وقت واحد يحل محل عجلة الغزل فى فرنسا . وكان الفرنسيون أسرع فى الاختراع منهم فى التطبيق ؛ فقد أعوزهم رأس المال الذى استطاعت انجلترة بفضل ثرائها من التجارة أن تستخدمه فى تمويل التحسينات الميكانيكية فى الصناعة . وكانت الآلة البخارية قد عرفت فى فرنسا منذ ١٦٨١ .[١٩] واستعملها جوزف كونيو عام ١٧٦٩ لتشغيل أول سيارة معروفة ؛ وبعد عام استعملت هذه السيارة لنقل الاحمال الثقيلة بسرعة أربعة أميال فى الساعة ، ولكن الآلة أفلت زمامها فهدمت جدارا ، وكان يجب وقفها كل خمس عشرة دقيقة لتزويدها بالماء[٢٠] .

وكانت وسيلة النقل ، غير هذه الاستثناءات الغريبة ، هى الحصان ، أو عربة الجر ، أو عربة الركوب ، أو المركب ، وكانت الطرق والترع تفضل نظائرها فى انجلترة كثيرا ، ولكن الفنادق كانت أسوأ . وقد أسست خدمة بريدية منظمة عام ١٧٦٠ ؛ ولم تكن سرية تماما ، فقد أمر لويس الخامس عشر مديرى البريد بأن يفتحوا الخطابات ويبلغوا الحكومة بأى محتوى مريب فيها[٢١] . وتعطلت التجارة الداخلية من جراء المكوس ، والتجارة الخارجية نتيجة للحرب وضياع المستعمرات . وأفلست شركة الهند وحلت (١٧٧٠) . ولكن التجارة مع الدول الأوروبية زادت زيادة كبيرة

خلال القرن ، فارتفعت من ٦٠٠,٠٠٠,١٧٦ جنيه فى ١٧١٦ إلى ٨٠٤,٣٠٠,٠٠٠ جنيه فى ١٧٨٧ ، غير أن بعض هذه الزيادة لم يكن إلا انعكاسا للتضخم ، وازدهرت التجارة مع جزر الهند الغربية الفرنسية فى السكر والعبيد .

وكان للتضخم التدريجى ، الراجع بعضه إلى تزييف العملة ، وبعضه إلى إنتاج العالم المتزايد من الذهب والفضة ، أثر مشجع للمغامرة الصناعية والتجارية فكان رجل الأعمال يستطع عادة أن يتوقع بيع ناتجه بسعر أعلى مما أشترى به عرق العمال ومواد الصناعة . وهكذا تضخمت ثروات الطبقة الوسطى ، فى حين بذلت الطبقات الدنيا ماوسعها من جهد لتقرب بين دخولها وبين الأسعار . على أن هذا التضخم الذى مكن الحكومة من غش دائنيها هبط بقيمة دخلها ، فارتفعت الضرائب بنزول قيمة الجنيه ، وأصبح الملك معتمداً على كبار الصيارفة أمثال إخوان بارى ، لاسيما بارى — دوفرنيه ، الذى أبهج بومبادور كثيراً بشعوذته المالية حتى استطاع خلال الحرب أن يرفع الوزراء والقواد ويخفضهم .

وكان أهم تطور اقتصادى فى فرنسة القرن الثامن عشر انتقال معظم الثروة من ملاك الأرض إلى المسيطرين على الصناعة ، أو التجارة ، أو المال ، ولاحظ فولتير فى ١٧٥٥ « نظراً إلى مغانم التجارة المتزايدة . . نقصت ثروة كبار القوم عن ذى قبل ، وزادت الثروة فى الطبقة الوسطى . وأسفر هذا عن تقريب الفجوة بين الطبقات »[٢٢] واستطاع رجال أعمال مثل لابوبلنيير أن يشيدوا قصوراً يحسدهم عليها الأشراف ، وأن يزينوا موائدهم بأعظم الشعراء والفلاسفة فى المملكة ، وغدت البرجوازية راعية الآداب والفنون . وعزت الاستقراطية نفسها بالتشبث بامتيازاتها والظهور بمظهرها الرفيع . وأصرت على نبل المولد شرطاً للانخراط فى وظائف ضباط الجيش أو الأساقفة ، وتباهت بشعارات نبالتها وأنسابها المتكاثرة ؛ وكافحت — عبثا فى كثير من الأحيان — لتقصى أفراد الطبقة العامة الأكفاء أو النابهين عن الوظائف الإدارية العليا وعن البلاط . وطالب البورجوازى الغنى بأن يفتح مجال الترق للموهبة أياً كان نسب صاحبها ، فلما أغفل مطلبه راودته فكرة الثورة .

وإذا استثنيا من حرب الطبقات جانب الفلاحين ، فإن جمع الجوانب المشاركة فيها اتخذت لهـا شكلا مرئياً فى ضجيج باريس وفخامتها . فنصف ثروة فرنسا انسابت إلى عاصمتها ، ونصف فقر فرنسا تقيح فيها ،وقال روسو إن باريس « ربما كانت المدينة الوحيدة فى العالم التى تعظم فيها فوارق الثروات ، والتى يسكن فيها الثراء الصارخ والفقر المدقع جنباً إلى جنب » [٢٣] . وكان ستون من الفقراء المعانين جزءا من الحرس الرسمى المرافق لجثمان ابن الدوفين البكر فى ١٧٦١[٢٤] . وحوالى عام ١٧٧٠ كانت باريس تحوى ٦٠٠,٠٠٠ نفس من بين سكان فرنسا البالغين ٢٢,٠٠٠,٠٠٠ [٢٥] . وتؤوى أكثر أهل أوربا نشاطا ، وأوسعهم إطلاعاً ، وأشدهم فجوراً . وفيها أفضل الشوارع رصفاً ، وأفخم الطرق المشجرة والمتنزهات ، وأزحم حركات المرور ، وأجمل الحوانيت ، وأفخر القصور ، وأظلم الأكواخ ، وطائفة من أبدع الكنائس فى العالم . وقد تعجب منها جولدونى الذى وفد عليها من البندقية فى ١٧٦٢ فقال فى وصفها :

« يالها من حشود ! وأى تجمع للناس من جميع الأوصاف ! .. وأى منظر مدهش استرعى حواسى وذهنى وأنا أدنو من التويلرى ! رأيت اتساع رقعة تلك الحديقة الهائلة ، التى لا نظير لها فى الدنيا ، والتى لم تستطع عيناى أن تقيسا طولها . . ثم نهراً جليلا ، وكبارى عديدة مريحة ، وأرصفة شاسعة ، وحشوداً من العربات ، وزحاماً من الناس لا آخر له » [٢٦] .

وكانت مئات المتاجر تغرى الأغنياء والمفلسين ، ومئات الباعة يسرحون ببضائعهم فى الشوارع ، ومئات المطاعم (وقد ظهرت الكلمة restaurants أول ماظهرت فى ١٧٦٥) تعد بتعويض الجياع restore عن جوعهم ، ومئات التجار يجمعون التحف القديمة أو يزيفونها أو يبيعونها ، ومئات الحلاقين يقصون ويبدرون الشعور أو الباروكات حتى لطبقة الحرفيين . وفى الأزقة الضيقة كان الفنانون والحرفيون ينتجون الصور ، والأثاث ، والثياب ، والحلى المبهرجة لأثرياء القوم . وهنا كانت عشرات المطابع تطبع الكتب ، متعرضة أحياناً لخطر شديد ، وفى ١٧٧٤ قدرت تجارة الكتب فى باريس بمبلغ

٤٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه — وهو أربعة أمثال تجارة لندن فيها .[٢٧] قال جاريك : « إن لندن تصلح للإنجليز ، أما باريس فتصلح لكل إنسان »[٢٨] وقال فولتير : فى ١٧٦٨ « لدينا أكثر من ثلاثين ألف شخص فى باريس يهتمون بالفن » .[٢٩] هناك كانت عاصمة العالم الثقافية دون منازع .

٣ — الفزيوقراطيون

فى شقة بفرساى تحت مسكن مدام دبومبادور وعينها الراعية ، تكونت تلك النظرية الاقتصادية التى قدر لها أن تحرك الثورة وتصوغها ، وتشكل رأسمالية القرن التاسع عشر .

وكان الاقتصاد الفرنسى يكافح منذ زمن طويل ليشب عن الطرق برغم ما قيد به من أقمطة اللوائح والنظم — التى وضعتها طوائف الحرفيين وكولبير ، ومن خرافة كخرافة الملك ميداس ، خرافة « المركنتلية » التى خالت الذهب هو الثروة . فسعيا إلى زيادة الصادرات ، والتقليل من الواردات وأخذ « الفرق الذى فى صالح الدولة فضة وذهباً لدعم القوة السياسية والحربية ، كانت فرنسا وانجلترة قد أخضعتا اقتصاديهما القوميين لشرك من القواعد والقيود أعانت على التنظيم الاقتصادى ولكنها عطلت الانتاج بتعطيلها الابتكار والمغامرة والمنافسة . كل هذا — كما قال رجال مثل جورنيه وكزنيه ، وميرابو الأب ، ودوبون دنمور ، وطورجو — مناقض كل المناقضة للطبيعة ، فالانسان بطبيعته محب للاقتناء ، والتنافس ، فاذا حررت طبيعته من الاغلال التى لاداعى لها أدهش العالم بمقدار ما ينتج ، وتنوعه ، وجودته . يقول الفزيوقراطيين « إذن فلنترك الطبيعة (وهى بالاغريقية Physis) تحكم (Kratein) ولنترك الناس يخترعون ، ويصنعون ، ويتجرون وفق غرائزهم الطبيعية » ، أو كما قال جورنيه فيما روى « اتركهم يفعلون ما يرونه هم أصوب ما يكون» Laissez faire . وكانت هذه العبارة قديمة فعلا ، فحوالى عام ١٦٦٤ ، حين سأل كولبير رجل الأعمال لجاندر « ما الذى يجب أن نفعله نحن (أى الحكومة) لمساعدتك ؟ أجابه « Nous laisserfaire » اتركونا نفعله . . . اتركونا وشأننا .[٣٠]

وكان صوت جان — كلود فانسان دجورنيه أول صوت واضح للفزيوقيراطيين فى فرنسا . ولاشك فى أنه كان يعلم بالاحتجاجات التى قدمها بواجلبير وفوبان للويس الرابع عشر على القيود الخانقة التى فرضت على الزراعة فى ظل النظام الاقطاعي . وقد أعجب بكتاب السرجوسيا تشايلد « ملاحظات موجزة عن التجارة والفائدة » (١٦٦٨) إعجاباً حمله على ترجمته إلى الفرنسية (١٧٥٤) ، وأغلب الظن أنه قرأ كتاب رتشرد كانتلون « مقال عن طبيعة التجارة » (حوالى ١٧٣٤) فى طبعته الفرنسية (١٧٥٥) . ويؤرخ البعض من هذا الكتاب مولد الاقتصاد بوصفه « علما » — أى تحليلا منطقيا لمصادر الثروة ، وانتاجها ، وتوزيعها . قال كانتلون « أن الأرض هى المصدر أو المادة التى تؤخذ منها الثروة ، ولكن الجهد البشرى هو الشكل الذى ينتج الثروة » ، ولم يعرف الثروة بأنها الذهب أو النقود ، بل « صيانة الحياة ، ووسائل الراحة وأسبابها »[٣١] وكان هذا التعريف فى حد ذاته ثورة فى النظرية الاقتصادية .

وكان جورنيه تاجرا ميسورا يعمل أول الأمر (١٧٢٩ — ١٧٤٤) فى قادس . وبعد أن اشتغل بمعاملات تجارية واسعة النطاق فى انجلترة ، وألمانيا ، والأقاليم المتحدة ، استقر فى باريس ، وعين « ناظرا للتجارة » (١٧٥١) . وفى رحلاته التفتيشية فى أرجاء فرنسا لاحظ بشخصه القيود التى فرضتها اللوائح النقابية والحكومية على المشروعات الحرة والتبادل الاقتصادى ، ولم يخلف لنا صيغة مكتوبة لآرائه ، ولكن لخصها بعد موته (١٧٥٦) تلميذه طورجو . وقد حث على التخفيف من النظم واللوائح الاقتصادية القائمة ، أن لم يكن الغائها . فكل إنسان يعرف خيراً مما تعرف الحكومة الإجراء الذى يلائم عمله خير ملائمة ، فأذا كان حراً فى السعى إلى مصلحته إزداد إنتاج السلع ونمت الثروة[٣٢] .

« هناك قوانين فريدة أزلية ، مؤسسة على الطبيعة وحدها ، بمقتضاها توازن جميع القيم الموجودة فى التجارة بعضها بعضا وتثبت نفسها عند سعر مقرر ، تماماً كما تنظم الأجسام المتروكة لثقلها نفسها وفق وزنها النوعى[٣٣] » .

أى أن القيم والأسعار تحددها العلاقات بين العرض والطلب ، وهى علاقات تحددها بدورها طبيعة الإنسان . وخلص جورنيه إلى أن الدولة يجب إلا تتدخل فى الاقتصاد إلا لتحمى الحياة ، والحرية ، والملكية ، ولتشجع الإنتاج كما وكيفا باسباب التشريف والمكافآت . وقد قبل مسيو ترودين رئيس مجلس التجارة هذه المبادىء ، وخلع عليها طورجو قوة بلاغته وإستقامته المعترف بها .

أما فرانسوا كزنيه فقد أتبع خطاً فزيوقراطيا مختلفا إختلافا طفيفا . فهو لم ينس قط إهتمامه بالأرض لأنه مالك للأرض ، ولو أنه أعد ليكون طبيبا ، وقد جمع لنفسه ثروة بحذقه فى الطب والجراحة ، وارتقى حتى أصبح طبيبا لمدام دبومبادور وللملك (١٧٤٩) . وقد جمع فى مسكنه بفرساى لفيفا من الزنادقة — دوكلو ، وديدرو ، وبوفون ، وهلفتيوس ، وطورجو . . . هناك كانوا يناقشون كل شىء فى غير تحرج إلا شخص الملك ، الذى كانوا يحلمون بأن يجعلوا منه « حاكما مطلقا مستنيرا » يكون إداة للأصلاح السلمى ، وشعر كزنيه الغارق إلى إذنيه فى عصر العقل ، أن قد آن أوان إستخدام العقل فى الاقتصاد . ومع أنه كان دجماطبقياً شديد الإعتداد بنفسه فى كتبه ، فأنه كان فى شخصه إنسانا رقيقا يتميز بالنزاهة فى محيط لا يقيم للأخلاق وزنا .

وفى ١٧٥٠ ألتقى بجورنيه ، وسرعان ما فاق أهتمامه بالاقتصاد أهتمامه بالطب . وقد شارك بمقالات فى موسوعة ديدرو تحت أسماء مستورة بعناية . وقد عزا فى مقاله « المزارع » هجر الزراع لهـا إلى الضرائب المرتفعة والتجنيد الأجبارى . ولاحظ مقاله « الغلال » (١٧٥٧) أن المزارع الصغيرة تعجز عن الأفادة من أكثر الوسائل إنتاجا ، وحبذ المزارع الكبيرة التى يديرها « المقاولون » — وهذا سبق للشركات الزراعية العملاقة فى عصرنا . وقال إن على الحكومة أن تحسن الطرق ، والأنهار ، والقنوات ، وأن تلغى كل المكوس على النقل ، وتحرر حاصلات الزراعة من جميع قيود التجارة .

وفى عام ١٧٥٨ نشر كزنيه « جدولا اقتصاديا » أصبح البيان الرسمى الأساسى للفزيوقراطيين . ومع أنه طبع فى المطبعة الحكومية بقصر فرساى بأشراف الملك ، فأنه إدان الترف بأعتباره استعمالا مبدداً للثروة كان يمكن إستخدامه فى إنتاج مزيد من الثروة . وقد قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات : « طبقة منتجة من الزراع ، والمعدنيين ، وصيادى الأسماك ؛ وطبقة قابلة للتوجيه (disponiles) من الأشخاص الذين يستخدمون فى الوظائف العسكرية أو الإدارية ، وطبقة غير مثمرة Classe stérile من مهرة الصناع الذين يحولون حاصلات الأرض إلى أشياء نافعة ، والتجار الذين يوصلون الحاصلات إلى المستهلك . وإذ كانت الضرائب المفروضة على الطبقة الثانية أو الثالثة تقع فى النهاية (فى رأى كزنيه) على ملاك الأرض ، كانت أكثر الضرائب تمشيا مع العلم وانسبها هى ضريبة واحدة (impot unique) تفرض على صافى الربح السنوى لكل قطعة من الأرض . ويجب أن تجمع الضرائب مباشرة بواسطة الدولة ، ولا تجمع أبدا بواسطة الماليين من الأهالى (الملتزمون العموميون) ، ويجب أن تكون الحكومة ملكية مطلقة وراثية .

وتبدو مقترحات كزنيه اليوم وقد أفسدها الغض من قدر العمل ، والصناعة ، والتجارة ، والفن ، ولكن بعض معاصرية رأوا فيها الهاما منيرا . وفى رأى أكثر أتباعه حيوية وهو فكتور ريكيتى ، مركيز دميرابو ، أن « الجدول الاقتصادى » نافس الكتابة والنقود فى كونه من أجل ابتكارات التاريخ . وقد اجتاز هذا المركيز عصر فولتير من أوله لآخره بالضبط ، لأنه ولد فى ١٧١٥ ومات فى ١٧٨٩ . ورث ثروة طيبة ، وعاش عيشة الأمراء ، وكتب كما يكتب الديموقراطيون ، وعنون أول كتاب له « صديق الناس » ، أو مقال فى السكان (١٧٥٦) وإستحق بذلك الأسم الذى اتخذه « صديق الإنسانية » . وبعد أن نشر رائعته تأثر بكزنيه ، فراجع بناء على ذلك كتابه وزاده ، إلى بحث من ستة مجلدات طبع أربعين طبعة وشارك فى إعداد فكر فرنسا لثورة ١٧٨٩ .

ولم يقلق تكاثر البشر المركيز كما سيقلق مالتوس فى ١٧٩٨ . فقد آمن بأن الأمة تعظم بكثرة سكانها ، وأن هذا يسيره « توالد الناس كما تتوالد الفيران فى جرن إذا توفرت لها أسباب الحياة[٣٤] وهو ما زلنا نراه إلى الآن. وخلص إلى وجوب تشجيع منتجى الطعام بكل الوسائل . وذهب إلى أن التفرقة فى توزيع الثروة تثبط إنتاج الطعام ، لأن ضياع الأغنياء تشغل الأرض التى كان فى الأمكان أن تصبح مزارع خصبة . وقالت مقدمة ميرابو للملك أن الفلاحين :

« هم أكثر الطبقات إنتاجا ، الذين لا يرون من تحتهم غير مرضعتهم ومرضعتك — الأرض الأم ، والذين يرزحون إبدا تحت ثقل أشق الأعمال والذين يباركونك كل يوم ، ولا يسألونك شيئا غير السلام والحماية . وبفضل عرقهم ، بل ودمهم ذاته (وهو ما لا تعرفه !) تشبع مطامع ذلك الحشد من البشر غير النافعين الذين لا يفتأون يقولون لك أن عظمة الملك فى قيمة وعدد . . . النعم التى يقسمها على إفراد حاشيته . لقد رأيت مساعد جاب للضرائب يقطع يد امرأة فقيرة تشبثت بقدرها لتمنع إستيلاءه عليها وفاء للدين ، وكانت آخر ما فى بيتها من آنية . فماذا كنت تقول فى هذا أيها الملك العظيم[٣٥] ؟

وقد هاجم المركيز الثائر فى كتابه « نظرية الضرائب » (١٧٦١) الملتزمين العموميين بجباية الضرائب لأنهم طفيليون يغتالون أقوات الأمة ؛ وحرض الماليون الغاضبون لويس الخامس عشر على أن يحبسه فى الشاتو دفانسين (١٦ ديسمبر ١٧٦٠) ولكن كزنيه أقنع مدام دبومبادور بأن تتشفع له ، وأطلق لويس سراح المركيز (٢٥ ديسمبر) ولكنه أمره بأن يلزم ضيعته فى لوبنيون . وأحال ميرابو الضرورة إلى فضيلة ، فدرس الزراعة دراسة عملية مباشرة . وفى ١٧٦٣ أصدر كتاب « الفلسفة الريفية » الذى قيل فيه إنه « أشمل بحث فى الاقتصاد قبل آدم سميت[٣٦] » ، ووصفه جريم بأنه « الأسفار الموسوية للمذهب الفزيوقراطى[٣٧] » . وبلغت جملة مؤلفات

هذا المركيز ، الذى كان نسيج وحده ، أربعين كتابا حتى عام وفاته — وذلك رغم المتاعب التى سببها له أبنه الذى زجه فى السجن حين أعيته الحيل عسى أن يكون فى ذلك سلامة لكليهما . وكان كابنه ذاك عنيفا فاسقا ، تزوج للمال ، وأتهم امرأته بالزنا ، وتركها تعود إلى أبويها ، واتخذ له خليلة : وقد ندد بأوامر الاعتقال الملكية باعتبارها ضربا من الظلم لا يطاق ، وبعد ذلك حمل الوزارة على أن تصدر خمسين أمراً منها تعينه على تأديب أسرته(٣٨) .

وليس من اليسير علينا أن ندرك اليـــوم ذلك الهيجان الذى أثارته مطبوعات الفزيوقراطيين ، والحماسة التى اصطبغت بها حملاتهم . وتطلع تلاميذ كزنيه إليه كأنه سقراط الاقتصاد : وعرضوا عليه كتاباتهم قبل طبعها ، وفى كثير من الحالات كان يشارك فى كتبهم . وفى ١٧٦٧ إصدر لومرسييه دلا ريفيير ، الذى حكم المارتنيك فترة ، كتابا عده آدم سمث أوضح شرح للمذهب وأفضله ترابطا(٣٩) وأسمه « النظام الطبيعى الأساسى للمجتمعات السياسية » يقول فيه أن فى العلاقات الاقتصاديه قوانين تقابل تلك التى وجدها نيوتن فى الكون ، والعلل الاقتصادية منشؤها أغفال تلك القوانين أو أنتهاكها :

« أتريدون لمجتمع ما أن يبلغ الغاية فى الثراء ، والسكان ، والقوة ؟ أتركوا مصالحه إذن للحرية ، وليكن هذا قانونا عاماً . فبفضل هذه الحرية (التى هى العنصر الأساسى للصناعة) وبفضل الرغبه فى التمتع — التى تحفزها المنافسه وتتيرها الخبرة والقدرة — تضمنون أن يسعى كل إنسان على الدوام لا قصى مصلحة مستطاعة له ، ومن ثم يسهم بكل ما فى مصلحته الخاصة من قدرة فى الخير العام ، سواء للحاكم ولكل فرد فى المجتمع (٤٠) » .

وقد لخص بيير — صموئيل ديون هذه الدعوة فى كتابه « الفزيوقراطية » (١٧٦٨) الذى خلع على المذهب أسمه التاريخى . كذلك نشر ديون النظرية فى دوريتين كان نفوذهما محسوسا من السويد إلى توسكانيا . وقد عمل مفتشا

عاماً للصناعات تحت رآسة طورجو ، وسقط بسقوطه (١٧٧٦) . وعاون على المفاوضة مع إنجلتره على عقد المعاهدة التى أعترفت بأستقلال إمريكا (١٧٨٣) . وإنتخب عضوا بمجلس الأعيان (١٧٨٧) والجمعية التأسيسية (١٧٨٩) . وتميزا له فى هذه الجمعية عن عضو آخر يدعى ديون ، سمى ديون دنمور ، نسبة للمدينة التى مثلها . وقد عارض اليعاقبة فتعرض للخطر حين تقلدوا زمام الأمور ، وفى ١٧٩٩ نفى نفسه إلى إمريكا ، ثم عاد إلى فرنسا عام ١٨٠٢ ، ولكن فى ١٨١٥ اختار الولايات المتحدة وطنا نهائيا له ، وهناك أسس أسرة من أشهر الأسر الأمريكية .

وبدا فى ظاهر الأمر أن مذهب الفزيوقراطيين يناصر الاقطاع ، لأن السادة الاقطاعيين كانوا إلى ذلك الحين يملكون أويتقاضون الرسوم الاقطاعية من ثلث أرض فرنسا على الأقل . ولكنهم – وهم الذين لم يكونوا يدفعون أى ضرائب تقريبا قبل ١٧٥٦ – هالتهم فكرة تحميل ملاك الأرض جميع الضرائب ، كذلك لم يستطيعوا أن يقبلوا إلغاء المكوس الاقطاعية على نقل البضائع داخل أملاكهم . أما الطبقات الوسطى ، التى كانت تتوق إلى تشريعات جديدة ، فقد ساءها زعم الفزيوقراطيين أنها شطر عقيم غير منتج من الأمة ومع أن جماعة الفلاسفة كانوا فى الغالب يوافقون الفزيوقراطيين على الاعتماد على الملك أداة للاصلاح إلا أنهم لم يستطيعوا موافقتهم على مصالحة الكنيسة[٤١] . وقد ذهب ديفد هيوم ؛ الذى زار كزنية فى ١٧٦٣ ، إلى أن الفريوقراطيين أكثر ما يوجد اليوم من الجماعات تعلقاً بالأوهام وخيلاء منذ تدمير الصوريون . وسخر منهم فولتير (١٧٦٨) فى قصيدته اللاذعة المسماه « الرجل ذو الأربعين أيكوه »[٤١] . وفى ١٧٧٠ أصدرفرديناند وجاليانى ، وهو ايطالى من المترددين على « مجمع » الملحدين الذين كان يجمعهم دولباخ فى بيته كتابا اسمه « حوار حول تجارة الغلال » ترجمه ديدرو إلى الفرنسية فى السنة نفسها . وقال فولتير ان أفلاطون وموليير لابد قد شاركا فى كتابة هذا المؤلف فى الاقتصاد الذى كان « علما يقبض الصدر » . وقد هزأ جاليانى بخفة روح باريسية بزعم الفزيوقراطيين أن الأرض وحدها مصدر الثروة . وقال أن تحرير تجارة الغلال عن جميع

اللوائح والنظم معناه خراب بيوت مزارعي فرنسا ، وقد يجر إلى المجاعة في أرض الوطن في الوقت الذي يصدر فيه التجار الأذكياء الغلال إلى الدول الأخرى . وهذا ما حدث بالضبط في ١٧٦٨ و١٧٧٥ .

ويروى أن لويس الخامس عشر سأل كزنيه ماذا يصنع إن كان ملكاً فأجاب « لاشيء » . « فمن يحكم إذن » ؟ « القوانين » — وكان الفزيوقراطي يقصد بذلك « القوانين » الملازمة لطبيعة الانسان والتي تتحكم في العرض والطلب ووافق الملك على أن يجربها . ففي ١٧ سبتمبر ١٧٥٤ الغت وزارته جميع المكوس والقيود المفروضة على بيع الغلال — القمح ، والجاودار ، والذرة — ونقلها داخل المملكة . وفي ١٧٦٤ شملت هذه الحرية تصدير الغلال إلا إذا بلغت ثمنا مقررا . وهبط سعر الخبز حينا نتيجة تركه لعملية العرض والطلب ، ولكن محصولا رديئا في ١٧٦٥ رفع سعره فوق السعر العادي بكثير جدا . وبلغ نقص الغلال مرحلة المجاعة في ١٧٦٨ — ٦٩ ، فكان الفلاحون ينبشون عن الطعام في زرائب الخنازير ، ويأكلون العشب والحشيش . وفي أبرشية تعد ٢٫٨٠٠ نسمة راح ٢٫٢٠٠ يستجدون الخبز . وشكا أفراد الشعب من أن المضاربين يصدرون الغلال بينما هم يواجهون المجاعة . واتهم الناقدون الحكومة بأنها تتكسب من عمليات هؤلاء المحتكرين في « ميثاق المجاعة » وامتد رنين هذه النقمة المرة التي تعزف على ميثاق المجاعة . هذا الذي وقع عام ١٧٦١ ، خلال السنوات التالية ليتهم — حتى لويس السادس عشر الرحيم بالكسب من غلاء الخبز . وكان بعض الموظفين مذنبين فيما يبدو ، أما لويس الخامس عشر فلم يذنب . فلقد كلف بعض التجار بشراء الغلال في السنين الطيبة ، وخزنها ، ثم عرضها في السوق في السنين العجاف ، ولكن حين بيعت هذه الغلال ارتفعت أسعارها ارتفاعا أعجز فقراء الشعب عن الشراء . واتخذت الحكومة تدابير متأخرة لعلاج الحالة ، فاستوردت القمح ووزعته على أفقر الأقاليم . وطالب الشعب برد هيمنة الدولة على تجارة الغلال ، وشارك البرلمان في هذه المطالبة . في هذة الأزمة نشر فولتير قصيدتة المسماة الإنسان ذو الأربعين

ايكو . وأذعنت الحكومة ، وفى ٢٣ ديسمبر ١٧٧٠ ألغيت المراسيم التى أباحت حرية الاتجار فى الغلال .

على أن أفكار الفزيوقراطيين شقت طريقها رغم هذه النكسة ، سواء فى فرنسا أو خارجها . وكان مرسوماً قد صدر فى ١٧٥٨ وقرر حرية التجارة فى الصوف ومنتجاته . وزار آدم سمث كزتية فى ١٧٦٥ ، وراعه منـــه « تواضعه وبساطته » ورسخ ميله إلى الحرية الاقتصادية . وكان رأيه « أن أكبر غلطة لهذا النظام . . . فى اعتباره طبقة الصناع ، ورجال الصناعة والتجارة طبقة عقيمة غير منتجة على الاطلاق » ، ولكنه خلص إلى « أن النظام ، بكل ما فيه من عيوب ، ربما كان أقرب ما نشر إلى الآن من الحقيقة حول موضوع الاقتصاد السياسى »[٤٥] . وقد انسجمت أفكار الفزيوقراطيين مع رغبة انجلترا — التى أصبحت الآن أعظم الأمم المصدرة فى خفض رسوم التصدير والاستيراد . ووجد هذا المذهب القائل بأن الثروة تنمو نموا أسرع فى ظل التحرر من القيود الحكومية على الإنتاج والتوزيع ، آذانا صاغية فى السويد تحت حكم شارل الثالث . وكان حب جفرسون للحكومة التى تمارس أقل قدر من الحكم ، من بعض النواحى ، صدى للمبادىء الفزيوقراطية . وقد أقر هنرى جورج بتأثير الفزيوقراطيين على دعوته لضريبة واحدة تفرض على العقار . واستهوت فلسفة حرية المشاريع والتجارة طبقة رجال الأعمال الأمريكيين ، وأعطت دفعة جديدة للتطور السريع الذى حظيت به الصناعة والثروة فى الولايات المتحدة . وفى فرنسا أتاح الفزيوقراطيون أساسا نظريا لتحرير الطبقات بالوسطى من العقبات الإقطاعية والقانونية التى عرقلة التجارة الداخلية والتقدم السياسى ، وقبل أن يموت كزنيه (١٦ ديسمبر ١٧٧٤) كان عزاء له أن يرى أحـــد أصدقائه بعين مراقباً للمالية ولو أفسح له فى الأجل خمسة عشر عاما أخر لشهد انتصار الكثير من الأفكار الفزيوقراطية فى الثورة الفرنسية .

٤ — ظهور طورجو ١٧٢٧ — ٧٤

أكان طورجو فزيوقراطيا ؟ إن خلفيته الفنية المنوعة تمنع كل تخصيص يلصق به ، فلقد ولد فى أسرة عريقة « من أصل طيب une bonne race كما قال لويس الخامس عشر — شغل أفرادها المناصب الهامة أجيالا عديدة بكل كفاية . وكان أبوه مستشارا للدولة وسر تجار باريس ، وهو أرفع منصب إدارى فى باريس ، وأخوه الأكبر امينا للالتماسات والمطالب فى برلمان باريس وعضوا بارزا فيه . وكانت النية توجيه طورجو (آن روبير — جاك) ، وهو الابن الأصغر إلى وظيفة القسوسية .

واجتاز بتفوق جميع الامتحانات فى كلية لوى — لجران ، وفى مدرسة سان — سولبيس اللاهوتية ؛ وفى الصوربون ، وأصبح « الأبيه دبروكور » وهو بعد فى التاسعة عشرة . وتعلم قراءة اللاتينية ، واليونانية ، والعبرية ، والأسبانية ، والإيطالية ، والألمانية ، والانجليزية ، والكلام بثلاثة من هذه اللغات على الأقل بطلاقة . وفى ١٧٤٩ انتخب رئيسا للصوريون ، وبوصفه هذا ألقى محاضرات أثارت اثنتان منها ضجه خارج نطاق اللاهوت .

ففى يوليو ١٧٥٠ ألقى محاضرة على الصوربون باللاتينية فى « الفوائد التى أفاد بها توطيد المسيحية الجنس البشرى » ، وقال إنها أنقذت العالم القديم من سلطان الخرافة ، وصانت الكثير من الآداب والفنون والعلوم ، وقدمت للبشر المفهوم المحرر لقانون العدالة يسمو فوق كل ألوان التعصب والأنانية البشرية . « أفيستطيع الإنسان أن يطمع فى هذا من أى مصدر آخر غير الدين ؟ . . . إن الدين المسيحى دون غيره . . . . . هو الذى أخرج إلى النور حقوق الإنسان . »[٤٧] وفى هذه التقوى تسمع صدى الفلسفة ؛ وواضح أن الرئيس الشاب كان قد قرأ مونتسكيو وفولتير ، وتأثر لاهوته بعض الشىء بما قرأ .

وفى ديسمبر ١٧٥٠ ألقى محاضرة فى الصوربون عنوانها « جدول فلسفى بالتقدم المطرد للعقل البشرى » . وكان هذا التعبير عن ديانة التقدم الجديدة

انجازا رائعا من فتى فى الثالثة والعشرين . وقد سبق كونت — وربما حذا حذو فيكو — فقسم تاريخ العقل البشرى إلى ثلاث مراحل : مرحلة لاهوتية ، وأخرى ميتافيزيقية ، وثالثة علمية . قال : —

« قبل أن يفهم الناس العلاقة العلية بين الظواهر الطبيعية ، كان طبيعيا جداً أن يفترضوا أنها صادرة عن كائنات عاقلة ، غير مرئية ، شبيهة بهم . . . . فلما أدرك الفلاسفة سخف هذه الخرافات عن الأرباب دون أن يكتسبوا بعد بصراً بالتاريخ الطبيعى ، حاولوا تفسير أسباب الظواهر بعبارات تجريدية مثل الجواهر والقوى . ولم توضع الفروض — التى أمكن تطويرها بالرياضيات واثباتها بالتجربة ، بملاحظة التفاعل الميكانيكى المتبادل للاجسام — إلا فى فترة متأخرة »[٤٨] .

وقال الشاب الألمعى إن الحيوانات لا تعرف التقدم ، فهى تظل كما هى جيلا بعد جيل ، أما الإنسان فبفضل تعلمه تجميع المعرفة وتوصيلها يستطيع تحسين الأدوات التى يستخدمها فى التعامل مع بيئتـــه وفى اثراء حياته . مادام هذا التجميع والتوصيل للمعرفة والتكنولوجيا مستمراً فلامندوحة عن التقدم وأن عطلته أحياناً الكوارث الطبيعية أو تقلبات الدول . وليس التقدم متماثلا ، ولا هو عام ، فبعض الأمم يتقدم وبعضها يتقهقر ، وقد يركد الفن فى حين يتحرك العلم قدما ، ولكن الحركة فى جملتها حركة إلى الأمام . وفضلا عن هذه الآراء ، تنبأ طورجو بالثورة الأمريكية فقال « أن المستعمرات أشبه بالفاكهة التى تتشبث بالشجرة إلى أن تنضج ، وحين تغدو مستكفية بذاتها تفعل ما فعلته قرطاجة ، وما ستفعله أمريكا يوما ما [٤٩] » .

وقد خطط طورجو لكتابة تاريخ للحضارة وهو بعد فى الصوربون مستوحيا فى ذلك فكرة التقدم . ولم يبق من مشروعه هذا سوى مذكرات خطها لبعض فصول الكتاب ، ومنها يتبين أنه قصد أن يضمنه تاريخ اللغة ، والدين ، والعلم ، والاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، كما يضمنه قيام الدول وسقوطها [٥٠] » . فلما ورث عن أبيه دخلا كافيا قرر أواخر عام ١٧٥٠ أن يترك الوظيفة الكنسيه والح عليه زميل من الآباء الدينيين فى

البقاء وأعدا اياه بالترقى السريع ، ولكن طورجو أجاب على ما روى دبون دنمو « لاأستطيع أن أفرض على نفس لبس قناع طوال حياتى[٥١] » .

ولم يكن قد رسم إلا لوظيفة كهنوتية صغيرة ، لذلك كان حرا فى الاشتغال بالسياسة . وفى يناير ١٧٥٢ أصبح نائبا عاما مناوبا ، وفى ديسمبر أصبح مستشارا فى البرلمان ، وفى ١٧٥٣ اشترى منصب « أمين الالتماسات والمطالب » ، الذى اشتهر فيه بالاجتهاد والعدل . وفى ١٧٥٥— ٥٦ رافق جورنيه فى جولات تفتيشية فى الأقاليم ، وتعلم الاقتصاد الآن بالاتصال المباشر مع الزراع والتجار ، والصناع ، وعن طريق جورينه التقىبكزنيه وعن طريق كزنيه التقى بميرابو الأب ، ودبون دنمور ، وآدم سمث . ولم ينخرط قط فى زمرة المدرسة الفزيوقراطية ، ولكن ماله وقلمه كانا أهم سند لحلة دبون المساماة التقاويم .

وفى غضون هذا (١٧٥١) استطاع بفضل ذكائه وسلوكه المهذب أن يلاقى الترحيب فى صالونات مدام جوفران ومدام دجرافيته ، ومدام دوديفان والآنسة دلسبيناس . وهناك التقى بدالامبير ، وهلفتيوس ، ودولباخ ، وجريم ، ومن بين الثمرات المبكرة لهذه الاتصالات كتاب (١٧٥٣) من رسالتين « فى التسامح » . وكتب لموسوعة ديدرو مقالات فى الوجود ، والاشتقاق اللغوى ، والمهرجانات ، والأسواق ، ولكن حين أدانت الحكومة مشروع الموسوعة كف عن موافاتها بمقالاته . وخلال جولاته فى سويسره وفرنسا زار فولتير (١٧٦٠) وبدأ صداقة معه دامت حتى وفاة فولتير . وكتب حكيم فرنيه إلى دالامبير يقول : (قل أن رأيت طوال حياتى رجلا ألطف منه أو أوسع إطلاعا[٥٢]) . وأدعى جماعة الفلاسفة أنه واحـــد منهم ، وراودهم الأمل فى أن يؤثروا على الملك عن طريقه .

وفى ١٧٦٦ كتب لطالبين صينيين على وشك العودة إلى الصين مجملاً للاقتصاد من مائة صفحة عنوانه « تأملات فى نشوء الثروة وتوزيعها » . فلما نشر فى مجلة « التقاويم » (١٧٦٩ — ٧٠) أشاد به الناس شرحاً من أكثر

شروح النظرية الفزيوقراطية إحكاماً وقوة . قال طورجو أن الأرض مصدر الثروة الوحيد ، وكل الطبقات فيما عدا زراع الأرض يعيشون على الفائض الذى ينتجه الزراع فضلا عن حاجاتهم ؛ وهذا الفائض يؤلف « صندوق أجور » تدفع منه أجور طبقة مهرة الصناع . ثم يسوق صيغة مبكرة لما أصبح فيما بعد يطلق عليه « قانون الأجور الحديدى » يقول :

إن أجر العامل يحدده مستوى معيشته بالمنافسة بين العمال . والعامل المجرد الذى لا يملك غير ذراعيه وجده ، لا يملك شيئاً إلا بقدر مايوفق فى بيع كده لغيره ، وصاحب العمل ينقده أقل مايستطيع من أجر ، وبما أنه يستطيع الاختيار من بين العديد من العمال ، فإنه يفضل أقلهم أجراً . ومن ثم يضطر العمال إلى خفض سعرهم فى المنافسة فيما بينهم ، وفى كل أنواع العمل لا بد أن يحدث هذا ، وهو يحدث فعلا . وهو أن أجر العامل يحدده ماهو ضرورى لإعاشته »[٥٣] .

ويسترسل طورجو مؤكداً أهمية رأس المال . فلا بد أن يوفر شخص ما ، بمدخراته ، أدوات الإنتاج ومواده قبل أن يتسنى له استخدام العامل ، ولا بد له من إعاشة العامل قبل أن يرد بيع الناتج له رأسماله . وإذا لم يكن هناك ضمان على الإطلاق لنجاح مشروع ما ، فيجب السماح بربح ليوازن خطر فقد رأس المال . « فحركة رأس المال هذه انطلاقاً ورجوعاً هى قوام دورة النقود ، تلك الدورة النافعة المثمرة التى تشيع الحياة فى جميع جهود المجتمع ، والتى شبهت بكل حق بدورة الدم فى الجسم الحيوانى »[٥٤] . ويجب عدم التدخل فى هذه الدورة ، وأن يسمح للأرباح والفائدة ، كما يسمح للأجور ، بأن تصل إلى مستواها الطبيعى حسب العرض والطلب . ويجب أن يعفى من الضرائب أصحاب رؤوس الأموال ، وأرباب المصانع ، والتجار ، والعمال ، فلا تفرض إلا على ملاك الأرض الذين سيستردون مادفعوه بتقاضى ثمن أغلى لمحاصيلهم . وينبغى ألا يفرض أى رسم على نقل أو بيع أى سلعة من سلع الاستهلاك .

فى هذه « التأملات » أرسى طورجو الأساس النظرى لرأسمالية القرن التاسع عشر قبل التنظيم الفعال للعمل . فهذا الرجل الذى كان من أرحم وأنبل

رجال زمانه لم يستطع أن يتطلع إلى مستقبل للعمال أفضل من أجور الكفاف . ومع ذلك أصبح هذا الرجل خادماً للشعب متفانياً فى عمله . فى أغسطس ١٧٦١ عين ناظراً ملكياً لمديرية ليموج ، وهى من أفقر أقاليم فرنسا ، وقد قدر أن ٤٨ ٪ إلى ٥٠ ٪ من دخل الأرض فيها يضيع ضرائب للدولة وعشوراً للكنيسة . وكان فى فلاحى الإقليم كآبة وفى نبلائه فظاظة . كتب إلى فولتير يقول : « من سوء حظى أن أكون ناظراً ملكياً . وأقول من سوء حظى لأن السعادة فى هذا الزمان الممتلىء بالتناحر واللوم لا تتوافر إلا فى حياة الفلسفة بين الكتب والأصدقاء » . ورد عليه فولتير قائلا : « ستكسب أهل ليموج وجيوبهم ؛ وفى اعتقادى أن الناظر الملكى هو الشخص الوحيد الذى يمكنه إفادة الناس . ألا يستطيع إصلاح الطرق ، وزرع الحقول ، وتصريف المستنقعات ، وتشجيع الصناعات ؟ » .

وقد فعل طورجو هذا كله . فكافح بهمة طوال ثلاثة عشر عاماً ، اكتسب فيها محبة الشعب وكراهية النبلاء . فالتمس مراراً ، ودون جدوى ، من مجلس الدولة أن يخفض معدل الضريبة ، وحسن توزيع الضرائب ، ورفع المظالم ، ونظم خدمة موظفى الحكومة ، وحرر تجارة الغلال ، وشق ٤٥٠ ميلا من الطرق ؛ وكانت هذه الطرق جزءاً من برنامج إنشاء الطرق الذى ينتظم البلاد كلها (والذى بدأته الحكومة الفرنسية فى ١٧٣٢) والذى ندين له بالفضل فى هذه الطرق الجميلة ذات الأشجار الوارفة الظلال التى تنتشر اليوم فى ربوع فرنسا . وكانت الطرق قبل طورجو تشق بالسخرة ، فألغى السخرة فى ليموج ، ودفع أجر العمال من ضريبة عامة على الكافة . وأقنع الفلاحين بأن يزرعوا البطاطس غذاء للإنسان لا للحيوان فقط . وقد ظفر بإعجاب الناس جميعاً لما اتخذ من تدابير فعاله لإغاثة الشعب فى فترات المجاعة التى امتدت بين سنتى ١٧٦٨ و ١٧٧٢ .

وفى ٢٠ يوليو ١٧٧٤ دعاه الملك الجديد للانضمام إلى الحكومة المركزية واغتبطت فرنسا كلها ، وتطلعت إليه منقذاً مرجواً للدولة المتداعية .

٥ — الشيوعيون

بينما كان الفزيوقراطيون يرسون الأساس النظرى للرأسمالية، كان موريللى ومابلى ، ولانجيه ، يشرحون الاشتراكية والشيوعية . فقد عزت الطبقات المتعلمة نفسها بمتع هذه الأرض بعد أن تخلت عن آمالها فى السماء : فتجاهل الأغنياء منهم المحظورات الدينية ، وأطلقوا العنان لرغباتهم فى الثروة والقوة والنساء والخمر والفن ؛ ووجد العامة عزاء فى عالم مثالى تقسم فيه خيرات الأرض بالقسط بين البسطاء والموهوبين ، وبين الضعفاء والأقوياء .

ولم تقم فى القرن الثامن عشر حركة اشتراكية ، ولاجماعة محددة مثل جماعة المسوين فى انجلترة كرومويل ، أو يسوعى براجواى الشيوعيين . واقتصر الأمر على أفراد متفرقين أضافوا أصواتهم إلى صيحة متصاعدة ستصبح فى « جراكوس » بابوف عاملا فى الثورة الفرنسية . ونذكر القراء بأن الكاهن الشكوكى جان ميزلييه طالب فى كتابه « الميثاق » الذى أصدره عام ١٧٣٣ بمجتمع شيوعى يقسم فيــه الناتج القومى بالتساوى بين الناس ويتزاوج فيه الرجال والنساء وينفصلون كما يشاءون ، ثم ألمع إلى أنه مما يعين فى هذا الباب أن يقتل بعض الملوك . (٥٥) وبعد سبعة أعوام من طبع هذه الدعوة ندد روسو فى «مقاله» الثانى (١٧٥٥) بالملكية الخاصة لأنها أس جميع شرور الحضارة ، ولكنه حتى فى صيحته تلك أنكر أى برنامج اشتراكى. وما وافى عام ١٧٦٢ حتى كان ابطال كتبه أفرادا ينعمون بالثروة .

وفى نفس العام الذى صدر فيه كتاب روسو « مقــال فى أصل عدم المساواة » ظهر كتاب عنوانه « ناموس الطبيعة لراديكالى مغمور لانكاد نعرف عنه شيئاً غير أسمه الأخير ، إذا استثنينا كتبه ، وهو موريللى Morelly : ولا نخلط بينه وبين أندريه موريلليه Morellet الذى التقينا به مشاركاً فى تحرير الموسوعة . وقد بدأ موريللى بإيقاظ الأفهام بكتابه « رسالة فى فضائل ملك عظيم » (١٧٥١) الذى صور ملكا شيوعياً . وفى ١٧٥٣ أضفى على حلمه الشاعرية بقصيدته « غرق الجزر الطافية ، أو الملحمة الملكية.» وهنا نرى الملك الطيب ، ربما بعد أن قرأ الكاتب مقال روسو الأول ، يعود بشعبه

إلى حياة بسيطة فطريه . وكان خير عرض للمثال الشيوعى وأكمله كتاب موريللى « ناموس الطبيعة » (١٧٥٥ — ٦٠) وقد نسبه الكثيرون إلى ديدرو ، وصرح المركيز دارجانسون بأنه يفوق كتاب مونتسكو « روح الشرائع » (١٧٤٨) . وقد ذهب موريللى ، كما ذهب روسو ، إلى أن الإنسان خير بطبعه وإلى أن غرائزه الاجتماعية تحمله على السلوك الطيب ، وأن القوانين أفسدته بتقرير الملكية الخاصة وحمايتها . وامتدح المسيحية لميلها إلى الشيوعية ، وأسف لأن الكنيسة أقرت الملكية ، فإقامة الملكية الخاصة أورثت البشر « الغرور ، والحمق ، والكبرياء ، والجشع ، واللؤم ، والنفاق ، والشر .. وكل شيء شرير ينتهى إلى هذا العنصر الخفى المؤذى ، وأعنى به شهوة التملك [٥٦] » . ثم ينتهى السفسطائيون إلى أن طبيعة البشر تجعل الشيوعية ضربا من المحال ، فى حين إن الذى حدث فى التتابع الواقعى للأحداث هو أن انتهاك الشيوعية هو الذى أفسد الفضائل الفطرية للإنسان . ولولا الجشع والأنانية ، والمزاحمات ، والأحقاد التى ولدتها الملكية الخاصه لعاش الناس معا فى إخوة مسالمة متعاونة .

ولا بد للبدء فى إعادة البناء من إزالة العوائق من طريق التعايش الحر فى الأخلاق والسياسه « فتعطى كامل الحرية للعقلاء من الناس فى مهاجمة الأخطاء والأهواء التى تدعم نزعة التملك » وينبغى أن يؤخذ الأطفال من آبائهم وهم فى السادسة وينشأوا تنشئة مشتركة بواسطة الدولة حتى يبلغوا السادسة عشرة ، وعندها يعادون إلى ذويهم بعد أن تكون المدارس قد دربتهم على التفكير بلغة الصالح العام لا التملك الشخصى . وينبغى ألا يسمح بالملكية الخاصة إلا فى أخص خصائص الحاجات الشخصية « فتجمع كل النواتج فى مخازن عامة لتوزع على كل المواطنين لسد حاجات الحياة » [٥٧] . ويجب أن يعمل كل قادر على العمل ، فيساعد فى المزارع من الحادية والعشرين إلى الخامسة والعشرين . ويجب ألا يكون هناك طبقة عاطلة ، ولكن لكل فرد الحرية فى أن يعتزل فى الأربعين على أن تدير الدولة رعايته فى شيخوخته . وتنقسم الأمة إلى مدن حدائق لها مركز للبيع والشراء وميدان عام . ويحكم

كل جماعة مجلس من الآباء الذين تزيد أعمارهم على الخمسين ، وتنتخب هذه المجالس مجلس شيوخ أعلى يحكمها كلها وينسق فيما بينها .

ولعل موريللى بخس قدر النزعة الفرديه الفطرية فى البشر ، وقوةغريزة الاقتناء ، ومقاومة التعطش للحرية وللاستبداد اللازم للابقاء على حاله من مساواة غير طبيعية ومع ذلك كان تأثيره كبيراً . فصرح بابيف بأنه تشرب شيوعيته من كتاب موريللى « ناموس الطبيعة » والراجح أن شارل فورييه استمد من نفس المصدر خطة المستعمرات التعاونيه (الكتائبية phalansteries) (١٨٠٨) التى أفضت بدورها إلى تجارب شيوعية من أمثال مزرعة بروك (١٨٤١) . وفى « ناموس » موريللى نلتقى بذلك المبدأ الشهير الذى انحدر ليلهم الثورة الروسية وينكبها ، ونعنى به « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجاته » .(٥٨)

أما جماعة الفلاسفة فقد رفضوا بوجه عام نظام موريللى باعتباره غير عملى ، وقبلو الملكية الخاصة نتيجة لا مناص منها للطبيعة البشرية . ولكن فى ١٧٦٣ وجد موريللى حليفاً قوياً فى سيمون — هنرى لانجيه . وهو محام هاجم القانون والملكية جميعاً . فبعد أن شطب اسم لانجيه من جدول المحامين نشر (١٧٧٧ — ٩٢) « حوليات سياسية » وهى مجلة اطلق فيها وابلا من النيران على الشرور الاجتماعية . فالقانون فى رأيه قد أصبح أداة لتحليل وصيانة المقتنيات التى كسبت أصلا بالقهر أو الغش :

« إن القوانين يقصد بها أولا تأمين الملكية . وبما أنه يمكن الآن أن يؤخذ من الغنى أكثر مما يؤخذ من الفقير ، فمن الواضح أنها ضمان يعطى الأغنياء ضد الفقراء . وقد يعسر علينا أن نصدق — وإن كان هذا يمكن بيانه بجلاء — أن القوانين من بعض نواحيها مؤامرة على الكثرة العظمى من البشر (٥٩) .

ويترتب على ذلك أن حربا طبقية لا مندوحة عنها تستعر بين أصحاب الملكية أو رأس المال ، وبين العمال الذين لا بد لهم من بيع كدهم لأرباب العمل

الملاك ، منافسين فى ذلك بعضهم بعضا ، وقد احتقر لانجيه دعاوى الفزيوقراطين بأن تحرير الاقتصاد من سيطرة الدولة سيجلب الرخاء تلقائياً ، لأنه على النقيض من ذلك يعجل بتركز الثروة ، فترتفع الأسعار ، وتتخلف الأجور . وسيطرة الأغنياء على الأسعار من شأنها الإبقاء على عبودية الأجير حتى بعد « إلغاء » الرق قانوناً ، « فكل ما جنوه (أى العبيد السابقون) هو العذاب الدائم من خوف الموت جوعا ، وهو خطب أعفى منه على الأقل أسلافهم ممن ترددوا فى هذا الدرك الأسفل للانسانية » (٦٠) . فقد كان العبيد يسكنون ويطعمون على مدار السنة ، أما فى الاقتصاد غير المقيد فإن رب العمل حر فى أن يقذف بالعمال فى مهاوى التسول إذا لم يستطع جنى الربح من ورائهم ، ثم يجعل التسول جريمه . وفى رأى لانجيه أنه لا دواء لهذا كله الا الثورة الشيوعية . على أنه لم يوص بها لجيله ، لأنها ستفضى على الأرجح إلى الفوضى لا إلى العدالة ، ولكنه أحس بأن الأحوال المواتيه لثورة كهذا آخذه فى التشكل السريع ، يقول :

« لم يحدث قط إن كان الفقر أعم ولا أشد فتكا بالطبقة التى تبلى به ، ولعل أوربا لم تكن فى يوم من الأيام أقرب منها اليوم إلى الانقلاب التام وسط هذا الرخاء الظاهر ... ولقد بلغنا بالضبط ، بطريق عكسى تماماً ، تلك النقطة التى بلغتها إيطاليا حين اغرقتها حرب العبيد (التى قادها سبارتاكوس) فى حمام من الدم ، وحملت النار والتقتيل إلى أبواب عاصمة الدنيا ذاتها » (٦٠)

وقد نشبت الثورة وهو حى بعد رغم نصيحته وقذفت به إلى الحلوتين (١٧٩٤) .

وأما الأبيه جابرييل بونو دمابلى نو فقد احتفظ برأسه لأنه مات قبل الثورة بأربع سنوات وكان سليل أسرة كريمة فى جرينوبل ، وأخد أخوته جان بونو دمابلى الذى عاش روسو معه فى ١٧٤٠ ، والآخر كونديالك الذى أثار ضجة بأبحاثه السيكولوجية . ثم قريب مشهور آخر هو الكردينال دتنسان ، حاول أن يجعل من جابريل قسيسا ، ولكنه لم يجاوز مراتب الكهانة الصغرى ،

واختلف إلى صالون مدام تنسان فى باريس ، ثم استسلم لإغراء الفلسفة . وفى ١٧٤٨ تشاجر مع الكردينال ، وانصرف إلى الدرس فى خلوته ، وبعدها كانت أهم أحداث حياته هى كتبه ، وكلها ذاع صيته فى الماضى .

وقد أفاد من الأعوام السبعة التى قضاها فى باريس ولرساى علماً بالسياسة ، والعلاقات الدولية ، والطبيعه البشرية . وأسفر هذا كله عن مزيج فذ جمع بين التطلعات الاشتراكية والشكوك المتشائمة . وقد أصر مابلى على أن المعايير الخلقية التى تطبق على الأفراد يجب أن تطبق على سياسة الدول (وهو عكس ما قال به مكيافللى) ، ولكنه أدرك أن هذا يتطلب نظاماً من القانون الدولى يمكن فرضه . وكان كفولتير وموريللى موحداً بغير مسيحية ، ولكنه آمن بأنه لا سبيل إلى صيانة الفضيلة إلا بديانة قوامها العقاب والثواب فوق الطبيعيين ، لأن أكثر الناس « قضى عليهم بطفولة العقل الدائمة »[٦٢] . وقد آثر اخلاقيات الرواقيين على أخلاقيات المسيح ، والجمهوريات الإغريقية على الملكيات الحديثة . واتفق مع موريللى على أن رزائل البشر مبعثها الملكية لا الطبيعة ، فهى « أس جميع البلايا التى نكب بها المجتمع[٦٣] » . وقد تربعت شهوة الغنى على عرش متضخم فى قلب الإنسان ، فخنقت كل ما فيه من حب العدل والانصاف[٦٤] » ، وكلما ازدادت التفرقه بين حظوظ البشر تأججت هـذه الشهوة . فالحسد ، والطمع ، والفوارق الطبقية ، تسمم ما فى طبيعة البشر من مودة فطرية . فيستكثر الأغنياء من أسباب الترف والبذخ ، ويتردى الفقراء فى مهاوى الذل والهوان . فأى خير فى الحرية السياسية مادامت العبودية الاقتصادية قائمة ؟ « ن الحرية التى يحسب كل أوربى أنه يستمتع بها ليست سوى حريته فى أن يترك عبوديته لسيد ويسلم نفسه إلى سيد أخر[٦٥] » .

وكم يكون البشر اسعد وأهنأ إذا اختفت الفاظ « هذا ملكى » « وذلك ملكك » . وزعم مابلى أن الهنود الحمر كانوا أهنأ بالا فى ظـل شيوعية اليسوعيين فى برجواى من فرنسيي جيله ، وأن السويديين والسويسريين فى ذلك الجيل ، الذين تخلوا عن الجرى وراء المجد والثراء قانعين برخاء معتدل ، هم أسعد حالا من الإنجليز الذين يغزون المستعمرات والتجارة . وذهب إلى

أن الأخلاق فى السويد تحظى بمقام أعظم من الشهرة ، وأن القناعة أثمن فى نظر القوم من الثراء الطائل[٦٦] . أن الذين يملكون الحرية الحقيقية هم أولئك الذين لا تهفو نفوسهم للغنى . ولن تتوافر السعادة فى مجتمع كذلك الذى يدعو إليه الفزيوقراطيون ، لأن الناس ستثير هم على الدوام الرغبة فى أن يتساووا فى مقتنياتهم مع من يفوقونهم ثراء .

وهكذا خلص مابلى إلى أن الشيوعية هى النظام الاجتماعى الوحيد الذى يدعم الفضيلة والسعادة . « أقيموا أشتراكية السلع ، وعندها لن يكون أيسر من إقرار المساواة بين أحوال العيش ، وارساء رفاهية الإنسان على هذا الأساس المزدوج . »[٦٧] ولكن كيف السبيل إلى إقامة شيوعية كهذه والناس على مثل هذا الفساد ؟ هنا يرفع الشكوكى فى مابلى رأسه ، ويسلم فى قنوط بأنه ليس فى قدرة أى قوة بشرية اليوم أن تعيد إقرار المساواة دون أن تحدث من ضروب الخلل والأضطراب ما يفوق تلك التى تحاول تفاديها[٦٨] » . فالديمقراطية رائعة نظريا ، أما عمليا فهى تفشل بسبب جهل الجماهير وحبها للاقتناء[٦٩] . وقصارى ما نستطيعه هو أن نعرض الشيوعية مثلا أعلى ينبغى أن تسعى إليه الحضارة شيئاً فشيئا فى حذر ، وتغير ببطء عادات الإنسان الحديث من التنافس إلى التعاون . ويجب ألا يكون هدفنا الأستكثار من الثروة ، ولا حتى الأستكثار من السعادة ، بل إنماء الفضيلة ، فالفضيلة وحدها هى مجلبة السعادة . وأول خطوة فى سبيل الحصول على حكومة أفضل هى دعوة مجلس طبقات الأمة ، الذى ينبغى أن يضع دستورا يخول السلطة العليا لجمعية تشريعية (وهذا ما تم . فى ١٧٨٩ — ٩١) . وينبغى تحديد مساحة الأطيان التى يتملكها الفرد ، وتقسيم الضياع الواسعة للاستكثار من ملكية الفلاحين للأرض ، ووضع القيود الصارمة على إرث الثروة ، وإلغاء « الفنون عديمة الجدوى » كالتصوير والنحت .

وقد تبنت الثورة الفرنسية كثيراً من هذه المقترحات . ونشرت مجموعة أعمال مابلى فى ١٧٨٩ ، ثم فى ١٧٩٢ ، ثم فى ١٧٩٣ ، ورتب كتاب نشر عقب الثورة هلفتيوس ، ومابلى ، وروسو ، وفولتير ، وفرانكلن ، بهذا الترتيب ، بوصفهم أكبر ملهمى ذلك الحدث ، وقديسى الدين الجديد الحقيقيين[٧٠] .

٦ — الملك

أما لويس الخامس عشر فقد أبتسم سخرية من هؤلاء الشيوعيين — على قدر علمه بهم — لأنهم قوم حالمون لا وزن لهم ، وراح يتنقل فى ود من فراش إلى فراش . وأما البلاط فواصل قاره المستهتر وزهوه المسرف ، من ذلك أن أمير سوبيز أنفق ٢٠٠,٠٠٠ جنيه على توفير أسباب اللهو للملك فى يوم واحد ، وكان كل إنتقال لجلالته إلى أحد مقاره الريفيه يكلف دافعى الضرائب ١٠٠,٠٠٠ جنيه . وكان خمسون من كبار القوم يملكون « أوتيلات » أى قصوراً فى فرساى أو باريس ؛ وكان عشرة آلاف خادم يبذلون العرق فى كبرياء وفخر لتلبية حاجات النبلاء ؛ والأحبار ، والخليلات ، والأسرة المالكة واشباع غرورهم . وكان للويس نفسه ثلاثة آلاف جواد و ٢١٧ مركبة ، و ١٥٠ غلام يرتدون حللا من المخمل والذهب ، وثلاثون طبيبا يقصدونه وينظفون أمعاءه ويسممونة . وقد أنفق البيت المالك فى سنة واحدة (سنة ١٧٥١) ٦٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه — وهو ما يقرب من ربع إيراد الحكومة(٧١) وشكا الشعب ولكن أكثر شكاوا هم كانت غفلا من التوقيع ، وفى كل عام كشفت عشرات النشرات والملصقات ، وأغانى الهجو ، عن كراهية الملك . وقد جاء فى أحد الكتيبات « إذا كنت يا لويس مرة موضع حبنا فما ذلك إلا لأن رذائلك كانت لا تزال مجهولة لنا . وفى هذه المملكة ، التى نضبت من أهلها بسببك ، وأسلمت نهبا « للمشعوذين الذين يحكمون معك ، إن بقى فرنسيون ، فانما يبقون ليكرهوك(٧٢) » .

فكيف انقاب لويس المحبوب ملكا محتقراً مهانا ؟ أننا لو صرفنا النظر عن إسرافه ، وإهماله ، وفواحشه ، لم نجده فى ذاته بالسوء الذى صوره به التاريخ الحقود . كان فى بنيته رجلا وسيما ، طويلا ، قويا ، قادرا على الصيد طوال المساء واللهو مع النساء فى الليل . أفسده معلموه ، فأفهمه فيلرو أن فرنسا كلها ملكه بالوراثة والحق الألهى . وقد خفف من كبرياء الملكية وشوشها الظل الذى خافه لويس الرابع عشر وتقاليده ، إذ ألح على الملك الحدث إلحاح الهاجس ، وأورثه الجبن ، إحساسه بالعجز عن الأرتفاع

إلى ذلك المستوى الجليل من الفخامة وقوة الأرادة ؛ فأصبح عاجزا عن البت فى الأمور ، وترك مهمة إتخاذ القرارات لوزرائه مغتبطا . وأتاحت له قراءاته وهو غلام ، وذاكرته القوية ، بعض الإلمام بالتاريخ ، واكتسب مع الوقت معرفة لا يستهان بها بالشئون الأوربية ؛ واحتفظ سنوات كثيرة بمراسلاته الدبلوماسية السرية . كان ذكيا فى تراخ وفتور ، يحكم حكما شديدا ولا رحمة فيه على أخلاق من أحاط به من الرجال والنساء ؛ فى وسعه أن يجارى خير العقول فى بلاطه حديثا ونكته ، ولكن يبدو أنه قبل حتى أسخف العقائد اللاهوتية التى تبثها فيه فلورى وهو صبى . وبات الدين عنده أشبه بالحمى المتقطعة إذ راح يتذبذب بين التقوى والفجور . فكان يعانى من خوف الموت والجحيم ، ولكنه يقامر على غفران خطاياه وهو فى النزع الأخير . وقد أوقف اضطهاد الجانسنيين ، وإذ نستحضر تاريخ تلك الحقبة نتبين أن جماعة الفلاسفة استمتعوا فى حكمه بين الحين والحين بقدر كبير من التسامح .

كان يقسو أحيانا ، ولكنه فى الأكثر رحيم . تعلمت بومبادور ودوربارى أن تحباه من أجل شخصه كما أحبتاه من أجل السلطة التى منحهما أياها . وكانت برودة عاطفته وتحفظه جزءا من حيائه وانعدام ثقته بنفسه ، ولكن وراء ذلك التحفظ عناصر من الحنان والرقة أعرب عنها خاصة فى محبته لبناته ، وقد أحببنه أباً منحهن كل شيء إلا القدوة الحسنة . وكان فى سلوكه عموما تلطف وكياسة ولكنه كان قاسى الفؤاد احينا ؛ ويتكلم فى هدوء مفرط على امراض إفراد حاشيته أو موتهم الوشيك . وقد نسى تماما أن يسلك مسلك الرجل المهذب وهو يقيل فجأة دارجانسون ، وموريا ، وشوازيل ؛ ولكن هذا أيضاً ربما كان نتيجة عدم ثقته بنفسه . فقد شق عليه أن يقول لا لإنسان فى وجهه . ومع ذلك كان قادرا على أن يواجه الخطر بشجاعة كما كان يفعل فى الصيد أو فى فونتنوا .

وكان على ظهوره بمظهر الوقار أمام الناس لطيفا حلو العشرة بين أخصائه ، يعد لهم القهوة بيديه الكريمتين . وقد راعى قواعد السلوك المعقدة التى أرساها لويس الربع عشر للملكية ولكنه أنكر الشكلية التى فرضتها

على حياته . وكثيراً ما كان يستيقظ قبل تقليد « الاستيقاظ » المقرر رسميا ويوقد ناره بنفسه لكيلا يوقظ خدمه ، ويغلب عليه أن يلبث فى فراشه حتى الحادية عشرة . أما فى الليل ، فإنه بعد أن يحتفل رسميا بذهابه إلى فراشه ، قد يتسلل ليلهو بمحظيته أو حتى ليتفقد مدينة فرساى متنكرا وكان يلوذ بالصيد من مراسم البلاط المتكلفة ، وفى الأيام التى لا يهرب فيها للصيد كانت بطانته تقول « أن الملك لا يعمل اليوم شيئاً(٧٣) » . وكان يعرف عن كلاب صيده أكثر مما يعرف عن وزرائه ؛ إذ رأى أن فى قدرة وزرائه أن يعنوا بشئون الدولة خيراً منه ، فلما نبه إلى أن فرنسا فى طريقها إلى الأفلاس والثورة ؛ عزى نفسه بهذه الفكرة « ستسير الأمور على هذه الوتيرة حتى ينتهى أجلى » .

أما من الناحية الجنسية فقد كان وحشا فاسقاً . ولقد تغتفر له إتخاذه المحظية التى إتخذها حين ضاقت الملكة ذرعا بفحولته ، وقد نفهم افتتانه ببومبادور ؛ وحساسيته لجمال المرأة وظرفها وحيويتها المشرقة ، ولكن قل فى تاريخ الملوك ما أشبه حقارة تنقله بين الفتيات اللاتى إعددن لفراشه فى البارك أوسير واحدة تلو أخرى . وكان مجىء دويارى بالقياس إلى هذا رجوعا إلى الحالة السوية .

٧ — دويارى

بدأت حياتها فى قرية من قرى شمبانيا تدعى فوكولير حوالى ١٧٤٣ باسم مارى — جان بيكى ، ابنة الآنسة آن بيكى ، التى يبدو أنها لم تمط اللثام قط عن شخصية أبى الفتاه . ومثل هذه الخفايا كانت مألوفة بين الطبقات الدنيا . وفى ١٧٤٨ أنتقلت آن إلى باريس وأصبحت طاهية للمسيو دومونسيه الذى رتب إلحاق جان ، وهى فى السابعة ، تلميذة داخلية بدير سانت —آن للراهبات . هناك مكثت الفتاة الجميلة تسع سنوات ، يلوح أنها لم تعوزها فيها السعادة ؛ وقد احتفظت بذكريات حلوة عن هذا الدير المنظم ، وتلقت فيه تعليما فى القراءة والكتابة والتطريز ، واحتفظت طوال حياتها بتدين بسيط لا يتشكك ، وباجلال للراهبات والقساوسة ، وكان إيواؤها للقساوسة المطاردين فى الثورة من العوامل التى أفضت بها إلى الجيلوتين(٧٥) :

فلما خرجت من مدرسة الدير إتخذت إسم صديق أمها الجديد ، المسيورانسون ، لقباً لها وأرسلت إلى حلاق لتتعلم فنه ، ولكن هذا الفن أشتمل على الإغواء ، وجان — الجميلة جمالا لا يقاوم — لم تعرف كيف تقاوم . ونقلتها أمها وصيفة لمدام دلاجارد ، ولكن ضيوف هذه السيدة غالوا فى الأهتمام بجان ، فما لبثت أن طردت . واجتذب دكان القبعات الذى التحقت به بائعة عددا غير عادى من الزبائن الذكور . فاصبحت خليلة اختص بها سلسلة من الفجرة . وفى ١٧٦٣ تلقاها جان دوبارى ؛ وهو مقامر كان يجلب النساء للفاسقين من النبلاء . وخدمت هذا القواد — متخذة اسم جان دفوبرنية الأنيق — خمس سنوات مضيفة فى حفلاته ، وأضافت شيئاً من التهذيب والصقل لمفاتنها . ثم رأى دويارى أنه هو أيضاً ، كمدام بواسون ، قد أكتشف « طبقاً شهياً للملك » .

وبيان ذلك أن الملك الطيب ستانسلاس مات عام ١٧٦٦ فى اللورين فأصبح بذلك اقليما من أقاليم فرنسا . وانهارت صحة ابنته مارى (ملكة فرنسا التقية المتواضعة) انهيارا سريعا بعد موته لأن حبهما المتبادل كان سندا لها فى حياة العبودية الطويلة التى عاشتها مع زوج خائن العهود الزوجية ، فى بيئة غريبة . وفى ٢٤ يونيو ١٧٦٨ لفظت أنفاسها الأخيرة فبكاها الجميع حتى الملك . وقد علل بناته بالأمل فى أنه لن يتخذ المزيد من الخليلات . ولكن فى شهر يوليو رأى جان التى كانت سائرة بالصدفة على غير هدى فى قصر فرساى فى براءة كبراءة لايومبادور وهى راكبة فى أرض الصيد « سينار » قبل أربع وعشرين سنة .

وراعه فيها جمالها الشهوانى ومرحها وطبعها اللعوب . فهاهنا امرأة تستطيع أن توفر له اللهو من جديد وتدفىء قلبه البارد الحزين ، فأرسل إليها تابعه لبيل . ولم يتردد (الكونت) دوبارى فى التفريط فيها لقاء مقابل ملكى . ورغبة فى تهدئة المظاهر أصر لويس على أن تتزوج الفتاة . فزوجها الكونت بسرعة لأخيه جيوم ، الكونت دوبارى الحقيق ، المفتقر، بعد أن استقدمه لهذا الغرض من لفنياك بغسفونية . وحيته تحية الوداع

عقب حفل الزفاف مباشرة (أول سبتمبر ١٧٦٨) ، ولم تقع عليه عيناها بعد ذاك قط . وكوفىء جيوم بمعاش قدره ٥٠٠٠ر٥ جنيه ، فاتخذ له خليلة واصطحبها إلى لفنياك حيث عاشرها خمسة وعشرين عاما ، ثم تزوجها حين علم أن زوجته أعدمت بالجلوتين .

ولحقت جان ، التى اتخذت الآن اسم الكونتس دوبارى ، بالملك سرا فى كومبين ، ثم علانية فى فونتنيلو . وسأل الدوق ريشليو لويس ماذا يرى فى هذه اللعبة الجديدة ، فأجاب جلالته «لا أكثر من أنها تنسينى انى سأبلغ الستين بعد قليل.(٧٦) » وريعت بطانته . فقد كان فى استطاعتهم أن يفهموا فى غير غباء حاجة الملك إلى خليلة ، أما أن يأخذ امرأة عرفها العديدون منهم مومسا ، ثم يرفعها إلى مقام يعلو على المركيزات والدوقات !! وكان شوازيل قد منى نفسه بأن يقدم أخته للملك (خليلة تحمل لقبا) ، فراحت هذه النبيلة المرفوضة تحرض أخاها — الذى كان الحذر من طبعه — على العداء الصريح لهذه الدعية الجميلة ، ولم تغتفر له دوبارى فعلته قط .

وسرعان ما تقلبت الخليلة الجديدة فى الذهب والجواهر . وخلع عليها الملك معاشـا قدره ٠٠٠ر١٣٠ فرنك بالاضافة إلى راتب سنوى قدره ٠٠٠ر١٥٠ فرنك ، تفرض على مدينة باريس وولاية برحندية . وهرع الجواهريون إلى تزويدها بالخواتم والعقود والأساور والتيجان وغيرها من أسباب الزينة المتألقة التى اقتضوا الملك ثمنا لها ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ فرنك فى أربع سنوات . وبلغت جملة ما تكلفته الخزانة فى تلك السنوات الأربع ٣٧٥ر٠٠٠ر٦ جنيها(٧٧) . وسمع أهل باريس بجمالها المتألق ، وحزنوا لأن بومبادور جديدة اقبلت لتبتلع ضرائبهم .

وفى ٢٢ ابريل ١٧٦٩ قدمت رسميا فى البلاط ، وطلعت على أفراده فى شعلة متوهجه من الحلى والجواهر وهى تتكىء على ذراع ريشليو . وأعجب الرجال بمفاتنها ، أما النساء فاستقبلنها بما جرؤن عليه من فتور . واحتملت هذه الاهانات فى هدوء ، وأرضت بعض الحاشية بتواضع سلوكها والضحك الرخيم الذى كانت تشرح به صدر الملك . ولم تبد أى ضغينة حتى لأعدائها (باستثناء شوازيل) ، واكتسبت الرضى باستمالة

جلالته لاصدار قرارات عفوا أكثر مما كان يصدر من قبل . وشيئاً فشيئاً جمعت حولها رجالا ونساء من النبلاء الذين تشفعوا بها عند الملك. وقد حرصت على رعاية أقاربها كما فعلت بومبادور من قبل ، فاشترت أملاكا ولقبا لأمها ، وحصلت على معاشات لخالتها وأبناء خالتها ، ثم دفعت ديون جان دوبارى ، وخلفت عليه مالا كثيرا ، واشترت له فيلا أنيقة فى لبل — جوردان . وظفرت لنفسها من الملك بالشاتو لوفسين الذى كان أمير لامبال وأميرتها يشغلانه ، على حافة الحديقة الملكية فى مارلى ؛ واستخدمت أعظم معمارى الجيل ، جاك — انج جابرييل ، ليعيد بناء القصر على هواها ، وصانع الأثاث المدقق بيير جوتيير ليزخرفه بأثاث وتحف فنيه بلغ ثمنها ٧٥٦٫٠٠٠ جنيه .

وكانت تعوزها خلفية التعليم والاختلاط التى جعلت من بومبادور راعية مختارة ذواقة للأدب والفلسفة والفن . بيد أنها جمعت عددا كبيرا من الكتب الأنيقة التجليد ، من هومر إلى كتب الفحش ، ومن تأملات بسكال الورعة إلى رسوم فراجونار البذيئة . وفى ١٧٧٣ أرسلت تحيتها وصورتها إلى فولتير مع قبلة على كل وجنة وأجاب بأبيات فيها ذكاء شعره المعهود :

« ماذا ! أقبلتان فى ختام حياتى ! أى جواز تتفضلين بأن ترسليه لى ! قبلتان ! إن واحدة تكفى وزيادة ، أى إيجيريا المعبودة ، لأننى سأموت فرحا فى القبلة الأولى[٧٨] » .

وطلبت إلى لويس الخامس عشر أن يسمح لفولتير بالعودة إلى باريس فرفض ، وكان عليها أن تقنع بشراء تشكيلة من الساعات من فرنيه وفى ١٧٧٨ . حين أتى الاقطاعى العجوز إلى باريس ليموت ، كانت من بين الكثيرين الذين صعدوا سلم بيته فى شارع بون لتقدم له احترامها . وقد فتن بزيارتها ، وختمها بالنهوض من فراشة ليصحبها إلى الباب . وفى نزولها التقت بجاك بيير بريسو ، رجل الثورة المستقبل ، وكان يرجو أن يقدم إلى فولتير مخطوطة فى القانون الجنائى ، وحاول الدخول إليه بالأمس ففشل ، وكان يعيد الكرة الآن ، فقادته عودا إلى باب فولتير

ورتبت له أن يدخل . وقد استعاد فى مذكراته « ابتسامتها المفعمة دفئا ولطفا[٧٩] » .

لقد كانت طيبة القلب سمحة النفس ما فى ذلك ريب . احتملت دون رد عداء الأسرة المالكة ورفض مارى انطوانيت التحدث اليها . وكان شوازيل دون غيره هو الذى لم تستطع الصفح عنه لأنه لم ين عن محاولة طردها من البلاط . وسرعان ما وضح أن واحداً منهما لابد أن يرحل .

٨ — شوازيل

كان سليل أسرة لورينية عريقة ، وأصبح فى مطلع حياته الكونت دستانفيل ، وقد ظفر بالتشريف لبلائه فى حرب الوراثة النمساوية . وفى ١٧٥٠ حين كان فى الحادية والثلاثين استعاد لأسرته ثراءها بزواجه من وارثة غنية . وسرعان ما ظفر بمكان مرموق فى البلاط بفضل ذهنه الوقاد وذكائه المرح ، ولكنه عطل رقيه بمعارضته لبومبادور . وفى ١٧٥٢ نقل ولاءه فاكتسب عرفانها بصنيعه حين أفشى لها سر مؤامرة دبرت لطردها . فحصلت له على وظيفة سفير فى روما ثم فينا . وفى ١٧٥٨ دعى إلى باريس ليحل محل برنيس وزيرا للخارجية ، ورقى دوقا ونبيلا من نبلاء فرنسا . وفى ١٧٦١ نقل وزارته هذه لأخيه سيزار ، ولكنه واصل توجيه السياسة الخارجية ، أما هو فاتخذ لنفسه وزارتى الحربية والبحرية . وتعاظم سلطانه حتى كان يتغلب أحيانا على الملك ويخيفه[٨٠] » . وقد أعاد بناء الجيش ، والبحرية ، وقلل من المضاربة والفساد فى المدفوعات الحربية وفى تموين الجيش ، وأعاد النظام إلى صفوف الجيش ، وأحل ذوى الكفايات من غير حملة الألقاب محل حملتها ممن شاخوا فى سلاح الضباط . وطور المستعمرات الفرنسية فى جزر الهند الغربية ، وأضاف كورسيكا إلى ممتلكات التاج الفرنسى ، وتعاطف مع جماعة الفلاسفة ، ودافع عن الموسوعة ، وأيد طرد اليسوعيين (١٧٦٤) وأغضى عن إعادة تنظيم الهيجونوت فى فرنسا . وقد حمى أمن فولتير فى فرنيه ، وأيد حملته دفاعا عن أسرة كالاس ، وظفر من ديدرو بمديح قال فيه « أى شوازيل العظيم ، انك لتسهر على مقدرات الوطن[٨١] » .

ويمكن القول على الجملة إن سياساته أنقذت فرنسا إلى حد معتدل من الكارثة التي جرها إليها الحلف النمساوى المنحوس . فخفض الإعانات المالية التي كانت تدفعها عادة إلى السويد ، وسويسرة ، والدنمرك ، وبعض الأمراء الألمان . وشجع الجهود التي بذلها شارل الثالث ليدخل أسبانيا إلى حظيرة القرن الثامن عشر ، وحاول أن يعزز قوة فرنسا وأسبانيا بميثاق الأسرة (١٧٦١) الذي أبرمه الملكان البوربونيان . وقد تعثرت الخطة ، ولكن شوازيل فاوض انجلترة على صلح بشروط تفضل كثيراً ما كان الموقف العسكرى يبرره . وقد تنبأ بثورة المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا ، ودعم مركز فرنسا فى سان دومنيج والمارتنيك ، وجواديلوب ، وغيانا الفرنسية ، أملاً فى إرساء سلطان استعمارى جديد يعوض فرنسا عن فقد كندا . وقد تبنى النابليونان هـــذه السياسة فى ١٨٠٣ و ١٨٦٣ .

ويجب أن نضع مقابل هذه المنجزات إخفاقه فى وقف التغلغل الروسى فى بولندة وإصراره على قيادة فرنسا وأسبانيا فى أعمال عدائية مجددة مع انجلترة . وكان لويس قد سئم الحرب ، فاستمع بذهن مفتوح لأولئك الذين يعملون على إسقاط شوازيل . وقد فتن الوزير الأريب الكثيرين بمجاملته للبلاط ، واستضافته المسرفة للأصدقاء ، وسعة حيلته وجهاده فى خدمة فرنسا ، ولكنه قوى المنافسات فأحالها عداوات بنقده الصريح وحديثه المستهتر . وأتاحت معارضته لدوبارى معارضة لا هوادة فيها لإعدائه سبيلا إلى أذن الملك . وأيد ريشيلو — الذى لا يكل — دو بارى ، وكان ابن أخيه الدوق ديجيون يتحرق شوقاً للحلول محل شوازيل رئيساً للحكومة . ونزلت الأسرة المالكة التي أنكرت نشاط شوازيل ضد الشيوعين إلى استعمال الخليلة المزدراة أداة لعزل الوزير العديم التقوى .

وطلب إليه لويس غير مرة أن يتجنب الحرب مع انجلترة ومع دوبارى . ولكن شوازيل واصل الإئتمار على الحرب خفية ، وازدراء الخليلة جهراً . وأخيراً استجمعت كل قواها ضده وفى ٢٤ ديسمبر ١٧٧٠ أرسل الملك المغيظ رسالة مقتضبة إلى شوازيل جاء فيها « ياابن عمى ، إن عدم رضائى

عن خدماتك يضطرنى إلى نفيك إلى شانتلوب حيث يتعين عليك أن ترحل فى ظرف أربع وعشرين ساعة . » وتحدى أكثر الحاشية غيظ الملك بالإعراب عن عطفهم على الوزير المقال بعد أن صدمهم هذا الطرد الفجائى لرجل أدى لفرنسا خدمات جليلة. وركب نبلاء كثيرون إلى شانتلوب ليواسوا شوازيل فى منفاه . وكان منفى مريحا لأن ضيعة الدوق كانت تحوى قصرا من أبدع القصور ، وحدائق خاصة من أرحب الحدائق فى فرنسا ؛ ثم إنه كان يقع فى تورين غير بعيد من باريس . هنالك عاش شوازيل حياة الأبهة والأناقة ، لأن دو بارى أقنعت الملك بأن يرسل إليه ٣٠٠,٠٠٠ جنيه فوراً وتعهداً بستين ألفاً كل عام . وحزن جماعة الفلاسفة بسقوطه ، وبكى الطاعمون على مائدة دولباخ قائلين : « لقد ضاع كل شىء » وقال ديدرو فى وصفهم إنهم غرقوا فى دموعهم .

٩ — تمرد البرلمانات

جاءت بعد شوازيل « حكومة ثلاثية » كان دجيون وزير الخارجية فيها ورينيه نيكولا دمويو مستشارا ، والأبيه جوزيف مارى تريه مراقباً مالياً . وأعطى تريه لدوبارى كل ماطلبته من مال ، ولكنه فيما عدا ذلك خفض المصروفات تخفيضاً بطولياً . فأوقف استهلاك الديون ، وخفض نسبة الفائدة على الديون الحكومية ، ووضع الجديد من الضرائب ، والفروض ، والرسوم وضاعف الرسم الحكومى على النقل الداخلى . وبلغت جملة ماوفره ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأضاف ١٥,٠٠٠,٠٠٠ إلى الدخل . والواقع أنه إنما أجل الانهيار المالى بتفليسة مؤقتة ولكن الكثيرين عانوا من تخلف الحكومة فى إيفاء ديونها ، وضموا أصواتهم لأصوات السخط الذى لم يهدأ . وما لبث العجز أن عاد إلى التفاقم حتى بلغ ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه فى آخر سنوات الحكم (١٧٧٤) . وكان هذا الذى يبدو اليوم دينا أهليا متواضعا لأمة تتمتع بالاستقرار المالى مبررا إضافيا لقلق أولئك الذين أقرضوا الحكومة مالا ، والذين سمعوا الآن ، بعداء أذل الصيحات المتصاعدة بطلب التغيير .

وكانت أزمة الذروة فى العقد الأخير من حكم لويس الخامس عشر هى

كفاح وزرائه للحفاظ على ساطة الملك المطلقة ضد تمرد البرلمانات . وهذه البرلمانات (كما رأينا) لم تكن هيئات نيابية أو تشريعية كالبرلمان البريطانى بل غرفاً قضائيه تقوم بعمل محاكم الاستئناف فى ثلاث عشرة مدينة فرنسية. زد على ذلك أنها إدعت — كما إدعى البرلمان الإنجليزى ضد تشارلز الأول . . بأنها تدافع عن « القانون الأساسى » أو التقاليد المقررة لأقاليمهم ضد الاستبدادية الملكية ، وإذ كان الوصى فليب دورليان قد أكد حقهم فى « الاعتراض » أو الأحتجاج على المراسم الملكية أو الوزارية ، فإنهم تقدموا خطوة أخرى فطالبوا بألا يصبح أى مرسوم من هذه المراسيم قانونا مالم يوافقوا عليه ويسجلوه .

ولو كانت هذه البرلمانات قد إنتخبها الشعب ، أو إنتخبتها أقلية متعلمة مالكة (كما فى بريطانيا) لكان ممكنا أن تكون إداة أنتقال إلى الديمقراطية ، ولقد كانت إلى حد ما رقيباً صحياً على الحكومه المركزيه . ومن ثم فإن الشعب بصفة عامة أيدها فى كفاحها ضد الملك . على أنها كانت من أشد القوى محافظة فى فرنسا ، لأن أعضاءها كلهم تقريباً كانوا من أثرياء المحامين . وأصبح هؤلاء المحامون ، بوصفهم « نبلاء الرداء » منغلقين بانغلاق نبلاء السيف ، « وقرر البرلمان تلو البرلمان قصر المناصب الجديدة التى تحمل النبالة . . . . على الأسر النبيلة فعلا [٨٣] » . وكان برلمان باريس أكثرها غلوا فى المحافظة ، وبارى الأكليروس فى معارضة حرية الفكر أو النشر ؛ وحرم كتب جماعة الفلاسفه بل احرقهـــا أحيانا . وكان قد إنحاز إلى الجانسنية التى إدخلت لاهوتا كلفنيا فى الكنيسة الكاثوليكية . وقد لاحظ فولتيران برلمان تولوز الجانسنى عذب وقتل جان كالاس ، وإن برلمان باريس صدق على إعدام لابار ، فى حين نقضت وزارة شوازيل الحكم على كالاس وحمت الموسوعين .

وزاد كرستوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، الصراع حدة بين الجانسنين والكاثوليك التقليدين إذ أصدر أمره إلى الكهنه الخاضعين له بألا يناولوا القربان إلا للأشخاص الذين إعترفوا على يدكاهن غير جانسنى .

ومنع برلمان باريس الكهنة من إطاعة هذا الأمر مؤيدا من أكثرية الشعب، وأتهم رئيس الأساقفه بأنه يثير إنشقاقا فى الكنيسة ، وأستولى على بعض أملاكه غير الكنسية . وأعتبر مجلس الدولة الملكى هذا الإجراء مصادره غير قانونيه ، وأمر البرلمان بالأنسحاب من الخلافات الدينية . فأبى ، لا بل وضع « اعتراضات كبرى » (٤ مايو ١٧٥٣) كانت إلى حد ما إرهاصا بالثورة : فقد قال الأعضاء أنهم يعلنون ولاءهم للملك ولكن « إذا كانت الرعية تدين بالطاعة للملوك ، فإن هؤلاء يدينون بالطاعة للقوانين[٨٤] » . والمعنى الذى تضمنه هــذا القول هو أن البرلمان بوصفه حارسا للقانون ومفسرا له ، سيقوم بوظيفة المحكمه العليا فوق الملك . وفى ٩ مايو أصدر مجلس الدولة أوامر ملكية مختوقة بنفى معظم أعضاء برلمان باريس من العاصمة . وهبت برلمانات الأقاليم وأهل باريس لمناصرة المنفيين . ولاحظ المركيز دارجنسون فى ديسمبر أن « الباريسيين فى حالة إنفعال مكظوم[٨٥] » . وأمرت الحكومه جنودها بخفر الشوارع وحماية بيت رئيس الأساقفه لخشيتها من فتنة شعبية . وفى مارس ١٧٥٤ كتب دارجنسون يقول « كل الاستعدادات تجرى لحرب أهلية[٨٦] » . ووضع الكردينال دلاروشفوكوحلا وسطا ينقذ ماء الوجوه ؛ فطلبت الحكومة إلى المنفيين أن يعودوا (٧ سبتمبر) ، ولكنها أمرت البرلمان والأكليروس أن يكفا عن النزاع . ولكن احداً لم يطع الأمر ، وواصل رئيس أساقفة باريس حملته على الجانسنية ، وواصلها بعنف حمل لويس على نفيه إلى كونفلانس (٣ ديسمبر) : وأعلن البرلمان أن المرسوم البابوى الصادر ضد الجانسنيين ليس قانونا من قوانين الإيمان ، وأمر الكهنه بتجاهله . وتذبذبت الحــكومة ، وأخيرا أمرت البرلمان بقبول المرسوم البابوى (١٣ ديسمبر ١٧٥٦) نظراً لحاجتها إلى سلفة من الأكليروس تعينها على خوض حرب السنين السبع .

وأدار الجدل العنيف رؤوسا كثيره . ففى ٥ يناير ١٧٥٧ هاجم روبير — فرنسوا داميان الملك فى أحد شوارع فرساى ؛ وطعنه بمطواة كبيره ،

ثم لزم مكانه ينتظر القبض عليه . وقال لويس لحراسه المهملين « تحفظوا عليه ولكن لا يؤذه أحد[٨٧] » . واتضح أن الجرح غير ذى بال ، وقال المهاجم « لم يكن فى نيتى قتل الملك ، ولو شئت لقتلته . إنما فعلت ما فعلت ليمس الله قلب الملك ويؤثر فيه ليعيد الأمور إلى سيرتها الأولى[٨٨] » . وفى رسالة أرسلها من سجنه إلى الملك أعاد القول بأن « رئيس أساقفة باريس هو سبب كل هذه الضجه حول الأسرار المقدسة ، لأنه أمسكها عمن يريد تناولها[٨٩] » . وقال إنه قد أثاره ما سمعه فى البرلمان من خطب ، « ولوانى لم إدخل قط دارا للعداله . . . . لما وصلت إلى هذا المكان قط[٩٠] » . وقد هاجته هذه الخطب هياجا حمله على أن يرسل فى طلب طبيب ليتصده ، ولكن لم يأتى طبيب . ولو أنه قصد (كما قال) لما هاجم الملك[٩١] . وحاكمته غرفة البرلمان الكبرى ، وأدانته ، وحكمت عليه ، ثم حكمت على أبيه ، وأمه ، وأخته ، بالنفى المؤبد . وعانى داميان الوان التعذيب التى نص عليها القانون عقابا لقتلة الملوك : فمزق لحمه بكماشات محمية ، ورش عليه الرصاص المغلى ، ومزقت أوصاله جياد أربعة (٢٨ مارس ١٧٥٧) . ودفعت نبيلات النساء المال نظير تمكينهن من مشاهدة هذه العملية من مواقع مواتية . أما الملك فاعرب عن اشمئزازه من ضروب التعذيب هذه وأرسل المعاشات للأسرة المنفية .

وأسفر العدوان عن بعض العطف على الملك ، فشارك اليهود والبروتستنت فى الصلاة من أجل سرعة شفائه ، ولكن حين علم الناس أن الجرح لم يكن أكثر من «شكة دبوس» فى عبارة فولتير (piqure d'épingle) ارتد تيار التأييد الشعبي إلى ناحية البرلمان . وبدأ الناس يتنافسون فى موضوع الحكومة النيابية وما يقابلها من الملكية المطلقة . كتب دارجنسون يقول « إنهم يرون فى هذه البرلمانات علاجا للاوصاب التى يعانون منها . . . . أن الثور تضطرم تحت الرماد » . وفى يونيو ١٧٦٣ عاد برلمان باريس يؤكد أن « مراجعه البرلمان للقوانين هى أحد القوانين التى لا يمكن انتهاكها دون أنتهاك للملك القانون الذى أوجد الملوك انفسهم[٩٢] » . ومضى برلمان تولوز شوطا أبعد ، فأعلن أن القانون يقتضى «رضاء الأمة الحر الطليق[٩٣]»

ولكنه عنى بلفظ « الأمة » فى البرلمانات . وفى ٢٣ يوليو ١٧٦٣ قدمت هيئة قضائيه هامة تدعى محكمة المعوقات يرأسها مالزيرب الشجاع الأمين إلى الملك تقريرا عن فقر الشعب وعن العجز والفساد فى إدارة مالية الدولة ، ورجته الهيئة « أن يصغى للشعب نفسه عن طريق مندوبيه فى اجتماع لمجلس طبقات المملكة[٩٤] » . وهذه أول مطالبة صريحة بمجلس الشعب الذى لم يدع منذ ١٦١٤ .

وفى الصراع الخطر الذى تمخض عن طـــرد اليسوعيين من فرنسا (١٧٦٤)[٩٥] . إتخذ برلمان باريس موقف الهجوم وفرض رأيه على الملك . وفى يونيو ونوفمبر أرسل برلمان رين ، وهو دار القضاء العالى ببريتنى ، إلى لويس اعتراضات شديدة اللهجة على الضرائب التى فرضها الدوق ديجبون الذى كان آنئذ حاكما على الإقليم . فلما لم يتلق جوابا يرضيه أوقف جلساته ، واستقال معظم أعضائه (مايو ١٧٦٥) ، ونشر نائبه العام ، لوى رينيه دلاشالوتيه ، هجوما على الحكومة المركزيه فقبض عليه وعلى ابنه وثلاثة مستشارين وأتهموا بالتحريض على الفتنة . وأمر الملك برلمان رين بمحاكمتهم . فرفض ، وأيدت الرفض جميع برلمانات فرنسا يظاهرها فى ذلك الرأى العام . وفى ٣ مارس ١٧٦٦ ظهر لويس أمام برلمان باريس وحذره من الإغضاء عن الفتنه ، وأعلن تصميمه على الحكم ماسكا مطاق السلطان .

« فى شخصى وحدى تستقر سلطة السيـــادة ، ولى وحدى السلطة التشريعية غير مشروطة ولا مجزأه . وكل النظام العام ينبثق منى . وشعبى وأنا واحد ، وحقوق الأمة ومصالحها ، الأمة التى يجرؤ البعض على جعلها هيئة منفصلة عن الملك ، هى بالضرورة متحدة مـــع حقوقى ومصالحى ، مستقره فى يدى دون غيرى[٩٦] » .

وأضاف أن الإيمان التى أقسمها لم يقسمها للأمة ، كما أكد البرلمان ، بل لله وحده . وواصل برلمان باريس دفاعه عن برلمان رين ، ولكنه فى ٢٠ مارس قبل النظرية التالية رسميا ، بإعتبارها « مبادىء أساسية

لا مناص منها » وهى « أن السيادة للملك وحده ، ولا يسأل إلا أمام الله ... والسلطة التشريعية مستقره كلها فى شخص الملك(٩٧) » . وحث شوازيل وغيره الملك على بذل تنازلات متجاوبة فأفرج عن لاشالويته وزملائه المسجونين ، ولكنهم نفوا إلى سانت قرب لا روشيل . ودعى دبجيون من بريتنى ، وانضم إلى اعداء شوازيل . واستأنف برلمان رين جلساته (يوليو ١٧٦٩) .

ودخل فولتير الصراع باصداره « تاريخ برلمان باريس بقلم الأبيه بج » عام ١٧٦٩ . وقد أنكر أنه مؤلف الكتاب ، وكتب خطابا ينقده لأنه آية فى الأغلاط والسخف ، وجريمة ضد اللغة(٩٨) » . ومع ذلك فالكتاب بقلمه . ومع أنه كتبه على عجل فقد دل على ما بذل فيه من بحث تاريخى لا يستهان به . غير أن النزاهة تعوزه ، فهـو أتهام طويل للبرلمان باعتباره مؤسسة رجعية قاومت فى كل مناسبة التدابير التقدميه — كانشاء الأكاديمية الفرنسية ، والتطعيم ضد الجدرى ، والأدارة الحرة للقضاء . وأتهم فولتير البرلمانات بالتشريع الطبقى ، والخرافة ، والتعصب الدينى . فلقد أدانت أقدم الطابعين فى فرنسا ، وهللت لمذبحة يوم القديس برتلميو ، وحكمت بحرق المرشال دانكر كما تحرق الساحرات . وقال فولتير أنها إنشئت لوظائف قضائيه بحته ، وليس لهـا سلطة التشريع ، ولو إتخذت هذه السلطة لأحلت محل أوتقراطية الملك أو ليجاركية المحامين الأغنياء المتحصنه ضد أى رقابة شعبيه . وكان فولتير قد كتب هـذه المذكرة المسهبة خلال سطوة شوازيل الذى شجعت ميوله اللبرالية الأعتقاد بأن التقدم ميسور أشد ما يكون يسرا على يد وزير مستنير فى ظـل ملك مستنير . أما ديدرو فلم يوافق فولتير ، وقال أن البرلمانات مهما كانت رجعية النزعة فإن مطالبتها بحـق الأشراف على التشريع ضابط مرغوب فيه على الاستبداد الملكى (٩٩) .

وجاءت عودة ديجون إلى باريس بأزمة جديدة . فقد اتهم برلمان رين الدوق بارتكاب عمل محظور ، وإذعن لمحاكمة برلمان باريس له على هذه

التهم ، فلما وضح أن الحكم سيصدر بأنه مذنب لجأت مدام دوبارى إلى الملك ليتدخل . وأيدها فى ذلك المستشار موبو ، وفى ٢٧ يوليو ١٧٧٠ أعلن لويس أن الجلسات تفشى أسرارا للدولة . وعلى ذلك يجب انهاؤها ثم الغى شكاوى الفريقين المتبادلة ، وأعلن براءة كل من دجون ولاشالوتيه ، وأمر جميع أطراف النزاع بالكف عن اثارة الشعور العام . وتحدى البرلمان هذه الأوامر باعتبارها تدخلا تعسفيا فى سير العدالة المشروع ، وأعلن ان الشهادة أضرت ضررا بليغا بشرف دجيون ، وأوصى بوقفه عن ممارسة جميع وظائفه بصفته نبيلا حتى تثبت براءته بالطريقة القانونية الواجبة . وفى ٦ سبتمبر أصدر البرلمان قرارا arrêté كان فيه اختبار بقوة الملك :

« أن تعدد أعمال سلطة مطلقة تمارس فى كل مكان ضد روح ونص القوانين التأسيسية للملكية هو برهان دامغ : على أن هناك نية مبيتة لتغيير شكل الحكومة ، ولأحلال الأعمال الشاذة لسلطة تعسفية محل سلطان القوانين المتعادل على الدوام[١٠٠] » .

ثم أجل البرلمان جلساته حتى ٣ ديسمبر .

واستغل موبو هذه المهلة ليعد دفاعا متصلبا عن السلطة المليكية . فى ٢٧ نوفمبر أصدر بتوقيع الملك مرسوما سلم بحق الاعتراض ولكنه حرم أى رفض لمرسوم يجدد بعد سماع الاعتراضات . ورد البرلمان بأن التمس من الملك أن يسلم مشيرى العرش الأشرار لانتقام القوانين[١٠١] . وفى ٧ ديسمبر دعا لويس البرلمان إلى فرساى ، وفى جلسة رسمية لـ (سرير العدالة) أمر الأعضاء بأن يوافقوا على مرسوم ٢٧ نوفمبر ويسجلوه . فلما عاد القضاة إلى باريس قرروا الكف عن أداء جميع وظائف البرلمان حتى يسحب مرسوم نوفمبر . وأمرهم لويس باستئناف جلساتهم ، فتجاهلوا الأمر . وحاول شوازيل إقرار السلام فى ربوع الوطن لخوض حرب انجح خارجه ، فأقاله لويس ، وهيمن موبو الآن على مجلس الدولة بينما راحت دوبارى تحوم حول الملك ، وأرته لوحة فانديك التى رسمها لتشارلز

الأول ملك انجلترە ؛ وحذرته من مصير كمصيره قائلة « إن برلمانك أيضا سيضرب عنقك[١٠٢] » .

وفى ٣ يناير ١٧٧١ أمر لويس ثانية بقبول مرسوم نوفمبر . ورد البرلمان بأن المرسوم ينتهك قوانين فرنسا الأساسية . وفى ٢٠ يناير فيما بين الساعة الواحدة والرابعة صباحاً سلم جنود الملك المسلحون لكل قاض « إرادة ملكية » تخيره بين الطاعة أو النفى من باريس . وأكدت الكثرة الساحقة حبهم للملك ، ولكنهم ظلوا على عنادهم . وعليه فى اليومين التاليين نفى ١٦٥ عضوا فى برلمان باريس إلى أنحاء شتى فى فرنسا . وهتف الشعب لهم وهم يبرحون قصر العدالة .

وتحرك الآن موبو ليحل منظمة قضائية جديدة محل البرلمانات . فأنشأ فى باريس بمرسوم ملكى محكمة عليا تتألف من مجلس الدولة وبعض الفقهاء اللينيين ؛ وأنشأ فى آراس ، وبلوا ، وشالون ؛ وكليرمون — فران، وليون وبواتييه ، « مجالس عليا » لتكون محاكم استئناف للأقاليم . وأصلحت بعض المفاسد القضائية ، وأوقف بيع الوظائف ، وتقرر أن يكون التقاضى من الآن بالمجان . وهلل فولتير للإصلاح ، وتنبأ فى تهور « إننى واثق تمام الثقة أن المستشار سيحقق نصراً كاملا ، وأن الشعب سيحب هذا الانتصار »[١٠٣] . ولكن الشعب لم يستطع أن يتقبل فى رضى هدم مؤسسة عريقة القدم كالبرلمانات فما من شيء يكثر الناس من إدانته ويعمق حبهم له كالماضى . واحتقرت معظم الجماهير المحاكم الجديدة لأنها أدوات إضافية تستعين بها الأوتقراطيه الملكية . وحزن ديدرو على نهاية البرلمانات وإن لم يكن مخدوعاً فيها ، فقال إن ذلك « خاتمة الحكم الدستورى . . فى لحظة واحدة قفزنا من الحالة الملكية إلى أشد حالات الاستبداد »[١٠٤] . وأعرب أحد عشر نبيلا من نبلاء المملكة ، بل بعض أعضاء الأسرة المالكة ، عن عدم موافقتهم على المحاولة التى يبذلها موبو لاستبدال البرلمانات . ولم ينشب بين الشعب هياج واضح ، ولكن كلمات الحرية ، والقوانين ، والشرعية ، التى ترددت كثيراً فى البرلمان مؤخراً أخذت تتداولها الألسن . واصطبغت الهجائيات الموجهة للملك الفاسق بعنصر جديد من الجرأة والمرارة ، ودعت الملصقات الدوق أورليان لتزعم الثورة .

وتورطت البرلمانات كارهة تقريبا ، وبرغم نزعتها المحافظة ، فى خميرة من الأفكار الثورية . وكان مقالا روسو ، وشيوعية موريللى ، ومقترحات مابلى والاجتماعات السرية لجماعة الماسون الأحرار ، وفضح الموسوعة للمفاسد المتفشية فى الحكومة والكنيسة ، وسيل النشرات المتدولة فى أرجاء العاصمة والأقاليم — كلها كانت تعارض معارضة عنيفة دعوى السلطة المطلقة والحق الإلهى التى يدعيها ملك خامل عربيد. وهكذا أخذ الرأى العام (M.Tout le monde) يتحرك بوصفه قوة فى التاريخ .

كان أثقل النقد إلى عام ١٧٥٠ يقع على الكنيسة ، ولكنه بعد ذلك راح يقع بازدياد على الدولة بعد أن حفزه حظر الموسوعة . كتب هوراس ولبول من باريس فى أكتوبر ١٧٦٥ :

« لم يعد للضحك سوق هنا .. يا للقوم الطيبين ، إن وقتهم لا يتسع للضحك ، فواجبهم الأول هو هدم الله والملك ؛ ويشارك الرجال والنساء ، والعظماء والحقراء فى هذا الهدم من كل قلوبهم .. أتعلم من هم «الفلاسفة» أو ما مدلول اللفظ هنا؟ أولا هو يشمل كل إنسان ، ثانياً يعنى الرجال الذين يهدف الكثيرون منهم ، بعد أن أقسموا على خوض الحرب على الملكية ، إلى هدم الدين كله وأكثر من هؤلاء إلى القضاء على سلطة الملك »[١٠٥] .

وفى هذا الحكم مغالاة بالطبع ، فمعظم جماعة الفلاسفة (باستثناء ديدرو على الأخص) كانوا أنصارا للملكية يتجنبون الثورة . هاجموا النبلاء وكل الامتيازات الوراثية ؛ وانتقدوا عشرات المفاسد وطالبوا بإصلاحها ؛ ولكنهم كانوا يرتعدون فرقاً من فكرة إعطاء السلطة كلها للشعب[١٠٦] . ومع ذلك كتب جريم فى « رسائله » فى يناير ١٧٦٨ يقول :

« إن السأم العام من المسيحية ، الذى يتضح فى جميع الأرجاء ، لاسيما فى الدول الكاثوليكية ، والقلق الذى يهيج عقول الناس بشكل غامض ويدفعهم إلى مهاجمة المفاسد الدينية والسياسية — كل هذا ظاهرة يتسم بها قرننا ، كما اتسم القرن السادس عشر بروح الإصلاح ، وهو ينذر بثورة داهمة لا مفر منها »[١٠٧] .

١٠ — رحيل الملك

لم يؤت لويس الخامس عشر كما لم يؤت من قبله لويس الرابع عشر ، فن الموت في الوقت المناسب . لقد كان عليما بأن فرنسا تترقب زواله ، ولكنه لم يطق التفكير في الموت . كتب السفير النمساوى « أن الملك يبدى الملاحظات بين الحين والحين عن سنه ، وصحته والحساب العسير الذى لابد أن يقدمه يوما ما للخالق الأعظم »[١٠٨] . وقد يتأثر لويس تأثراً عابراً باعتكاف ابنته لويز — مارى فى دير كرملى تكفيراً عن ذنوب أبيها فيما زعموا ، وقيل إنها كانت تدعك أرض الحجرات وتغسل الملابس . فلما ذهب لزيارتها وبخته على عيشته وتوسلت إليه أن يطرد دى بارى ويتزوج الأميرة دلامبال ويصلح مافسد بينه وبين الله .

وقد مات عدة أصدقاء له فى أخريات عهده ، وقع اثنان منهم صريعين تحت قدميه بهبوط فى القلب[١٠٩] . ومع ذلك بدا أنه يجد لذة رهيبة فى تذكير الشيوخ من حاشيته بقرب موتهم . قال مرة لأحد قواده . « انك تشيخ يا سوفريه ، فأين تريد أن تدفن ؟ » فأجاب سوفريه « عند قدمى جلالتك يا مولاى » . وقيل أن هذا الجواب « جعل الملك واجما كثير التفكير[١١٠] » . وقالت مدام دؤوسيه أنه « لم يخلق رجل أكثر منه اكتئابا وغما[١١١] .

وكان موت الملك انتقاما طال انتظاره ، انتقمه على غير عمد جنس النساء الذى هام به وحط من كرامته ، فحين لم تكف حتى دوبارى لأشباع شهوته ، جاء إلى فراشه بفتاه يبلغ من حداثتها انها لم تكد تبلغ سن الزواج . وكانت تحمل جراثيم الجدرى ، فنقلت عدواه إلى الملك . وفى ٢٩ ابريل ١٧٧٤ بدأ هذا المرض يهاجمه . وأصرت بناته الثلاث على ملازمته وتمريضه مع انهن لم يسبق لهن التحصين ضد الجدرى (وقد أصبن بالمرض جميعهن ولكنهن شفين) وكن يتركنه فى الليل فتحل دوبارى محلهن . غير أن الملك صرفها برفق حين رغب فى تناول الأسرار المقدسة فى ٥ مايو قائلا : « أعلم الآن انى مريض مرضا خطيرا . أن فضيحة متز يجب ألا تتكرر .

أنى أدين بنفسى لله ولشعبى . وإذن يجب أن نفترق . فاذهبى إلى قصر الدوق ديجيون الريفى فى روبيل وانتظرى أوامر جديدة . وصدقينى إننى سأظل على الدوام أحتفظ لك بشعور المحبة العميقة(١١٢) .

وفى ٧ مايو صرح الملك فى حفل رسمى أمام البــلاط بأنه نادم على مافرط منه من فضائح أمام رعاياه ، ولكنه أصر على أنه لايدين بأى مؤاخذه عن سلوكه إلا لله وحده(١١٣) . وأخيراً رحب بالموت . فقال لإبنته لم أشعر فى حياتى بمثل هذه السعادة(١١٤) . ولفظ أنفاسه فى ١٠ مايو ١٧٧٤ وهو فى الزابعة والستين ، بعد أن حكم تسعة وخمسين عاما . وحمل جثمانه الذى لوث الهواء على عجل إلى المدافن الملكية فى سان دنيس دون أبهة وسط تهكم الجميع الذى اصطف على الطريق . واغتبطت فرنسا مرة أخرى بموت ملكها كما اغتبطت من قبل عام ١٧١٥ .

الفصل الرابع

فن الحياة

١ – الفضيلة والكياسة

يقول تاليران « لا يعرف لذة العيش من لم يعش حوالى سنة ١٧٨٠ » * بالطبع شريطة أن يكون من أبناء الطبقات العليا ، وأن تكون مجرداً من أى ميول للفضيلة .

وتعريف الفضيلة صعب ، فكل عصر يكيف تعريفه وفق طبعه وآثامه . وقد ظل الفرنسيون القرون الطوال يخففون من وطأة الاقتصار على الزوجة الواحدة بالزنا ، كما تخفف منها أمريكا اليوم بالطلاق . والرأى الغالى (الفرنسى) يجد الزنا المعتدل أقل إضراراً بالأسرة — أو بالأبناء على الأقل من الطلاق . على أية حال ازدهر الزنا فى فرنسة القرن الثامن عشر ، وكان الناس يغضون عنه عموما . وآية ذلك أن ديدرو حين أراد فى موسوعته أن يفرق بين « الارتباط » و« التعلق » ضرب هذا المثال : « أن الرجل يرتبط بزوجته ، ولكنه يتعلق بخليلته . [٢] » ويقول معاصر لذلك الجيل « ان خمسة عشر نبيلا من بين العشرين الذين تراهم فى البلاط يعاشرون نساء لم يتزوجوهن [٣] » . وكان الظفر بخليلة أمراً لاغنى عنه للمركز الاجتماعى كحيازة المال سواء بسواء . أما الحب فكان شهوانياً فى غير مواربة : صوره بوشيه فى صورة وردية ، وخلع عليه فراجونار الأناقة والرشاقة ، أما بوفون فقال فى صراحة وحشية « ليس فى الحب شيء طيب إلا الجسد [٤] » .

---

* وردت هذه الملاحظة الشهيرة فى « موسوعة الأقوال المأثورة » لمصنفها ب . دوبريه (باريس ١٩٥٩) ، ١ ، ٦٣٥ ، نقلا عن « مذكرات لتاريخ عصرى » بقلم فر . جيزو (باريس ١٨٥٨ – ٦٨) ، ١ ، ٦ . (١)

على أن الحب الأنبل كان يظهر هنا وهناك . حتى فى « كريبيون » الابن[٥] ، ومن جماعة الفلاسفة جرڤ هلفتيوس على الهيام بزوجته ، وظل دالامبير وفيا لحولى دليسبيناس طوال تنويعات حنها الذى أمتعها . وقد اضطلع جان جاك روسو فى هذا الجيل باصلاح للاخلاق يدعو إليه رجل واحد . وهل نشيد كذلك بفضل روايات صموئيل رتشردسن ؟ وتحلت بعض النساء بالفضيلة على سبيل الموضة[٦] fashion ، ولكن بعضهن تقبلن فى عرفان دعوة بعثت من مرقدها ، دعوة العفة قبل الزواج ، والوفاء بعده ، منقذة لهن من هوان استخدامهن معابر الكل زير نساء ، على أية حال لم يعد الاقتصار على الزوجة الواحدة شارة تخجل حاملها . فقد اكتشف الفاسقون من جديد بعد أن تزوجوا مباهج قديمة فى الحياة الأسرية ، وأنه خير للرجل أن يسبر أغوار الوحدة . من أن يظل طوال حياته يعبث بسطح التعـــدد والتنوع . واستقرت نسوة كثيرات بدأت حياتهن بنزق وطيش كأنهن سطوح لاعمق فيها — حين أنجبن . وأرضع بعضهن أطفالهن حتى قبل أن يحثهن على ذلك روسو ، وكثيرا ما كان هؤلاء الأطفال يردون هذا الصنيع بعد أن ترعرعوا فى ظل محبة الأم ، باهتمام البنين بوالديهم . ومن أمثلة ذلك أن المرشالة دلكسمبورج أصبحت زوجة مثالية بعد شبابها المغامر ، وأخلصت لزوجها وهى ترعى روسو فى حنان كأنها أمه . وحين مات الكونت دموريا (١٧٨١) بعد أن خدم لويس الخامس عشر والسادس عشر وعانى آلام النفى الطويل فيما بين فترتى وزارته ، ذكرت زوجته أنهما « انفقا معاً خمسين عاما دون أن يفترقا يوما واحدا»[٧] ونحن نسمع الكثير جدا — والمؤلفان قد تكلما كثيرا جدا عن النساء اللاتى أفلحن فى دخول التاريخ بفضل حنثهن بعهود الزواج ، ولا نسمع إلا القليل جداً عن أولئك النسوة اللاتى امتنعن عن الخيانة حتى ولو خانهن رجالهن . مثال ذلك أن الآنسة كروزا . التى خطبت وهى فى الثانية عشرة للرجل الذى أصبح فيما بعد الدوق دشوازيل . احتملت فى صبر هيامه بأخته الطموح ، ورافقته فى منفاه : فأشـــاد بقداستها حتى ولبول « المرقع » . ولم تفتر محبة الدوقة درشليو لزوجها طول خياناته الزوجية ، وكانت شاكرة لأن القدر سمح لها بأن تموت بين ذراعيه[٨] » .

وظلت الانحرافات ، والمطبوعات الفاجرة ، والبغاء على ما عهدنا . كان القانون الفرنسي ينص على الإعدام عقابا للواط ؛ وحدث فعلا أن لوطيين احرقا فى ميدان جريف عام ١٧٥٠[٩]. ولكن القانون كان عادة يتجاهل اللواط الاختيارى بين البالغين[١٠] . وكانت الأخلاق الاقتصادية على حالها اليوم ، وليلاحظ القارىء الفقرة الواردة فى كتاب روسو « إميل »[١١] . (١٧٦٢) عن غش الطعام والخمور . وكانت الأخلاق السياسية على حالها اليوم ، كان هناك الكثيرون من خدام الشعب المخلصين (مالزيرب ، وطورجو ، ونكير) ، ولكن كثيرون أيضا ممن وصلوا إلى مناصبهم بالمـــال أو الاتصالات ، وأثروا فى المنصب متجاوزين فى ذلك نص القـــانون وعاش كثير من النبلاء العاطلين عيشة الترف على دماء فلاحيهم ، ولكن بر الحكومة والأفراد بالناس كان كثيرا .

وكان فرنسيو القرن الثامن عشر فى جملتهم شعبا لطيفا رغم ناموس من الاخلاق الجنسية أنتهك المعايير المسيحية بصراحة . فانظر كم من الناس خفوا لنجدة روسو وتعزيته رغم صعوبة إدخال البهجة على نفسه ؛ وكثيرا ما كان هؤلاء القوم الكرام ينتمون إلى الطبقة الاستقراطية التى سبها . وكانت الشهامة قد اضمحلت فى علاقة الرجل بالنساء ، ولكنها ظلت حية فى معاملة الضباط الفرنسين لأسرى الحرب الذين من طبقتهم . كتب سموليت الخصم النزق فى رحلة له بفرنسا عام ١٧٦٤ يقول : « أنى أخص الضباط الفرنسين بالأحترام لشهامتهم وبسالتهم : لاسيما للروح الإنسانيه السمحة التى يعاملون بهـــا أعداءهم . حتى وسط أهوال الحرب[١٢] » . وقد صور جويا قسوة الجنود الفرنسيين على العامة الأسبان فى حروب نابليون ، ولكنه كان فى أغلب الظن مبالغا . وما من شك فى أن الفرنسين كانوا يستطيعون أن يكونوا غاية فى القسوة ، ربما لأنهم تعلموا القسوة من الحرب وقانون العقوبات . كانوا صخابين يميلون للمشاجرت على نحوما يفعل طلاب الكليات الذين يهاجمون خصومهم بالمدى . وللمشاغبات فى الشوارع بديلا عن الإنتخابات . فيهم عنف ونهور . يندفعون إلى الخير أو الشر دون أن يضيعوا وقتا فى التروى . وفيهم شوفينية (غلو فى الوطنيه) لا يستطيعون أن يفقهوا لم كان سائر

البشر من الهمجية بحيث يتحدثون بلغة غير الفرنسية . وقد أبت مدام دنيس أن تتعلم الكلمه الإنجليزية « الخــبز » — لم لا يستطيعون كلهم أن يقولوا pain ؟ (١٣) ولعلهم أحبوا مجد وطنهم أكثر مما أحبه أى شعب آخر . وعما قليل سيموتون بالألوف المؤلفة وهم يهتفون « يحى الأمبراطور » .

وقد بز الفرنسيون بالطبع غيرهم من الشعوب فى آداب السلوك . صحيح إن تقاليد الأدب التى أرسيت فى عهد لويس الرابع عشر لوثها النفاق ، والكلبية ، والسطحية ، ولكنها ظلت فى جوهرها حية ، وأضفت على الحياة بين الطبقات المتعلمة كياسة لا قدرة لأى مجتمع أن يضارعها اليوم . قال كازانوفا « إن فى الفرنسين أدبا جما وتلطفا كثيراً يجذب إليهم المرء للتو » ولكنه أضاف أنه لم يستطع قط أن يثق بهم(١٤) .

وقد تفوقوا على غيرهم من الشعوب فى النظافة . فأصبحت فى المرأة الفرنسية إحدى الفضائل الأساسيه التى تمارسها حتى الموت . وكان من حسن الأدب نظافة الملبس وأناقته . وكان رجال الحاشية ونساؤها يخرجون أحيانا على أصول الذوق السليم بالاسراف فى اللباس الفاخر أو الغلو فى تصفيف شعورهم . وأرسل الرجال شعورهم فى ضفائر ، وهى عادة استهجنها المرشال دساكس لخطرها فى الحرب لأنها تمكن العدو من صاحب الشعر ؛ ثم يبدرون الشعر بنفس العناية التى يبدر بها نساؤهم شعورهن . وغالت النساءفى رفع شعورهن حتى خشين الرقص مخافة أن يلتقطن النار من الثريات . وقد قدر زائر فرنسى أن ذقن إحدى السيدات الفرنسيات يقع تماما فى منتصف المسافة بين قدميها وقمة شعرها(١٥) . وجنى الحــلاقون الأموال الطائله بكثرة تغيير موضات الشعر . ولم تمتد النظافة إلى شعر المرأة ، لأن تصفيفه كان يستغرق الساعات . واحتفظت جميع النساء — إلا أشدهن غلوا فى التبرج — بنفس التسريحة أياما دون أن يمسها مشط . وحملت بعض السيدات مكاشط من العاج ، أو الفضة ، أو الذهب ، يحككن بها روسهن فى رشاقة ساحرة .

وكان ماكياج الوجه ممتدا تعقيده اليوم . كتب ليوپولد موتسارت إلى

زوجته من باريس فى ١٧٦٣ يقول . « تسألين هل النساء الباريسيات جميلات . ولكن كيف السبيل إلى معرفة هذا إذا كن مزوقات كعرائس نورمبرج ، ممسوخات بهذه الحيلة المنفرة مسخا تعجز معه عينا الألمانى السادج عن التعرف على امرأة ذات جمال طبيعى إذا رآها[١٦] » ؟ وكان النساء يحملن مساحيق الزينة معهن ، ويجملن بشرتهن من جديد علانية فى غير حياء شأنهن اليوم . وقد حمرت مدام دوموناكو وجهها قبل أن تركب لتقطع الجيلوتين رأسها . وكانت جثث الموتى تجمل ، وتبدر ، وتحمر ، كما فى زماننا . أما ثياب النساء فكانت مزيجا متحديا من الاغراءات والمعوقات : فيه فتحات النحور الواطئة ، والصدارات المخرمة ، والجواهر التى تخطف الأبصار ، والتنانير الكبيرة الفضفاضة . والأحذية العالية الكعوب المصنوعة عادة من التيل أو الحرير . وانتقد بوفون وروسو وغيرهما لبس المشدات ، ولكنها ظلت ضربة لازب حتى أطاحت بها الثورة .

وكان تنوع الحياة الاجتماعية ومرحها من مفاتن باريس . فكانت مقاهى بروكوب ، ولا ريجانس ، وجرادو ، تستقبل رجال الفكر والثوار ، والأثريا . من الرجال الباحثين عن اللهو . والنساء الباحثات عن الرجال . أما نجوم الأدب . والموسيقى . والفن . فكانوا يسطعون فى الصالونات . وأبهج أقطاب النبالة أو الثروة فرساى وباريس بالمآدب والاستقبالات والمراقص . وكانت الفنون بين عليه القوم تشتمل على الأكل والحديث . فكان المطبخ الفرنسى مثار حسد أوربا . وكان الحديث الفرنسى الذكى الظريف قد بلغ الآن من الصقل مبلغا أستنزف فيه كل المواضيع . فقام الضجر على الإشراق ، واضمحل فن الحديث فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . فرفعت الخطابة من حرارته فوق ما ينبغى ، وسبق المتكلمون السامعين . وأبتذلت النكتة الذكية نتيجة إسرافها وللدغاتها المستهترة . وقد ذكر فولتير — الذى كان هو ذاته قادرا على اللدغ — باريس بأن النكتة إذا خلت من اللباقة كانت الفجاجة بعينها[١٧] ، وذهب لا شالوتيه إلى أن « الولع بالتظرف . . . أقصى العلم والثقافة الصحيحة عن الصالونات[١٨] » .

وكان الناس يتمشون المويننا فى الحدائق العامة ... التى لقيت النظافه والتشذيب وحفلت بالتماثيل — أو يتبعون أطفالهم أو كلابهم ، والفتيان الطائشون المرحون يطاردون الصبايا البارعات فى التراجع عديم الجدوى . وأغلب الظن أن حدائق التويلرى كانت يومها أبدع منها الآن فلنستمع إلى وصف مدام فيجيه — لوبرون :

« كانت دار الإوبرا قريبة فى تلك الأيام ، على حافة الباليه — رويال . وكان التمثيل فى الصيف ينتهى فى الثامنة والنصف ، فيخرج علية القوم حتى قبل النهاية للتمشى فى أرجاء الحديقة . وراج بين النساء أن يحملن طاقات زهر كبيرة كانت هى والبودرة المعطرة التى فى شعرهن تملأ الجو عبيراً بكل معنى الكلمة . وأنا أعلم أن هـذه الاجتماعات كانت قبل الثورة تمضى حتى الثانية صباحاً ثم كانت هنالك حفلات موسيقية على ضوء القمر فى الهواء الطلق . . . . وكان يحتشد فى المكان جمع كبير على الدوام[١٩] » .

٢ — الموسيقى

إتخذت فرنسا من الموسيقى جزءا من « مرحها الباريسى » فهى لم تعبأ بمنافسة ألمانيا فى القداسات والكورالات الجادة . وقد تجاهلت موتسارت تقريباً حين وفد على باريس ، ولكنها نسيت التعصب لوطنيتها حين افتتنت آذانها بالألحان الإيطاليه . وجعلت من موسيقاها « مهرجانات ترفيه » ، وتخصصت فى ألوان تناسب الرقص أو تذكر به — كالكورانت ، والسربنده ، والجيج ، والجاؤوت ، والمنويت . وكانت المرأة المحور الذى تدور حوله الموسيقى كما دارت أخلاقها ، وعاداتها ، وفنونها ، وكثيراً ما اتخذت أسماء تذكر بصورتها — كالساحرة ، والساذجة ، وميمى وكاريون دستير .

وأحب القوم الأوبرا التهريجية فى فرنسا ، كما أحبوها فى أيطاليا ، أكثر من الأوبرا الجادة قبل أن يأتى جلوك (١٧٧٣) . وكانت فرقة سمت نفسها الأوبرا كوميك قد استقرت فى باريس عام ١٧١٤ ، وفى ١٧٦٢

إتحدت مع فرقة الكوميدى الايطالية . وفى ١٧٨٠ إنتقلت هذه الأوبرا كوميدى الموسعة إلى مقر دائم لها فى صالة فاڤار . أما صاحب الفضل فى إزدهارها فهو فرانسوا أندريه فيليدور ، الذى جاب أوربا بطلا من أبطال الشطرنج ، وآلف خمسا وعشرين أوبرا ، كلها تقريباً هزلية ، مثل « سانشوبانسا » ، « وتوم جونس » ولكن فيها ذوق سليم وفن رفيع . وقد نسيت الآن أوبراته ، ولكن « دفاع فيليدور » « وتراث فيليدور » مازالا يذكران بوصفهما نقلتين كلاسيكيتين فى لعبه الشطرنج وكان الباليه فاصلا محببا يتخلل الأوبرا الفرنسية . هنا وجدت الرشاقة الفرنسية مجالا آخر . وغدت الحركة شعرا ، قد كتب جان جورج نوفير ، أستاذ الأوبرا فى دار أوبرا باريس ، رسالة كانت يوما ما مشهورة عن ألحان الرقص — « رسائل فى الرقص والباليه » (١٧٦٠) . وقد مهدت الطريق لإصلاحات جلوك بدعوتها إلى الرجوع للمثل الإغريقية فى الرقص ، بما فيها من طبيعية الحركة ، وبساطة اللباس . وتأكيد على الدلالة الدرامية لا الأشكال التجريدية أو براعات العازفين .

واصبحت الحفلات الموسيقية العامة الآن جزءا من الحياه فى جميع مدن فرنسا الكبرى . ففى باريس ضربت « الفرقة الموسيقية الروحية » (التى انشئت بالتويلرى فى ١٧٢٥) مثلا رفيعا فى الموسيقى الآلية . وبينما كانت الأوبرا — كوميك تمثل مسرحيه برجوليزى « لا سيرفا يادرونا » كانت فرقة الكونسير تعزف ترنيمة « ستابات ماتر » [وهى ترنيمة لاتينية عن حزن مريم على المسيح المصلوب] التى أحسن الجمهور أستقبالها فظلت تتكرر سنويا حتى عام ١٨٠٠[٢٠] . وكان لفرقة الكونسير الفضل فى تحبيب هاندل ، وهيدن ، وموتسارت ، وجوملى ، ويتشينى ، والباخيين ، إلى الجماهير الفرنسية ، وأتاحة فرصة الظهور لكبار عازفى ذلك العهد .

وقد أجمع هؤلاء العازفون الزائرون على أمر واحد ، هو تخلف فرنسا فى الموسيقى عن المانيا والنمسا وإيطاليا . وشاطرهم جماعة الفلاسفة هـذا الحكم . فكتب جريم (وهو المانى) « من الأسف أن القوم فى هذا البلد

لا يفهمون من الموسيقى غير القليل جداً[٢١] » . وكان يستثنى الأنسه فل » التى تغنى بحنجرة بديعة . ووافق جريم روسو وديدرو على طلب « الرجوع إلى الطبيعة » فى الأوبرا ؛ وتزعم ثلاثتهم الحزب الإيطالى فى « حرب المهرجين » تلك التى كانت قد بدأت بتقديم أوبرا تهريجية مثلتها فرقة إيطاليه فى باريس . وقد سبقت الإشارة إلى هـذا الجدل الذى نشب بين المذهبين الموسيقيين الفرنسى والإيطالى ، ولم يكن قد أنتهى بعد . فمازال ديدرو يخوض حرب المهرجين فى قصته « ابن أخى رمو » ؛ وفى « حديث ثالث حـول الأبن الطبيعى » (١٧٥٧) وطالب بمنقذ يخلص الأوبرا الفرنسية من الخطب الطنانه والأساليب المفتعلة « ألا فليتقدم ذلك الذى عليه أن يعرض المأساة الصحيحة ، والملهاة الصحيحة ، عن المسرح الغانى ؛ وضرب مثلا لنص صالح « إفجينا فى أوليس » لبوربيديس[٢٢] . ترى هل سمع هذا النداء جلوك ، الذى كان يومها فى فينا ؛ أما فولتير فقد كرره فى ١٧٦١ متنبئاً :

« أننا نأمل أن يظهر عبقرى أوتى من القوة ما يحول به الأمة عن هذه الآفة [آفة التصنع والتكاف] ويضفى على الإخراج المسرحى . . . الكرامة والروح الخلقية التى يفتقر إليها الآن . . . أن سيل الذوق الفاسد متدفق ؛ وهو يغرق فى غير وعى منا ذكرى ماكان يوما ما مجد هذه الأمة . ولكننى أكرر ثانية : يجب إرساء الأوبرا على أساس مختلف ؛ حتى لا تعود مستأهلة لذلك الاحتقار الذى تنظر به إليها كل أمم أوربا [٢٣] » .

وفى ١٧٧٣ وصل جلوك إلى باريس ، وفى ١٩ أبريل ١٧٧٤ قاد هناك أول أداء فرنسى « لافجينيا فى أوليس » . ولكن هذه القصة يجب ارجاؤها إلى حينها المناسب .

٣ — المسـرح

لم تنتج فرنسا فى هذه الفترة تمثيليات تتحدى النسيان — ربما باستثناء بعض التمثيليات التى بعث بها فولتير من ليدليس أو فرنيه . ولكن فرنسا منحت

الدراما كل تشجيع سواء فى العرض أو الاستحسان . ففى ١٧٧٣ أقام فكتور لوى فى بوردو أجمل مسرح فى المملكة ، له رواق فخم من الأعمدة الكونتية، ودربزين كلاسيكى ، وزخارف منحوته . أما الكوميدى — فرانسيز ، التى أقر جاريك بأنها خير الفرق التمثيلية فى أوربا ، فقد أنزلت « التياتر — فرانسيه » الذى شيد عام ١٦٨٣ فى شارع فوس ، بسان — جرمان — دى — بريه : ثلاثة صفوف من الشرفات فى مستطيل ضيق فرض الالقاء الخطابى وقرر الأسلوب الخطابى للتمثيل فى فرنسا . وعرضت مئات الأسر مسرحيات خاصة ، من فولتير فى فرنيه إلى الملكة فى تريانون — حيث لعبت مارى أنطوانيت دور كوليت فى مسرحية روسو « قسيس القرية » وحيث كان « أكثر من عشر نساء من علية القوم يمثلن ويغنين خيرا من أى ممثلات ومغنيات فى الملهى »[٢٤] ونبتت فى كل مكان فى فرنسا « مسارح صغيرة » . من ذلك أن ديرا نرناردیا ، قابعا فى غابات بلريس بنى مسرحا صغيرا لرهبانه « دون علم من المتعصبين وأصحاب العقول الضيقة » (كما قال أحدهم) .

ولمع نجوم الكوميدى — فرانسيز فوق ربوع فرنسا رغم منافسة الفرق الهاوية . وقد رأينا كيف أقبل أهل جنيف وفرنيه ليروا الممثل لوكان يمثل لفولتير فى شاتلين . أما اسمه الحقيقى فهو هنرى — لوى كان Cain ، (قابيل) ولكن هذا كان لقبا ملعونا غيره واه العذر فى تغييره . كذلك لم يجلب له وجهه الحظ ، وقد استقرت الآنسة كليرون فترة حتى تأنس إليه ولو كان ذلك فى تمثيليته ، وكان فولتير قد اكتشف مقدرته فى حفلة تمثيل للهواة ، وعلمه ، ووجد له مكانا فى التياتر — فرانسيه . وفى ١٤ سبتمبر ١٧٥٠ استهل لوكان حياته المسرحية بدور تيطس فى مسرحية فولتير « بروتس » ، وظل طوال جيل بعد ذلك يمثل دور البطل فى مسرحيات فولتير . وأحبه الشيخ الغضوب إلى النهاية .

على أن أحب من إعتلى مسرح فولتير إلى القلوب كانت الآنسة كليرون (بعد أن توفيت أدريين لكوفرير) وكان اسمها قانونا كلير — جوزيفه إيبوليت لريس دلاتور . ولدت عام ١٧٢٣ دون زواج شرعى بين أبويها .

ولم يتوقع أهلها أن تعيش ، ولكنها عمرت إلى الثمانين وما هذا العمر المديد بالشيء الذى تغبط عليه دائما بطلات المسرح . ولم ير أهلها أنها تستحق عناء التعليم ، ولكنها تسللت إلى التياتر — فرانسيه ، وسحرتها المناظر والخطب المسرحية ، ولم تتغلب قط تماما على الميل للخطابة حتى وهى فى نشوة الحب . وأعلنت أنها ستحترف التمثيل ، فهددتها أمها بأنها ستكسر زراعيها ورجليها ان هى مضت فى انفاذ هــذه النية الآثمة ، (٢٦) . ولكنها أصرت ، وانضمت إلى فرقة تمثيلية متنقله . وسرعان ما تخلقت بأخلاق مهنتها . « إننى بفضل موهبتى ، وجمالى ، وسهولة الاتصال بى رأيت عددا هائلا من الرجال يركعون تحت قدمى ، بحيث استحال على وقد أوتيت قلبا رقيقا بطبعه . . . ان امتنع على الحب »(٢٧) .

فلما عادت إلى باريس فتنت المسيو دلا بوبلنيير . وقد استمتع بها ثم استخدم نفوذه ليحصل لهــا على مكان فى دار الأوبرا . وبعد أربعة شهور استطاعت دوقحه شاتورو ، خليلة الملك آنئذ : أن تدخلها فرقة الكوميدى فرانسيز . وطلبت إليها الفرقة أن تختار الدور الذى ستمثله أول مرة ، متوقعه منها أن تجرى على السنة المعهودة ، فتختار دورا صغيرا ، ولكنها اقترحت أن تمثل دور فيدر . وعارضت الفرقة . ولكنها تركتها تنفذ مشيئتها . وتكللت مغامرتها بالنصر . وبعدها غدت نجم الأدوار المأساوية التى لم ينافسها فيها غير الآنسة دومنيل . وذاعت شهرتها بالفسق المقترن بشهوة الاقتناء . كانت ترفه عن لفيف من النبلاء ، وتتقاضى منهم أجرا طيبا ، وتجمع مكاسبها ، ثم تعطى كثيرا منها لعشيقها المفضل الشفاليه دجوكور ، الذى كان يحرر مقالات فى الاقتصاد للموسوعة . كذلك دفعت ثمنا للملاطفة مارمونتيل ، الذى سنلتقى به عما قليل مؤلفا لكتاب « الحكايات الخلقية » . تأمل جانب المرأة فى هذا الحب فى خطابها له : « أممكن أنك لم تعرف أى معاناة سببتها لى (على غير عمد منك ، ولكننى كابدتها رغم ذلك) ، وان هذه المعاناة ألزمتنى الفراش ستة أسابيع وأنا فى خطر كبير ؟ لا أستطيع أن أصدق أنك كنت عليما بهذا ، وإلا لمــا ذهبت فى صحبة بينما الناس جميعا يعرفون ما كنت فيــه »(٢٨) . ومع ذلك ظلت هى ومارمونتيل صديقين حميمين ثلاثين عاما .

وهو الذى حملتها انتقاداته ومقترحاته على أن تحدث فى التمثيل حدثا . ذلك أنها كانت إلى عام ١٧٤٨ تجرى على أسلوب ممثلى التياتر — فرانسيه فى الحديث المفتعل العاطفى ، والايماءات الفخمة ، والانفعالات المرتعدة . أما مارمونتيل فقد وجد هذا أمرا غير طبيعى يمجه الذوق . وكانت كليرون قد قرأت كثيراً وسط غرامياتها ، وأصبحت من أفضل نساء جيلها تعليما ، وأدخلتها شهرتها ورجاحة عقلها حظيرة المجتمع المثقف ، وأدركت أن أفرغ الطبول هو أعلاها صوتا . وفى عام ١٧٥٢ أكرهتها إصابة بالزهرى على اعتزال المسرح حينا . فلما أبلت قبلت عقدا بإحياء خمس وثلاثين حفلة فى بوردو. روت أنها فى أول ليله مثلت فيها هناك لعبت دور فيدر بالأسلوب التقليدى « بكل الضجيج والعجيج والحماقة التى كانت يومهآ تلقى الاستحسان فى باريس » وصفق لها الجمهور استحسانا . ولكن فى الليلة التالية لعبت دور أجريين فى مسرحية راسين بريتا نيكوس بصوت هادىء وبحركات محسوبة ، وكظمت الانفعالات حتى المشهد الأخير . وضج النظارة بالهتاف . فلما عادت إلى باريس كسبت جمهورها القديم لأسلوبها الجديد . وحبذ ديدرو هذا الأسلوب بحرارة . وكانت فى ذهنه حين كتب « مفارقة الممثل » ومؤادها أن الممثل القدير هادىء متمالك نفسه فى داخله حتى فى أكثر لحظات أدواره انفعالا ، ثم تساءل أى تمثيل كان أروع من تمثيل كليرون [٢٩] » . وكانت تحب أن تصدم المعجبين بها فتروى لهم أنها تراجع ذهنها فى فواتيرها الشهرية وهى تلقى إلى الجمهور من الأشجان ما يستدر دموعه [٣٠] » . ولم يرحب فولتير بالأسلوب الجديد ، ولكنه أيدها تأييداً فعالا كما أيدته هى فى اصلاح ملابس المسرح وأثاثه . وكانت جميع الممثلات إلى ذلك الحين يلعبن أدوارهن — من أى أمة أو عصر — مرتديات زى باريس القرن الثامن عشر ، فى تنورات بأطواق موسعة وشعر مبدر ، ولكن كليرون فاجأت جمهورها باتخاذ زى زمان المسرحية لجسمها وشعرها ، فلما لعبت دور إيدامى فى تمثيلية فولتير « يتيمة الصين» كانت الثياب والأثاث صينية .

وفى ١٧٦٣ ذهبت كليرون إلى جنيف لتستشير الدكتور ترونشان . وطلب إليها فولتير أن تمكث معه فى فيلا دليس . « إن مدام دنيس مريضة ، وكذلك أنا . وسيحضر مسيو ترونشان إلى مستشفانا ليعودنا نحن الثلاثة[٣١] ، وأنت ، وأعجب بها الحكيم العجوز إعجابا حمله على إغرائها بزيارة أطول لفرنيه ، وأقنعها بأن تشاركه فى حفلات عديدة بمسرحه ويظهره رسم قديم وهو فى السبعين من عمره راكعا أمامها فى اعتراف حار بالحب .

واعتزلت المسرح فى ١٧٦٦ وكانت صحتها قد اعتلت وهى بعد فى الثالثة والأربعين ، بل لم تعد قادرة على التحكم فى حديثها ، وهامت حباً بفتى نبيل أنيق كما فعلت لوكوفيير وباعت كل ممتلكاتها تقريباً لتنقذه من دائنيه ورد لها صنيعها ببذل حبه ، وماله لغيرها من النساء . ثم تلقت وهى فى التاسعة والأربعين دعوة من كرستيان فريدرش كارل الكسندر ، حاكم آنزباخ وبايرويت البالغ من العمر ستة وثلاثين عاما للعيش معه فى آنزباخ ناصحة وخليلة . فذهبت (١٧٧٣) وظلت محتفظة بسلطانها عليه ثلاثة عشر عاماً ، وكان قد تشرب فى فرنسا بعض مثل التنوير ، وبتشجيع منها أجرى عدة اصلاحات فى إمارته ، فألغى التعذيب وأقر الحرية الدينيه . وكانت آخر مآثرها أن أقنعته بأن ينام كل ليله مع زوجته . وبمضى الوقت أصاب الملل كليرون فتاقت إلى باريس فكان الأمير يصحبها إليها بين الحين والحين . وفى احدى هذه الرحلات اتخذ خليلة جديدة ، وترك كليرون فى باريس بعد أن أجرى عليها معاشاً طيباً ، وكانت الآن فى الثالثة والستين .

ولقيت الترحيب فى الصالونات ، حتى من مدام نكير الفاضلة ، وأعطت الدروس فى الالقاء للفتاة التى أصبحت فيما بعد مدام دستال . واتخذت عشاقا جددا منهم الرجل الذى تزوج بعد ذلك مدام دستال ذاتها التى سرها التخلص منه . وقد رتب للممثلة العجوز معاشاً مريحاً ، ولكن الثورة اختزلت معاشها فعاشت فى ضنك حتى زاد نابليون معاشها فى

١٨٠١ . وفى ذلك العام عرض عليها رجل يدعى المواطن دوبواربيه غراماً أخيراً . فثبطت عزيمته بخطاب مؤلم يلخص مأساة الكثير من الممثلات العجائز . قالت « لعل ذاكرتك مازالت تتخيلنى مشرقة ، فتية ، محاطة بكل مظاهر سمعتى الماضية . ولكن عليك أن تراجع أفكارك . فأنا لا أكاد أبصر ، وسمعى ثقيل ولم يعد لى أسنان ، ووجهى كله غضون ، وجلدى الذى جف بالجهد ايكسوهيكلى الضعيف . [٣٢]» ومع ذلك أتى وعزى أحدهما الآخر باسترجاع ذكرى شبابهما . ثم ماتت عام ١٨٠٣ إثر سقوطها من فراشها .

وكانت قد خلفت وراءها منذ سنين طويلة الدراما المأساوية الكلاسيكية التى أشاد فولتير ، أعظم كتابها فى القرن الثامن عشر ، بكلبرون معبرة عنها لا ضريب لها . فقد أتخم جمهور باريس ، وكثرته من الطبقة الوسطى ، بالخطب المسجوعة يلقيها الأمــراء ، والأميرات ، والملوك ، وبدت تلك البحور « الاسكندرية » بحــور كورينى وراسين التى تمشى مختالة على ست أقدام (أى تفاعيل) — بدت الآن رمزاً للحياة الأرستقراطية ، ولكن أليس فى التاريخ سوى النبلاء ؟ بلى بالطبع . ورجل كموليير أبرز هؤلاء من قبل ، ولكن فى الملهاة ، أفليس هناك مآس ، من المحن العميقة والمشاعر النبيلة فى بيوت وقلوب البشر الذين تجردوا من الألقاب ؟ ورأى ديدرو أن قد آن أوان درامات البورجوازين ، وقال أنه إذا كان النبلاء قد تجنبوا العاطفية ، واشترطوا إلباس المشاعر قناعاً مهيباً ، فإن على الدراما الجديدة أن تطلق الوجدان من عقاله ، وألا تخجل من إثارة أشجان الجمهور وإدرار دموعه . وهكذا كتب هو وغيره من بعده « مسرحيات باكية » .

يضاف إلى هذا أن العديد من كتاب المسرحيات الجدد لم يكتفوا بتصوير حياة الطبقة الوسطى والإشادة بها ، بل هاجموا النبلاء ، والكهنة ، وحتى الحكومة آخر الأمر — هاجموا فسادها ، وضرائبها ، وبذخها ، وإسرافها ، ولم يقتصروا على التنديد بالاستبداد والتعصب (فقد أجاد فولتير هذا التنديد من قبل) بل امتدحوا الجمهوريات والديمقراطية ، ولقيت تلك الفقرات أشد الاستحسان من النظارة [٣٣] وشارك المسرح الفرنسى عشرات القوى الأخرى فى الإعداد للثورة .

٤ — مارمونتيل

كتب هوراس ولبول من باريس فى ١٧٦٥ يقول « إن المؤلفين فى كل مكان » وأنهم « أسوأ من كتاباتهم ، ولست أقصد بهذا ثناء على الكتاب أو ما يكتبون (٣٤) » ولا ريب فى أن ذلك العصر لم يكن ليضارع فى الأدب عصر فولتير وراسين ؛ ولا عصر هوجو وفلوبير وبلزاك ، ففى هذه الفترة القصيرة بين ١٧٥٧ و ١٧٧٤ ليس لدينا من الكتاب الجديرين بالذكر سوى روسو ومارمونتيل ، والجمرات الحية من نار فولتير ، وغليان ديدرو الدفين غير المنشور . ذلك أن الرجال والنساء أسلموا أنفسهم بقوة للحديث حتى كلت قرائحهم قبل أن يعتادوا الكتابة . وانقضى زمان العقل الاستقراطى ، واستأثرت الفلسفة والاقتصاد والسياسة بالجو ، وتغلب المضمون الآن على الشكل . لا بل إن الشعر نزع إلى الدعاية . فقد قلدت قصيدة سان — لامبير الفصول » (١٧٦٩) جيمس طومسن ، ولكنها نددت بالتعصب والترف تنديداً فى غير أوانه ، وتمثلت الشتاء ... كما تمثله الملك لير .. عواصف ثلجية تقصف حول اكواخ الفقراء .

ويدين جان — فرنسوا مارمونتيل فى صعود نجمه لدهائه ، وللنساء ، ولفولتير . ولد فى ١٧٢٣ . وقد كتب فى شيخوخته « مذكرات أب » (١٨٠٤) وهى تعطينا صورة رقيقة لطفولته وشبابه . ومع أنه اعتنق الشكوكية وكاد يعبد فولتير ، إلا أنه لم يذكر إلا بالخير أهله الأتقياء الذين ربوه ، واليسوعيين العطوفين المخلصين الذين علموه . وقد أحبهم حبا جما حمله على أن ينذر نفسه لله ، وتطلع إلى الانضمام إلى رهبنتهم ، وعلم فى مدارسهم بكليرمون وتولوز . ولكنه كالكثيرين من أفراخ اليسوعيين . طار بعيدا على أجنحة التنوير ، وفقد على الأقل عذريته الفكرية . وفى ١٧٤٣ قدم أبياتاً من شعره على فولتير فاستمتع بقراءتها أيما استماع ، وأرسل إلى مارمونتيل مجموعة من أعماله صححها بيده . واحتفظ الشاعر الشاب بها ميراثا مقدساً ، وأقلع عن كل تفكير فى احتراف القسوسية . وبعد عامين حصل له فولتير على وظيفة فى باريس ، وعلى إذن بدخول التياتر — فرانسية مجانا ، لا بل

إن فولتير ، بما فى قلبه — قلب الأب المحروم من البنين — من طيبة مستنيرة، باع قصائد مارمونتيل وبعث إليه بحصيلة البيع . وفى ١٧٤٧ قبلت تمثيلية مارمونتيل « دنيس الجبار » (دبونيسيوس) — التى أهداها إلى فولتير ، وأخرجت على المسرح ، وحققت نجاحا لم يحلم به « فقد أصبحت « مشهور وغنيا فى يوم واحد » . (٣٥) وسرعان ما أصبح سبعـــا صغيرا من سباع الصالونات ، فطعم على موائدها ، ودفع الثمن ذكاء وظرفا ، ووجد سبيلا إلى فراش كليرون .

وآتته تمثيلية الثانية « أريستومين » بمزيد من المال ، والأصدقاء ، والخليلات . وفى ندوات مدام دتنسان التقى بفونتنيل ، ومونتسكيو ، وهلفتيوس ، وماريفو ، وعلى مائدة البارن دولباخ سمع ديدرو ، وروسو ، وجريم وشق طريقة صعدا فى المجتمع تحدوه يد النساء المرشدة . وأدخل إلى البلاط بعد أن مدح لويس الخامس عشر بأبيات ذكية . وافتتنت بومبا دور بوجهه المليح وشبابه المتفتح ، فأقنعت أخاها بأن يستخدمه سكرتيرا ، وفى ١٧٥٨ عينته محرراً للجريدة الرسمية « مركير دفرانس » وكتب نصاً لرامو ، ومقالات للموسوعة . وأعجبت به مدام جوفران إعجابا حملها على أن تقدم له مسكنا مريحا فى بيتها ، حيث عاش عشر سنوات ضيفا بالأجر .

وقـــد كتب لصحيفة المركير (١٧٥٣ — ٦٠) سلسلة من « الحكايات الأخلاقية » رفعت تلك الدورية إلى مقام الأدب . ومن إحدى هذه الحكايات تكون فكرة عنها كلها . فسليمان الثانى ، بعد أن مل المباهج التركية ، يطلب ثلاث حسان أوربيات . أما الأولى فتقاوم شهراً ، ثم تستسلم أسبوعاً ثم تنجى جانباً . وأما الثانية فتغنى غناء رخيما ، ولكن حديثها منوم . وأما الثالثة — روكسالانا — فلا تكتفى بالمقاومة ، بل تسب السلطان لأنه داعر مجزم ويصيح السلطان « أنسيت من أنا ومن أنت ؟ وتجيب روكسالانا « أنت قوى ؛ وأنا جميلة ، فنحن إذن صنوان . » وهى ليست بارعة الجمال ، ولكن لها أنفاً أخنس (مرتفع الأرنبة) ، وهو يغلب السلطان على أمره . فيحاول بكل الحيل أن يكسر مقاومتها ولكنه يخفق . ويهدد بقتلها ، فتقترح أن تعفيه

من هذا العناء بالانتحار . ويسبها « فتسبه سبا أقذع . ولكنها تخبره أيضاً أنه جميل ، وأنه لا يحتاج إلا لإرشادها لكي يصبح فى روعة الفرنسيين . فيغتاظ ويبتهج . وأخيراً يتزوجها ويجعل منها مليكة . وفى أثناء حفل الزفاف يسأل نفسه « أيمكن أن يطيح أنف أخنس صغير بقوانين امبراطورية ؟ (٣٦) والعبرة عندما ما رمونتيل : إن صغار الأشياء هى التى تحدث جلائل الأحداث ، ولو عرفنا تلك التوافة الخفية لراجعنا التاريخ مراجعة كاملة .

وسارت الأمور كلها تقريباً رخاء مع ما رمونتيل إلى أن نشر (١٧٦٧) قصة سماها « بيليزير » . وكانت قصة ممتازة ؛ ولكنها دافعت عن التسامح الدينى ، وتشككت فى « حق السيف فى أن يبيد الهرطقة ، والألحاد ، وعدم التقوى ؛ وأن يضع العالم كله تحت نير الدين الحق(٣٧) » . وادانت الصوربون الكتاب لا حتوائه على تعليم يستحق الشجب . ومثل ما رمونتيل أمام عميد الصوربون واحتج عليه قائلا « قـل لى ياسيدى ، ألست تدين الآن روح العصر لا روحى(٣٨) » وظهرت روح العصر فى جرائد ، فى إعتدال العقوبة . ولو نشر قصته تلك قبل عشر سنوات لزج به فى الباستيل ولصودر كتابه ؛ أما الآن فالذى حدث هـو أن القصة راجت رواجا كبيراً ، وظلت تحمل « إذن الملك وامتيازه » وأكتفت الحكومة بالتوصية بأن يلزم الصمت حول الموضوع(٣٩) ، على أن مدام جوفران إنزعجت كثيراً حين لم يقتصر الأمر فى قرار الصوربون بمصادرة الرواية على قراءته فى الكنائس ، بل تجاوزه إلى تعليقه على باب بيتها . فاقترحت على مارموتتيل فى لطف أن يبحث عن مسكن آخر .

ووقع واقفا كالعادة . ففى ١٧٧١ عين مؤرخا رسميا ملكيا براتب حسن ، وفى ١٧٨٣ أصبح السكرتير الدائم للأكاديمية الفرنسية . وفى ١٧٨٦ عين أستاذا للتاريخ فى الليسيه . وفى ١٧٩٢ حين كان فى التاسعة والستين وقد قززته إنحرافات الثورة ، إعتكف فى أفرو ، ثم فى أبلوفيل ؛ وهنالك كتب « مذكراته » التى اغتفر فيها حتى للصوربون إساءاتها . وقضى سنواته الأخيرة فى فقر لا يشكو ولا يتذمر ، شاكرا لأنه عاش حياة غنية ممتعة . ومات فى آخر يوم فى عام ١٧٩٩ .

٥ — حياة الفن

(١) النحت

كان الملك ذواقة فى الفن ، وكذلك كان نبلاء بلاطه ونبيلاته ، والمليونيرات الذين كانوا الآن يتحرقون شوقا للهيمنة على الدولة . وكان حدثا هاما فى التاريخ الفرنسى أن تبدأ مصانع سيفر ، التى أسستها مدام دبومبادور من قبل ، إنتاج الخزف الصينى القاسى الغجينة عام ١٧٦٩ ؛ ومع أن الإلمان فى درسدن وما يسن قد فعلوا هذا قبل ستين عاما ، فأن منتجات سيفر سرعان ماكسبت سوقا أوربيه . ولم ير كبار الفنانين أمثال بوشيه ، وكافييرى ، وباجو ، وبيجال ، وفالكونيه ، وكلوديون ، ما يغض من قدرهم فى رسم التصميات لصينى سيفر . واستمر خزافو سيفر ، وسان كلو ، وشانتيى ؛ وفانسين ، فى إنتاج القاشانى والصينى الطرى العجينة فى رسوم غايه فى الإتقان .

وتضافرت مهارات الخزافين ، وصناع المشغولات المعدنية والأثاث الخشبى وقطع النسيج المرسومة ، لتجميل الحجرات الملكية وغرف النبلاء واقطاب المال . وكانت "ساعات الجدارية ، كتلك التى صممها بوازو وصبها جرتيير بالبرونز(٤٠) إحدى حليات العصر المميزه . وأبدع بيير جونتير وجاك كافييرى فى صناعة « الأورمولو » ومعناه الحرفى « الذهب المطحون» ، وهو فى حقيقته سبيكة أهم مكوناتها النحاس الأحمر والزنك ، تنمش وترصع بالجواهر ويكفت بها الأثاث . وألف كبار صناع الأثاث نقابه قوية تعتز بنفسها ، اشترط على عضائها أن يختموا إنتاجهم بأسمائهم علامة على مسئوليتهم عنه . وكان خيرهم فى فرنسا وافدا من المانيا : جال فرنسوا أوبن وتلميذه جان — هنرى ريزنر ، وسخر هذان مهارتهما فى صنع مكتب فخم للملك لويس الخامس عشر (١٧٦٩) ، وهو تحفة روكوكية معربدة من رسوم ونقوش وتطعيم وتذهيب دفع الملك ٦٣,٠٠٠ ليره ثمنا لها.

وقد استمتع بها نابليون الأول ونابليون الثالث ، وسلمت إلى اللوفر فى ١٨٧٠ وتقدر الآن بخمسين ألفا من الجنيهات [٤١] .

فى هذا العهد الذى علق مثل هذه الأهمية على القيم اللمسية ، كان النحت يقدر بقدره الكلاسيكى تقريبا ، فالشكل لبه ، وكانت فرنسا تعلم أن الشكل ، لا اللون ، هو روح الفن . وهنا أيضاً فاقت النساء الآلهة ، لا فى عيوب الواقع الطبيعية ، بل فى المثالى من الأشكال والثياب التى إستطاع النحاتون المرهفو الحس أن يؤلفوا بينها ويصوروها . ولم يزين النحت القصور والكنائس فحسب ، بل الحدائق والمتنزهات العامة ، وكانت التماثيل التى أقيمت مثلا فى حدائق التويلرى من أحب التماثيل إلى الناس فى باريس ، وقلدت بوردو ، ونانسى ، ورين ، ورامس ، باريس فى التراكوتا (الطين النضيج) والرخام والبرونز .

وأخرج جيوم كوستو الثانى الآن أروع إنتاجه (وكان يصغر العهد بسنة واحدة فقط) ففى ١٧٦٤ عهد إليه فردريك الثانى بنحت تماثيل لفينوس ومارس إله الحرب ، وفى ١٧٦٩ أرسلها كوستو الى بوتسدام لقصر صانسوسى . كذلك بدأ فى ١٧٦٩ نحت المقبرة الفخمة المشيدة للدوفين والدوفينة (والدى لويس السادس عشر) لكاتدرائية صانس ، وعكف على هذا العمل بهمة إلى أن مات (١٧٧٧) . ورأى فى أخريات عمره ظهور أربعة نحاتين من ألمع من عرفتهم فرنسا إلى يومنا هذا ، وهم بيجال وفلاكونيه ، وكافييرى ، وباجو .

أما بيجال فقد قصد روما على نفقته ، يعينه على ذلك كوستو ، بعد أن أخفق فى نيل « الجائزة الكبرى » التى تدفع لنائلها مصروفات تعلمه الفن فى روما . فلما عاد إلى باريس شق طريقه إلى أكاديمية الفنون الجميلة برائعته المسماة « عطارد يثبت خفيه » ، هذه الرائعة التى صاح الفنان للعجوز جان — باتست لموان حين رآها « وددت لو كنت راسمها ! » كذلك أعجب بها لويس الخامس عشر ، وأرسلها إلى حليفه فردريك الثانى فى ١٧٤٩ . وقد وجدت سبيلها بطريقة ما عودا إلى اللوفر ، حيث نستطيع أن نتأمل المهارة الفائقة

التى ألمع بها الفنان الشاب إلى لهفة الرسول الأولمبى على النهوض والانطلاق .
ووافق فن بيجال مزاج مدام دبومبادور ، فعهدت إليه بالكثير من المهام . وقد صنع لها تمثالا نصفيا ، محفوظا الآن بمتحف المتروبولتان للفن بنيويورك، وحين هدأ ما بينها وبين الملك من غرام مشبوب واستحال إلى صداقة ، نحت لها تمثالا على هيئة « ربة الصداقة » (١٧٥٣) .[٤٥] وصنع تمثالا للويس بوصفه مجرد « مواطن » للميدان الملكى برامس ، وأتم تمثال بوشاردون « لويس الخامس عشر » للميدان الذى يسمى الآن ميدان الكونكورد . وصور ديدرو فى البرونز ، رجلا تمزقه الفلسفات المتصارعة . ولكنه أطلق لنفسه عنان التمثيل فى المقبرة التى نحتها لرفات المرشال دى دساكس بكنيسة القديس توما بستراسبوج — فهو المحارب العاشق يركب إلى الموت كأنه راكب إلى معركة ينتصر فيها .

أما أشهر التماثيل الذى كان حديث الناس فى هذا العهد فذلك الذى اختارت صفوة مفكرى أوربا بيجال لينحته لفولتير . وقد اقترحته مدام نكير فى احدى أمسياتها فى ١٧ ابريل ١٧٧٠ ورحب بالاقتراح جميع ضيوفها السبعة عشر (ومنهم دالامبير ، وموريللية ، ورينال ، وجريم ، ومارمونتيل) ودعى عامة الناس للمساهمة فى النفقة . وأثيرت بعض الاعتراضات ، إذ لم يكن من المألوف إقامة التماثيل لأى احياء سوى الملوك ، ولم يصنع تمثـــال لكورنى أو راسين قبل موتهما . ورغم ذلك تدفقت التبرعات ، حتى من نصف ملوك أوربا ، وأرسل فردريك مائتى جنيه ذهبى لتخليد ذكرى صديقه وخصمه القديم . وأستأذن روسو فى المساهمة ، فاعترض فولتير ، ولكن دالامبير اقنعه بالموافقة . وعرض فريرون ، وبالايسو ، وغيرهم من خصوم جماعة الفلاسفة أن يشاركوا فى التحية ، ولكن عرضهم رفض . ووضح أن الفلاسفة كانوا أبطأ من خصومهم مغفرة وصفحا . أما فولتير نفسه فقد نبه مدام نكير إلى أنه لا يصلح موضوعا لتمثال :

« لقد بلغت السادسة والسبعين ، ولم أكد أتماثل للشفاء من مرض عبث بجسدى وروحى عبثا منكرا ستة أسابيع . ويقولون إن مسيو بيجال قادم ليصنع تمثالا يحكى محياى . ولكن هذا يا سيدتى يقتضى أن يكون لى محيا ،

ومن العسير التكهن بالموضع الذى كان فيه هـــذا المحيا . فعيناى غائرتان ثلاث بوصات ، وخداى من الرق البالى الملصق لصقا سيئا على عظام لا ترتكز على شيء ، وقد فقدت الأسنان القليلة التى كانت لى . وليس كلامى هذا من قبيل التمنع ، ولكنه الصدق الخالص . ولم ينحت قط تمثال لرجل مسكين فى حالتى هذه ، ولعل مسيو بيجال سيعتقد أنكم تهزأون به ، أما أنا فينبغى أن يكون عندى من حب الذات ما لا أجرؤ معه أبدا على الظهور فى حضرته . ولو شاء أن يضع حدا لهذه المهمة الغريبة لنصحته بأن يأخذ نموذجه ، بتغيرات طفيفة ، من تماثيل الصغير المصنوع من صينى سيفر (٤٣)» .

وضاعف بيجال المشكلة باقتراحه ان يصنع تمثالا عاريا لذلك العفريت الأشهر ، ولكنهم ثنوه عن هذا الرأى . وقصد فرنيه فى يونيو ، وجلس إليه الفيلسوف الخجول ثمانية أيام ، فى فترات متقطعة ، ولكن فى تململ شديد — يملى على سكرتير ، ويومىء للإيماءات وينفخ حبات البسلا على أشياء شتى فى الحجرة — حتى قاربت أعصاب المثال على الانهيار (٤٤) . فلما عاد إلى باريس بقالب للتمثال عكف على مهمته شهرين ، ثم أعلن النتيجة فى ٤ سبتمبر ، وأقبل نصف الصفوة الممتازة يعجبون ويبتسمون . والتمثال يقوم الآن فى دهليز مكتبة المعهد .

ولم يكن من مزاحم لبيجال فى زعامة النحت فى هذه الحقبة غير إتيين موريس فلاكونيه ، ويروى ديدرو قصة لطيفة عن خصومتهما . ذلك أن فلاكونيه الذى كان يصغر غريمه بعامين تجنب أول الأمر منافسته مباشرة ، فكان يصنع التماثل من الصينى ، وكان من أبهج هذه التماثيل تمثال « بجماليون » الذى صنعه دورو على تصميم فلاكونيه ، وفيه تبدو دهشة النحات الاغريقى إذ ينحنى تمثاله « غلاطية » المرمرى للتحدث إليه . واستطاع ذاك التمثال أن يرمز إلى حقيقة أوشك الناس أن ينسوها ، وهى أنه ما لم يتحدث إلينا العمل الفنى فهو ليس بفن . فلما اطلع بيجال على هذه القطعة من الطين وقد تحولت إلى رمز خالد فاه بالثناء التقليدى يثنى به فنان عظيم على آخر : « وددت لو كنت صانعه ! » ولكن فلاكونيه لم يرد التحية بمثلها تماما حين

رأى تمثال بيجال « لويس الخامس عشر مواطنا » فقد قال « انى لا أحبك يا مسيو بيجال ، وأعتقد أنك تبادلنى هذا الشعور . وقد رأيت تمثال « المواطن » الذى صنعته . لقد كان ممكنا خلق هذا العمل ، لأنك قمت بهذا فعلا ، ولكنى لا أعتقد أن الفن يستطيع أن يجاوزه بخط واحد وهذا لا يمنعنا من أن نظل كما كنا(٤٥) .

وقد نغصت عيش فلاكونيه أربعون سنة من المحن قبل أن يظفر بالتقدير التام ، فانطوى على نفسه وعاش فى بساطة ديوجينية ، وأصبح سريع الشجار ، وغض من قدر فنه ، وأعرب عن احتقاره للشهرة سواء فى حياة صاحبها أو بعد موته . واتته الشهرة آخر الأمر بتمثاله « المستحمة » (١٧٥٧) ... وهى مستحمة جميلة تجس حرارة الماء بأصابع قدمها .(٤٦) وآنست إليه الآن مدام دبومبادور ، فنحت لها « الحب الداهم » الذى يمثل كيوبيد يهدد باطلاق سهم فيه عدوى الحب . وأصبح فلاكونيه حينا فى عالم النحت ما كانه بوشيه وفراجونار فى عالم التصوير مبدعا دغدغات فتانه مثل « فينوس وكيوبد » ، « وفينوس تخلع ثيابها أمام باريز » .

وقد أبدع فى تصميم الشمعدانات الزينية ، والنوافير الصغيرة ، والتماثيل الدقيقة ، وحفر الرخام « ساعة ربات الحسن الثلاث » المحفوظة الآن فى اللوفر ، وأبهج بومباذور بتمثيلها فى صورة الموسيقى(٤٧) » . وفى ١٧٦٦ قبل دعوة كاترين الثانية له للذهاب إلى روسيا . وقد صنع فى سانت بطرسبوج رائعة « بطرس الأكبر على جواد يخطر » ، وشارك ديدروو جريم حظوتهما عند الأمبراطورة ، وعمل لها بهمه طوال اثنى عشر عاماً ، ثم تشاجر معها ومع وزرائها ، ورحل فى نوبة غضب عائدا إلى باريس . وفى ١٧٨٣ أصيب بالفالج ، ولزم حجرته فى الأعوام الثمانية الباقية له ، وقد زادت نظرته إلى الحياة اكتئاباً .

أما جان — جاك كافيرى فكان فى وسعه أن يكون أكثر بشاشه وانشراحاً لأنه ربى على النجاح فى رعاية أبيه جاك ، الذى كان من أئمة صناع البرونز فى العهد الأسبق . وقد شق طريقه مبكراً إلى أكاديمية الفنون

الجميلة بتمثال عجوز لاتكسوه غير سبلة سماه « النهر » . وكلفه مسرح الكوميدى — فرانسيز بتزيين قاعاته بتماثيل نصفيه للمسرحيين الفرنسيين ، فأبهج الناس جميعاً بتماثيله التى صورت كورنيى ، وموليير وفولتير ، فى صور مثالية . أما رائعته فتمثال نصفى للكاتب المسرحى جان دروترو نقله عن حفر فى حوزة الأسرة . وهو أشبه بدارتنيان فى كهولته — شعر مرسل ، وعينان متقدتان ، وأنف مشاكس ، وشوارب كثة ، وهو من أبدع التماثيل النصفية فى تاريخ النحت . وبدافع الغيرة من مسرح الكوميدى — فرانسيز ، كلفت فرقة الأوبرا كافييرى بأن ينحت التماثيل لأبطالها هى أيضاً ، فصنع التماثيل النصفية للوللى ورامو ، ولكن هذه التماثيل اختفت . وبقيت لوحة جميلة لفتاة صغيرة[٤٨] » . ربما كانت من أعضاء فريق باليه الأوبرا ، وهى توفيق ساحر جمع بين العينين الخجولتين والصدر الناهد .

أما أحب المثالين لمدام دوبارى فهو أوجستن باجو . فبعد أن قضى الفترة المألوفة لتلمذة الفنانين فى روما ، حقق ثراء مبكرا بمسا تلقى من مهام ملكية وتكليفات من خارج فرنسا . وقد صور الخليلة الجديدة فى نحو اثنتى عشرة لوحة . ويرتدى التمثال المحفوظ باللوفر رداء كلاسيكيا منقوشاً نقشاً رائعاً . وصور بوفون للجاردان دروا بناء على طلب الملك[٤٩] . ثم خلد ديكارت ، وتورين ، وبسكال ، ونوسوبه ، وأروع أعماله مازال حياً فى الصور البارزة التى حلى بها أسفل المقصورات فى دار الأوبرا بفرساى . وعمر حتى قام بأعمال للويس السادس عشر ، وبكى على إعدام ذلك الملك ، وشهد نابليون يبسط سلطانه الشامل على القارة .

ب — العمارة

هل قامت فى فرنسا خلال هذه الأعوام الثمانية عشر عمارة خالدة؟ لم يقم إلا القليل . فالكنائس كانت أوسع من أن يملأها من بقى من المؤمنين . والقصور أخذت تثير غيرة الجماهير التى طحنها الجوع . وكان تجدد الاهتمام بالمعمار الرومانى نتيجة للحفائر التى أجريت فى هركولانيوم (١٧٣٨) وبومبى (١٧٤٨ — ٦٣) يدعم إحياء الطرز الكلاسيكية الخطوط ذات البساطة

والوقار ، وواجهة الأعمدة والقوصرة ،والقبة الفسيحة أحياناً . وكان جاك — فرنسوا بلوندل ، الأستاذ بالأكاديمية الملكية للعمارة ، نصيراً متحمساً لهذه الأشكال الكلاسيكية ، وأصدر خلفه جوليان — دافيد لروا ، فى ١٧٥٤ ، رسالة سماها « أجمل آثار الإغريق » زادت من سرعة الانتشاء بهذه الآثار . وقد نشر آن — كلود تيبير ، كونت دكايلوس ،بعد أن ساح كثيراً فى إيطاليا واليونان والشرق الأدنى (١٧٥٢ — ٦٧) ، ثمانية مجلدات خطيرة سماها « مختارات من الآثار المصرية ، والأتروسيكية ، واليونانية ، والرومانية ، والغالية » موضحة فى عناية ببعض رسومه ؛ وتأثرت دنيا الفن الفرنسى كلها حتى السلوك الفرنسى ، تأثراً قوياً بهذا الكتاب فمالت إلى نبذ شطحات الباروك ونزوات الروكوك رجوعاً إلى خطوط الطرز الكلاسيكية الأكثر نقاء. وهكذا نجد جريم يقول لقرائه فى ١٧٦٣ :

« ظللنا سنوات نبحث بحثاً جاداً عن الآثار والأشكال القديمة وأصبح الميل لها عاما حتى عدا من الأمور المقررة الآن أن يؤدى كل شىء على الطريقة اليونانية à la grecque من العمارة إلى صنع القبعات ، فنساؤنا يصففن شعورهن على الطريقة اليونانية ، ووجهاؤنا يرونه عاراً إن لم يمسكوا علبة صغيرة على الطريقة اليونانية »(٥٠) .

أما ديدرو ، رسول الرومانسية البورجوازية ،فقد استسلم فجأة للموجة الجديدة (١٧٦٥) حين قرأ ترجمة لكتاب وتكلمان « تاريخ الفن القديم » وكتب يقول « يخيل إلى أننا يجب أن ندرس القديم لكى نتعلم رؤية الطبيعه » (٥١) . وكانت هذه العبارة فى حد ذاتها ثورة .

وفى ١٧٥٧ بدأ جاك — جرمان سوفلو بناء كنيسة القديسة جنفييف ، التى نذر لويس الخامس عشر خلال مرضه فى متز أن يشيدها للقديسة راعية باريس حالما يتماثل للشفاء . وأرسى الملك بنفسه حجر الأساس ، وأصبح بناء هذا الصرح « الحدث المعمارى العظيم فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر » فى فرنسا (٥٢) . وقد صممها سوفلو على شكل معبد رومانى ، برواق من قوصرة منحوته وأعمدة كورنثية ، وأربعة أجنحة تلتقى فى صليب يونانى

فى خورس أوسط تحت قبة ثلاثية . واتسمت كل مرحلة تقريباً من مراحل البناء بالجدل . ومات سوفلو فى ١٧٨٠ بعد أن أرهقته وفتت فى عضده الهجمات التى شنت على تصميمه ، وخلف البناء ناقصاً . وتبين أن الركائز التى صممها لتحمل القبة أضعف من أن تحملها ، فأحل شارل-اتين كوفلييه محلها دائرة — من الأعمدة تفوقها جمالا . وحولت الثورة هذه الرائعة من روائع إحياء الفن القديم من هدفها الدينى إلى هدف دنيوى ؟ فسمتها من جديد البانتيون ، تذكاراً لرائعة ماركوس أجريبا فى روما ، لتكون مثـوى لـ « جميع آلهة » النظام الجديد ، حتى فولتير ، وروسو ، ومارا ، ولم تعد كنيسة مسيحية ، بل غدت مقبرة وثنية ؛ وقد رمزت فى عمارتها ومصيرها إلى انتصار الوثنية المطرد على المسيحية .

وأحرز الشكل الكلاسيكى نصراً آخر فى كنيسة المادلين (المجدلية) الأولى التى بدىء تشيدها عام ١٧٦٤ ، فحلت صفوف الأعمدة والأجنحة المستوية السقوف محل العقود والبواكى ، وغطت الخورس قبة . وأطاح نابليون بها كلها قبل أن تنجز لتحل محلها كنيسة المادلين التى تتبوأ مكانها اليوم والتى هى أشد إمعاناً فى الكلاسيكية .

كان هذا الانقلاب إلى الطرز الكلاسيكية الوقورة ، بعد إسراف الباروك المتمرد فى عهد لويس الرابع عشر وإناقة الروكوك اللعوب فى عهد لويس الخامس عشر ، جزءاً من الانتقال إلى « طراز لويس السادس عشر » فى عهد لويس الخامس عشر نفسه — وهو طراز البناء ، والأثاث ، والزخرفة الذى سيتخذ اسم الملك الذى أطاحت الجيلوتين برأسه . وضبط الفن نفسه فتحول عن المنحنيات الكثيرة والزخارف المسرفة إلى البساطة المقتصدة ، بساطة الخطوط المستقيمة والشكل البنائى . وكان اضمحلال المسيحية قد انتزع من التسامى القوطى المفرط قلبه ، ولم يترك للفن ملاذاً غير تحفظ رواقى تجرد من الآلهة وتشبث بالأرض .

أما أعظم المعماريين الفرنسيين فى هذا الجيل فهو جاك — آنج جابرييل ، الذى أورثه اسلافه العمارة فى عروقه . عهد إليـــه لويس الخامس عشر

(١٧٥٢) بإعادة بناء قلعة قديمة فى كومبيين ، فجمل مدخلها ببوابة إغريقية ذات أعمدة دورية ، وكورنيش بدنطيل (مسنن) ، ودرابزين خال من الزخرف . ونهج هذا النهج من التصميم فى إعادة بناء الجناح الأيمن فى قصر فرساى (١٧٧٠) . وأضاف لهذا القصر (١٧٥٣ — ٧٠) داراً أنيقة للأوبرا . وبفضل الأعمدة المستوية ، والكرانيش الرقيقة النقوش ، والدرابزين الجميل ؛ أصبحت هذه الدار من أجمل المبانى الداخلية فى فرنسا. وحين سئم لويس ما فى حياة البلاط من علنية وتكلف ، لجأ إلى جابرييل ليبنى له « بيتاً صغيراً » تستره الغابات واختار جابرييل موقعاً يبعد ميلا عن القصر ، وشاد عليه بطراز النهضة الفرنسية « البتى تريانون » (١٧٦٢ — ٦٨) . هنا كانت بومبا دور تمنى النفس بالاستمتاع بحياة العزلة والدعة وهناك مرحت دوبارى وقصفت برهة ، ثم جعلته مارى انطوانيت منتجها المفضل كأنها الراعية الملكية فى تلك الأيام الخلية السعيدة والشمس ما تزال تشرق على ربوع فرساى .

حـ — جروز

كانت الصورة حلية أثيرة فى جو البيوت الأرستقراطية الحميم . فالتماثيل باردة عديمة اللون ؛ تسر العين والعقل دون القلب والنفس ، أما الصور فتستطيع أن تعكس تقلب الأمزجة والأذواق ، وأن تنقل الروح إلى الأماكن الحلوية ، أو الأشجار الظليلة ، أو المشاهد النائيةوالجسد باق داخل الجدران . وهكذا نرى كلود — جوزف فرنية يرسم من السفن التى تمخر عباب البحار الفرنسية عدداً بلغ من كثرته إن لويس الخامس عشر قال فى نكتة مشهورة إنه لا حاجة به لبناء المزيد منها . واستأجرت الحكومة الفرنسية فرنية ليزور الثغور ويرسم السفن الراسية فيها ، ففعل ، وجعل فرنسا فخورة بأساطيلها. وحصل ديدرو على إحدى صور فرنيه للبحر والأرض ، وغلا فى تقديرها غلوا حتى لقد توسل إلى إله إرتجله إتجالا فقال « أننى أتخلى لك عن كل شىء ، فخذه كله ، إلا فرنيه[٥٣] » . — وهناك أومير روبير ، الذى لقب « روبير الأطلال » نعم كله لأنه زود كل صور مناظره الطبيعية تقريبا بالأطلال

الرومانية مثل « كويرى جار فى نيم » ومع ذلك كان القوم « يتهافتون عليه » فى صالونات باريس كما تؤكد لنا مدام فيجيه — لوبرون ، رغم شغفه المدمر بالأكل[٥٤] . ثم هناك فرنسوا ... أوبير درواى ، الذى حفظ لنا فى تصوير مرهف جمال المركيزة دسور والطمأنينة البريئة للغلام الذى سيصبح شارل العاشر ولاخته مارى أدليد[٥٥] . ولكن لنلق نظرة أكثر تدقيقا على جروز وفراجونار .

أما جان — باتيست جروز فقد صنع بفرشاته ما صنعه روسو وديدرو بقلمهما ؛ إذ أضفى على ألوانه إشراق العاطفة . وجعل نفسه « آبليز » البورجوازية . فالعاطفة أسعد من التكلف والصقل ، وليست ضحلة مثلها . وعلينا أن نغفر لجروز رؤيته الجوانب السارة من الحياة وتصويرها ، وحبه لوثب الأطفال المرح ؛ وبراءة البنات الجميلات الهشة ، والقناعة المتواضعة لبيوت الطبقة الوسطى . فلولا جروز وشاروان لتوهمنا أن فرنسا كلها كانت منحطة فاسدة . وأن دوبارى كانت نموذجها ، وأن فينوس ومارس كانا ربيها الوحيدين . أما الحقيقة فهى أن الأشراف هم المنحطون ، وأن لويس الخامس عشر هو الفاسد . وأن الارستقراطية والملكية هما اللذان سقطا فى الثورة . أما جماهير الشعب - باستثناء رعاع الريف والمدن - فقد احتفظت بالفضائل التى تنقذ أمة من الأمم ؛ وقد صورها جروز . وحياً ديدرو شاردان وجروز . لا بوشيه وفراجونار . باعتبارهما صوت فرنسا وسلامة روحها .

ويروى عن هذا الفنان فى شبابه ما يروى عادة من قصص عن شباب الفنانين : اراد أن يرسم ، فمنعه أبوه ظنا منه بأن هذهالرغبه ليست سوى ستار للكسل ، وكان الغلام يتسلل من فراشه ليلا ليرسم الصور . فلما وقع بصر أبيه على صورة منها لانت قناته فأوفده ليدرس على يد مصور فى ليون . ولم يطل رضاء جان — باتيست عما استطاع أن يتعلمه هناك ، فيم شطر باريس . وعمل فترة فى الفقر الذى تمتحن به الموهبة الشابة . وكان محقا فيما بعد فى إبراز الجانب الأفضل فى الناس ، لأنه وجد كما نجد معظمنا

الكثير من العطف مختلطا بما فى الدنيا من عدم مبالاة وإنشغال عن الموهبة . وحوالى عام ١٧٥٤ أشترى إجماع للفنون يدعى إلا ليف دجوللى إصورة رسمها جروز تسمى « رب الأسرة » (وقد إستعمل إديدرو هذا إالمنوان ذاته لتمثيليته الثانية عام ١٧٥٨) وشجعه على مواصلة التصوير . ورأى الفنان الذى كان يعلم التصوير للأسرة المالكة صورة بريشة جروز ، فرشحه للأكاديمية . ولكن كل مرشح كان ينتظر منه أن يقدم خلال ستة أشهر رسما لمشهد من مشاهد التاريخ . ولم تكن هذه المشاهد التاريخية مما يوافق مزاج جروز ، فترك حقه فى الترشيح يسقط ، وقبل ما عرضه الأبيه جوجنو من تمويل رحلته إلى روما (١٧٥٥) .

وكان قد بلغ الثلاثين ، ولا بد أنه أحس قبل ذلك بزمن بسحر الأنثى ، أو ليس نصف الفن نتاجا جانبيا لتلك القوة القاهرة ؟ وقد خبرها فى روما خبرة أورثته تباريح الجوى . ذلك أنه عهد إليه بتعليم الرسم لليتتيا ، ابنة أحد الأدواق ، وكانت فى ميعة الصبا ، فما الذى يستطيعه إلا أن يقع فى غرامها ؟ وكان مليح الصورة ، له شعر مموج ووجه بشوش متورد ، وكان زميله فى الطلب فراجونار يلقبه « الملاك العاشق » . أنظر فى اللوفر إلى صورته التى رسمها لنفسه فى شيخوخته ، ثم تخيله وهو فى الثلاثين . ولم يكن مناص من أن تلعب ليتيتيا فى حميا الشباب الذى لا يعبأ بالمال ، دور هلويز أمام هذا الأبيلار ، باستثناء الجراحة . ولم يستغل ضعفها ، وعرضت عليه الزواج : وكان يهفو إليها ، ولكنه أدرك أن زواج فنان فقير بوارثة دوق سيقلب بعد قليل مأساة للفتاه . وإذ كان غير واثق من قدرته على السيطره على نفسه فقد عقد النية على إلا يراها ثانية . فمرضت ، وزارها وسرى عنها ، ولكنه عاد إلى تصميمه . ويؤكدون أنه ظل ثلاثة أشهر يلزم فراشه بحمى وهذيان متكرر[٥٦] . وفى ١٧٥٦ قفل إلى باريس دون أن يتأثر أطلاقا بالفن الكلاسيكى أو الإحياء الكلاسيكى الجديد .

يقول « بعد وصولى إلى باريس أتفق أن مررت — ولا أدرى أى قدر دفعنى إلى هذا — بشارع سان — جاك ، حين لحظت الإنسة بابوتى خلف

منضدتها[٥٧] » . وكانت جابرييل بابوتى تعمل فى مكتبة ، وكان ديدرو يشترى كتبها و « يحبها كثيرا » (على حد قوله) قبل ذلك بسنوات . وكانت الآن (١٧٥٦ — ٥٧) قد تجاوزت الثلاثين (كما يقول جروز) تخشى أن تظل عانسا ؛ فوجدت جان — باتيست غير ميسور الحال ولكنه حلو . وبعد أن زارها بضع مرات قالت له « يا مسيو جروز ، اتتزوجنى أن رضيت بك زوجا ؟ » وأجاب كما يجيب أى فرنسى مهذب « يا آنسة . ألا يكون أى رجل غاية فى السعادة إذا أنفق حياته مع امرأة ساحرة مثلك ؟ » ولم يفكر فى الأمر أكثر من هذا . ولكنها تركت الجيران يفهمون أنه خطيبها . ولم يطاوعه قلبه على تكذيبها ، فتزوجها وظلا . سبع سنين ينعمان بقسط معقول من السعادة . وكانت ذات جمال مغر ، فاستخدمها راضية موديلا فى كثير من الأوضاع التى لم تكشف عن شىء وإن ألمعت لكل شىء . وإنجبت له فى تلك السنين ثلاثة أطفال عاش منهم أثنان كانا إلهاما » لفنه .

ويعرفه العالم بصور الأطفال التى رسمها . وعلينا ألا نتوقع هنا روعة لوحة فيلاسكويز « دون بلتازار كارلوس »[٥٨] . أو لوحة فانديك « جيمس الثانى صبيا »[٥٩] ، لا بل إننا أحيانا قد نصدم بما فى بنات جروز من غلو وتهافت فى العاطفة ، كما تشهد بذلك « صورة عذراء » المحفوظة ببرلين ؛ ولكن لم نرفض ما فى صورة « البراءة »[٦٠] من خصل متموجة ، وخدود متوردة . وعيون فيها الحزن والثقة ، أو ما فى لوحة « الفلاحة الصغيرة »[٦١] من بساطة لم يفسدها التبرج ؟ كذلك لا نبعد تكلفنا فى لوحة « الغلام وكتاب الدرس »[٦٢] . فهى تصور أى غلام مل واجبا يبدو له مقطوع الصلة بالحياة . ومن بين ١٣٣ لوحة بقيت من رسوم جروز . اختص البنات بست وثلاثين . وقد أشترى يوهان جيورج فللى ، الحفار الإلمانى نزيل باريس ، ما استطاع شراءه من هذه الصور المثالية للطفولة ، ورآها « أثمن من أروع صور هذا العهد[٦٣] » ورد جروز هذه التحية بتصويره السكسونى غير الجذاب مثالا للفحولة . على أن هؤلاء الفتيات يشوبهن التكلف والصنعة إذ يكبرن فى فن جروز . مثال ذلك أن « اللبانة[٦٤] » تبدو فى أبهى لباس كأنها تتأهب للذهاب إلى المرقص ، وصبية « الجرة المكسورة[٦٥] » لا داعى (إلا داعى

الحمال) يدعوها للكشف عن حلمة ثديها وهى فى طريقها من البئر . ولكن فى صورة لصوفى أرنو[٦٦] ، وتبدو القبعة ذات الريش ، والوقفة الأنيقة ، والشفاه القرمزية ، كلها طبيعية .

لقد كان جروز أشبه بشاردان صغير فيه مسحة من بوشيه ، رجلا معجبا حقيقة بالفضيلة وبحياه الطبقة الوسطى ، ولكنه يكسوها بين الحين والحين إغراء شهوانيا كان شاردان يتجنبه . وكان فى إستطاعة جروز إذا نسى أجساد نسائه أن ينشد فى صورة أنشودة الحياه العائلية البورجوازيه ، كما نرى فى « عروس القرية[٦٧] » التى ظفوت بأكبر جائزة حين عرضت فى آخر أسبوع لصالون ١٧٦١ ، وأصبحت حديث باريس . وأطراها ديدرو لما فيها من « عاطفة حلوة » وأشاد بها « مسرح الإيطاليين » إشادة لم يسبق لها نظير . إذ قدمها فى « لوحة حية » على المسرح . وقد وجد الخبراء فيها عيوبا — من ضوء لم يحسن المصور التصرف فيه ، إلى الوان متنافرة ، إلى قصور فى الرسم والتنفيذ ، وضحك الارستقراطيون على مافيها من غلو فى العاطفة ، ولكن جمهور باريس ، الذى كان قد عب فى الزنا حتى الثمالة ، وأبكته فى هذه السنة بعينها « جولى » روسو ، كان فى مزاج يدعوه لاحترام النصائح والتحذيرات الخلقية التى كادت تسمع من فم والد العروس إلى زوجها الموعود . وكانت كل عقيلة من عقائل الطبقة الوسطى عليمة بمشاعر تلك الأم وهى تسلم أبنتها لمشاق الزواج ومخاطره ، وكل فلاح كان يشعر بأنه ليس غريبا فى ذلك الكوخ الذى تنقر فيه دجاجة وأفراخها الغلة على أرضه أو تشرب فى أطمئنان من القدر التى تحت قدم الأب . واشترى مركيز دمارينيه الصورة لفوره ، ودفع الملك فيها بعد ذلك ١٦،٦٥٠ جنيها ليحول دون بيعها بالخارج . وهى اليوم محفوظة بأحدى حجرات اللوفر التى لا تحظى بزوار كثيرين ، وقد أتلفها تغير ألوانها السطحية جداً ، وغض الجمهور من قدرها فى غمرة تمرد الواقعية والكلبة على العاطفة المتفائلة .

وأحس كل فنانى باريس تقريباً بأن جروز حط من شأن الفن لأنه سخره للوعظ من خلال الروايات والقصص بدلا من كشف الحقيقة والطبائع

بنفاذ بصيرة وعدم تحيز . ودافع عنه ديدرو قائلا إنه « أول فنانينا الذى أضفى الخلق على الفن ، وهيأ صوره لتروى قصة(٦٨) » . وبلغ به الأمر حد الدهشة والتعجب من المآسى الرقيقة التى رسمها جروز ، فصاح فى أسى « لذيذة ! لذيذة ! » حين رأى لوحة « الفتاة الصغيرة تبكى على عصفورها الميت » وكان هو نفسه يدعو لمواضيع الطبقة الوسطى ومشاعرها فى الدراما . فآنس فى جروز حليفا عظيم القيمة وأطراه حتى فوق إطرائه شاردان . وغلا جروز فى تصديقه ، فكرر نفسه كأنه رسول الفضيلة والعاطفة ، وأرسل إلى مجلات باريس شروحا طويلة للدروس الاخلاقية فى الصور التى كان ينتجها . وأخيرا أستنزف ترحيب جمهور الفن به حتى إبان تسلط العاطفة على مزاج العصر .

وكان خلال فترة السنوات الأثنتى عشرة كلها منذ قبول ترشيحه للأكاديمية قد أهمل أن يقدم لها الصورة التاريخية التى كانت شرطا للعضوية الكاملة ، وكانت الأكاديمية ترى أن الصورة التى ترسم المشاهد المألوفة التى تصف الحياة البيتية أو اليومية تتطلب من الموهبة الناضجة أقل مما يتطلبه التأليف القادر على التخيل ، والتمثيل الكفء لمشهد من المشاهد التاريخية . ومن ثم قبلت مصورى مشاهد الحياة اليومية على أنهم « مقبولون agrées » فقط ، ولكنهم ليسوا بعد صالحين للدرجات أو الكراسى الأكاديمية . وفى ١٧٦٧ أعلنت الأكاديمية أن صور جروز سيتوقف عرضها فى الصالون البينالى حتى يقدم لها صورة تاريخية .

وعليه ففى « ٢٩ يوليو ١٧٦٩ » قدم جروز صورة لسبتميوس سفيروس يوبخ أبنه كراكالا لمحاولته أغياله(٦٩) . وأطلع أعضاء الأكاديمية على الصورة ، وبعد ساعة أبلغه المدير أنه قبل ، ولكنه قال له : « سيدى . لقد قبلت فى الأكاديمية مصورا للمشاهد اليومية . وقد أخذت الأكاديمية فى الاعتبار تفوق صورك السابقة ، وأغمضت عينها عن الإنتاج الحالى غير الجدير بها ولا بك(٧٠) » . وصدم جروز ، فدافع عن لوحته ، ولكن أحد الأعضاء بين الأخطاء فى الرسم . واحتكم جروز إلى الجمهور فى خطاب

لصحيفة « الأفان — كوريبه » (٢٥ سبتمبر ١٧٦٩) ، وأخفق شرحه في إقناع الراسخين في الفن ، وحتى ديدرو سلم بعدالة النقد .

وألمع ديدرو إلى أن قصور اللوحة راجع إلى أن فشل المصور في زواجه شوش ذهنه . واتهم جابرييل بابوتى بأنها ترددت إلى درك المرأة المشاكسة المغرورة ، فاستنزفت مال زوجها بإسرافها ؛ وأرهقته بمضايقاتها ؛ وحطمت عزة نفسه بخياناتها المتكررة[٧١] . وقدم جروز نفسه لرئيس الشرطة (١١ ديسمبر ١٧٨٥) شهادة خطية يتهم فيه زوجته بأستقبال عشاقها بإصرار في بيته ورغم إحتجاجاته . وفي خطاب لاحق أتهمها بسرقة مبالغ كبيرة منه ، وبمحاولة « تحطيم رأسي بمبولة[٧٢] » . وحصل على انفصال شرعي ، وأخذ ابنتيهما في حضانته ، وترك لها نصف ثروتة ومعاشا سنويا قدره ١,٣٥٠ جنيها .

وتدهور خلقه إثر هذه اللطمات ، فبات يضيق بأى نقد ، وفقد كل تواضع في الأشادة بلوحاته . على أن الجمهور وافقه على إعتزازه بنفسه ، فأقبل على مرسمه وأثراه بشراء صوره ، والنسخ المطبوعة منها . وإستثمر هو مكاسبه في سندات حكومية ، ولكن الثورة أطاحت بقيمة هذه السندات ، وألقى جروز نفسه مملقا ، في حين إنهارت سوق صوره الممثلة للسعادة والسلام البيتين نتيجة « لا ستغراق فرنسا في العنف الطبقي ، والهياج السياسي ، ورد فعل الكلاسيكية الجديدة . وأنقذته الحكومة الجديدة إنقاذا معتدلا (١٧٩٢) بمعاش قدره ١,٥٣٧ جنيها ، ولكن سرعان مانفد هذا المعاش فالتمس سلفة ، وجاءت امرأة من الرعاع تدعى إنتيجون لتعيش معه وتعنى بصحته المتدهورة . فلما قضى نحبه (١٨٠٥) كان العالم كلـــه تقريباً قد نسيه ، ولم يرافق جثمانه إلى القبر سوى فنانين أثنين .

(د) فراجونار

تغلب جان — أونوريه فراجونار على محن النجاح خيراً من جرور ، لأنه كان يفوقه شهوانية وصنعة . وفنه الأنيق هو التمجيد الأخير للمرأة الفرنسية في القرن الثامن عشر ه

والد فى جراس بأقليم بروفانس (١٧٣٢) ؛ فأضفى على فنه أريج وطنه وعبير إزهاره ، فضلا عن عشق التروبادور الرومانسى ، وإضاف إلى هذا كله مرح الباريسيين وتشككهم الفلسفى . وجلب إلى باريس فى الخامسة عشرة فطالب إلى بوشيه أن يقبله تلميذا ، وقال له بوشيه بكل ما وسعه من تلطف إنه لا يقبل غير الطلاب المتقدمين . فذهب فراجونار إلى شاردان ليخدمه . وكان فى ساعات فراغه ينسخ الروائع الفنية أينما وجدها . وأطلع بوشيه على بعض هذه النسخ فأعجب بها إعجابا شديدا حمله على قبوله الآن تلميذا ، وجند خياله الفنى فى عمل تصميمات لقطع النسيج المرسومة ، وتقدم الغلام بسرعة حتى حثه بوشيه على دخول المسابقة لنيل جائزة روما . وقدم فراجونار لوحة تاريخيه سماها « يربعام يضحى للاصنام[٧٣] » . وكانت إنتاجا ممتازا لفتى فى العشرين — فيها الأعمدة الرومانية الفخمة ، والأرواب المنسابة ، ورؤس الشيوخ الملتحية ، أو المعممة ، أو الصلعاء ، وكان فراجونار قد تعلم فى زمن قليل بحيث نرى فى الوجه العجوز من الملامح أكثر من وجه لم تطبعه بعد الرغبة فى الأثارة والأستجابة . ومنحته الأكاديمية الجائزة ، فدرس ثلاث سنين فى مرسم كارل فانلو ، ثم إنطلق فى نشوة إلى روما (١٧٦٥) .

وثبطت همته كثرة الروائع التى وجدها هناك أول الأمر :

« لقد روعتنى همة ميكلانجلو — فجاشت فى صدرى عاطفة عجزت عن التعبير عنها ، وحين رايت روائع رفائيل تأثرت إلى حد البكاء ووقع القلم من يدى . وفى النهاية رانت على حالة من التراخى لم أقــو على قهرها . ثم ركزت على درس المصورين الذين أتاحوا لى الأمل فى أننى قد أنافسهم يوما ما . وهكذا جذب إنتباهى باروتشيو ، وبييترو داكورتونا ، وسليينا ، وتيبولو[٧٤] » .

وبدلا من أن ينسخ صور قدامى الفنانين راح يرسم التصميمات أو التخطيطات للقصور ، والقناطر ، والكنائس ، والمناظر الطبيعية ، والكروم ، وأى شىء آخر ، ولا غرور فقد ملك الآن فى استعمال القلم تلك البراعة التى

ستحوله واحدا من أقدر الرسامين وأكملهم فى عصر غنى فى ذلك الفن الأساسى (*) . وقل من الرسوم ما التقط من حياة الطبيعة أكثر من الأشجار الخضراء فى فيلا دستى كما رآها فراجو نار فى تريفولى (٧٥) .

فلما عاد إلى باريس عكف على إرضاء الأكاديمية بلوحة تاريخية ، باعتبار هذه اللوحة شرطا لاغنى عنه فى قبول الرسام عضوا بها . ووجد المواضع التاريخية كما وجدها جروز ، لاتناسبه ، فقد اجتذبته باريس جميلة بنسائها الساحرات بأقوى مما اجتذبه الماضى . وكان تأثير بوشيه لايزال حارا فى مزاجه . وبعد تلكؤ كثير قدم لوحة « كبير الكهنة كوريرسوس يضحى بنفسه لينقذ كاالليروبيه » ؛ ولاحاجة بنا للوقوف والاستفسار عمن يكون هذا الكاهن وتلك العذراء ، والمهم أن الأكاديمية وجدتهما نابضتين بالحياة مرسومين رسما جيداً ، فمنحت فراجونار عضوية مشاركة . وقال ديدرو فى حماسة عارمة « لاأعتقد أن أى فنان آخر فى أوربا كان مستطيعا تصور هذه اللوحة (٧٦) » . واشتراها لويس الخامس عشر لتكون تصميما لقطعة نسيج مرسومة . ولكن فراجونار نفض يده من المواضيع التاريخية ، بل إنه بعد ١٧٦٧ رفض أن يعرض فى الصالون ، وقصر إنتاجه كله تقريباً على التكليفات الخاصة ، حيث يستطيع اطلاق العنان لذوقه من القيود الأكاديمية . ولقد تمرد على تلك « الصلصلة البنية » صلصة النهضة الأوربية ، قبل أن يتمرد عليها الرومانسيون الفرنسيون بزمن طويل ، وانطلق فى مرح إلى بحار أرحب وأقل تخطيطا .

ولكنها لم تكن خلوا تماما من التخطيط . فقد فتح فاتو الطريق . من قبل بنسائه اللائى كساهن أثوابا مشرقة وهن منطلقات بضمير مطمئن إلى جزيرة فينوس ، وكان بوشيه قد نهج هذا النهج بحواس مرحة لعوب ، وزاوج جروز بين الشهوانية والبراءة . أما فراجونار فقد جمع بين هذه كلها : ففى لوحاته الثياب الهفافة ترف فى النسيم ، والغوانى الرقيقات يعرضن اللذات الطليقة من كل قيد ، والنبيلات الأنيقات يسحرن الرجال

* كان هذا عصر أئمة النقش والحفر أمثال شارل – نيكولا كوشان ، وجابرييل دسانت أوبان ، وجان – جاك بواسييه ، وشال ايزن – ألمع رسامى الكتب فى القرن الثامن عشر .

بحفيف ثوب أو رقة قميص ، أو بحركة رشيقة متناغمة أو بسمة تلين الأفئدة ، والأطفال السمان المتوردون الشعث ، الذين لم يكتشفوا الموت بعد . وقد صور في رسومه ومنمنماته كل ناحية تقريبا من نواحي الطفولة — وضع يعانقون أمهاتهم ، وفتيات يدللن عرائسهن ، وصبية يركبون حمارا أو يلعبون مع كلب . . . .

وقد استجابت ميول فراجونار العشقية الغالية لطلبات رجال الحاشية المكتهلين ، والخليلات المتعبات ، من الصور التي تشيد بالجسد وتلهبه . فجال بين أرجاء الأساطير الوثنية بحثاً عن ربات امتنعت أجسادهن الوردية على فعل الزمن . وكانت فينوس ، لا العذراء ، هي التي رفعت الآن في صعود ظافر إلى السماوات . وسطا على نصف شعائر الدين لمهرجانات الغرام : فكانت لوحته « القبلة »[٧٧] صلاة ، و « نذر الحب» عهدا مقدساً ، و « قربان الوردة » التقدمة الأخيرة . ومن بين صور أربع رسمها فراجونار لقصر مدام دوباري الريفي في لوفسيين كان لإحداها عنوان يصلح لتغطية نصف انتاج الفنان : « الحب الذي يشعل الكون » . ثم نبش في ملحمة تحرير أورشليم » بحثاً عن المشهد الذي تعرض فيه الحوريات مفاتنهن أمام رينالدو العفيف . وأصبح هذا الفنان « بوشيه » الفراش ، إذ أبدى النساء نصف عاريات أو عاريات تماماً ، كما يرى في لوحات « الجمال النائم » أو القميص المخلوع أو الباخوسية النائمة »[٧٨] . فلما أدرك أن العرى قد يقشع الأوهام تحول من التصريح إلى التلميح ، ورسم أشهر لوحاته « مخاطر الأرجوحة[٧٩] » ، ففيها يرى العاشق يتفرس بابتهاج في أسرار ثياب عشيقته الداخلية التي تتكشف وهي تتأرجح لأعلى فأعلى ، وتقذف بخفها في الهواء بتحرر لعوب . وأخيرا استطاع فراجونار أن يتقمص جروز ، بل وشاردان : فصور النساء المحتشمات ، كما في لوحاته « الدراسة » و« المطالعة[٨٠] » . و «قبلات الأم » ، وفي صورة « مدموازيل كولومب » اكتشف أن النساء نفوساً » .

وفي ١٧٦٩ ، حين بلغ السابعة والثلاثين ، أذعن للزواج ، فحين قدمت الآنسة جيرار من جراس لدراسة التصوير في باريس ، كان حسبها أن تذكر

سقط رأسها حتى تظفر بالقبول فى مرسم فراجونار . ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت امرأة مكتملة النضج ،وقرر « فراجو » (كما كان يسمى نفسه) كما قررت مدام بوفارى ، أنه لا يمكن أن يكون الاكتفاء بامرأة واحدة مملا أكثر من الزنا . ووجد متعة جديدة فى العمل معها فى رسم صور مثل « خطوات الطفل الأولى » وفى التوقيع معها على الصور . فلما ولدت طفلها الأول استأذنته فى استدعاء أختها البالغة أربعة عشر عاماً من جراس لتعينها على الطفل والبيت ، فوافق وظلت هذه الأسرة سنين تعيش فى سلام مزعزع .

ونافس الآن جروز فى تصوير الحياة البيتية ، ونافس بوشيه فى توصيل هدوء المشاهد الريفية إلى أنظار المشاهدين . ورسم بعض الصور الدينية ، وصور أصدقاءه . وكان فى صداقته أثبت منه فى حبه ، فلم يفتر قط تعلقه بجروز وروبير ودافيد رغم ماأصابوا من نجاح . وحين نشبت الثورة أهدى صورة وطنية سماها « الأم الطيبة » للأمة . وكادت مدخراته تفقد قيمتها نتيجة للتضخم وتخلف الحكومة فى الوفاء بديونها ، ولكن دافيد الفنان الأثير لدى العهد الجديد ، حصل له على وظيفة شرفية صغيرة . وفى نحو هذه الفترة رسم صورته الذاتية الرائعة المعلقة الآن فى اللوفر : الرأس قوى ضخم والشعر أشيب قصير القص ، والعينان مازالتا هادئتين ثقة واطمئناناً . وقد روعه عصر الارهاب وقززه ، ففر إلى وطنه الأول جراس ، حيث وجد المأوى فى بيت صديقه موبير وقد زين الجدران بلوحات تعرف فى جملتها باسم « رواية الحب والشباب » وقد رسمها خصيصاً لمدام دوبارى ، ولكنها كانت قد رفضتها لأنها لم تعد فى ثرائها السابق ، وهى اليوم من كنوز فريك جالرى بنيويورك .

وذات يوم من أيام الصيف كان راجعاً من جولة فى باريس وقد حمى جسمه وتصبب عرقاً ، فوقف عند مقهى وتناول قطعة من الجيلاتى وأصيب للتو تقريبا باحتقان فى المخ . ونعم بميتة عاجلة (٢٢ أغسطس ١٨٠٦) . وقد أقامت جراس تمثالا جميلا لتخليد ذكراه ، وتحت قدميه طفل عار ومن خلفه شابة تدوم ثوبها فى رقصة مرحة .

أن الفنان لابد أن يدفع ثمنا لرمزه لعصر ما ، فشهرته تضمحل بزوال رغبات العصر المشبوبة ، ولا سبيل إلى عودة هذه الشهرة إلا إذا رفع قدره عاطف البعد ، أو رد تحول فى التيار موضة قديمة إلى الذوق الحاضر . وقد زكا فراجونار لأن فنه العارى أو الكاسى أبهج زمانه ، بتلطيفه وتزيينه للانحلال ، ولكن الناموس الصارم الذى خضعت له ثورة تقاتل فى سبيل الحياة سائر أقطار أوربا : كان فى حاجة إلى أرباب غير فينوس تلهمه ، فوجدها فى أبطال روما الجمهورية ، الشديدى المراس . لقد انتهى عصر المرأة وعاد حكم المقاتل ؛ وأقبل جيل جديد من الفنانين على النماذج اليونانية — الرومانية ، التى أعاد تأليها فنكلمان ، واكتسح الطراز الكلاسيكى الجديد الباروك والروكوك فى موجة عارمة من الأشكال القديمة .

٦ — الصالونات الكبرى

(ا) مدام جوفران

لقد دالت دولة المرأة ،ولكن بعد أن بلغت الصالونات ذروتها . وبلغت تلك المؤسسة الفذة أوجها بمدام جوفران،وانحسرت فى حمى من الرومانسى بمدموازيل د'يسبيناس . وستنتعش بعد الثورة بالسيدتين دستال وريكامييه ، ولكنها لن تدرك أبدا فتنة وخصوبة تلك الفترة التى كان يلتقى فيها مشاهير الساسة فى أيام السبت بصالونات مدام دوديفان . والفنانون فى أيام الإثنين والفلاسفة والشعراء أيام الأربعاء بصالون مدام جوفران ، والفلاسفة والعلماء أيام الثلاثاء بصالون مدام هلفتيوس ، وأيام الأحد والخميس بصالون البارون دولباخ ، وفحول الأدب وأقطاب السياسة أيام الثلاثاء بصالون مدام نكير ، وقد يلتقى أى منهم فى أى ليلة بصالون جولى دليسبيناس . وإلى هذه الصالونات كان هناك الكثير من الصالونات الصغرى : كصالونات السيدات دلكسمبورج ودلافالير ، ودفور كالكييه ودتالمون ، ودبرولى ، ودبوسى ، ودكروسول ودشوازيل ، ودكامبيس ودميربوا ودبوفر ، ودانفيل ، ودجيون، ودودتو ودمارشيه . ودوبان ، وديبينيه .

ولم يكن الجمال هو الذى زين ربات الصالونات هؤلاء ، فقد كان جلهن

نساء نصفا أو أكبر ، إنما هو ذلك المركب من الذكاء ، واللباقة ، والكياسة والنفوذ والمال غير المتطفل ، الذى مكن للمضيفة أن تجمع نساء ذوات فتنة وسحر ، ورجالا ذوى عقول راجحة يستطيعون أن يجعلوا اجتماعاً أو مجلس سمر يتألق ظرفاً أو حكمة دون أن يؤججوه انفعالا أو تعصباً . ولم يكن الصالون منها مكانا للمغازلات ولا للمواضيع العشقية أو التوريات . [٨١] فقد يكون لكل رجل فيه خليلة ولكل امرأة عشيق ، ولكن هذا كان يستتر بأدب فى التبادل المتحضر للمجاملات والأفكار . وكانت الصداقات الأفلاطونية تستطيع أن تجد القبول هناك ، كما كان الحال مع دودفان وهيراس ولبول ، أو مع ليسبيناس ودالامبير . وباقتراب الثورة نزعت الصالونات إلى فقدان تسامحها الهادىء وأصبحت مراكز للتمرد .

وذاعت شهرة صالون مدام جوفران لأنها كانت أبرع مروضى السباع بين ربات الصالونات ، ولأنها أتاحت للرواد مزيدا من حرية النقاش ، ولأنها عرفت كيف تمنع الحرية من تجاوز حدود السلوك المهذب أو الذوق السليم — دون أن تبدو مستبدة . وكانت احدى النساء القليلات اللاتى برزن من الطبقة الوسطى ليحتفظن بصالون مرموق . وكان أبوها ، وصيف الدوفينة مارى — آن ، قد تزوج بابنة مصرفى ، وأول من رزقا من أطفال فى ١٦٩٩ هى مارى — تريز ، التى أصبحت فيما بعد مدام جوفران . ووضعت أمها ، وكانت امرأة مثقفة موهوبة فى التصوير ، الخطط الطموحة لتنشئة ابنتها ، ولكنها ماتت عام ١٧٠٠ وهى تلد صبيا . وأرسل الطفلان ليعيشا مع جدتهما فى شارع سانت — أونوريه — وبعد نصف قرن عللت مدام جوفران افتقارها إلى التبحر فى الثقافة فى خطاب أجابت به ماطلبته كاترين الثانية فى سيرة ذاتية موجزة لها .

« لم تحظ جدتى . . . إلا بنصيب ضئيل من التعليم ، ولكن كان لها عقل أوتى من قوة الملاحظة ، والذكاء ، والسرعة . . . . ما جعلها دائما بديلا عن المعرفة . وكانت تتحدث حديثاً لطيفا جداً عن أمور لاتعرف عنها شيئاً حتى لم تترك زيادة لمستزيد . . . وبلغ رضاؤها عن

حظها مبلغا جعلها ترى التعليم نافلة لاتحتاج اليها المرأة . وكانت تقول « لقد وفقت توفيقاً لم يجعلني أشعر قط بحاجتي اليه . فاذا كانت حفيدتي حمقاء فستجعلها المعرفة معتدة بذاتها لايطيقها أحد ، وإذاكان لها ذكاء وفطنة فسوف تسلك كما سلكت ، وسوف تعوض النقص بإياقتها ونفاذ بصيرتها ، ومن ثم فإنها فى طفولتى لم تعلمنى غير القراءة ، ولكنها جعلتنى اقرأ كثيرا ، وعلمتنى أن أفكر ، وأن أجادل ، وعلمتنى أن أعرف الرجال وجعلتنى أعرب عن رأيي فيهم ، وأخبرتنى كيف تحكم هى عليهم . . . وما كانت تطيق ضروب التظرف التى يعلمها مدرسو الرقص ، وكل ما تمنته لى هو أن تكون لى الرشاقة التى تهيئها الطبيعة للمرأة الحسنة الخلقة (٨٢) .

وأحست الجدة أن الدين أهم من التعليم ، ومن ثم كان الطفلان اليتيمان يؤخذان لحضور القداس كل يوم :

كذلك أهتمت الجدة بزواج مارى . ذلك أن رجل أعمال غنيا يدعى فرنسوا جوفران ، فى الثامنة والأربعون من عمره ، تقدم للزواج من الفتاة ذات الثلاثة عشر ربيعا ، ورأت الجدة فى ذلك العرض صفقة طيبة ، وكان فى تربية مارى وتهذيبها المفرط ما منعها من الاعتراض . على أنها أصرت على أن تصحب معها أخاها إلى بيت السيد جوفران المريح ، الواقع فى شارع سانت — أوثوريه أيضاً ، والذى قدر لها أن تقوم عليه إلى نهاية عمرها . وفى ١٧١٥ أنجبت أبنه ، وفى سنة ١٧١٧ أبنا — مات فى العاشرة .

وفى ذلك الشارع العصرى ذاته إفتتحت مدام دتانسان صالونا مشهورا . ودعت إليه مدام جوفران فأعترض زوجها . ذلك أن ماضى مدام دتنسان كان قد أحدث بعض الضجة ، وأن ضيوفها الأثيرين كانوا من أحرار الفكر أمثال فونتينيل ، ومونتسكيو ، وماريفو ، وبريفوست ، وهلفيتيوس ، ومارمونتيل . على أن مدام جوفران ذهبت برغم ذلك ، فلقد بهرتها هذه العقول الطليقة من كل قيد : فما كان أثقل أولئك التجار الذين يأتون لزيارة

زوجها الشيخ بالقياس إلى هؤلاء ! وكان الآن قد بلغ الخامسة والستين ، وهى لم تزل « امرأة الثلاثين » كما يقول بلزاك . وبدأت هى أيضاً تستضيف الزائرين . فاعترض ، ولكنها تغلبت عليه ، وأخيرا ارتضى أن يترأس على حفلات عشائها ؛ صامتا عادة ومؤديا دائماً . فلما مات (١٧٤٩) فى الرابعة والثمانين ، لم يكد ضيوفها يلحظون غيابه . واستفسر أحد رواد الصالون حين عادو من رحلة عما أصاب السيد العجوز الذى كان يجلس فى استحياء شديد على قمة المائدة . وأجابت مدام جوفران برفق « أنه كان زوجى ، وقد توفى [٨٣] » .

كذلك طوت مدام دتنسان رحلة الحياة عام ١٧٤٩ ، مما فزع له ضيوفها المعتادون . ويجب أن نذكر ثانية تلك الملاحظة التى أبداها فونتينيل الذى بلغ يومها الثمانية والتسعين : « امرأة طيبة جداً (مع أنها كانت تركيبة من الآثام الحقيقية .) ياله من خطب مقلق ؟ فأين أتناول غدائى الآن أيام الثلاثاء ؟ » ولكن أساريره إنفرجت وقال : « حسنا ، فى أيام الثلاثاء يجب أن أتناول الغداء فى بيت مدام جوفران[٨٤] » . وقد أبهجها أن يحضر ، لأنه كان « فليسوفا » قبل مونتسكيو وفولتير ، يحتفظ بذكريات تمتد إلى مازاران ، وقد بقى له من الأجل سبع سنوات ؛ وكان فى وسعه أن يحتمل المعاكسة دون أن يتأذى منها لأن سمعه ثقل . وحذا حذوه أكثر مشاهير القوم الذين تألقوا على مائدة دتنسان ؛ وسرعان ماجمع غداء أربعاء جوفران ، فى وقت أو آخر ، مونتسكيو ، وديدرو ، ودولباخ ، وجريم ، وموريلليه ؛ ورينال ، وسان — لا مبير ؛ والأبية فرديناندو جاليانى : النابولى القصير الأريب ؛ سكرتير السفير النابولى فى باريس .

وعقب موت زوجها ، ورغم معارضة أبنتها الساخطة . سمحت مدام جوفران لديدرو ، ودالامبير ، وما رمونتيل ، بأن يقرروا خط النقاش ونبرته فى حفلات غدائها أيام الأربعاء . لقد كانت وطنية ومسيحية ، ولكنها أعبجت بشجاعة الفلاسفة وحيويتهم . فلما نظمت « الموسوعة » تبرعت بأكثر من ٥٠٠,٠٠٠ جنيه فى نفقاتها وأصبح بيتها يعرف بـ «صالون

الموسوعة » ، وحين هجا باليسو المتمردين فى هزلية « الفلاسفة »(١٧٦٠) سخر منها فى شخصية سيد البز ، الجنية عرابة « الشلة » . وبعدها طلبت إلى سباعها أن يزأروا بأدب أكثر من ذى قبل ، وكبحت البلاغة الجامحة بعبارة مجاملة خففت من غلوائهم — « آه ، هاهنا شيء طيب[٨٥] » ! وأخيراً سحبت دعوتها الدائمة لديدرو ، ولكنها أرسلت إليه طقما من الأثاث الجديد وروبا فخما فخامة غير مريحة .

واكتشفت أن الفنانين والفلاسفة ، ورجال الأعمال ، لا ينسجمون إذا اجتمعوا معا ، فالفلاسفة يحبون النقاش والثرثرة ، والساسة يتوقعون التحفظ والتأدب ، أما الفنانون فقبيلة صخابة لا يستطيع فهمهم غـير الفنانين . وعليه فإن المدام ، التى كانت جماعة للفن والتقطت شيئاً من حرارة الجماليات من الكونت دكايلوس ، دعت أقطاب الفن وذواقيه الباريسيين إلى حفلات عشاء خاصة فى أمسيات الأثنين . ولبى الدعوة بوشيه ، ولاتور ، وفرنيه ، وشاردان ، وفانلو ، وكوشان ، ودرويه ، وروبير ، وأودريه ، وناتييه ، وسوفلو ، وكايلوس ، وبوشاردون ، وجروز . وكان مارمونتييل الفيلسوف الوحيد الذى سمح له بحضور هذه الحفلات لأنه كان يسكن فى بيت مدام جوفران ، ولم تكتف المضيفة اللطيفة بالأحتفاء بضيوفها ، بل إشترت أعمالهم وجلست إليهم ليصوروها ، وأجزلت لهم الأجر ، وصورها شاردان خيراً من سائر الفنانين ، سيدة بدينة لطيفة فى قبعة من الدانتيلا[٨٦] .

وبعد موت فانلو أشترت صورتين من صوره بأربعة آلاف جنيه ثم باعتهما لأمير روسى بخمسين ألف جنيه ، وأرسلت الربح لارملة المصور[٨٧] .

واستكمالا للضيافة كانت مدام جوفران تقيم « حفلات عشاء صغيرة » لصديقاتها . ولكنها لم تدع نساء لحفلات الاثنين ، وكانت مدموازيل دليسبيناس (ربما بوصفها نفس دالامبير الثانية) من النساء القليلات اللآتى حضرن أمسيات الأربعاء . ذلك أن المدام كانت على شيء من حب التملك ،

ثم إنها وجدت أن حضور الأناث يصرف سباعها عن الفلسفة والفن . وبدا أن سياسة الفصل بين الجنسين التي إنتهجتها قد بررها ما كسبته ندواتها من صيت ذائع بالمناقشات الطريفة الهامة . واحتال الأجانب فى باريس للظفر بدعوات إلى صالونها ، ذلك أن مباهاتهم ، بعد عودتهم إلى أرض الوطن ، بأنهم إختلفوا إلى صالون مدام جوفران ، كانت تشريفا لا يفوقه إلا شرف المثول بين يدى الملك . وكان هيوم ، وولبول ، وفرانكلن ، من بين ضيوفها الشاكرين . وحرص السفراء لدى بلاط فرساى — حتى الكونت فون كاونتز الرفيع المقام — على تقديم أنفسهم فى ذلك المنزل المشهور فى شارع سانت — أونوريه . وفى ١٧٥٨ أصطحب الأمير كانتيمير ، السفير الروسى ، أميرة أنهالت تسربستالتى حدثت القوم بفضائل أبنتها ، ولم تنقضى أربعة أعوام حتى أصبحت هذه الأبنة كاترين الثانية ، وظلت إمبراطورة الأقاليم الروسية كلها سنين طوالا بعد هذا ، تبادل ربة الصالون البورجوازية الرسائل الساحرة . وعاد سويدى جميل ذكى ممن اختلفوا إلى بعض ولائم المدام إلى وطنه ليصبح جوستاف الثالث .

وثمة شاب أجمل هو ستانيسلاس يونياتوفسكى كان كثير التردد بل كاد يكون من عباد مدام جوفران (التى كانت أحيانا تؤدى عنه ديونه[٨٨]) ، وما لبث أن إعتاد أن ينادبها « ماماً » ، فلما أصبح ملكا على بولندة (١٧٦٤) دعاها إلى زيارة وارسو ضيفا عليه . فلبت الدعوة مع أنها بلغت الآن الرابعة والستين . وأقامت فى طريقها بفينا فترة ، وكتبت تقول « أن القوم يعرفوننى هنا خيراً مما يعرفنى جيرانى على ياردتين من بيتى[٨٩] » . وظلت حينا فى القصر الملكى بوارسو (١٧٦٦) تقوم من الملك مقام الأم والمشيرة . وتبادل الناس الرسائل التى بعثت بها إلى باريس كما تبادلوا الرسائل التى بعث بها فولتير من فرنيه ، وقد كتب جريم يقول : « إن الذين لم يقرؤا رسائل مدام جوفران لم يكونوا أهلا لمخالطة المجتمع الراقى[٩٠] » . فلما قفلت إلى باريس واستأنفت ولائمها ، إبتهج عشرات من مشاهير القوم ، ونظم بيرون وديليل القصائد احتفاء بعودتها .

وكانت الرحلة شاقة — فقد أستقلت مركبة اخترقت نصف أوربا طولا

ثم عادت بها إلى وطنها ، ولم تعد مدام جوفران قط بعدها إلى سابق تيقظها ومرحها . وراحت الآن تجدد حرصها على العبادة الكاثوليكية ، وهى التى أعربت من قبل عن إفكارها الحياة بعد الموت[٩١] ، وأحالت الدين محبة وبراً بالناس . وقد وصف ما رمونتيل تقواها الغريبة فقال :—

« لكى ترضى السماء دون أن تغضب مجتمعها ، ألفت العكوف على لون من العبادة المستورة . فتذهب إلى القداس سراً كما يذهب غيرها إلى مؤامرة ، ولها شقة فى دير . . . . ومقعد خاص فى كنيسة الكبوشيين تتكتم أمرها كما تتكتم النساء العاشقات فى تلك الأيام عش غرامهن[٩٢] .

وفى سنة ١٧٧٦ أعلنت الكنيسة الكاثوليكية يوبيلا يتلقى فيه كل من يزورون كنائس معينة فى أوقات مقررة الحل والغفران . وفى ١١ مارس حضرت مدام جوفران صلاة طويلة فى كتدرائية نوتردام . وعقب وصولها إلى بيتها أصابتها نوبة فالج . وغضب جماعة الفلاسفة لأن مرضها جاء عقب قيامها بالعبادة ، وعلق الأبيه موريلليه تعليقا لاذعا « لقد أكدت بالقدوة صدق القول المأثور الذى كثيراً ماردته « أن المرء لا يموت إلا بفعل من أفعال العبادة[٩٣] . وتكفلت أبنتها المركيزة دلافرتيه — يامبو بأمها المريضة ، وحذرت الفلاسفة من زيارتها . ولم تقع عينا المدام ثانية على دالامبير ولا موريلليه ، ولكنها رتبت زيادة فى المعاشات التى كانت تجريها عليها بعد موتها . وإمتد بها الأجل عاما آخر ، مشلولة عاجزة ، ولكنها ظلت توزع صدقاتها إلى النهاية .

ب — مدام دودفان

كان هناك صالون واحد فى أوربا يستطيع أن ينافس صالون مدام جوفران شهرة ومريدين وقد سبق أن درسنا سيرة وخلق مارى ديفيشى — شامرون : وكيف أنها وهى صبية أفزعت الراهبات والقساوسة بحرية فكرها ، وكيف تزوجت المركيز دودفان ، وهجرته ، والتمست السلوى لوحدتها فى صالون (١٧٣٩ وما بعدها) ، بشارع بون أولا ، ثم (١٧٤٧) بدير سان جوزيف

بشارع سان دومنيك. وروع هذا الموقع الجديد الذى اختارته لصالونها جماعة الفلاسفة الذين كانوا يأتون ليستمتعوا بنبيذها وظرفها، إلا واحداً منهم هو دالامبير، الذى ظل يتردد عليه لأنه كان أقل أفراد هذه القبيلة مشاغبة وعدوانا. أما باقى الرواد فكانوا رجالا ونساء من الطبقة الارستقراطية، يميلون إلى التعالى على مدام جوفران لأنها بورجوازية. وحين كف بصر المركيزة وهى فى السابعة والخمسين (١٧٥٤) واصل أصدقاؤها الاختلاف إلى حفلات عشائها ولكنها خلال باقى الأسبوع أحست وقع الوحدة فى جزع متزايد، إلى أن أقنعت ابنة أخيها بالإقامة معها، والقيام بدور المضيفة المساعدة فى أمسياتها.

وكانت جولى دليسبناس الإبنة غير الشرعية للكونتيسة دالبون وجسبار دفيشى، أخى مدام دودفان، واعترفت الكونتيسة بها، وربتها مع أطفالها الآخرين، وأتاحت لها تعليما ممتازا، وحاولت إقرار شرعيتها، ولكن إحدى بناتها اعترضت فأخفقت المحاولة. وفى ١٧٣٩ تزوجت هذه الأخت غير الشقيقة من جسبار دفيشى وذهبت لتعيش معه فى قصر شامبرون الريفى ببرجنديا. وفى ١٧٤٨ ماتت الكونتيسة بعد أن أوصت بمعاش سنوى قدره ثلثمائة جنيه لجولى البالغة آنذاك السادسة عشرة. وأخذت مدام دفيشى جولى إلى شامبرون، ولكنها عاملتها على أنها فتاة يتيمة غير شرعية تستخدمها مربية للأطفال. فلما زارت مدام دودفان شامبرون راعها ما آنسته فى الآنسة دليسبناس من عقل نير وسلوك مهذب، وكسبت ثقة الفتاة، وعلمت أنها تشقى فى وضعها الراهن شقاء حملها على أن تدخل ديرا. واقترحت المركيزة أن تأتى جولى وتعيش معها فى باريس، واعترضت الأسرة مخافة أن ترتب دودفان تقرير شرعية جولى فيخول لها هذا حقاً فى نصيب من تركة ألبون. ولكن المركيزة وعدت بأنها لن تسىء إلى أقربائها بعمل كهذا. ودخلت جولى أثناء ذلك ديرا (أكتوبر ١٧٥٢) لا كراهبة مبتدئة بل كتلميذة فى القسم الداخلى. وجددت المركيزة اقتراحها. ووافقت جولى بعد عام من التردد. وفى ١٣ فبراير ١٧٥٤ أرسلت لها المركيزة رسالة غريبة يجب أن نتذكرها ونحن نحكم على ما تلاها:

« سأقدمك على أنك شابة من إقليمى تريدين دخول دير، وسأقول إننى

قدمت لك مسكنا حتى تجدى مكانا مناسبا لك . وستعاملين بأدب ، بل بمجاملة ، وفى وسعك أن تعتمدى على فى أن أحدا لن ينال من كرامتك .

على أن .... هناك نقطة أخرى على أن أشرحها لك . فأنا لا أطيق أى خداع ، ولو كان مكرا طفيفاً جداً ، إن كنت تخلطينه بسلوكك . وأنا بطبعى شكاكه ، أشتبه فى كل من أكشف فيهم المكر إلى أن أفقد كل ثقة فيهم . إن لى صديقين حميمين — فورمون ودالامبير ، أحبهما حبا جما ، لا للطفهما وصداقتهما بقدر ما أحبهما لصدقهما المطلق . عليك إذن يا مليكتى أن تعتزمى العيش معى بغاية الصدق والإخلاص ... قد تظنين أننى أعظك ، ولكنى أؤكد لك أنني لا أفعل هذا أبداً إلا فيما يتصل بالإخلاص . فى هذا لا تأخذنى رحمة بأحد . (٩٤)

وفى أبريل ١٧٥٤ أتت جولى لتسكن مع مدام دودفان ، أولا فوق سقيفة للعربات ، ثم فى حجرة فوق شقة المركيزة فى دير سان جوزيف . وقرر لها دوق أورليان معاشا قدره ٦٩٢ جنيها(٩٥) ، ربما بناء على اقتراح المدام . وكانت تعين المضيفة المكفوفة على استقبال ضيوفها وإجلاسهم فى ندواتها ، وأضفت الإشراف على أعمال الندوة بلطف سلوكها وسرعة بديهتها ونضارة شبابها وتواضعه . ولم تكن ذات جمال بارع ، ولكن عينيها السوداوين المتألقتين وشعرها البنى الغزير ألفا مزيجا فتانا . فكاد يقع فى غرامها نصف الرجال الذين اختلفوا إلى الندوة ، حتى فارس المدام الأمين العجوز شارل — جان فرنسوا اينو ، رئيس محكمة العرائض ، صاحب الأعوام السبعين ، المتوجع أبداً ، الثمل أبداً بالكثير من النبيذ . وتقبلت جولى مجاملاتهم بما يجب من عدم الاكتراث ، ولكن رغم ذلك فإن المركيزة الشديدة الحساسية فى عماها لابد قد شعرت بأن بعض العبادة قد انتقلت من عرشها . وربما دخل فى الأمر عنصر جديد : ذلك أن المرأة المسنة كانت قد بدأت تحب الشابة حبا لا يرضى بشريك له . وكانت كلتاهما تلتهب بالعاطفة المشبوبة ، رغم أن المركيزة أوتيت عقلا من أكثر عقول العصر رجاحة ونفاذا .

ولم يكن مناص لجولى من أن تحب . أولا إرلنديا شابا لا نعرف عنه

غير اسمه تاف . فبعد أن قبل فى الصالون كان يختلف إليه كل يوم تقريبا . وسرعان ما تبين للمركيزة أنه لا يأتى لمشاهدتها بل لمشاهدة المدموازيل . وروعها أن ترى أن جولى قبلت تودده بالرضى . فحذرتها من تعريض نفسها للخطر . وأنكرت الفتاة المتكبرة نصيحة الأم . وإذ خافت المركيزة أن تفقدها وحرصت على حمايتها من غرام عات لا يرجى دوامه ، أمرت جولى بأن تلزم حجرتها إذا جاء تاف . فأطاعت ، ولكن المشاجرة أثارت فيها من الانفعال ما حملها على تعاطى الأفيون لتهدىء أعصابها . وقد شاع استعمال الأفيون فى القرن الثامن عشر مهدئا ، ولكن الآنسة ليسبيناس ضاعفت جرعاتها مع كل غرام جديد .

وألفت أن تسلو تاف ، ولكن غرامها الجديد دخل التاريخ ، لأنه أصاب الرجل الذى اصطفته مدام دودفان لنفسها فى حب أموى ولكنه شديد التملك . وكان هذا الرجل ، جان لورون دالامبير ، فى عام ١٧٥٤ قد بلغ أوج شهرته رياضيا ، وفيزيائيا ، وفلكيا ، ومحررا فى تلك « الموسوعة » التى كانت حديث باريس المثقفة بأسرها . وقد قال فولتير عنه ، فى لحظة تواضع ، إنه « أعظم كتاب القرن » (٩٦) ومع ذلك لم يؤت شيئا من فرص فولتير . فقد ولد ولادة غير شرعية ، وأنكرته أمه مدام دتانسان ، ولم ير أباه منذ طفولته . وعاش بورجوازيا بسيطا فى بيت الزجاج روسو . وكان وسيما ، حسن الهندام ، جم الأدب ، مرحا أحيانا ، فى وسعه أن يخوض فى أى موضوع مع أى متخصص تقريبا ، ولكن فى وسعه أيضاً أن يخفى علمه وراء واجهة من القصص ، والتقليد الساخر ، والنكتة الذكية . وفيما عدا ذلك لم يصالح العالم إلا قليلا . فقد آثر استقلاله على رضى الملوك والملكات ؛ وحين قامت مدام دودفان بحملة لتدخله الأكاديمية الفرنسية أبى أن يضمن الحصول على صوت إينو بتقريظ كتابه « مختصر كرونولوجى لتاريخ فرنسا » (١٧٧٤) وكان فيه عرق من الهجاء جعل فكاهته لاذعة أحيانا ؛ (٩٧) فقد ينفد صبره ، ويبيت أحيانا عنيفا فى ثورته على خصومه (٩٨) ، ولم يعرف قط ما الذى يجب أن يقوله أو يفعله حين ينفرد بالنساء ، ومع ذلك فإن حياءه اجتذبهن ، كأنما بتحديه لقوة تأثير مفاتنهن .

وقد راع مدام دودفان منه فى أول لقائها به (١٧٤٣) اتساع ذهنه ونصوع تفكيره . وكانت يومها فى السادسة والأربعين ، وهو فى السادسة والعشرين . فتبنته « قطها الوحشى » [٩٩] ولم تكتف بدعوته لصالونها بل دعته أيضاً إلى تناول الطعام معها على انفراد ؛ وأقسمت بأنها على استعداد « لتنام الثنتين وعشرين ساعة من الأربعة والعشرين ، ما دمنا ننفق الساعتين الباقيتين معاً »[١٠٠] وكان قد انقضى على هذه الصداقة الحميمة أحد عشر عاماً حين دخلت جولى حياتهما .

كان هناك رباط طبيعى بين الابن الطبيعى والابنة الطبيعية . وقد دون دالامبير هذه الحقيقة وهو يسترجع ذكراها فيما بعد :

« كان كلانا يفتقد الوالدين والأسرة ، وإذ عانينا الهجر ، وسوء الطالع والشقاء منذ ولادتنا ، بدا أن الطبيعة بعثت بنا إلى العالم ليجد الواحد منا صاحبه ، وليكون له كل ما افتقده ، ولنقف معا كأننا صفصافتان ، أحنتهما العاصفة دون أن تقتلعهما ، لأنهما فى ضعفهما تشابكت أغصانهما »[١٠١] .

وأحس بهذا الانجذاب لأول نظرة تقريبا . كتب لها عام ١٧٧١ يقول :— « إن الزمن وطول الألفة يبليان كل الأشياء ، ولكنهما عاجزان عن أن يمسا حبى لك ، وهو حب الممتنيه قبل سبعة عشر عاما »[١٠٢] ومع ذلك تريث تسع سنوات قبل أن يفصح عن غرامه ، وحين فعل كان ذلك بطريقة غير مباشرة . كتب لها من بوتسدام فى ١٧٦٣ يقول : أن له فى رفض دعوة فردريك له أن يصبح عميداً لأكاديمية برلين للعلوم « ألف سبب ، منها سبب لا يخطر لك أن تحزريه »[١٠٣] وتلك زلة فى الذكاء تستغرب عن دالامبير ، فهل فى الوجود امرأة لا تعرف أن رجلا من الرجال يهواها ؟

وأحست مدام دودفان ذلك الود المتزايد بين ضيفها المقدر وأبنة أخيها المحروسة ، كذلك لحظت أن جولى تغدو محور النقاش والاهتمام فى الصالون . وظلت برهة لا يبدر منها لوم ولا عتاب ، ولكنها فى رسالة إلى فولتير (١٧٦٠) أبدت ملاحظات مرة حول دالامبير . وسمحت لصديق أن يقرأ على ضيوفها

قبل وصول دالامبير جواب فولتير الذى أشار إلى ملاحظاتها . وإذا دالامبير يدخل بمجرد البدء فى القراءة ويسمع الفقرة التامة ، فضحك مع الضاحكين . ولكنه تأذى ، وحاولت المركيزة استرضاءه ، ولكن الجرح لم يندمل ، فلما زار فردريك عام ١٧٦٣ كانت رسائله يومية تقريبا إلى الآنسة ديليسبيناس ، نادرة إلى المدام . وبعد عودته من باريس ألف أن يزور جولى فى شقتها قبل أن يهبطا إلى الصالون ، وكان طورجو أو شاستللوكس أو رمارمونتيل يصحبونه أحيانا فى هذه الزيارات الحميمة . وشعرت المضيفة العجوز أن الذين أعانتهم وأحبتهم يخونونها . ونظرت الآن إلى جولى كأنها عدو لها ، وكشفت عن شعورها بطرق مثيرة كثيرة — كفتور لهجتها فى الحديث معها ، ومطالبها التافهة منها ، وتذكيرها إياها بين الحين والحين باعتمادها عليها . أما جولى فقد ازداد ضيقها يوما بعد يوم بهذه « العجوز العمياء الغضوب » ، وبالتزامها بأن تكون دائما فى متناولها أو على مقربة منها لتلبى حاجة المركيزة فى أية ساعة . وزادها مرور الأيام تعاسة على تعاسة ، إذ كان لكل يوم لذعته . وقد كتبت فى تاريخ لاحق تقول « كل ألم يتغلغل إلى الأعماق ، أما اللذة فطائر سريع الفرار »(١٠٤) وفى ثورة أخيرة من ثورات غضب المدام اتهمتها بخداعها فى بيتها وعلى نفقتها . وردت جولى بأنها لم تعد قادرة على العيش مع من تنظر إليها هذه النظرة . وفى يوم من أوائل مايو ١٧٦٤ غادرت المنزل بحثا عن مسكن آخر . أما المركيزة فقد جعلتها قطيعة لا رجعة فيها باصرارها على أن يختار دالامبير بينها أو بين جولى ، فغادر البيت ، ولم يعد إليه قط .

وبدا حينا أن الصالون القديم قد جرح جرحا مميتا بهذين البترين . وواصل معظم رواده زيارة المركيزة ، ولكن العديد منهم — كالمرشالة دلكسمبورج ، والدوقة دشايتون ، والكونتسية دبوفليه ، وطورجو ، وشاستللوكس ، بل حتى إينو — ذهبوا إلى جولى ليعربوا عن تعاطفهم واهتمامهم المستمر بها ، وتقلص الصالون فلم يحو غير قدامى الأصدقاء والأوفياء منهم ، والوافدين الجدد الذين يسعون إلى التميز والطعام الطيب . وقد وصفت المدام هذا التغيير فى ١٧٦٨ فقالت :

« كان هنا بالأمس إثنا عشر شخصا ، وأعجبت بمختلف أنواع الحديث التافه ودرجاته . كنا جميعاً مغفلين كبارا ، كل فى بابه ... كنا مملين غاية الإملال . وانصرف الإثنا عشر جميعا فى الساعة الواحدة ، ولكن أحداً منهم لم يخلف وراءه أسفا ... ان بون — دفيل صديقى الوحيد ، وهو يقتلنى ضجراً ثلاثة أرباع الوقت » . (١٠٥)

إنها لم تكن للحياة أى حب على الاطلاق منذ انطفأ نور عينيها ، أما الآن ، وبعد أن انفض عنها أعز أصدقائها ، فقد ترددت فى حالة من القنوط الساخر الذى لا شفاء منه . فلعنت اليوم الذى ولدت فيه كما فعل أيوب « إن عماى وشيخوختى هما أقل ما رزئت به من أحزان ... فليس هناك غير خطب واحد ... هو أننى ولدت . »(١٠٦) وسخرت من أحلام الرومانسيين والفلاسفة على السواء — لا من « هلويز ، وروسو وقسيسه السافواوى » فحسب ، بل من حملة فولتير الطويلة فى سبيل « الحقيقة » قالت : « وأنت يا مسيو فولتير » . عاشق الحقيقة المعلن ، قل لى بأمانة ، هل وجدتها ؟ إنك تحارب الأخطاء وتهدمها ، ولكن ماذا تحل محلها ؟ »(١٠٧) لقد كانت شكاكه ، ولكنها آثرت الشكاكين المعتدلين أمثال مونتينى وسانت — إفرمون على الثوار العدوانيين كفولتير وديدرو .

وخالت أنها نفضت يديها من الحياة ، ولكن الحياة لم تنفض يديها منها تماما . فقد بعث صالونها بعثا متقطعا خلال وزارة شوازيل ، حين تجمع أقطاب الحكم حول المركيزة العجوز ، وجاءت صداقة دوقة شوازيل الرقيقة ببعض النور الذى أشرق وسط تلك الأيام الحالكة . وفى ١٧٦٥ بدأ هوراس ولبول يختلف إلى ندواتها ، وشعرت نحوه شيئاً فشيئاً بمحبة غدت آخر تشبث مستميت لها بالحياة . ونرجو أن نلقى بها ثانية فى ذلك التجسد الأخير المذهل .

الآنسة دليسبيناس

اختارت جولى لمسكنها الجديد بيتا ذا طوابق ثلاثة عند ملتقى شارع بلشاش بشارع سان — دومنيك، ولم يكن يبعد غير مائة ياردة من بيت المركيزة الديرى.

ولم تبلغ معاناتها مبلغ الإملاق ، فقد تلقت بالإضافة إلى عدة معاشات صغيرة ، معاشين مقدارهما ٢,٦٠٠ جنيه من « دخل الملك (١٧٥٨ و ١٧٦٣) ، بناء على إلحاح شوازيل فيما يبدو ، ثم إن مدام جوفران وهبتها بناء على اقتراح دالامبير راتبين سنويين منفصلين مقدارهما ألفا جنيه وألف كراون . وأعطتها المرشالة دلكسمبورج طقما كاملا من الأثاث .

وما إن استقرت جولى فى مسكنها الجديد حتى أصيبت بالجدرى إصابة شديدة . كتب ديفد هيوم إلى مدام دبوفليه يقول « أن الآنسة دليسبيناس مريضة مرضاً خطراً ، ويسرنى أن دالامبير نسى فلسفته فى لحظة كهذه » (١٠٨) والواقع أن الفليسوف كان يمشى مسافة طويلة كل صباح ليقوم على خدمتها إلى جوار فراشها حتى ساعة متأخرة من الليل ، ثم يعود إلى حجرته فى بيت مدام روسو . وتماثلت جولى للشفاء ، ولكنها باتت ضعيفة عصبية باستمرار وغلظت بشرتها وشابتها الندوب . وفى وسعنا أن نتصور ما يعنيه هذا لإمرأة لم تجاوز الثانية والثلاثين ولم تتزوج بعد .

وقد شفيت فى الوقت المناسب لتعنى بدالامبير الذى لزم فراشه فى ربيع ١٧٦٥ إثر ألم فى معدته أشرف به على الهلاك . وراع مارمونتيل أن يراه ساكنا « حجرة صغيرة سيئة الإضاءة ، سيئة التهوية ، تحوى سريرا ضيقا جدا كأنه النعش . (١٠٩) وعرض صديق آخر هو المالى قاتلية على دالامبير أن يستعمل بيتا فسيحا قرب التامبل . وارتضى الفليسوف الآن فى أسف أن يترك المرأة التى آوته وأطعمته منذ طفولته . وقال دوكلو فى دهشة « يا لليوم المدهش ! لقد فطم دالامبير ! » وكانت جولى تقطع الرحلة كل يوم إلى مسكنه الجديد وترد له رعايته الأخيرة لها باخلاصها الفياض . فلما نقه إلى حد يتيح له التحرك رجته أن يشغل بعض الحجرات فى الطابق الأعلى من بيتها ، فذهب فى خريف ١٧٦٥ ، ودفع لها إيجارا معتدلا . ولم ينسى مدام روسو ، فكان يزورها كثيرا ، ويقتسم معها بعض إيراده ، ولا يكف عن الاعتذار عن انفصالهما «أيتها الحاضنة المسكينة ، يا من تحبيننى أكثر مما تحبين أبناءك ! » (١١٠)

وزعمت باريس حينا أن جولى خليلته . وأيدت المظاهر الزعم . فقد كان دالامبير يتناول طعامه معها ، ويكتب لها الرسائل ، ويدير لها أعمالها ، ويستثمر لها مدخراتها ، ويجمع لها إيرادها . وكانا أمام الناس يظهران معا على الدوام ؛ وما دار بخلد مضيف أن يدعو الواحد دون صاحبه . ولكن شيئا فشيئا بدأ القوم — حتى المتقولون منهم — يتبينون أن جولى لا هى بالخليلة ولا الزوجة ولا العاشقة لدالامبير ، إنما هى مجرد أخت وصديقة . ويلوح أنها لم تدرك قط أن حبه لها كان كاملا وإن لم يستطع أن يعرب عنه ، وتقبلت السدتان جوفران ونكير — وكلتاهما مضرب المثل فى الفضيلة — هذه العلاقة بين دالامبير وجولى على أنها حب أفلاطونى . ودعت صاحبة الصالون العجوز كليهما لندوتها .

وكان إمتحانا قاسيا لعطف الأم الذى أبدته مدام جوفران نحو الآنسة دليسبيناس ألا يصدر عنها أى احتجاج حين افتتحت هذه صالونا خاصا بها ذلك أن جولى ودالامبير كانا قد صنعا من الأصدقاء عددا بلغ من الكثرة ما ملأ قاعة استقبالها كل يوم تقريبا من الخامسة إلى التاسعة بصفوة الزوار رجالا ونساءا ، وكلهم تقريبا ذائع الصيت أو رفيع المرتبة . وكان دالامبير يقود الحديث ، وجولى تضفى على الندوة كل مفاتن الأنوثة ودفء الضيافة . ولم يقدم فيها غداء أو عشاء ، ولكنها اشتهرت بأنها أعظم صالونات باريس حفزا للعقول ، اختلف إليها طورجو ، ولوميني دبريين ، اللذين سيرقيان سريعا إلى مكان مرموق فى الحكومة ، ونبلاء مثل شاستللوكس وكوندورسيه ، وأحبار مثل بوامون وبواجيلان ، وشكاكون مثل هيوم وموريلليه ، ومؤلفون مثل مابليه ، وكوندياك ، ومارمونيل ، وسان — لامبير . حضروا أول الأمر ليروا دالامبير ويستمعوا إليه ، ثم ليحظو بتلك المهارة المتعاطفة التى كانت جولى تستدرج بها كل ضيف ليتجلى فى ميدان تفوقه الخاص . ولم يحظر أى موضوع هنا ، فكانت تناقش أدق مشكلات الدين أو الفلسفة أو السياسة ، ولكن جولى — التى دربتها مدام جوفران على هذا الفن — عرفت كيف تهدىء من ثائرة الثائرين وترد النزاع نقاشا . وكانت الرغبة فى عدم الإساءة إلى المضيفة الرقيقة هى القانون غير المكتوب الذى بعث النظام فى هذه الحرية . وفى ختام حكم لويس الخامس عشر كان صالون الآنسة دليسبيناس

فى رأى سانت — بيف ، « أكثر الصالونات رواجا ، وأحفلها بالزوار المتشوقين إليه ، فى جيل كثر فيه الألمعيون » (١١١)

ولم يقدم صالون آخر لزواره مثل هذا الإغراء المزدوج ، فقد بدأت جولى رغم ندوب وجهها وعدم شرعية نسبها تصبح الحب الثانى لعشرة أو يزيد من الرجال المرموقين . وكان دالامبير فى قمة قدراته . يقول جريم :

« كان فى حديثه كل ما يعلم العقل ويمتعه . فكان يسلم نفسه بيسر ورغبة لأى موضوع يدخل السرور على نفوس أكثر السامعين ، مدخلا فيه معينا لا يكاد ينضب من الأفكار ، والنوادر ، والذكريات العجيبة ، وما من موضوع أياً كان جفافه أو تفاهته فى ذاته لم يملك سرا لإضفاء المتعة والطرافة عليه . وكان فى كل فكاهاته أصالة رقيقة عميقة . (١١٢) .

ثم استمع إلى ديفد هيوم يكتب إلى هوراس ولبول : « أن دالامبير رفيق لطيف المعشر كامل الفضائل . وقد دل على ترفعه عن المنفعة الشخصية والطمع الباطل برفضه عروضا من قيصرة روسيا وملك بروسيا .... وله خمسة معاشات ، أولها من ملك بروسيا ، وثانيها من ملك فرنسا ، والثالث يتلقاه بوصفه عضوا فى أكاديمية العلوم ، والرابع بوصفه عضوا فى الأكاديمية الفرنسية ، والخامس من أسرته . ولا تزيد جملتها كلها على ستة آلاف جنيه فى العام . وهو يعيش على نصف هذا المبلغ عيشة كريمة ، ويهب النصف الآخر للفقراء الذين له بهم صلة . والخلاصة أننى لا أكاد أعرف رجلا ، إلا القليلين ، .. يفضله نموذجا للشخصية الفاضلة الفيلسوفة . (١١٣)

أما جولى فكانت نقيض دالامبير فى كل شىء خلا يسر الحديث ورقته . ولكن بينما كان هذا الموسوعى واحدا من آخر أبطال حركة التنوير ، ينشد العقل والقصد فى الفكر والعقل ، كانت جولى ، بعد روسو ، أول صوت واضح للحركة الرومانسية فى فرنسا ، مخلوقا (فى عبارة مارمونتيل) « أوتى أنشط تصور ، وأحر روح ، وأشد الخيالات تأججا منذ سافو » (١١٤) . فلم يفقها أحد من الرومانسيين ، فى عالم الحقيقة أو القصص لا هلويز روسو ، ولا روسو ذاته ؛ ولا كلاريسية رتشردسن ، أو مانون بريفوست — فى رهافة

الحس أو حرارة حياتها الباطنة. كان دالامبير موضوعيا ، أو حاول أن يكون كذلك ، أما جولى فكانت ذاتية إلى حد الاستغراق الأنانى فى النفس أحيانا . ومع ذلك « كانت تشارك المحزونين ألمهم ، وقد جاهدت جهادا محموما لكى ينتخب شاستللوكس ولا هارب عضوين فى الأكاديمية ، ولكنها حين أحبت نسيت كل شىء ، وكل إنسان آخر . نسيت أولا مدام دودفان ، وثانيا دالامبير نفسه .

ذلك أنه فى ١٧٦٦ دخل الصالون نبيل شاب هو المركيز خوزيه دمورا إى جونزاجو ، ابن السفير الأسبانى ، وكان فى الثانية والعشرين ، وجولى فى الرابعة والثلاثين وكان قد زوج فى الثانية عشرة من فتاة فى الحادية عشرة ، ماتت عام ١٧٦٤ . وأحست جولى بعد قليل بسحر شبابه ، وربما بسحر ثرائه . وسرعان ما نضج تعلق الواحد منهما بصاحبه فتعاقدا على الزواج . فلما سمع أبوه بالأمر أمره بأداء واجبه العسكرى فى أسبانيا. وذهب مورا ، ولكنه لم يلبث أن استقال من وظيفة الضابط . وفى يناير ١٧٧١ بدأ يبصق الدم ، فذهب إلى بلنسية التماسا للراحة ، فلما لم يشف هرع إلى باريس وجولى . وأتفقا معا أياما سعيدة كثيرة ، مما روح عن بلاطها الصغير وأثار فى نفس دالامبير ألما دفينا . وفى ١٧٧٢ استدعى السفير إلى أسبانيا ، فأصر على أن يصحبه ابنه . ولم يرض الأب ولا الأم بزواجه من جولى ، فانفصل مورا عنهما وبدأ رحلته إلى الشمال ليعود إليها ، ولكنه مات بالسل فى بوردو فى ٢٧ مايو ١٧٧٤ . فى ذلك اليوم كتب لها يقول « كنت فى طريقى إليك ، ولابد أن أموت ، ياله من قضاء بشع ! ... ولكنك أحببتنى ، وتفكيرى فيك ما زال يسعدنى ، إننى أموت فى سبيلك ! » ونزعوا من أصابعه خاتمين ، احتوى أحدهما على خصلة من شعر جولى ، ونقش على الآخر هذه الكلمات « كل الأشياء تزول ، ولا يبقى غير الحب » وكتب دالامبير الشهم عن مورا يقول « إننى آسف لشخصى على فقد ذلك الرجل الحساس الفاضل الخلق ، الرفيع الفكر ، أكمل من عرفت من الناس ... وسأذكر ما حييت تلك اللحظات الغالية التى أحبت فيها نفس بهذا الطهر والنبل والقوة والتهذيب الاختلاط بنفسى » .(١١٦)

ومزق نبأ موت مورا قلب جولى ، وزاد الخطب فداحة أنها منحت حبها

فى الوقت نفسه لرجل آخر . ذلك أنها فى سبتمبر ١٧٧٢ التقت بالكونت جاك — أنطوان دجيبير ، البالغ من العمر تسعة وعشرين عاما ، والذى كان قد أبلى بلاء حسنا فى حرب السنين السبع . أضف إلى ذلك أن كتابه « دراسة شاملة للتكتيك » أشاد به القواد ورجال الفكر رائعة فى هذا الميدان ، وقد قدر لهذا الكتاب أن يحمل نابليون نسخه منه عليها تعليقات بخط يده خلال حملاته جميعا.و « المقال التمهيدى » للكتاب الذى ندد بجميع الأنظمة الملكية صاغ المبادىء الأساسية لسنة ١٧٨٩ قبل اندلاع الثورة بعشرين عاما . وفى وسعنا أن نحكم على الاعجاب الذى أغرقه الناس على جيبير من موضوع أختير للنقاش فى أحد الصالونات الكبرى : « أيهن تحسد أكثر من غيرها : أم المسيو دجيبير ، أم أخته ، أم خليلته ؟ »[117] وكان له بالطبع خليلة — هى جان دمونسوج ، آخر وأطول غرام له . وقد حكمت عليه جولى حكما قاسيا فى لحظة مرارة إذ قالت : —

« إن الاستخفاف ، بل القسوة ، التى يعامل بها النساء مصدرها قلة اعتباره لهن ... فهو يراهن معابثات ، مغرورات ، ضعيفات ، كاذبات ، طائشات ، واللاتى يحسن فيهن رأيه يراهن متعلقات بالخيال ، ومع أنه يضطر إلى الإقرار بوجود خصال حميدة فى بعضهن ، فهو لا يقدرهن لهذا السبب تقديرا أعلى ، بل يرى أن فيهن رذائل أقل ، لا فضائل أكثر . »[118]

على أنه كان وسيما ، وسلوكه كاملا ، وحديثه يجمع بين الغنى والشعور ، وبين العلم والوضوح ، قالت مدام دستال « كان حديثه أكثر ما عرفت تنوعا ، وحيوية ، وغنى . »[119]

ورأت جولى أنها محظوظة بإيثار جيبير لندواتها . وافتتن الواحد منهما بشهرة صاحبه . فنشأت بينهما علاقة أصبحت من جانبه غزوة عارضة ، ومن جانبها غراما قتالا . وهذا الغرام الفتاك هو الذى أحل رسائلها إلى جيبير مكانا مرموقا فى الأدب الفرنسى وبين أكثر وثائق العصر كشفا . ففيها أكثر حتى مما فى « جولى أو هلويز الجديدة »لروسو (١٧٦١) ، تلقى إرهاصات لحركة الرومانسية فى فرنسا تعبيرها الحى .

وفى أول رسالة باقية إلى جيبير (١٥ مايو ١٧٧٣) نراها واقعة فى حبائل غرامه ، ولكن كان يمزقها تأنيب الضمير لانتهاكها ميثاق الوفاء لمورا . فكتبت لجيبير وهو راحل إلى ستراسبورج تقول :

رباه ! بأى سحر ، وبأى قدر ، استطعت أن تفتننى ؟ لم لم أمت فى سبتمبر ؟ كان يمكن أن أموت آنئذ فأعفى .... من اللوم الذى ألوم به نفسى الآن .. إننى أشعر بهذا وآ أسفاه ، إننى ما زلت أستطيع الموت فى سبيله ، فما من مصلحة لى أضن ببذلها له ... أواه ، أنه سيصفح عنى ! لقد عانيت كثيراً جداً ! ولقد أضنى جسدى وروحى طول ما ألم بى من حزن . وطاش عقلى حين تلقيت خطابه . فى ذلك الحين رأيتك أول مرة ، فى ذلك الحين تسلمت نفسى ، فى ذلك الحين أدخلت عليها السرور ، ولست أدرى أيهما كان أحلى — أن أشعر بذلك السرور ، أو أن أدين به لك .[١٢٠]

وبعد ثمانية أيام سقطت كل أسباب دفاعها : « لو كنت صغيرة جميلة ، فاتنة جدا ، لما أعيانى أن أتبين الكثير من الافتعال فى مسلكك معى ، ولكن بما أننى لست من هذا كله فى شىء ، فأننى أجد فى مسلكك عطفا وشرفا أكسباك نصرا على روحى إلى الأبد .[١٢١]

وكانت أحيانا تكتب بكل التحرر الذى كتبت بها هلويز لأبيلار :

« أنت وحدك الذى يستطيع فى هذا الكون أن يمتلك كيانى ويتربع فيه .. وقلبى ، وروحى ، لا يمكن أن يملأهما سواك .... إن بابى لم يفتح اليوم مرة دون أن يخفق قلبى ، ومرت بى لحظات كنت أخشى فيها أن أسمع أسمك ، ثم كان يحطم قلبى ألا أسمعه . أن كثيرا من المتناقضات ، وكثيرا من الانفعالات المصطرعة ، صادقة ، وتفسرها كلمة واحدة : أحبك .[١٢٢]

وزاد الصراع بين الغرامين من الاضطراب العصبى الذى ربما كان مصدره تعطش آمالها إلى تحقيق المرأة لذاتها ، واستهدافها المتزايد للسل ، وكتبت إلى جيبير ٦ يوليو ١٧٧٣ تقول :

« إن روحك رغم اضطرابها ليست كروحى التى لا تفتأ مترددة بين

التشنج والاكتئاب . وأنا أتعاطى السم (الأفيون) لأهدىء نفسي . وأنت ترى أنى عاجزة عن أن اهدىء نفسي ؛ فأرشدنى ، وقونى ، وسأصدقك ، وستكون سندى . (١٢٣)

وعاد جيبير إلى باريس فى أكتوبر ، وقطع علاقاته مع مدام دمونسوج ، وباح بحبه لجولى . فقبلته شاكرة ، وأسلمت له جسدها — فى الحجرة المؤدية لمقصورتها فى الأوبرا (١٠ فبراير ١٧٧٤) (١٢٤) وقد زعمت فيما بعد أن هذه الفعلة التى اقترفتها وهى فى الثانية والأربعين ، كانت أول زلة لها من « الشرف » و « الفضيلة » (١٢٥) ولكنها لم تنح على نفسها باللوم :

« أتذكر الحال التى وضعتنى فيها ، والتى اعتقدت أنك تركتنى عليها ؟ حسنا أود أن أقول لك أننى بعد أن أفقت سريعا ، قمت ثانية (والكلمتان كتبتهما بحروف مائلة) ورأيت ذاتى غير هابطة عن مقامى قيد أنمله .... وربما تعجب لأن آخر الدوافع التى جذبتنى إليك هو الوحيد الذى لا يبكتنى عليه ضميرى ..... فبذلك الاستسلام ، بتلك المرتبة النهائية من نكران نفسى وكل مصلحة شخصية لى ، أثبت لك أنه ليس هناك غير خطب واحد فى الأرض لا طاقة لى باحتماله — وهو أن أغضبك وأفقدك . فلذلك الخوف يجعلنى أبذل لك حياتى . »(١٢٦)

ونعمت حيا بنشوات السعادة . وكتبت إليه (لأنهما أخفيا عن الناس علاقتهما وسكن الواحد بعيدا عن صاحبه) . لقد ظللت أفكر فيك طوال الوقت . وأنا مستغرقة فيك استغراقا يجعلنى أفهم شعور العابد نحو إلهه . »(١٢٧) أما جيبير فلم يكن بد من أن يمل غراما يسرف هذا الاسراف فى سكب نفسه دون أن يترك لقوته أى تحد . وسرعان ما راح يهتم بالكونتيسة دبوفليه ، ويستأنف غرامه بمدام دمونسرج (مايو ١٧٧٤) . وعاتبته جولى ، فرد فى فتور . ثم نمى إليها فى ٢ يونيو أن مورا مات فى طريقه إليها وهو يبارك اسمها . فتردت فى حمى من الندم والحسرة وحاولت أن تسمم نفسها ، ولكن جيبير منعها . وراحت خطاباتها إليه يدور أكثرها حول مورا ، ومبلغ سمو هذا النبيل الأسبانى عن أى رجل عرفته فى حياتها . وقلت رؤية جيبير لها وزادت لقاءاته بمونسوج . وعللت جولى نفسها بالبقاء على الأقل خليلة من خليلاته ، فكانت

ترتب له الزيجات ، ولكنه رفض عرائسها ، وفى أول يونيو ١٧٧٥ تزوج الآنسة دكورسيل ، وكانت فتاة غنية فى السابعة عشرة . وكتبت له جولى خطابات مفعمة بالحقد والاحتقار ، مختتمة بتوكيدات الحب الذى لا يموت(١٢٨).

وقد استطاعت طوال حمى غرامها كلها أن تخفى طبيعتها عن دالامبير ، الذى خيل إليه أن سببها هو غياب مورا ثم موته . فرحب بجيبير فى صالونها ، وكون صداقة مخلصة معه ، وكان يرسل بشخصه الرسائل المختومة التى تكتبها لعشيقها . ولكنه لحظ أنها فقدت اهتمامها به ، وأنها كانت أحيانا تستاء من وجوده . والواقع أنها كتبت لجيبير « لولا أنه يبدو عقوقا بالغا منى لقلت إن رحيل دالامبير يعطينى نوعا من السرور . إن حضوره يثقل روحى . وهو يجعلنى قلقة مضطربة النفس ، فأنا أشعر أننى غير مستحقة أبدا لصداقته وطيبة قلبه .. »(١٢٩) فلما ماتت كتب إلى « روحها » يقول :

« ليت شعرى لأى سبب لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أحزره ، تغير فجأة ذلك الشعور الذى كان من قبل غاية فى الرقة نحوى ... إلى شعور الغربة والنفور ؟ ما الذى صنعت مما يسىء إليك ؟ لم لم تشكى إلى إن كان لك مبرر للشكوى ؟ ... أم أنك أيتها العزيزة جولى ... قد أسأت إلى إساءة أجهلها ، وكان يحلو لى كثيرا أن اغتفرها لو علمت بها .... لقد كنت عشرين مرة على وشك أن ألقى بنفسى بين ذراعيك ، وأن أطلب إليك أن تخبرينى ما جريرتى ، ولكنى خشيت أن تصدنى هاتان الذراعان ...

« وظللت تسعة أشهر أترقب اللحظة التى أخبرك فيها بما عانيت وما أحسست . ولكنى وجدتك خلال تلك الشهور أضعف من أن تحتملى العتب الرقيق الذى كان على أن أكاشفك به ، واللحظة الوحيدة التى كان يمكننى فيها أن أكشف لك فى غير خفاء عن قلبى المحزون الواهن هى تلك اللحظة الرهيبة ، قبل موتك بساعات ، حين سألتنى الصفح عنك بطريقة مزقت نياط قلبى ... ولكن عندها لم يعد فيك قوة لا للتحدث ولا للاستماع إلى ... وهكذا فقدت إلى الأبد لحظة العمر التى كانت ستكون لى أغلى اللحظات — اللحظة التى أخبرك فيها ، مرة أخرى ، كم أنت عزيزة على ، وكم شاطرتك همك ، وما أعمق

رغبتى فى أن أنهى آلامى بك ، وددت لو بذلت كل ما بقى لى من لحظات عمرى لقاء تلك اللحظة الواحدة التى لن تتاح لى أبدا ، تلك التى ربما كنت أستعيد بها حنانك إذ أكاشفك بكل ما فى قلبى من حنان لك . »[١٣٠]

وساعد إنهيار حلم جولى السل على الفتاك بها ، ودعى لعيادتها الطبيب بوردو (الذى التقلينا به فى قصة ديدرو « حلم دالامبير ») ، فصرح بأنه لا أمل فى شفائها . ولم تبرح فراشها منذ أبريل ١٧٧٦ . وكان جبير يذهب لزيارتها كل صباح ومساء . ولم يكن دالامبير يترك العناية بها إلا لينام . وكان الصالون قد توقف ، لولا حضور كوندورسيه ، وسوار ، ومدام جوفران الطيبة ، التى كانت هى ذاتها مشرفة على الموت . وفى أيامها الأخيرة أبت جولى أن تسمح لجيبير بزيارتها ، لأنها لم تشأ أن تدعه يرى كيف شوهت التشنجات وجهها ؛ ولكنها كانت ترسل العديد من الخطابات ، وأكد لها هو أيضا حبه : « لقد أحببتك منذ اللحظة الأولى التى التقينا فيها ، أنك أغلى عندى من كل شىء فى هذه الدنيا . »[١٣١] فكان هذا ، ووفاء دالامبير الصامت ، وقلق أصدقائها عليها ، العزاء الوحيد لها فى آلامها . وكتبت وصيتها ، التى عينت دالامبير منفذا لها ، وعهدت إليه بكل أوراقها وأمتعتها الشخصية (*) .

وجاء أخوها المركيز دفيشى من برجندية ، وألح عليها فى أن تتصالح مع الكنيسة وكتب إلى الكونت دالبون « يسعدنى أن أقول لك إننى أقنعتها بأن تتناول القربان على الرغم من « الموسوعة » كلها ، وفى مواجهتها »[١٣٢] .

وأرسلت كلمة أخيرة إلى جيبير : « يا صديقى ، أننى أحبك ... وداعا » وشكرت دالامبير على وفائه الطويل ، وتوسلت إليه أن يغفر لها جحودها ، وماتت فى تلك الليلة ، فى الساعات الباكرة من يوم ٢٣ مايو ١٧٧٦ . ودفنت فى اليوم نفسه ، من كنيسة سان ــ سولبيس ، « دفن الفقراء » كما رغبت فى وصيتها .

(*) احتفظت زوجة جيبير بخطابات جولى إليه ، وقد نشرت فى ١٨١١ .

الفصل الخامس

فولتير الشيخ

١٧٥٨ .. ١٧٧٨

١ — الإقطاعى الطيب

فى أكتوبر ١٧٥٨ اشترى فولتير ضيعة قديمة فى فرنيه ، فى مقاطعة جكس ، الواقعة على حدود سويسرة . ولم يلبث أن أضاف إليها أقطاعة تورنيه التى اشتراها لمدى الحياة ، وبهذا أصبح الآن من الناحية القانونية سيداً إقطاعياً ، وراح يوقع باسم « الكونت دتورنيه » فى الشئون القانونية ، وأبرز شعار نبالته على مدخل بيته وعلى آنيته الفضية » [1]

كان قد سكن فيللا دليس بجنيف منذ ١٧٥٥ . ولعب دور المليونير الفليسوف المضياف فى لذة وفى استحسان من الناس ، ولكن المقال الوارد فى موسوعة دالامبير عن جنيف ، الذى أماط اللثام عن الهرطقات السرية التى يدين بها قساوستها ، عرض فولتير للاتهام بأنه وشى بهم لصديقه ، فلم يعد شخصا مرغوبا فيه على أرض سويسرة ، وراح يلتمس من حوله مسكنا آخر . وكانت فرنيه تقع فى فرنسا ، ولكنها لا تبعد عن جنيف أكثر من ثلاثة أميال ، هنالك يستطيع أن يخرج لسانه للقادة الكلفنيين ؛ ولو جدد القادة الكاثوليك فى باريس — على بعد ٢٥٠ ميلا — حملتهم لإعتقاله ، لاستطاع فى ظرف ساعة أن يعبر الحدود ، وخلال ذلك (١٧٥٨ - ١٧٧٠) كان صديقه الدوق دشوازيل يرأس الوزارة الفرنسية واشترى فرنيه باسم ابنة أخته مدام دنيس ، ربما اتقاء المصادرة إذا غيرت ريح السياسة اتجاهها ، لم يشترط عليها إلا أن تعترف به سيداً على الضيعة طوال حياته . وظلت فيللا دليس حتى عام ١٧٦٤

مسكنه الرئيسي ، وراح يعدل فى بيته بفرنيه على مهل ، وأخيراً انتقل إليه فى ذلك العام .

وكان البيت الفخم الجديد من الحجر ، ومن تصميم فولتير إلى حد كبير ، وبه أربع عشرة حجرة نوم . كتب يقول « إنه ليس قصرا ، ولكنه بيت ريفى فسيح ، تلحق به أرض تنتج الكثير من الدريس ، والقمح ، والتبن ، والشوفان. ولدى بلوطات فى استقامة أشجار الصنوبر تلمس رؤوسها السماء . »[٢] وأضافت تورنيه إلى أملاكه هذه قصرا ريفيا قديما ، ومزرعة ، ومخزنا للغلال ، ومرابط ، وحقولا ، وغابات ، وضمت مرابطه فى جملتها الخيول ، والثيران ، وخمسين بقرة ، ووسعت مخازنه كل حاصلات أرضه وبقى فيها مكان لمعاصر النبيذ ، وحيشان الدواجن ، وحظيرة للغنم ، وامتلأت المزرعة بطنين أربعمائة خلية نحل ، وجادت الأشجار بأخشاب تدفىء عظام السيد الإقطاعى من رياح الشتاء . واشترى وغرس الشجيرات ، وزرع شجيرات أكثر من نبتات صغيرة رباها فى مستنبتاته . ومد الحدائق والأفنية حول بيته حتى بلغ محيطها ثلاثة أميال ؛ وكانت تحوى أشجار الفاكهة ، والكروم ، وأنواعا كثيرة من الأزهار . هذه الأبنية ، والنباتات ، والحقول ، والنظار الثلاثون القائمون عليها — كل أولئك كان يشرف عليه بشخصه . هنا أيضا رضى رضى أنساه أن يموت ، شأنه حين دخلا فيللا دليس . فكتب إلى مدام دودفان يقول « أنى مدين بحياتى وصحتى للطريق الذى سلكته . ولو جرؤت لاعتقدت أننى حكيم ، لأننى سعيد جدا . »[٣]

وتسلطت مدام دنيس على الخدم والأضياف الثلاثين أو أكثر الذين عاشوا فى القصر الريفى بيد متفاوتة الإنصاف . وكانت طيبة القلب ، ولكنها حادة الطبع ، تحب المال أكثر قليلا من حبها لما عداه .... رمت خالها بالبخل ، ولكنه نفى التهمة ؛ على أى حال « نقل إليها شيئا فشيئا ، الجانب الأكبر من ثروته . »[٤] وكان قد أحبها طفلة ، ثم امرأة ، وطاب له الآن أن يتخذها قهرمانة له . وكانت تمثل فى المسرحيات التى يخرجها ، وأجادت التمثيل حتى كان يقارنها بكليرون . وأدار هذا المديح رأسها ، فعكفت على كتابة المسرحيات ولقى فولتير عنتا فى ثنيها عن عرضها على الناس . ثم أضجرتها حياة الريف

وهفت نفسها إلى باريس ؛ وكانت رغبة فولتير فى الترويح عنها بعض ما دفعه إلى دعوة هذه السلسلة الطويلة من الضيوف واحتمالها . ولم تكن تحب سكرتيره فاجنيير ، ولكنها أغرمت بالأب آدم ، اليسوعى الشيخ الذى رحب به فولتير فى بيته غريما لطيفا فى لعبة الشطرنج ، والذى فاجأه ذات يوم عند قدمى الخادمة بربارة .[٥] ومرة ، ربما بسبب سماح دنيس للاهارب بالرحيل مصطحبا إحدى مخطوطات السيد ، أغضبت فولتير غضبا حمله على ردها إلى باريس بعد أن رتب لها معاشا سنويا قدره عشرون ألف فرنك[٦]. ولكن بعد ثمانية عشر شهرا انهار ، فتوسل إليها أن تعود .

وغدت فرنيه كعبة يحج إليها من يستطيعون الرحلة ويستطيبون التنوير . فأمها صغار الحكام كدوق فورتمبرج وناخب بالاتين . والإقطاعيون كأمير لين ودوفى ريشليو وفيلار ، والأعيان كتشاولز جيمس فوكس ، وملتقطوا الأخبار كبيرنى وبوزويل ، والفاسقون مثل كازانوفا ؛ ومئات ممن هم أقل من هؤلاء شأنا . وكان يكذب كذبا مفضوحا إذا جاءه زوار لم يدعهم : « قولوا لهم إننى مريض جدا » « قولوا لهم أننى مت » ، ولكن أحداً لم يصدق . كتب إلى المركيز دفيليت يقول « اللهم نجنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا كفيل بهم . »[٧]

وما أن استقر به المقام فى فرنيه حتى ظهر بوزويل (٢٤ ديسمبر ١٧٦٤) وهو ما يزال متأثرا بزياراته لروسو . وبعث فولتير إليه بكلمة يقول إنه ما زال فى فراشه ولا يمكن إزعاجه . ولكن هذا لم يجد فى ثنى الاسكتلندى الملهوف ، فأصر على البقاء ولم يبرح مكانه حتى طلع عليه فولتير . وتحادثا مليا ، ثم خلا فولتير إلى مكتبه . وفى الغد كتب بوزويل إلى مدام دنيس من فندق فى جنيف يقول :

« يجب أن التمس منك ياسيدتى أن تعيرينى اهتمامك بأن تحصلى لى على صنيع كبير جداً من المسيو دفولتير . أريد أن أنال شرف العودة إلى فرنيه يوم الأربعاء أو الخميس . فأبواب هذه المدينة الوقور تغلق فى ساعة ... سخيفة جدا ، حتى ليضطر المرء إلى الرحيل بعد العشاء قبل أن يتاح لرب البيت الأشهر أن يطلع بمحياه على ضيوفه ...

فهل يسمح لى يا سيدتى بقضاء ليلة واحدة تحت سقف المنسيو دفولتير؟ إننى اسكتلندى صلب العود شديد البأس ، ولك أن تصعديني إلى أعلى وأبرد علية فى البيت ، بل أننى لن أرفض النوم على مقعدين فى حجرة نوم خادمتك »[٨]

وأمر فولتير أبنة أخته بأن يخبر الاسكتلندى أن يحضر ؛ وسيعد له فراش . فحضر فى ٢٧ ديسمبر ، وتحدث إلى فولتير بينما كان هذا يلعب الشطرنج ، وفتنه حديث السيد وشتائمه الإنجليزية ، ثم « أنزل مكانا أنيقا » فى « حجرة جميلة . »[٩] وفى الغد اضطلع بهداية فولتير إلى المسيحية القويمة ، وبعد قليل اضطر فولتير وقد أوشك على الاغماء أن يطلب هدنه . وبعد يوم ناقش بوزويل ديانه رب البيت مع الأب آدم ، الذى قال له « أننى أصلى من أجل المسيو دفولتير كل يوم .... من المؤسف أنه ليس مسيحيا . فإنه يملك الكثير من الفضائل المسيحية . له أجمل نفس ، وهو إنسان خير ، محسن ، ولكنه شديد التحامل على الدين المسيحى . »[١٠]

وكان فولتير يقدم لضيوفه الطعام ، والحكمة ، والنكتة ، والمسرحية ، ليرفه عنهم . وبنى قرب بيته مسرحا صغيرا وصفه جبون حين رآه عام ١٧٦٣ بأنه « أنيق جداً مصمم تصميما حسنا ، يقع إلى جوار كنيسته الصغيرة ، التى لا تدانيه إطلاقا . »[١١] وسخر الفيلسوف من روسو والقساوسة الجنيفيين الذى أدانوا المسرح باعتباره منبر الشيطان . ولم يكتف بتدريب مدام دنيس بل درب أيضاً خدمه وضيوفه على لعب الأدوار فى تمثيلياته وغيرها ، وكان هو نفسه يختال على خشبة المسرح فى الأدوار الرئيسية ، وأقنع الممثلون المحترفون بسهولة بأن يمثلوا لأشهر كاتب فى العالم .

ووجد الزوار فى مظهره فتنة تقرب من فتنة حديثه ؛ فقال أمير لين فى وصفه إنه مدثر بروب عليه رسوم أزهار ، على رأسه باروكة هائلة تعلوها قلنسوة من المخمل الأسود ، ويرتدى سترة من القطن الرفيع تصل إلى ركبتيه ، وبنطلونا قصيرا أحمر ، وجوارب رمادية ، وحذاء من القماش الأبيض .[١٢] وكانت عيناه « لامعتين تمتلئان نارا » كما يقول فاجنير ،

وقال هذا السكرتير المخلص إن مولاه « كثيرا ما كان يغسل عينيه بالماء النقى البارد » ، و « لا يستعمل النظارات إطلاقاً »[١٣] وفى أخريات حياته ، حين مل حلاقة لحيته ، كان ينزع شعرها بملقاط . ويواصل فاجنيير حديثه فيقول «كان شديد الولع بالنظافة والنظام ، وكان هو ذاته نظيفا إلى حد الوسوسة . »[١٤] وكثيرا ما كان يستعمل مساحيق التجميل ، والعطور ، والمراهم ، وكانت حاسة شمه المرهفة تتأذى من الروائح الكريهة .[١٥] وكان « نحيلا إلى حد يصدق » لا يحمل من لحم إلا ما يكسو عظامه بالجهد . وكتب الدكتور بيرنى بعد أن زاره عام ١٧٧٠ « ليس من اليسير تصور إمكان بقاء الحياة فى جسد يكاد يكون جلدا وعظاما .... وقد ظننى مشتاق لتكوين فكرة عن ... إنسان يمشى بعد موته . »[١٦] وقد قال يصف نفسه إنه « يثير السخرية لأنه لم يمت »[١٧] .

كان عليلا نصف عمره . وكان يشكو من بشرة شديدة الحساسية ؛ وكثيرا ما شكا من حكات متنوعة [١٨] ، ربما من أثر العصبية أو الإفراط فى النظافة . وكان أحيانا يعانى من تقطر البول — وهو التبول البطىء المؤلم ؛ فى هذه الناحية كان هو وروسو صنوين وإن اشتد تباينهما فيما عداها . وكان يشرب القهوة باسراف — خمسين مرة فى اليوم فى رواية فردريك الأكبر ؛[١٩] وثلاث مرات فى رواية فاجنيير[٢٠] . وهو يسخر من الأطباء ، ويلاحظ أن لويس الخامس عشر عمر بعد أن مات أربعون من أطبائه ، ويقول « من سمع بطبيب عمر للمائة ؟ »[٢١]

ولكنه هو نفسه كان يستعمل الكثير من العقاقير . وقد وافق مرشح موليير لنيل درجة الطب على أن خير دواء فى أى داء خطير هو « إعطاء عقار مسهل »[٢٣] . وكان يطهر أمعاءه ثلاث مرات فى الأسبوع بمحلول القرفة الصيفية ، أو بحقنة صابون . ومن رأيه أن خير الأدوية هو الدواء الواقى ، وخير واق هو تنظيف الأعضاء الداخلية والغطاء الخارجى .[٢٤] وكان يمارس عمله ، رغم شيخوخته ، وأوصابه ، وزواره ، بنشاط لا يؤتاه إلا رجل تخفف من عبء اللحم الفائض . وقد قدر فاجنيير أن مولاه لم يكن ينام « أكثر من خمس ساعات أو ست »[٢٥] فى اليوم . وكان يواصل العمل إلى

ساعة متأخرة من الليل ، وأحيانا يوقظ الأب دم من فراشه ليعينه على تصيد كلمة يونانية .[٢٦]

وكان يؤمن أن العمل دواء ناجح للفلسفة والانتحار . وأنجع منه العمل فى الخلاء ، فهو يزرع حديقته بشخصه ، وأحيانا يحرث أو يبذر البذر بيديه.[٢٧] وتبينت مدام دودفان فى رسائله اللذة التى استشعرها فى رؤية الكرنب الذى غرسه ينمو . وكان يرجو أن يذكره الخلف على الأقل لآلاف الأشجار التى غرسها . وقد أصلح الأراضى البور وجفف المستنقعات . وأنشأ إسطبلا لتربية الخيل وجلب إليه عشر مهرات ، ورحب بعرض المركيز دفوابيه أن يعطيه فحلا . وكتب يقول « إن حريمى جاهز لا ينقصه غير السلطان ... لقد كتب الكثير جدا فى السنوات الأخيرة عن السكان حتى إننى أود على الأقل أن أملأ أرض جكس بالخيل ، ما دامت قاصرا عن شرف إكثار نوعى الإنسانى »[٢٨] . وكتب إلى الفسيولوجى هاللر يقول « أن خير ما يسعدنا عمله على هذه الأرض هو أن نزرعها ، وكل ما عدا ذلك من تجارب فى الفيزياء بالقياس إليه عبث أطفال . أنعم وأكرم بزراع الأرض ، وتباً للإنسان الشقى الذى يكدرها — سواء حمل على رأسه تاجا ، أو خوذة ، أو قلنسوة كاهن ! »[٢٩] .

وحين أعوزته الأرض التى تكفى لتشغيل جميع السكان من حوله ، نظم فى فرنيه وتورنيه حوانيت لصنع الساعات ونسج الجوارب — التى ربت لها أشجار توته دودة القز . وكان يشغل كل طالب شغل ، حتى أصبح عدد من يعملون له ثمانمائة شخص . وشيد مائة بيت لعماله ، وأقرضهم المال بفائدة قدرها ٤٪ ، وساعدهم على إيجاد أسواق لسلعهم . وما لبث أصحاب التيجان أن أقبلوا على شراء ساعات فرنيه ، ولبست كرائم السيدات اللائى أغرتهن خطاباته جوارب زعم أنه نسج بعضها بيده . واشترت كاترين الثانية من ساعات فرنيه ما بلغت قيمته ٣٩,٠٠٠ جنيه ، وعرضت أن تساعده على إيجاد أسواق لها فى آسيا . وما مضت ثلاث سنوات حتى كانت الساعات الصغيرة والكبيرة والحلى والمجوهرات المصنوعة فى فرنيه تصدر فى شحنات منتظمة على السفن إلى هولندة ، وإيطاليا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، ومراكش ، والجزائر ،

وتركيا ، وروسيا ، والصين ، وأمريكا . وبفضل الصناعات الجديدة نمت فرنيه من قرية يسكنها أربعون فلاحا إلى مجتمع قوامه ألف ومائتا نفس خلال مقام فولتير بها . كتب إلى رشليو يقول « أعطنى فرصة مواتية وأنا كفيل ببناء مدينة . »[٣٠] وعاش الكاثوليك والبروتستنت في سلام على أرض هذا الزنديق .

أما علاقاته بـ « مواليه » فكانت علاقات « الإقطاعي الطيب » . وكان يعاملهم كلهم بأمانة ومجاملة . يقول الأمير دلين : « كان يكلم فلاحيه وكأنهم سفراء »[٣١] . وأعفاهم من ضرائب الملح والتبغ (١٧٧٥) .[٣٢] وكافح دون طائل ولكن بغير هوادة ليحرر جميع فلاحي إقليم جكس من رق الأرض . وحين هددت المجاعة الإقليم استورد القمح من صقلية وباعه بأقل كثيرا مما كلفه .[٣٣] وبينما كان يواصل حربه على « العار » — على الخرافة ، والظلامية ، والاضطهاد — أنفق الكثير من وقته في ممارسة الإدارة . واعتذر عن عدم مغادرة فرنيه ليزور أصدقائه بقوله « على أن أرشد وأعول ثمانمائة شخص ... ولا أستطيع الغياب دون أن أعرض كل شيء للانتكاس إلى حالة الفوضى » .[٣٤] وقد أدهش نجاحه إداريا كل من شهد نتائجه . قال ناقد من أقسى نقاده « أنه أبدى حكما واضحا على الأمور وإدراكا حسنا جدا . »[٣٥] وتعلم القوم الذين حكمهم أن يحبوه ، ومرة ألقوا أوراق الغار على مركبته أثناء مروره .[٣٦] وكان أشدهم تعلقا به الشباب والصغار لأنه فتح لهم قصره كل أحد للرقص والترفيه . »[٣٧] وكان يشجعهم على المضي في لهوهم ويغتبط لابتهاجهم. كتبت مدام دجاللاتان تقول « كان في غاية السعادة ولم يحس بأنه بلغ الثانية والثمانين »[٣٨]. لقد أحس بهذا ، ولكنه كان راضيا . وكتب يقول « إني أصبح شيخا »[٣٩] .

٢ — صولجان القلم

وواصل الكتابة خلال ذلك ، فدفع بما لا يصدق كما ، وكيفا ، وتنوعا ، من التواريخ ، والأبحاث ، والدراسات ، والقصص ، والقصائد ، والمقالات ، والنبذ ، والخطابات ، والمراجعات النقدية — دفع بهذا كله إلى جمهور دولي يتلهف على كل كلمة تصدر عنه . ففي سنة واحدة - سنة ١٧٦٨ — كتب

« الرجل صاحب الأربعين أيكو » و « أميرة بابل » (وهى من خيرة قصصه) ، و « رسالة إلى بوالو » ، و « إعلان لإيمان موحد بالله » و « بيروونية (لا أدرية) التاريخ » ونصين لأوبرا هزلية ، وتمثيلية . وكان ينظم كل يوم تقريبا « شعرا قصير الأجل » هو ضرب من الإجرام المسجوع ، قصير ، خفيف ، رشيق ؛ وهو فى هذا المضمار لا يشق له غبار فى الأدب بأسره ، حتى فى التفوق المركب لـ « المختارات اليونانية » .

وقد عالجنا كتاباته فى الدين والفلسفة فى غير هذا الموضع . فلنلق نظرة عاجلة على التمثيليات التى كتبها فى فرنيه . تانكريد ، ونانين ، والاسكتلندية ، وسقراط ، وشاول ، وإيرين ، وهى أقل ذريته خلودا وإن كانت حديث باريس فى حياته . وقد حظيت تانكريد التى مثلت على التياتر — فرانسيه فى ٣ سبتمبر ١٧٥٩ باستحسان الجميع حتى فريرون ، خصم فولتير اللدود . وقد بلغت الآنسة كليرون فى دور دبورة ، ولو كان فى دور تانكريد فى هذه المسرحية قمة فنهما . وكانت خشبة المسرح قد أجلى عنها المتفرجون وجملت بديكور فسيح رائع ، وكان الموضوع الفروسى الوسيط تحولا محببا عن المواضيع الكلاسيكية ، بل يمكن القول إن تلميذ بوالو كتب هنا تمثيلية رومانسية ، وأظهرت « نانين » أن فولتير تأثر برتشردسن ، شأنه شأن ديدرو ؛ وقد امتدحها روسو ذاته . أما « سقراط » فاحتوت — حكمة غالية « إنه انتصار للعقل أن يعيش فى سلام مع أولئك الذين لا عقل لهم . »[٤٠]

وقد درس فولتير كورني وراسين دراسة مستفيضة ، وهو الذى أشاد به جيله ضريبا لهما . تردد طويلا فى أى الاثنين يفضل ؛ وانتهى به التردد إلى إيثار راسين . وقد رفع الاثنين بجرأة فوق مقام سوفوكليس ويوربيديس ، ورفع موليير فى أفضل مسرحياته ، فوق تيرينس ببرودتة رغم نقائه ، وفوق المهرج أرستوفانيس .[٤١] وقد تأثر حين نمى إليه أن مارى كورنيى ، حفيدة أخى المسرحى ، تعيش فى ضنك قرب إفريه ، فعرض أن يتبناها ويتكفل بتعليمها ، وحين علم أنها فتاة متدينة أكد لها أنه سيتيح لها كل الفرص لممارسة عبادتها . فحضرت إليه فى ديسمبر ١٧٦٠ ، فتبناها ، وعلمها أن تكتب

الفرنسية الجيدة ، وأصلح من نطقها ، وصاحبها إلى القداس . ورغبة فى جمع مهر لها اقترح على الأكاديمية الفرنسية أن تنوط به نشر أعمال كورنيى والتعليق عليها ، فوافقت . وعكف لتوه على قراءة تمثيليات سلفه من جديد وتزويدها بالمقدمات والهوامش ، ثم أعلن عن المشروع ، وناشد الراغبين أن يكتتبوا له لأنه كان خبيرا بشئون المال والأعمال ، واكتتب كل من لويس الخامس عشر ، والقيصرة اليزافيتا ، وفردريك ملك بروسيا ، بمائتى نسخة ، وكل من مدام ديومبادور وشوازيل بخمسين ، ووصلته اكتتابات أخرى من تشسترفيلد وغيره من وجوه الأجانب . وكانت النتيجة أن تقدم الخطاب الكثيرون لمارى كورينى . وقد تزوجت مرتين ، وأصبحت فى ١٧٦٨ أم شارلوت كورداى .

وقد كان فولتير أعظم مؤرخى جيله كما كان أعظم شعرائه ومسرحييه . ففى ١٧٥٧ طلبت إليه الإمبراطورة اليزافيتا أن يكتب ترجمة لأبيها بطرس الأكبر . ودعت فولتير إلى سانت بطرسبورج ووعدته بأن تغدق عليه أسباب التكريم . فأجاب بأن شيخوخته تحول بينه وبين القيام برحلة كهذه ، ولكنه سيكتب التاريخ إذا وافاه وزيرها الكونت شوفالوف بالوثائق التى تبين سيرة بطرس والتغيرات التى أحدثتها إصلاحات هذا القيصر . وكان قد رأى فى شبابه بطرس فى باريس (١٧١٦) ؛ وكان يعتبره رجلا عظيما ، همجيا رغم عظمته وتحاشيا للخوض الخطر فى أخطائه ، قرر ألا يكتب ترجمة بل تاريخا لروسيا تحت حكمه الجدير بأن يذكر ، وهى مهمة أشق بكثير . وقام بأبحاث هامة فى الموضوع ، وعكف بهمة على هذا العمل من ١٧٥٧ إلى ١٧٦٣ ، ثم نشره فى ١٧٥٩ — ١٧٦٣ بعنوان « تاريخ الروسيا فى عهد بطرس الأكبر . » وكان مأثرة جليلة بالنسبة لزمانه ، وظل خير تناول للموضوع قبل القرن التاسع عشر ، ولكن ميشليه الأمين وجده باعثا على السأم ، وقد رأت القيصرة أجزاء منه ، فأرسلت إلى فولتير « ماسات كبيرة » على الحساب ، ولكنها سرقت فى الطريق ، وماتت القيصرة قبل أن يكتمل الكتاب .

وبينما كانت حرب السنين السبع مستعرة من حوله ، قام فى فترات متقطعة بتجديد كتابه « التاريخ العام » أو « مقال فى الأعراف » مضيفا إليه (١٧٥٥ —

١٧٦٣ (« خلاصة لعصر لويس الخامس عشر » وكانت عملية شائكة ، لأنه لم يزل من الناحية الرسمية مدانا من الحكومة الفرنسية ؛ وعلينا أن نغتفر له مروره الحذر بأخطاء الملك الحاكم ؛ ولكنه رغم ذلك كان قصة ممتازة فيها بساطة ووضوح ، وكاد وهو يروى قصة الأمير تشارلز إدورد ستيوات (بونى يرنس تشارلى) أن ينافس الشخصية التى رسمها للملك « شارل الثانى عشر » . ووفاء لمفهومه عن التاريخ ، الذى يراه أكمل ما يكون إذا سجل تقدم العقل البشرى ، أضاف مقالا ختاميا « فى تقدم العقل فى عصر لويس الخامس عشر » ولاحظ أشياء بدا له أنها علامات تشير إلى النمو :

« إن إلغاء السلطة الزمنية لرهبنة برمتها (اليسوعيين) وتأديب الرهبنات الأخرى التى أصلحتها هذه السلطة ، والفصل بين (اختصاص) القضاة والأساقفة — كل هذا يدل على مبلغ ما بدد من أهواء ، وعلى مدى اتساع المعرفة بشئون الحكم ، وعلى درجة استنارة أذهاننا . وقد ألقيت بذار هذه المعرفة فى القرن الماضى . وهى تنبت اليوم فى كل مكان فى القرن الحاضر ، حتى فى أقصى الأقاليم ... فقد أنار العلم البحث الفنون النافعة ، وبدأت هذه الفنون فعلا فى إبراء جراح الدولة التى ابتلتها بها حربان طاحنتان . « أن معرفة الطبيعة ، ونبذ الخرافات البالية التى قدسها الناس فى الماضى كأنها تاريخ ، والميتافيزيقا الصحيحة المبرأة من سخافات المذاهب — تلك هى ثمرات هذا العصر ، وقد تحسن العقل الإنسانى تحسنا كبيرا .

أما وقد أدى فولتير دينه للتاريخ ، فأنه عاد إلى الفلسفة وإلى حملته على الكنيسة الكاثوليكية . وأصدر فى تعاقب سريع الكتيبات التى فحصناها من قبل ، وكأنها ضرب من المدفعية الخفيفة فى الحرب على « العار » : « الفيلسوف الجاهل » ، و « إمتحان هام للورد بولنبروك » و « الساذج » و « قصة جينى » و « ألف باء العقل » ووسط هذه الأعمال الشاقة واصل أغرب تبادل للرسائل قام به فرد واحد .

فحين زاره كازانوفا عام ١٧٦٠ أراه فولتير مجموعة من نحو خمسين ألف خطاب تسلمها حتى ذلك العام ، وسيجتمع له منها بعد ذلك نحو هذا العدد ، ولما

كان مستلم الخطاب هو الذى يدفع أجرة البريد ، فإن فولتير كان ينفق أحيانا مائة جنيه على البريد الذى يتسلمه فى يوم واحد . وكان ألف معجب ، وألف عدو ، ومائة مؤلف شاب ، ومائة هاو للفلسفة ، يبعثون إليه بالهدايا وباقات الزهور ، والشتائم ، واللعنات ، والأسئلة ، والمخطوطات ، ولم يكن من غير المألوف أن يرجوه سائل متلهف أن ينبئه برجوع البريد هل وجد إله ، أو هل للإنسان نفس خالدة . وأخيرا نشر تحذيرا فى « المركيز دفرانس » جاء فيه :

« نظرا إلى أن أشخاصا عديدين شكوا من عدم تسلمهم ما يفيد وصول طرود أرسلوها إلى فرنيه ، أو تورنيه ، أو ليدليس ، لزم التنبيه إلى أنه بسبب ضخامة عدد تلك الطرود ، أصبح من الضرورى رفض تسلم كل ما لا يأتى من أشخاص تشرف المالك بمعرفتهم . »(٤٣)

وفى طبعة تيودور بسترمان الكاملة تملأ رسائل فولتير ثمانية وتسعين مجلداً . وفى رأى برونتيير أنها « أخلد قسم من إنتاجه كله »(٤٤) . والحق أننا لا نجد صفحة مملة فى هذا الحشد برمته ، لأننا فى هذه الرسائل ما زال فى إمكاننا أن نسمع ألمع محدث فى زمانه يتكلم بكل ألفة الصديق . وما من كاتب من قبل ولا من بعد حشد على قلمه المتدفق كل هذا التأدب ، والحيوية ، والسحر ، والرشاقة الكثيرة . إنها ليست وليمة للذكاء والبلاغة فحسب ، بل للصداقة الحارة ، والشعور الرقيق ، والفكر البتار ، ولو قورنت بها رسائل مدام دسفينيه على ما فيها من دواعى البهجة . لبدت ترفرفا خفيفاً عارضاً على سطح توافه عابرة . لقد كان فى زخارف أسلوب رسائله ولا ريب بعض التمسك بالعرف ، ولكن يبدو أنه يتعمده حين يكتب إلى دالامبير قائلا « أعانقك بكل قوتى ، ويؤسفنى أنه حتم أن يكون العناق على هذا البعد السحيق » ، وهو ما رد عليه دالامبير بقوله : « وداعا يا صديقى العزيز الشهير ، إنى أعانقك فى حنان ، وأنا أكثر منى فى أى وقت مضى ، ملكك بالروح » .(٤٥) ثم استمع إلى كلمات فولتير لمدام دودفان : « وداعا يا سيدتى .... إن أوثق الحقائق التى ألمسها هى أن لك نفسا توافقنى ، وسأكون شديد التعلق بها طوال الأجل القصير الذى افسح لى »(٤٦) .

وكانت رسائله لمعارفه فى باريس موضع تقديرهم ، تتداولها الأيدى تداول نفائس الأخبار ودرر الأسلوب . ذلك أن رسائل فولتير هى التى بلغ فيها أسلوبه أروع تألقه . فهذا الأسلوب لم يبلغ قصارى إبداعه فى تواريخه ، حيث يستحب السرد الناعم المتدفق أكثر من البلاغة أو النكتة ، وفى تمثيلياته شط إلى حد الخطابة الرنانة الطنانة ؛ أما فى رسائله فقد استطاع أن يدع سن قلمه الماسى يسطع بالإجرام أو ينير موضوعا بدقة وإيجاز لا مثيل لهما . وقد جمع بين علم بيل وأناقة فونتينيل ، واستعار مسحة تهكم وسخرية من رسائل بسكال الإقليمية ، وقد ناقض نفسه خلال سنى كتابته السبعين ، ولكنه لم يكن قط غامضا ؛ ونحن لا نكاد نصدق أنه كان فليسوفا ، فهو فى غاية الوضوح ، يقصد مباشرة إلى هدفه الأهم ، إلى النقطة الحيوية فى الفكرة . وهو يتوخى القصد فى النعوت والتشبيهات مخافة أن يعقد الفكرة ، وفى كل جملتين تقريبا ومضة من نور . وقد تتكاثر الومضات أحيانا ، وتتزاحم نفحات الذكاء ؛ فيتعب القارىء بين الحين والحين من هذا التألق ، وتضيع عليه بعض السهام المريشة من ذهن فولتير السريع الحركة . وقد أدرك أن فرط تألقه هذا خطأ ، كوضع الجواهر على العباءة . واعترف فى تواضع بأن « اللغة الفرنسية بلغت وج كمالها فى عصر لويس الرابع عشر . » (٤٧)

وكان بين مراسليه نصف وجوه ذلك العهد — لا كل جماعة الفلاسفة فحسب ، ولا جميع كبار مؤلفى فرنسا وانجلترة فحسب ، بل الكرادلة ، والبابوات ، والملوك ، والملكات ، واعتذر له كرستيان السابع عن عدم تنفيذ كل الاصلاحات الفولتيرية فى وقت واحد فى الدنمرك ؛ وأسف ستانسلاس يونياتوفسكى ملك بولندة على أنه سيق على عجل لاعتلاء العرش وهو فى طريقه إلى فرنيه ؛ وشكره جوستاف الثالث ملك السويد لأنه ألقى بين الحين والحين نظرة عجلى على الشمال البارد ، وتوسل « أن يطيل الله فى أيامك الغالية القيمة للإنسانية » (٤٨) . ومع أن فردريك الأكبر وبخه لأنه قسا على موبرتوى ، وأساء أدبه مع الملوك (٤٩) ، إلا أنه كتب بعد شهر يقول « الصحة والرفاهية لأشد من عاش أو سيعيش من العباقرة على هذه الأرض خبثا وإغراء » ؛ (٥٠) وفى ١٢ مايو ١٧٦٠ أضاف :

« أما أنا فسأذهب إلى هناك (الجحيم) وأخبر فرجل بأن فرنسيا بزه فى فنه . وسأقول مثل هذا لسوفوكليس ويوربيديس ، وسأحدث ثيوسيديديس عن تواريخك ، وكوينتوس كورتيويس عن كتابك « شارل الثانى عشر » ؛ وربما رجمنى هؤلاء الموتى الغيورون لأن رجلا واحدا جمع فى شخصه شتى فضائلهم . »(٥١)

وفى ١٩ سبتمبر ١٧٧٤ واصل فردريك مدائحه : « لن يكون هناك بديل لك بعد موتك ، وسيكون نهاية الآداب الجيدة فى فرنسا . »(٥٢) (وهذه غلطة بالطبع لأنه ليس للأدب الجيد نهاية فى فرنسا) . وأخيرا ، فى ٢٤ يوليو ١٧٧٥ ، أحنى فردريك صولجانه أمام قلم فولتير: « وأما أنا فيعزينى أننى عشت فى عصر فولتير ، وحسبى هذا . »(٥٣)

وكانت كاترين الكبرى تكتب إلى فولتير كما يكتب رأس متوج إلى آخر — لا بل كما يكتب التلميذ إلى معلمه . فلقد قرأته بشغف ولذة ستة عشر عاما قبل أن تشق طريقها إلى عرش روسيا ، ثم بدأ تراسلهما فى أكتوبر ١٧٦٣ بجوابها بضمير المتكلم على رسالة منظومة بعث بها إلى عضو فى هيئتها الدبلوماسية .(٥٤) ولقبها فولتير سميراميس الشمال ، وأغمض فى لباقة عن جرائمها ، وأصبح المدافع عنها أمام فرنسا . ورجته أن يعفيها من مدائحه ، ولكنه أفاض فيها . وكانت تقدر انحيازه لها ، لأنها علمت أن بفضله — ثم بفضل جريم وديدرو — نالت « مساندة طيبة من الكتاب » فى فرنسا . وأصبحت الفلسفة الفرنسية أداة للدبلوماسية الروسية . وأوصى فولتير كاترين باستعمال المركبات الحربية المدججة بالمناجل على الطريقة الأشورية فى حربها مع الترك ، واضطرت إلى أن تبين له أن الأتراك غير المتعاونين لن يهاجموا عدوهم بتشكيلات مكثفة تكثيفا يتيح حصدهم بشكل مريح .(٥٥) ونسى كراهيته للحرب وسط تحمسه لإمكان قيام جيوش كاترين بتحرير بلاد اليونان من سلطان العثمانيين ، وناشد « الفرنسيين ، والبريطانيين ، والإيطاليين » أن يناصروا هذه الحرب الصليبية الجديدة ، وحزن حين قصرت سميراميس عن تحقيق هدفه . ثم اضطلع بيرون بقضيته تلك .

وقد عنف الكثيرون من الفرنسيين فولتير على تملقه للملكية ، وشعروا أنه حط من قدره باللف حول العروش والتشدق بمديح أصحابها . ولا ريب فى أن هذا اللف كان أحيانا يدير رأسه . ولكنه هو أيضا كان يلعب لعبة دبلوماسية . فهو لم يدع قط العواطف الجمهورية ، وقد ذهب غير مرة إلى أن قدرا من التقدم يمكن تحقيقه بفضل الملوك « المستنيرين » أكثر مما يتحقق بسيطرة الجماهير المتقلبة ، الجاهلة ، التى تتسلط عليها الخرافة . ولم يخض الحرب ضد الدولة بل ضد الكنيسة الكاثوليكية ، وكان تأييد الحكام فى تلك المعركة عونا قيما . وقد رأينا قيمة ذلك التأييد فى حملاته الظافرة دفاعا عن أسرتى كالاس وسيرفنس . وكان أهم فى نظره أن يكون فردريك وكاترين فى صفه وهو يناضل فى سبيل التسامح الدينى . كذلك لم ييأس من كسب لويس الخامس عشر ، فقد كسب من قبل مدام دبومبادور وشوازيل ؛ ثم خطب ود مدام دى بارى . ولم يكن يتورع عن شىء فى استراتيجيته ، والواقع أنه قبل أن ينتهى العهد استطاع الظفر بتأييد نصف حكومة فرنسا ، وتكللت معركة التسامح الدينى .

٣ — فولتير السياسى

ما الذى أمل أن يحققه فى ميدان السياسة والاقتصاد ؟ لقد ثبت بصره على هدفين ، هدف أعلى وآخر أدنى : الأعلى تحرير الناس من الخرافات اللاهوتية وسلطان الكهنة — وهى مهمة عسيرة ولا ريب ، وفيما عدا ذلك طلب بعض الاصلاحات ، ولكنه لم يطمع فى المجتمع المثالى . وكان يبتسم سخرية من « أولئك المشرعين الذين يحكمون الكون .... ومن أبراجهم يصدرون الأوامر للملوك »[٥٦] . وكان معارضا للثورة شأن جماعة الفلاسفة كلهم تقريبا ، ولعله لو عمر حتى يشهدها لصدمته — وربما أعدمته بالجلوتين * . أضف إلى هذا أنه كان غنيا غنى فاحشا ، وما من شك فى أن ثراءه لون آراءه .

(*) انظر وصف روبسبيير الموسوعيين : « أما فيما يتصل بالسياسة ، فإن هذه الجماعة توقفت عند حقوق الشعب . . . . . وقد عارض زعماؤها الاستبداد أحيانا ، وكان يغذيهم الطغاة ، كانوا أحياناً يكتبون المقالات عن الملوك ، وأحياناً الإهداءات تكريما لهم ، وكانوا يدبجون الخطب للحاشية ، والقصائد الغنائية للمحظيات (٥٧) .

فنى ١٧٥٨ نوى أن يستثمر ٥٠٠,٠٠٠ فرنك (٦٢٥,٠٠٠ دولار ؟) فى اللورين .[٥٨] وقد كتب إلى فردريك فى ١٧ مارس ١٧٥٩ يقول « أننى أتلقى ستين ألف جنيه (٧٥,٠٠٠ دولار ؟) من دخلى (السنوى) من فرنسا ... وأننى أعترف بأننى غنى جدا . » وكان قد جمع ثروته بفضل « نصائح » من أصدقائه الماليين أمثال الأخوين بارى ، وبفضل فوزه بجوائز اليانصيب فى فرنسا واللورين ، وبفضل نصيبه فى تركة أبيه ، وبفضل شراء سندات الحكومة ، والمساهمة فى مشروعات تجارية ، وإقراض المال للأفراد . وكان يقنع بعائد قدره ٦٪ ، وهو عائد معتدل إذا أخذنا فى الاعتبار المخاطر والخسائر. وقد ضاع عليه ألف إيكو (٣,٧٥٠ دولارا ؟) فى تفليسة شركة جليار فى قادس (١٧٦٧)[٥٩] . وفى ١٧٦٨ علق جيبون فى معرض الإشارة إلى الثمانين ألف فرنك (١٠٠,٠٠٠ دولار ؟) التى أقرضها فولتير للدوق دريشليو : « لقد أفلس الدوق ، والضمان عديم القيمة ، واختفت النقود . »[٦٠] وعند موت فولتير كان قد تسدد ربع السلفة . وكان دخل فولتير من معاشاته أربعة آلاف فرنك فى العام . وفى عام ١٧٧٧ بلغت جملة دخله ٢٠٦,٠٠٠ فرنك (٢٥٧,٥٠٠ دولار ؟) [٦١] وقد جمل هذه الثروة بما يتناسب معها من سخاء ، ولكنه أحس أنه مطالب بالدفاع عنها دفاعا ليس بالضرورة مما لا يليق بفليسوف

« لقد رأيت الكثير جداً من الأدباء فقراء محتقرين ، بحيث قررت ألا أزيد عددهم . ولا مناص للمرء فى فرنسا من أن يكون إما سندانا أو مطرقة ؛ وقد ولدت سندانا . والميراث الهزيل يتناقص كل يوم ، لأن كل شىء فى المدى الطويل يزداد ثمنه ، وكثيرا ما تفرض الحكومة الضرائب على الدخل والنقود كليهما .... فعليك أن تكون مقتصدا إبان شبابك ، وستجد نفسك فى شيخوختك تملك رأس مال يدهشك ، وهذا هو الوقت الذى تشتد فيه حاجتنا للثروة . »[٦٢]

وكان قد اعترف فى فترة باكرة (عام ١٧٣٦) فى قصيدته « رجل الدنيا » « إننى أحب الترف ، بل الحياة الناعمة ، وجميع اللذات ، وجميع الفنون . » وذهب إلى أن طلب الأغنياء لأسباب الترف يداول مالهم بين الصناع المهرة

والفنانين ، وظن أنه لولا الثروة لما كان هناك فن عظيم .(٦٣) وحين نشر «ميثاق» ميزلييه الملحد – الشيوعي ، حذف القسم المعارض للملكية . وقد آمن أنه ما من نظام اقتصادي يستطيع النجاح بغير حافز التملك . «إن روح التملك تضاعف من قوة الإنسان»(٦٤) وكان يأمل أن يرى كل إنسان يملك ملكا ، وبينما كان روسو يبارك القنية في بولندة كتب فولتير يقول «إن بولندة يمكن أن يزداد سكانها وثروتها ثلاث مرات لو لم يكن فلاحوها أقنانا .»(٦٥) على أنه لم يحبذ أن يصبح الفلاحون أغنياء ، فمن أذن يرفر للدولة جندها الأقوياء ؟(٦٦) .

ولم يشاطر روسو تحمسه للمساواة ؛ فهو يعلم أن الناس كلهم يخلقون غير أحرار ولا متساوين . ورفض فكرة هلفتسيوس القائلة بأنه لو أتيح للناس كلهم التعلم والفرص المتكافئة ، لأصبح الجميع بعد قليل متساويين في التعليم والقدرات . » يا لها من حماقه أن نتصور أن في استطاعة كل إنسان أن يصبح نيوتنا ! » (٦٧) فسوف يكون هناك دائما الأقوياء والضعفاء ، والأذكياء والبسطاء ، وإذن الأغنياء والفقراء .

« يستحيل في دنيانا الكئيبة منع الناس الذين يعيشون في مجتمع من أن ينقسموا إلى طائفتين – الأغنياء الآمرين ، والفقراء الذين يأتمرون .... ولكل إنسان الحق في أن يكون له رأيه الخاص في مساواته مع غيره ، ولكن لا يستتبع هذا أن طباخ الكردينال ينبغي أن يأخذ على عاتقه أن يأمر سيده بتجهيز طعامه . على أن للطباخ أن يقول «أنني إنسان كسيدي سواء بسواء ، فقد ولدت مثله بالدموع ، وسأموت مثله في عذاب ... فكلانا يؤدي الوظائف الحيوانية نفسها . وإذا استولى العثمانيون على روما فأصبحت كردينالا وأصبح سيدي طباخا ، فأنني سأدخله في خدمتي «وهذه اللغة معقولة ومنصفة جدا ، ولكن ، إلى أن يستولي السلطان العثماني على روما لابد للطباخ من أن يؤدي واجبه وإلا انهار المجتمع الإنساني كله .»(٦٨)

ولما كان ابن موثق ، ولم يصبح سيدا إقطاعيا إلا مؤخرا ، فقد كان له

فى الارستقراطية آراء مختلطة ، وواضح أنه فضل نوعها الإنجليزى[٦٩]. وقد قبل النظام الملكى باعتباره الشكل الطبيعى للحكومة « لم يحكم الملوك الأرض كلها تقريبا ؟ ... الجواب الأمين هو : لأن الناس نادرا ما يكونون جديرين بحكم أنفسهم . »[٧٠] وقد سخر من حق الملوك الالهى وأرجعهم هم والدولة إلى الغزو « إن القبيلة تختار زعيما ليقود حملات السلب والنهب التى تشنها ؛ وهى تعود نفسها الطاعة ، وهو يعود نفسه إصدار الأوامر لها ، وفى اعتقادى أن هذا أصل الملكية . »[٧١] فهل هذا طبيعى ؟ أنظر إلى حوش المزرعة :

« إن حوش المزرعة يرينا أكمل تمثيل للملكية . فما من ملك يضارع الديك . ذلك أنه إن مشى شامخا ضاريا وسط قطيعه فما ذلك لغروره ، لأنه إذا زحف العدو فهو لا يكتفى باصدار الأمر لرعيته أن تخرج وتقتل فداءه .... إنما هو يذهب بشخصه ، وينظم جنده من خلفه ، ويقاتل إلى آخر نسمة . فاذا انتصر فهو الذى يترنم بمسبحة الشكر .... وإذا صح أن النحل تحكمها ملكة تخطب ودها جميع رعاياها ، فتلك حكومة أعظم كمالا حتى من حكومة الديك . »[٧٢]

واستطاع لعيشه فى برلين ثم فى جنيف أن يدرس الملكية و « اللاملكية » فى ممارستهما الحية . وكان كغيره من جماعة الفلاسفة متحيزا لأن ملوكا عدة (فردريك الثانى ، وبطرس الثالث ، وكاترين الثانية) وبعض الوزراء (شوازيل ، وأراندا ، وتانوتشى ، وبومبال) استمعوا إلى نداءات الإصلاح ، أو منحوا المعاشات للفلاسفة . وقد بدا فى عصر بلغ فيه الفلاح الروسى منتهى البدائية ، وغلبت الأمية على جماهير الشعب فى كل بلد ، وأعجزها الإرهاب عن التفكير ، إن من السخف اقتراح حكم الشعوب ، والواقع أن « الديمقراطيات فى سويسرة وهولندة كانت أوليجاركيات . والجماهير هى التى أحبت أساطير الدين ومراسمه القديمة ، ووقفت كأنها جيش عرمرم فى طريق الحرية والتطور الفكريين . وليس هناك سوى قوة واحدة لها من القدرة ما يمكنها من مقاومة الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، كما قاومت بنجاح الكنائس البروتستنتية فى انجلترة وهولندة وألمانيا وتلك هى الدولة . وبفضل الحكومات الملكية القائمة فى فرنسا وألمانيا وروسيا — بفضل هذه فقط يستطيع الفلاسفة أن يطمعوا فى

الفوز فى كفاحهم الخرافة ، والتعصب ، والاضطهاد ، واللاهوت الطفلى . فهم لا يستطيعون توقع التأييد من « البرلمانات » لأنها تنافس الكنيسة وتبز الملك فى الظلامية ، والرقابة ، وعدم التسامح . ولكن انظر ما فعله هنرى الملاح للبرتغال ، وما فعله هنرى الرابع لفرنسا ، أو بطرس الأكبر لروسيا أو فردريك الأكبر لبروسيا . « ما من عمل جليل تقريبا عمل فى العالم إلا بفضل عبقرية وحزم رجل فرد كافح أهواء الجماهير »(٧٣). ومن ثم كان جماعة الفلاسفة يتمنون تربع الملوك المستنيرين على العروش . كتب فولتير فى «ميروب» يقول « إن الفضيلة المتربعة على العرش هى أروع أعمال السماء »(٧٤)(*) وسياسة فولتير ينبعث بعضها من ظنه بأن من الناس عدداً كبيراً لا قدرة لهم على هضم التعليم حتى إن قدم لهم . وقد أشار إلى « الشطر المفكر من النوع الإنسانى — أى الجزء على مائة ألف منهم »(٧٦) ، وكان يخشى من عدم النضج العقلى وسرعة الانفعال العاطفى للناس عموما . « حين تشارك الجماهير فى التفكير يضيع كل شىء . »(٧٧) وهكذا ظل حتى سنى شيخوخته لا يتعاطف تعاطفا يذكر مع الديموقراطية . فلما سأله كازانوفا « أتود أن ترى الشعب سيد نفسه ؟ » أجابه « معاذ الله ! »(٧٨) وكتب إلى فردريك « حين رجوتك أن تكون الباعث لفنون اليونان الجميلة ، لم يبلغ رجائى الحد الذى أطلب إليك فيه إعادة الديمقراطية الأثينية . فأنا لا أحب حكم الرعاع . »(٧٩) وقد اتفق وروسو على أن « الديمقراطية لا تناسب غير البلاد الصغيرة » ، ولكنه أضاف قيودا أخرى » وغير تلك التى تنعم بموقع ملائم ... والتى يكفل لها موقعها الحرية ، والتى فى مصلحة جيرانها المحافظة عليها . »(وكان يعجب بالجمهوريتين الهولندية — والسويسرية ، ولكن خامرت إعجابه بعض الشكوك :

« إن تذكرتم أن الهولنديين أكلوا على السفود قلب الأخوين دى ويت ،

(*) علق ميشيلة بفقرة ظريفة على هذا الدفاع عن الملكية فقال « إن من أحلام جماعة الفلاسفة والاقتصاديين — رجال كفولتير وطورجو — أن يحدثوا الثورة — أن يحققوا سعادة النوع الإنسانى — على يد الملوك . وليس أغرب من رؤية هذا المعبود يتنازعه الفريقان ، تجذبه الفلاسفة يمنة ، والقساوسة يسرة . فمن سيظفر به ؟ النساء » (٧٥) .

وإن تذكرتم ... أن الجمهوري يوحنا كلفني .... بعد أن كتب أننا ينبغي ألا نضطهد إنسانا ولو أنكر الثالوث ، أمر بحرق أسباني خالفه في الرأى حول الثالوث فأحرقه حيا على حطب أخضر (بطيء الاحتراق) ، خلصتم حقاً إلى أنه ليس في الجمهوريات فضيلة أعظم مما في الملكيات . »(٨١)

على أنه بعد كل هذه التصريحات المعارضة للديمقراطية ، نجده يؤيد الطبقة الوسطى الجنيفية تأييدا نشيطا ضد الاشراف (١٧٦٣) ووطنيي جنيف المحرومين من الحقوق المدنية ضد الارستقراطية والبورجوازية (١٧٦٦) ، ولكن لنرجيء هذه القصة إلى موضعها المناسب .

والواقع أن فولتير أخذ يتحول إلى مزيد من الراديكالية فيما يبدو كلما تقدم به العمر . ففي ١٧٦٨ أصدر قصته « الرجل ذو الأربعين إيكو » فطبع الكتاب عشر طبعات في سنته الأولى ، ولكن برلمان باريس أحرقه وزج بالطابع في سفن تشغيل العبيد ، ولم يكن مرجع هذه الصراحة تلك السخرية التي سخت بها القصة على جماعة الفزيوقراطيين ، بل تصويرها الحي للفلاحين الذين أفقرتهم الضرائب ، والرهبان الذين يحيون حياة التبطل والترف على أملاك يفلحها عبيد الأرض . وفي كتيب آخر نشره عام ١٧٦٨ وسماه الألف باء (وقد حرص فولتير أشد الحرص على إنكاره) أجرى هذه العبارات على لسان « مسيو ب » .

في وسعي أن أتكيف بسهولة مع الحكومة الديمقراطية .... فكل الملاك على نفس الأرض لهم نفس الحق في حفظ النظام على تلك الأرض . إني أحب أن أرى رجالا أحرارا يضعون القوانين التي يعيشون في ظلها .... ويطيب لي أن يرفع بنائي ، ونجاري ، وحدادي ، أولئك الذين أعانوني على بناء مسكني ، وجاري المزارع ، وصديقي الصانع — أن يرفعوا أنفسهم فوق حرفهم ، ويعرفوا الصالح العام خيراً مما يعرفه الموظف التركي الشديد الوقاحة . فليس في الديموقراطية ما يدعو عاملا أو صانعا إلى الخوف من الإزعاج أو الإحتقار ... فأن يكون المرء حرا ، بين أنداد لا أكثر ، هو الحياة الطبيعية الصادقة للإنسان ،

وما عدا ذلك من أساليب الحياة فهو خدع حقيرة ، وهزليات رديئة يلعب فيها فرد دور السيد ، وآخر دور العبد ، فرد دور الطفيلى ، وآخر دور القواد.»(٨٢)

وفى عام ١٧٦٩ أو بعده بقليل (وكان فى الخامسة والسبعين) فى طبعة جديدة للقاموس الفلسفى ، ساق فولتير وصفا مرا لألوان الطغيان والفساد الحكومية فى فرنسا (٨٣) ، وامتدح انجلترة بالقياس إليها :

« لقد بلغ الدستور الإنجليزى فى الواقع نقطة التفوق التى فيها يرد جميع الناس إلى الحقوق الطبيعية التى حرموا منها فى جميع النظم الملكية تقريبا ، وهى : الحرية الكاملة للأشخاص والأملاك ؛ حرية النشر ؛ حرية المحاكمة فى جميع الجرائم على يد هيئة محلفين من أعضاء مستقلين ؛ حق المحاكمة طبقاً لنص القانون فقط ؛ وحق كل إنسان فى أن يجهر دون مضايقة بأى دين يختاره ويرفض المناصب التى لا يجوز تقليدها إلا لأتباع الكنيسة الرسمية . هذه ..... إمتيازات لا تقدر بقيمة ... أن تكون آمنا مطمئنا وأنت ماض إلى فراشك إلى أنك ستستيقظ وأنت تملك نفس الثروة التى كانت لك حين ذهبت لتنام ، وأنك لن تنتزع من أحضان زوجتك وأطفالك فى جوف الليل ليزج بك فى سجن مظلم أو لتدفن فى منفى فى الصحراء ... وأن يكون لك القدرة على نشر جميع أفكارك ... هذه الإمتيازات يتمتع بها كل من تطأ قدمه أرض انجلترة ... ولا مفر من أن يعتقد أن الدول التى لا تقوم على هذه المبادىء ستجتاحها الثورات (٨٤)

وتنبأ بالثورة فى فرنسا كما تنبأ بها الكثيرون . ففى ٢ أبريل ١٧٦٤ كتب إلى المركيز دشرفلان :

« إنى لأرى فى كل مكان بذور ثورة لا مناص منها ، ثورة لن تتاح لى لذة مشاهدتها . فالفرنسيون يصلون متأخرين فى كل شيء ، ولكنهم يصلون فى النهاية ما فى ذلك شك . وقد اتسع انتشار التنوير اتساعا سيعينه على التفجر فى أول فرصة ، وعندها ستحدث فرقعة عنيفة ... إن الشباب محظوظون ، لأنهم سيرون أشياء عظيمة . »

ومع ذلك حين تذكر أنه يعيش فى فرنسا بفضل تسامح ملك أساء إليه بإقامته فى بوتسدام ، وحين رأى بومبادور وشوازيل ومالزيرب وطورجو يوجهون الحكومة الفرنسية صوب التسامح الدينى والإصلاح السياسى — وربما لأنه تاق إلى الإذن له بالعودة إلى باريس — اتخذ على العموم نغمة أكثر وطنية ، واستنكر الثورة العنيفة :

« إذا اشتد شعور الفقراء بفقرهم أعقبت ذلك حروب كحروب حزب الشعب ضد مجلس الشيوخ فى روما ، وحروب الفلاحين فى ألمانيا ، وانجلترة ، وفرنسا . وقد انتهت هذه الحروب كلها ، إن عاجلا أو آجلا ، باخضاع الشعب ، لأن الكبار يملكون المال ، والمال فى الدولة هو صاحب الإمر والنهى فى كل شىء . »(٨٥)

إذن ، فبدلا من إنقلاب من أسفل ، حيث القدرة على التدمير لا تتبعها القدرة على التعمير ، وحيث تعود الكثرة الساذجة بعد قليل للخضوع مرة أخرى لقلة ماكرة ، آثر فولتير أن يعمل على قيام ثورة غير عنيفة عن طريق إنتقال التنوير من المفكرين إلى الحكام ، والوزراء ، والقضاة ، وإلى التجار ورجال الصناعة ، وإلى الصناع والفلاحين . « أن العقل يجب إقراره أولا فى أذهان القادة ، ثم ينزل شيئا فشيئا وفى النهاية يحكم أفراد الشعب ، الذين لا يعون وجوده ، ولكنهم حين يرون اعتدال رؤسائهم يتعلمون أن يقلدوهم . »(٨٦) ورأى أن التحرير الحقيقى الوحيد ، فى المدى الطويل ، هو التعلم ، وأن الحرية الحقيقية الوحيدة هى الذكاء. « كلما استنار الناس تحرروا .»(٨٧) وليس هناك ثورات حقيقية غير تلك التى تغير العقل والقلب ، ولا ثوار حقيقيون غير الحكيم والقديس .

٤ — المصلح

وبدلا من أن يدعو فولتير لثورة سياسية راديكالية ، جاهد فى سبيل إصلاح معتدل تدريجى فى إطار هيكل المجتمع الفرنسى القائم ، وفى نطاق هذه الدائرة المنكرة للذات حقق أكثر مما حققه أى رجل آخر فى جيله .

وكان أهم نداء له هو طلب تنقيح القانون الفرنسى تنقيحا شاملا ، ولم يكن قد روجع منذ ١٦٧٠ . وفى ١٧٦٥ قرأ بالإيطالية كتاب الجليل المسمى « رسالة فى الجنايات والعقوبات » — من تأليف الفقيه الميلانى بيكاريا ، الذى كان بدوره قد استلهم جماعة الفلاسفة . وفى ١٧٦٦ أصدر فولتير كتابه « تعليق على كتاب الجنايات والعقوبات » وفيه اعترف صراحة بفضل السبق لبيكاريا ، ثم واصل مهاجمة مظالم القانون الفرنسى ووفظاعاته إلى عام ١٧٧٧ حين نشر وهو فى الثانية والثمانين كتابه « ثمن العدالة والإنسانية . »

وقد طالب ، بادىء ذى بدء ، بإخضاع القانون الكنسى للقانون المدنى ، وبكبح سلطان الكهنوت فى اشتراط العقوبات التكفيرية المذلة أو فرض التبطل على الناس فى عطلات دينية كثيرة ؛ وطلب تخفيف العقوبات على إنتهاك المقدسات ، وإلغاء القانون الذى يهين جسد المنتحر ويصادر ثروته . وأصر على التفرقة بين الخطيئة والجريمة ، والقضاء على الفكرة التى تقول إن عقاب الجريمة ينبغى أن يدعى أنه يثأر لإله مهان .

« يجب ألا يكون لأى قانون كنسى قوة إلى أن يحصل على موافقة الحكومة الصريحة عليه ... وكل ما يتصل بالزواج لا يفصل فيه غير القضاة ، وينبغى أن يقصر القساوسة على وظيفته مباركة الزواج الجليلة ... وإقراض المال بالفائدة من إختصاصات القانون المدنى وحده ... ويجب أن يكون جميع الكهنة ، فى جميع الحالات أيآ كانت ، خاضعين لرقابة الحكومة المطلقة لأنهم رعايا للدولة ... ويجب ألا يكون لأى قسيس سلطة حرمان مواطن ولو من أبسط الحقوق بحجة أنه خاطىء ... ويجب أن يسهم القضاة ، والزراع ، والكهنة على السواء فى نفقات الدولة . »[٨٨]

وقد شبه قانون فرنسا بمدينة باريس — فهو حصيلة بناء تدريجى ، ونتاج المصادفات والظروف ، وخليط من المتناقضات ؛ وقال إن المسافر فى فرنسا يغير قوانينه مرارا كما يغير خيول مركبته ،[٨٩] فالواجب توحيد قوانين جميع الأقاليم والتنسيق العام فيما بينها . وينبغى أن يكون كل قانون واضحا ،

دقيقاً ، ومحصنا على قدر الإمكان من التلاعب بحرفيته . ويجب أن يكون جميع المواطنين سواء أمام القانون ، وإلغاء عقوبة الإعدام لأنها عقوبة همجية مبددة . فلا شك أن من الهمجية عقاب التزوير ، أو السرقة ، أو التهريب ، أو الحرق المتعمد بالموت . وإذا كانت السرقة تعاقب بالإعدام ، فلن يكون هناك ما يمنع اللص من القتل ، ومن ثم فإن كثيرا من جرائم قطع الطريق فى إيطاليا مصحوبة بالاغتيال . « إذا علقتم على مشنقة الدولة (كما حدث فى برلين عام ١٧٧٢) الخادمة التى سرقت دستة فوط من سيدتها ... فإنها لن تستطيع إضافة دستة من الأطفال إلى مواطنيكم ... وشتان بين دستة فوط وبين حياة إنسان . »[٩٠] ومصادرة ثروة إنسان محكوم عليه بالإعدام سرقة صريحة تقترفها الدولة ضد الأبرياء . وإذا كان فولتير يجادل أحيانا من وجهة نظر نفعية فقط فما ذلك إلا لأنه عرف أن حججه هذه سترجح أى نداء إنسانى فى نظر معظم المشرعين .

على أنه حين تناول موضوع التعذيب القضائى أفصحت روحه الإنسانية عن نفسها فى قوة وتأكيد . ذلك أن القانون الفرنسى أباح للقضاة أن يستخدموا التعذيب وسيلة لاستلال الاعترافات قبل المحاكمة إذا كانت هناك من المؤشرات المريبة ما يلمع إلى أن المتهم مذنب . وقد حاول فولتير أن يخزى فرنسا بإشارته إلى مرسوم كاترين الثانية الذى ألغى التعذيب فى روسيا التى زعم الفرنسيون أنها قطر همجى . « أن الفرنسيين ، الذين يعتبرون — ولا أدرى لماذا — شعبا عظيم الإنسانية ، يدهشهم أن الانجليز الذين دفعهم تجردهم من الإنسانية إلى انتزاع كندا كلها من أيدينا ، قد أقلعوا عن لذة استخدام التعذيب . »[٩١]

واتهم بعض القضاة بأنهم « فتوات » يتصرفون كأنهم مدعون لا قضاه ، مفترضين بشكل واضح أن المتهم مذنب حتى تثبت براءته . وأحتج على حبس المتهم فى سجون قذرة ، وأحيانا فى أغلال عدة شهور قبل تقديمه للمحاكمة . ولاحظ أن المتهم بجريمة كبرى يمنع من الاتصال بأى إنسان حتى بمحام . وروى مرارا وتكرارا معاملة آل كالاس وسيرفنس مثالا على التعجل فى

لإدانة الأبرياء . وقال إن شهادة شخصين فقط ، حتى إذا كانا شاهدى عيان ، ينبغى ألا تعتبر بعد اليوم كافية لإدانة رجل بالقتل ، وساق أمثلة على شهادة الزور ، وألح فى إلغاء عقوبة الإعدام ولو للحيلولة دون إعدام برىء واحد فى كل ألف متهم . وكان فى الإمكان إصدار أحكام الإعدام فى فرنسا بأغلبية اثنين من القضاة ، وقد حكم على كالاس بالموت بأغلبية ثمانية ضد خمسة . وطالب فولتير بأن يشترط لإصدار حكم الإعدام توافر أغلبية ساحقة ، ويفضل أن تكون إجماعا . « يالها من فظاعة سخيفة أن يعبث بحياة مواطن وموته فى لعبة ستة إلى أربعة ، أو خمسة إلى ثلاثة ، أو أربعة إلى اثنين ، أو ثلاثة إلى واحد . »(٩٢)

وكانت الاصلاحات التى اقترحها فولتير على الجملة توفيقا بين ميراثه الثقافى الوسيط وكراهيته للكنيسة ، وخبرته واستثماراته بوصفه رجل أعمال ومالك أرض ، ومشاعره الصادقة شخصا بارا بالإنسانية ، وكانت مطالبه معتدلة ، ولكنها كانت فى كثير من الحالات ذات أثر فعال . شن حملة لتحقيق حرية النشر ، فوسعت هذه الحرية توسيعا هائلا — ولو بفضل إغضاء الحكومة فقط — قبل أن يموت . وطلب إنهاء الاضطهاد الدينى ، فأنهى فى فرنسا من الناحية العملية فى ١٧٨٧ . واقترح الإذن للبروتستنت ببناء الكنائس ونقل الملكية أو وراثتها ، والتمتع بكامل حماية القوانين ؛ فتم هذا قبل إندلاع الثورة . وطلب إباحة الزواج قانونا بين أشخاص من ديانات مختلفة ، فأبيح . وندد ببيع المناصب ، وفرض الضرائب على الضروريات ، والقيود على التجارة الداخلية ، وبقاء القنية والوقف ؛ وأشار على الدولة بأن تسترد من الكنيسة تنفيذ الوصايا وتعليم الصغار ؛ وفى هذه الأمور جميعها كان لصوته تأثير على الأحداث . وقاد الحملة لإجلاء المتفرجين عن خشبة مسرح التياتر — فرانسيه ، فتم هذا فى ١٧٥٩ . وأوصى بفرض الضرائب على جميع الطبقات ، وبنسبة ثروتهم ، وكان على هذه التوصية أن تنتظر حتى تنشب الثورة . وطلب تنقيح القانون الفرنسى ، فتم هذا فى مجموعة قوانين نابليون (١٨٠٧) ؛ وهكذا يسر الفقهاء والفلاسفة لرجل الحرب والسياسة ، الذى قرر الهيكل التشريعى لفرنسا حتى يومنا هذا ، أن يحقق أعظم مآثره بقاء على الزمن .

٥ — فولتير الصميم

كيف نجمل القول فى شخصية هذا الرجل المذهل جدا من رجال القرن الثامن عشر ؟ لم يعد بنا حاجة للحديث عن عقله — فقد أفصح عن نفسه فى مائة صفحة من هذه المجلدات . ولم يباره أحد فى سرعة الخاطر ووضوح الفكر ، ولا فى حدة النكتة ووفرتها ، وقد عرف النكتة الذكية بعناية بالغة فقال .

« إن ما يسمى النكتة الذكية هو أحيانا مقارنة مجللة ، وأحيانا كناية رقيقة ، أو قد يكون لعبا بالألفاظ — فأنت تستعمل لفظا بمعنى ، علما أن محدثك سيأخذه (لأول وهلة) بمعنى آخر . أو هو طريقة ماكرة للمقارنة بين أفكار لا يقرن الناس بينها عادة ... إنه فن إيجاد صلة بين نقيضين ، أو خلاف بين شبيهين ؛ إنه فن قول نصف ما تعنى وترك الباقى للخيال . ولو أوتيت المزيد منه شخصيا لزدت القول فيه كثيرا . »(٩٣)

ولم يؤت إنسان آخر مزيدا من هذه النكتة الذكية ، ولعل حظه هو منها كان كما قلنا مفرطا . فقد كان زمام حبه للدعابة يفلت منه أحيانا ، وكثيرا ما غلظت دعابته وأشرفت على التهريج أحيانا .

ولم تترك له سرعة إدراكاته ، وربطاته ، ومقارناته ، وقفة تتيح له الاتساق والتماسك ، ولم يسمح له تعاقب أفكاره السريع دائما وهو يتناول موضوعا بالتغلغل فيه إلى أعماقه المتاحة للبشر . ولعله تسرع فى الحكم على الجماهير بأنهم رعاع ؛ وليس فى وسعنا أن نتوقع منه التنبؤ بزمن سيكون فيه التعليم للجميع ضروريا لاقتصاد تقدمى من الناحية التكنولوجية . ولم يطيق صبرا على نظريات بوفون الجيولوجية ، أو فروض ديدرو البيولوجية . وقد اعترف بقصوره ، ولم يخل من لحظات تواضع . قال لصديق مرة « إنك تظننى أعبر عن نفسى بوضوح كاف . ولكننى أشبه بالجداول الصغيرة — فهى صافية شفافة لأنها ليست عميقة . »(٩٤) وكتب إلى داكان فى ١٧٦٦ :

« منذ كنت فى الثانية عشرة اعتدت أن أتكهن بعدد هائل من الأشياء التى لم أوت الموهبة لفهمها . فأنا عليم بأن أعضائى لم تهيأ لتعمق الرياضة . وقد أثبت أننى لا أميل إلى الموسيقى . اعتمد على تقدير فيلسوف عجوز فيه من الحماقة .... ما يحمله على الاعتقاد بأنه مزارع قدير جدا ، ولكن ليس فيه من الحماقة ما يحمله على الاعتقاد بأنه وهب جميع المواهب . »(٩٥)

وليس من الإنصاف أن نطلب من رجل كثرت الموضوعات التى عالجها هذه الكثرة أن يكون قد أستوعب كل المعلومات المتاحة عن كل موضوع قبل أن يجرى عليه قلمه . فلم يكن كله عالما ؛ لقد كان مقاتلا ، أديبا جعل الأدب ضربا من العمل ، وسلاحا للتغيير . ومع ذلك تستطيع أن ترى من مكتبته التى حوت ٢,٢١٠ مجلدا ، وما تركه على الكتب من هوامش ، أنه درس فى شغف وعناية موضوعات فيها تنوع مذهل ، وأنه كان رجلا واسع العلم جدا بالسياسة ، والتاريخ ، والفلسفة ، واللاهوت ، ونقد الكتاب المقدس ، وكانت رقعة حبه للاستطلاع واهتماماته شاسعة ؛ وكذلك كان غنى أفكاره وقدرة ذاكرته على التذكر . ولم يأخذ أى تقليد موروث على أنه قضية مسلمة ، بل فحص كل شىء بنفسه . وكان فيه نزوع إلى التشكك لا يتردد فى أن يعارض بالفطرة السليمة سخافات العلم وأساطير إيمان العوام سواء بسواء . وقد وصفه عالم نزيه بأنه « مفكر جمع من المعلومات الدقيقة عن العالم فى جميع نواحيه أكثر مما جمعه أى إنسان منذ أرسطو . »(٩٦) ولم يوفق عقل واحد فى أى بلد آخر فى أن ينقل إلى دنيا الأدب ودنيا العمل هذا الحشد الهائل من المواد من مثل هذه الميادين المنوعة .

ولابد لنا من أن نصوره أعجب مزيج من عدم الاستقرار العاطفى ، والرؤية والقدرة العقليتين . فقد جعلته أعصابه دائما متوترا قلقا ، فما كان فى استطاعته الجلوس ساكنا إلا إذا استغرقته الكتابة الأدبية . وحين سألت السيدة ذات الردف الواحد « أيهما أسوأ للمرأة — أن يهتك عرضها قرصان من الزنوج مائة مرة ، أو أن يجرح ردفها جرحا بليغا ... أو أن تقطع أربا ، أو أن تجذف فى سفن تشغيل العبيد ، .... أو أن تقعد ولا تعمل شيئاً ؟ » أجابتها كانديد

وهي تنعم الفكر « ذلك سؤال كبير . »[٩٧] لقد كان لفولتير أيام حفلت بالسعادة ، ولكنه قل أن عرف سلام العقل أو الجسد . كان عليه أن يكون مشغولا ، نشيطا ، يبيع ويشترى ، ويزرع ، ويكتب ، ويمثل ، ويتلو ، وكان يخشى الملل أكثر مما يخشى الموت ، وفى لحظة سأم ذم الحياة لأنها « إما ضجر أو قشدة مخفوقة . »[٩٨]

ولعلنا نرسم صورة قبيحة لفولتير أن وصفنا طلعته دون أن نلحظ عينيه ، أو عددنا أخطاءه وحماقاته دون فضائله وظرفه . لقد كان « البورجوازى منتحل النبالة » الذى شعر بأن له من الحق فى لقب الشرف ما لمدينيه المماطلين . ولقد بارى أعظم السادة الإقطاعيين كياسة فى السلوك والحديث ، ولكنه كان قادرا على المساومة فى المبالغ التافهة ، وانهال على المشرف على الآجام بأقزع الشتائم بسبب أربعة عشر قدما مكعبا من الخشب — أصر على قبولها هدية دون ثمن . وأحب المال أساسا لأمنه . وقد اتهمته مدام دنيس بالبخل بعبارات فيها غلو شديد : « إن محبة المال تعذبك ... وأنت فى صميمك أحط الرجال . وسأخفى ما استطعت رذائل قلبك » . [٩٩] ولكنها حين كتبت هذا (١٧٥٤) كانت تعيش عيشة التبذير فى باريس على مال كان عبئا باهظا على جيبه ، وفى باقى السنين التى قضتها معه كانت تحيا حياة الأبهة والفخفخة بفرنيه .

وقبل أن يصبح مليونيرا وبعده كان يسعى لمصادقة الأقوياء إجتماعيا أو سياسيا بتعلق يقرب أحيانا من التذلل . وفى « رسالة إلى الكردينال دموا » وصف معدن الرذائل ذاك بأنه أعظم من الكردينال ريشليو[١٠٠] . وحين كان يسعى لقبوله فى الأكاديمية الفرنسية واحتاج إلى تأييد رجال الدين أكد للأب دلاتو الكبير النفوذ أنه يود أن يعيش ويموت فى كنف الكنيسة الكاثوليكية المقدسة .[١٠١] وأكاذيبه المطبوعة تؤلف كتابا لو جمعت ، والكثير منها لم يطبع ، وبعضها كان غير قابل للنشر ، وقد ذهب إلى أن هذا الإجراء مبرر فى الحرب ، وأحس أن حرب السنين السبع لم تكن غير لهو الملوك إذا قيست بحرب الثلاثين عاما التى خاضها ضد الكنيسة ، والحكومة التى تستطيع أن تزج برجل فى السجن لقوله الصدق ليس فى وسعها أن تشكو بحق إذا كذب .

وفى ١٩ سبتمبر ١٧٦٤ عندما حمى وطيس معركته ، كتب إلى دالامبير يقول « حالما يبدو أدنى خطر تفضل بإبلاغى لكى أنكر كتاباتى فى الصحف العامة بما عهد فى من صراحة وبراءة . » وقد أنكر كل أعماله تقريبا باستثناء ملحمة « الهنريادة » وقصيدته فى معركة فونتنوا . » على المرء أن يظهر الحق للأجيال القادمة بجرأة ، ولمعاصريه بحذر . ومن العسير جـدا التوفيق بين الواجبين . »[١٠٢]

وما من شك فى أنه كان مغرورا : فالغرور مهماز التقدم ، وسر الكتابة والتأليف . وكان فولتير يتحكم فى غروره عادة ، فكثير ما نقح كتاباته استجابة لما يوجه إليه من مقترحات ونقد بروح طيبة . وكان سخيا فى ثنائه على المؤلفين الذين لا ينافسونه — كما رمونتيل ، ولا هارب ، وبومارشيه ، ولكنه قد يغدو غيورا غيرة صبيانية من مزاحميه ، كما نرى فى . « مديح كريبيون » (الأب) المفعم بالنقد الخبيث ؛ ويرى ديدرو أنه « يحمل ضغينة لكل قاعدة تمثال »[١٠٣] وقد دفعته غيرته إلى شتم روسو شتما مقذعا ، فوصفه بأنه « صبى الساعاتى » و « يهوذا خائن الفلسفة » و « كلب مسعور يعقر كل إنسان » و « مجنون وليد زواج صدفة بين كلبى ديوجين وايراسستراتوس . »[١٠٤] وذهب إلى أن النصف الأول من « جولى أو هلويز الجديدة » قد ألف فى ماخور ، والآخر فى مستشفى للمجاذيب ، وتنبأ بأن « إميل » سينسى بعد شهر .[١٠٥] وأحس أن روسو ولى ظهره لتلك الحضارة الفرنسية التى كانت رغم كل ذنوبها وجرائمها فى نظر فولتير خمر التاريخ ذاته .

وإذا كان فولتير مجرد أعصاب وعظام دون لحم يذكر ، كان أرهف حسا حتى من روسو . ولما كان حتما أن نحس بالآمنا حساسا أحد من إحساسنا بلذاتنا ، فإنه كان يأخذ المديح والاطراء قضية مسلمة ؛ ولكنه « يصاب باليأس » إذا وجه إليه نقد معاد .[١٠٦] وقلما أوتى من الحكمة والتعقل ما يضبط قلمه ؛ فكان يرد على كل معارض مهما صغر شأنه . وقد وصف هيوم بأنه إنسان « لا يغفر أبدا (؟) ، ولا يرى عدوا لا يستحق إهتمامه . »[١٠٧] وقد حارب خصومه الالداء كديفونتين وفريرون حربا لا هوادة فيها ؛ ولجأ إلى كل أسلوب فى الهجاء ، والسخرية ، والشتم ، وحتى لوى الحق بمكر .[١٠٨]

وكان غله يصدم أصدقاءه القدامى ويخلق له أعداء جددا . قال « إنى أعرف كيف أكره لأننى أعرف كيف أحب . »(١٠٩) « إننى بحكم طالعى أميل قليلا إلى الأذى »(١١٠) ؛ وهكذا حرك كل كتائبه بنجاح ليهزم ترشيح دى روس للأكاديمية (١٧٧٠) . وقد لخص الأمر بمزيج من خلق دارتنيان ورابليه :

« أما عن شخصى الضعيف ، فإنى أخوض الحرب حتى آخر لحظة — ضد الجانسنيين ، والمولنيين ، والفريرونيين ، والبومبنيانيين ، اليمينيين واليساريين ، والوعاظ ، وجان — جاك روسو . أتلقى مائة طعنة وأردها مائتين ، وأضحك .. حمداً لله ! إننى أنظر إلى العالم كله كأنه مهزلة (فارص) تستحيل مأساة أحيانا ، يستوى كل شىء آخر النهار ، وسيظل كل شىء سواء فى نهاية الأيام . »(١١١)

وفى عدائه للسامية حول على شعب بأسره ذلك الغيظ الذى ولدته خصوماته مع بعض أفراده . ومن زاوية تلك الذكريات فسر فولتير تاريخ اليهود ، فسجل عليهم أخطاءهم بتدقيق وتفصيل ، وندر أن برأهم لعدم كفاية الأدلة على إدانتهم . ولم يستطيع أن يغتفر لليهود إنجابهم المسيحية . « حين أرى المسيحيين يلعنون اليهود يخيل إلى أننى أرى أبناء يضربون أباءهم . »(١١٢) ولم يكد يتبين فى العهد القديم شيئا سوى سجل للقتل ، والفسق ، والاغتيال بالجملة ، ورأى فى سفر الأمثال « مجموعة من الحكم التافهة ، القذرة ، المهلهلة ، المجردة من الذوق ، أو الاختيار ، أو الهدف » ، أما نشيد الإنشاد فهو فى نظره « قصيدة حماسية سخيفة » .(١١٣) على أنه أثنى على اليهود لإنكارهم القديم للخلود ، ولامتناعهم عن التبشير بعقائدهم ، ولتسامحهم النسبى ؛ فالصدوقيون أنكروا وجود الملائكة ، ولكنهم لم يعانوا من أى اضطهاد بسبب هرطقتهم .

أكانت فضائله ترجح رذائله ؛ أجل ، حتى ولو لم نضع فى الميزان صفاته العقلية مع صفاته الخلقية . فأمام شحه يجب أن نضع سخاءه ، وأمام محبته للمال تقبله البشوش للخسائر واستعداده لاقتسام مكاسبه مع غيره . استمع إلى كولليني ، الذى لابد قد عرف عيوبه لأنه عمل سكرتيراً له سنين كثيرة :

«ما من دعوى أكذب من تهمة البخل التى يرمى بها ... فلم يكن للبخل مكان فى بيته . وما عرفت رجلا يستطيع خدمه أن يسرقوه بسهولة أكثر . لقد كان ضنينا بوقته فقط ... وكان له فى أمر المال المبادىء التى يهتدى بها فى أمر الوقت ؛ فمن الضرورى فى رأيه أن تقتصد لكى تسخو فيه .»[١١٤]

وتكشف رسائله عن بعض الهبات الكثيرة التى وزعها ، دون أن يعلن عن اسمه عادة ، لا على أصدقائه ومعارفه فحسب ، بل حتى على أشخاص لم يرهم قط .[١١٥] وسمح لباعة الكتب أن يحتفظوا بالربح الذى يجنونه من كتبه . وقد رأيناه يسدى العون للآنسة كورنيى ؛ وسنراه يساعد الآنسة فاريكور . ورأيناه يعين فوفنارج ومارمونتيل ؛ كذلك فعل مع لاهارب ، الذى فشل مسرحيا قبل أن يغدو أقوى نقاد فرنسا أثرا ، فطلب فولتير أن يعطى نصف معاشه الحكومى البالغ ألفى فرنك للاهارب دون أن ينبئه بحقيقة المعطى .[١١٦] كتب مارمونتيل «يعلم الجميع مبلغ العطف الذى كان يحبو به الشبان الذين يبدون أى موهبة للشعر .»[١١٧]

وإذا كان فولتير الواعى بضآلة جسيمة ، لم يؤت شجاعة بدنية تذكر (إذ ترك الكابتن بورجار يضربه بالعصا عام ١٧٢٢) ،[١١٨] فإنه أوتى من الشجاعة الأدبية قدرا مذهلا (فقد هاجم أقوى مؤسسة فى التاريخ ، وهى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية) . وإذا كان عنيفا فى الخصومة ، فإنه كان سريع العفو عن خصومه الذين يسعون إلى الصلح معه ، «فكان غضبه يزول لأول رجاء .»[١١٩] وكان يغدق الحب على كل من طلبه ، وكان وفيا لأصدقائه . فلما افترق عن فاجنيير بعد عشرة أربعة وعشرين عاما «بكى كالأطفال .»[١٢٠] أما عن فضيلته فى أمور الجنس فقد كانت فوق مستوى جيله مع مدام دوشاتليه ، ودون ذلك المستوى مع ابنة أخته . وكان متسامحا مع الفوضى الجنسية ، ولكنه يغضب غضبة مضرية على الظلم . والتعصب ، والاضطهاد ، والنفاق ، وفظاعات قانون العقوبات . وقد عرف الفضيلة بأنها «البر بالبشر .» أما فيما عدا ذلك فكان يسخر من المحظورات ، ويستمتع بالخمر ، والنساء ، والغناء ، فى قصد فلسفى . وفى أقصوصة سماها «بابابيك»

رفض الزهد بما هو معهود فيه من تهكم موجع . فترى أومنى يسأل البرهمى « أهناك أمل فى أن يبلغ فى النهاية السماء التاسعة عشرة ؟ »

ويجيب البرهمى « هذا يتوقف على نوع الحياة التى تحياها . إنى أحاول أن أكون مواطنا صالحا ، وزوجا صالحا ، وأبا صالحا ، وصديقا صالحا ، وأحيانا أقرض المال بغير ربا للأغنياء ، وأتصدق على الفقراء ، وأحفظ السلام بين جيرانى . » فيسأل البرهمى « ولكن أتغرز المسامير أحيانا فى عجزك ؟ .

« أبداً يا أبى المبجل »

ويجيب البرهمى « إذن فأنا آسف ، لأنك لن تبلغ السماء التاسعة عشر ، ما فى ذلك ريب . »[121]

أما فضيلة فولتير المتوجة لفضائله المكفرة عن سيئاته ، فهى إنسانيته . لقد حرك ضمير أوربا بحملاته دفاعا عن آل كالاس وسيرفنس . وشهر بالحرب باعتبارها « الوهم الكبير » . « فالأمة الغالبة لا تفيد إطلاقا من أسلاب الأمة المغلوبة ؛ وهى تدفع ثمن كل شىء ، وتعانى حين تنتصر جيوشها قدر معاناتها حين تنهزم .[122] وأياً كان الفريق المنتصر ، فإن الإنسانية خاسرة على الحالين» . وقد ناشد الناس فى شتى الظروف والأقطار أن يتذكروا أنهم أخوة ؛ واستمع الناس إلى ذلك النداء بشكر وعرفان فى مجاهل أفريقيا .[123] كذلك لم تصدق عليه التهمة التى وجهها روسو للذين بشروا بحب البشر ووسعوا هذا الحب توسيعا لم يترك فيه مكانا لجيرانهم ؛ فكل الذين عرفوه تذكروا عطفه ومجاملته لأقل الأشخاص المحيطين به شأنا . كان يحترم كل نفس ، عارفا حساسيتها لأنه يعرف حساسيته .[124] وقد واصل كرم ضيافته رغم ما فرض عليها من مطالب باهظة . كتبت مدام دجرافينى « كم تأثرت حين وجدت فيك من الطيبة مالا يقل عما فيك من العظمة ، ورأيتك تفعل لكل من يحيطون بك الخير الذى كنت تود أن تفعله للبشرية جمعاء . »[125] وكان أحيانا

نزقا يتفجر غضبا ، ولكن « لا يمكن أن تتصور أبدا مبلغ ما فى قلب هذا الرجل من طيبة كما كتب عنه زائر آخر (٢٦)

وإذ ذاع صيت العون الذى يسديه للمضطهدين فى أوربا ، وانتشرت الأنباء فى فرنسا عن بره وإحساناته المستورة ، تشكلت صورة جديدة لفولتير ى ذهن الجماهير . فلم يعد عدو المسيح ، ولا المحارب لدين يحبه الفقراء ؛ بل أصبح منقذ آل كالاس ، وسيد فرنيه الطيب ، والمدافع عن عشرات من ضحايا العقائد المتزمتة والقوانين الظالمة . وقال قساوسة جنيف إنهم حائرون فى موقفهم وإياه فى يوم الحساب ، فهل إيمانهم بعدل أعمال هذا الزنديق .(١٢٧) وغفر له المثقفون رجالا ونساء زندقته ، ومشاجراته ، وغروره ، لا بل خبثه . ورأوه يتحول من الخصومة إلى السماحة ، فنظروا إليه الآن نظرتهم إلى الأب الجليل للآداب الفرنسية ، وفخر فرنسا أمام العالم المثقف . ذلك هو الرجل الذى رحبت حتى جماهير العامة بمقدمه حين جاء إلى باريس ليموت .



الفصل السادس

روسو الرومانسى

١٧٥٦ — ١٧٦٢

١ — فى « الايرميتاج » : ١٧٥٦ — ١٧٥٧

كان روسو قد انتقل إلى كوخ مدام دينيه فى ٩ أبريل ١٧٥٦ مصطحبا زوجته غير الشرعية تريز لافاسير وأمها . وسعد بالعيش هناك حينا ، إذ أحب غناء الطيور وزقزقتها ، وحفيف الأشجار وعبيرها ، وهدوء الجولات المنفردة فى الغابات . وكان فى جولاته يحمل قلما وكراسة ليقتنص الأفكار وهى تمرق منه.

ولكنه لم يخلق للراحة والسلام . ذلك أن حساسيته ضاعفت كل عناء ، وخلقت مزيدا من المتاعب . لقد كانت تريز زوجة وفية ، ولكنها لا تستطيع أن تكون رفيقا لذهنه ، كتب فى إميل يقول « ينبغى ألا يقترن الرجل الذى يفكر بزوجة لا تستطيع مشاطرته أفكاره . »(١) ولم يكن بتريز المسكينة حاجة تذكر للأفكار ، ولا كبير حاجة للكلمات المكتوبة . لقد بذلت له جسدها وروحها ، واحتملت غضباته ، وأغلب الظن أنها ردت عليها بمثلها ، وسمحت له بأن يقترب من حافة الخيانة مع مدام دودتو ، وكانت هى على قدر ما نعلم وفية فى تواضع باستثناء حادث لا سند لنا فيه إلا رواية بوزويل . ولكن أنى لهذه المرأة الساذجة أن تستجيب لذلك الاتساع والتنوع الجامح فى عقل قدر له أن يزلزل نصف القارة ؟ استمع إلى تفسير روسو :

« ماذا يظن القارىء إذا قلت له ... إننى منذ اللحظة الأولى التى وقع عليها بصرى حتى اللحظة التى أكتب الآن فيها لم أشعر قط بأقل حب لها ، ولم أشته قط أن أملكها ... وأن الحاجات البدنية التى أشبعت بشخصها كانت بالنسبة لى

حاجات الجنس فقط ، دون أن تنبعث إطلاقا من شخصيتها ؟ ... لقد كانت أولى حاجاتى ، وأعظمها ، وأقواها ، وأشرهها ، كلها فى قلبى : الحاجة إلى رباط (روحى) حميم ، حميم ما أمكن . وكانت هذه الحاجة الفريدة بحيث لا يشبعها أوثق الاتصال البدنى ، ولم يكن بد لها من وجود روحين . [٢]

ولعل تريز كانت ترد على هذه الشكاوى بضدها ، لأن روسو كان قد كف الآن عن القيام بوظائفه الزوجية . ففى ١٧٥٤ قرر لطبيب جنيفى : « لقد تعرضت طويلا لأقسى الآلام ، لعلة حصر البول التى لاشفاء لى منها ، والتى نجمت عن احتقان فى مجرى البول يسد القناة سدا يستحيل معه أن يدخل فيها حتى قسطرات الدكتور داران المشهور . [٣] وزعم أنه أقلع عن كل اتصال جنسى مع تريز بعد ١٧٥٥ [٤] ثم أضاف « حتى ذلك التاريخ كنت صالحا ، ومن تلك اللحظة أصبحت طاهرا ، أو على الأقل متيما بالطهارة .

وجعل وجود حماته معهما هذا المثلث حادا إلى درجة مؤلمة . وقد عالها هى وزوجته ما استطاع من دخله الذى جاءه من نسخ الموسيقى ومن بيع كتبه . غير أن مدام لافاسير كان لها بنات أخريات يحتجن إلى مهور ويعشن فى ضنك مقيم . وجمع جريم وديدرو ودولباخ فيما بينهم للمرأتين معاشا سنويا قدره أربعمائة جنيه ، وأخذوا عليهما العهد بكتمان الأمر على روسو مخافة جرح كبريائه . واختصت الأم نفسها وبناتها بمعظم المال (على رواية روسو) [٥] ، واستدانت باسم تريز ، ودفعت تريز الديون ، وأخفت أمر المعاش طويلا ، وأخيرا كشف روسو سره ، فاستشاط غضبا على أصدقائه لاذلالة على هذا النحو . وقد زادوه غضبا بالإلحاح عليه فى أن ينتقل من الإيرمتاج قبل حلول الشتاء ، فالكوخ (فى رأيهم) لم يعد للجو البارد . وحتى لو احتملت زوجته برد الشتاء فيه فهل فى طاقة الأم احتماله ؟ وكان ديدرو قد كتب فى تمثيلية « الابن الطبيعى» [٦] : « إن الرجل الصالح يحيا فى مجتمع ؛ ولا يعيش وحيدا غير الطالح ».وخيل لروسو أنه المقصود بهذا القول ، وبدأ الآن نزاع طويل لم تكن المصالحات التى تخللته إلا مهادنات . وشعر روسو أن جريم وديدرو يحاولان إغرائه بالعودة إلى مدينة فاسدة لأنهما يحسدانه على السلام الذى وجده بين

الغابات . وقد كشف فى خطاب أرسله إلى صاحبة الفضل عليه ، مدام دينيه ، (وكانت فى باريس) عن خلقه بصراحة ونفاذ بصر . قال :

« أريد أن يكون أصدقائى أصدقاء لا سادة على ؛ أريدهم أن ينصحونى لا أن يحاولوا التسلط على ؛ وأن يكون لهم كل المطالب على قلبى دون مطلب واحد يقيد حريتى . أنى لأراها غريبة تلك الطريقة التى يتدخل بها الناس باسم الصداقة فى شئونى دون أن يطلعونى على شئونهم ... وحرصهم الشديد على أن يؤدوا لى ألف خدمة يرهقنى ، ففيه لمسة من الاستعلاء تضنينى ؛ ثم إن كل إنسان فى وسعه أن يفعل مثل ما يفعلون ...

« وإنى لتوحدى وانعزالى على الناس أشد حساسية من غيرى . فلو فرضنا أننى تشاجرت مع إنسان يعيش وسط الزحام ، فإنه يفكر فى الأمر لحظة ثم تنسيه إياه عشرات الشواغل بقية النهار . أما أنا فلا يصرف أفكارى عنه شىء ولا أفتأ أقلبه فى ذهنى طوال الليل وأنا مؤرق ، وأفكر فيه وأنا أتمشى وحدى من شروق الشمس إلى غروبها ، وقلبى لا يهدأ لحظة واحدة ، واساءة من صديق كفيله بأن تجعلنى أعانى فى يوم واحد سنوات من الحزن . وإن لى أنا العليل حقا فى التسامح الواجب من إخوتى البشر نحو هفوات رجل مريض وغضباته ... وأنا فقير ، وفقرى يخول لى بعض الرعاية (أو كذلك يخيل إلى) .

« لا يدهشك إذن إن أنا أبغضت باريس أكثر فأكثر . ليس لى شىء أنشده من باريس سوى رسائلك . ولن يرانى أحد هناك ثانية أبدا . وإذا شئت أن تنبئينى بآرائك حول هذا الموضوع ، وبكل ما تبغين من قوة وعنف ، فلك الحق فى ذلك . فستلقى منى قبولا حسنا ، وستكون — عديمة الجدوى ». (٧)

وقد أجابته بما يكفى من العنف فقالت « أوه ، دع هذه الشكاوى التافهة لمن خانت قلوبهم ورؤسهم . (٨) ولكنها استفسرت مرارا عن صحته وراحته ، واشترت له حاجياته ، وأرسلت له الهدايا الصغيرة .

« ذات يوم والحرارة بلغت من التجمد درجة قصوى ، وجدت وأنا افتح طردا به عدة أشياء طلبت إليها أن تبتاعها لى جزنلة داخلية من الفانللا الإنجليزية

قالت إنها كانت تلبسها ، ورغبت إلى فى أن ألبسها صدرية داخلية ، ورأيت فى هذه الرعاية البالغة الود حنانا شديدا — وكأنها تعرت لتكسونى — حتى رحت فى انفعالى أقبل الخطاب والجونلة جميعا غير مرة وأنا أزرف الدمع . وخالتنى تريز قد جننت .(٩)

وخلال عامه الأول فى الارميتاج صنف « قاموس الموسيقى » ولخص بلغته المجلدات التى ألفها الأبيه دسان — بيير عن الحرب ، والسلام ، والتعليم ، والإصلاح السياسى . وفى صيف ١٧٥٦ تلقى من المؤلف نسخة من قصيدة فولتير فى الزلزال الذى أهلك خمسة عشر ألف شخص ، وجرح خمسة عشر ألف آخرين فى لشبونة فى عيد جميع القديسين أول نوفمبر ١٧٥٥ ، وقد تساءل فولتير كما تساءل نصف العالم لم اختارت العناية ، المفترض فيها أنها خيرة ، لهذه المذبحة العمياء عاصمة قطر كله كاثوليكى ، وساعة — ٩,٤٠ صباحا — كل الأتقياء يصلون فيها فى الكنيسة . وفى نغمة من التشاؤم المطلق رسم فولتير صورة للحياة والطبيعة محايدتين حيادا قاسيا بين الشر والخير . وفى الفقرة التالية من الاعترافات نقرأ رد فعل روسو لهذه القصيدة القوية :

« حين ادهشنى أن أرى هذا المسكين ، الغارق (إن جاز القول) فى أسباب الثراء والتشريف ، يشكو بمرارة أرزاء هذه الحياة ، ويجد كل شىء خطأ ، فكرت فى مشروع جنونى هو أن أجبره على تحويل اهتمامه إلى نفسه ، وعلى إثبات أن كل شىء صواب . إن فولتير وهو يبدو مؤمنا بالله لم يؤمن قط فى الواقع بشىء غير الشيطان ، لأن إلهه المزعوم كائن خبيث لا يلتذ إلا بالشر ، كما يقول . وسخف هذه القصيدة الصارخ يثير أشد التقزز من رجل ينعم بثراء فاحش ، رجل يحاول من حضن السعادة أن يشيع اليأس فى قلوب إخوته البشر بما يصور من صورة رهيبة قاسية لكل الكوارث التى أعفى منها ، أما أنا الذى يحق لى أكثر منه أن أعدد وأزن كل شرور الحياة البشرية ، فقد فحصتها فى غير تحيز ، وأثبت له أنه ما من شر من جميع الشرور الممكنة يجب أن ننسبه للعناية ، وألا نرده بالأحرى إلى إساءة استعمال الإنسان لقدراته لا إلى الطبيعة » (١٠) .

وعليه فى ١٨ أغسطس ١٧٥٦ أرسل روسو إلى فولتير « رسالة فى العناية الإلهية من خمس وعشرين صفحة ، بدأها باقرار لطيف بفضل فولتير . قال :

« جاءتنى قصائدك الأخيرة يا سيدى فى عزلتى ، ومع أن جميع أصدقائى يعرفون محبتى لكتاباتك ، فلست أدرى من كان ممكنا أن يرسل لى هذا الكتاب سواك . فقد وجدت المتعة والفائدة جميعا ، وتبينت فيه يد الأستاذ ... ولزام علي أن أشكرك على المجلد وعلى صنيعك . »(١١)

ثم ناشد فولتير ألا يلوم العناية الإلهية على مصائب البشر . فمعظم الشرور راجع لحماقتنا ، أو خطيئتنا ، أو إجرامنا :

« لاحظ أن الطبيعة لم تحشد عشرين ألف بيت من ستة طوابق أو سبعة ، وأنه لو كان سكان تلك المدينة الكبرى موزعين توزيعا أكثر توازنا فى مساكن أقل تكاثفا ، لكانت الخسارة أقل كثيرا ، أو ربما انعدمت ، ولكان كل اهلها قد هربوا عند أول هزة ، ولرأيناهم فى الغد على بعد عشرين فرسخا ، مرحين كأن شيئا لم يصبهم . »(١٢)

وكان فولتير قد كتب أن قلة من الناس من يودون أن يولدوا من جديد فى نفس الظروف ؛ فرد روسو بأن هذا لا يصدق إلا على الأثرياء الذين أتخموا باللذات ، وملوا الحياة ، وأعوزهم الإيمان ؛ أو على الأدباء القاعدين ، غير الأصحاء ، الغارقين فى تأملاتهم ، الساخطين ؛ ولكنه لا يصدق على بسطاء الناس كالطبقة الوسطى الفرنسية أو القرويين السويسريين . والذى يجعل من الحياة معضلة لنا هو إساءة استعمالها .(١٣) ثم إن شر الجزء قد يكون خير الكل ؛ فموت الفرد يتيح الحياة المتجددة للنوع . والعناية الإلهية عامة لا خاصة ؛ فهى تسهر على الكل ، ولكنها تترك أحداثا نوعية للأسباب الثانوية والقوانين الطبيعية .(١٤) وقد يكون الموت المبكر نعمة كذلك الذى أصاب أطفال لشبونة ، وهو على أية حال غير ذى بال ما دام هناك إله ، لأنه تعالى سيكافىء الجميع على ما أصابهم من معاناة لا يستحقونها .(١٥) ومسألة وجود الله تجاوز

الحل بالعقل . ولنا أن نختار بين الإيمان والكفر ، فلم نرفض إيمانا ملهما معزيا ؟؟
أما عن نفسي « فقد عانيت في هذه الحياة كثيراً ، لهذا يملؤني الرجاء في حياة أخرى . وكل دقائق الميتافيزيقا لن تشككني لحظة في وجود عناية خيرة وفي خلود النفس . أنني أحس هذا ، وأومن به ، وأتمناه ... وسأدافع عن هذه المعتقدات إلى آخر نسمة من حياتي . »[١٦]

واختتم روسو خطابه ختاما لطيفا ، فقال إنه متفق مع فولتير على التسامح الديني ، وأكد له « إنني أوثر أن أكون مسيحيا على طريقتك لا على طريقة الصوربون . »[١٧] . ورجا فولتير أن ينظم بكل ما في شعره من قوة وفتنة «كتاب تعليم مسيحي للمواطن» يتضمن قاموسا أخلاقيا يهدي الناس في فوضى العصر . وكتب فولتير إقراراً مهذبا بوصول رسالة روسو ، ودعاه للنزول ضيفا عليه في الدليس[١٨] ، ولم يبذل محاولة منظمة لتنفيد حجج روسو ، ولكنه رد عليها بطريق غير مباشر بروايته « كانديد »(١٧٥٩) .

٢ — العاشــق

حفل شتاء ١٧٥٦ — ١٧٥٧ بالأحداث لروسو . ففي فترة ما خلال تلك الشهور بدأ يكتب أشهر رواية في القرن الثامن عشر « جولي ، أو هلويز الجديدة» وقد تصورها أول الأمر دراسة في الصداقة والحب . فابنتا العم جولي وكلير تحبان سان — برو ، ولكنه حين يغوى جولي تظل كلير الصديقة الوفية لكليهما . فلما أخجله أن يكون الكتاب مجرد رواية غرامية ، عمد إلى رفع القصة إلى مقام الفلسفة بتحويل جولي إلى التدين ، والعيش في ولاء مثالي لزوجها فولمار وهو سيد شكاك استسلم لتعالم فولتير وديدرو . يقول روسو في اعترافاته :

« كانت العاصفة التي أطلقتها الموسوعة .. في ذلك الحين على أشدها . فلم يلبث الفريقان ، اللذان بلغ سخطهما بعضهما على بعض نهايته ، أن أصبحا أشبه بذئاب غاضبة ... لا مسيحيين وفلاسفة يرغب كل منهما في إثارة الآخر وإقناعه وهداية إخوانهم إلى طريق الحق . وكنت قد جهرت بالحقائق الصارمة للفريقين لأنني بطبعي عدو لكل أنواع التخريب ، ولكنهم لم يستمعوا إلى ...

ففكرت فى طريقة أخرى ، بدت لى فى بساطتى جديرة بالإعجاب ، وهى التخفيف من كراهتهما المتبادلة بأن أحطم تعصبهما ، وأظهر لكل فريق ما للآخر من فضائل وحسنات تستحق تقدير الجميع واحترامهم . وأحرزت الفكرة ... للنجاح المرتقب ، فقد قربت ووحدت الحزبين المتنافسين على هدف واحد هو سحق الكاتب ... ولما رضيت .. عن خطتى ، عدت إلى الموقعين تفصيلا ... فأسفر هذا عن الجزئين الأول والثانى من « هلويز » .[١٩]

وكان يقرأ على تريز ومدام ليفاسير كل مساء صفحات من القصة عند المدفأة . وشجعته الدموع التى كانت تذرفها تريز ، فدفع بالمخطوطة إلى مدام ديبنيه حين عادت إلى قصرها الريفى ، لاشتزيت ، على ميل من الإرميتاج . وفى مذكراتها استعادة للحدث : « حين وصلنا هنا ... وجدنا روسو فى إنتظارنا. وكان هادئا رائق المزاج للغاية . وأحضر لى رواية (جانبا منها) قد بدأها ... وقد قفل إلى الإرميتاج أمس ليستأنف هذا العمل ، الذى يزعم أنه قوام سعادة حياته . »[٢٠] وبعد قليل كتبت إلى جرم :

« بعد العشاء قرأنا مخطوطة روسو . ولست أدرى هل أنا متحيزة ضدها ، ولكنى غير راضية عنها ، إنها مكتوبة بأسلوب فى غاية الروعة ، ولكنها مسرفة فى التفصيل ، وتبدو غير واقعية ومفتقرة إلى الحرارة . ولا تقول شخوصها كلمة واحدة مما ينبغى أن تقوله ، فالمؤلف هو الذى يتكلم دائما . ولا أدرى كيف أخرج من هذا المأزق ، فلست أحب أن أخدع روسو ، ولا أستطيع أن أستقر على إدخال الحزن على قلبه . »[٢١]

على أن روسو ، على نحو ما ، بث الحرارة فى جولى خلال الشتاء ، أكان ذلك لأن قصة حب حية دخلت حياته ؟ ذلك أنه فى ٣٠ يناير ١٧٥٧ زارته سيدة كان قد لقيها فى باريس باعتبارها أخت زوج مدام ديبنيه . وكانت هذه السيدة ، واسمها اليزابث ــ صوفى دبيلجارد ، قد تزوجت الكونت دودتو ، ثم تركته ، وأصبحت الآن خليلة عدة سنوات للمركيز دسان ــ لامبير ، الذى كان يوما ما مزاحما لفولتير على مدام دناتليه . وكان زوجها وعشيقها كلاهما

قد انطلق إلى ساحة القتال . وفى صيف ١٧٥٦ كانت الكونتيسة قد استأجرت قصر أوبون الريفى ، على نحو ميلين ونصف من الإيرميتاج . وكتب لها سان – لامبير أن روسو على رحلة جواد قصيرة منها ، واقترح عليها أن تسرى عن وحدتها بزيارة الكاتب الشهير الذى أوقف الحضارة كلها موقف الدفاع عن نفسها . فذهبت فى مركبة ، فلما انغرزت فى الوحل واصلت الرحلة سيرا ، فوصلت وحذاؤها وثوبها ملطخان . « وجعلت المكان يدوى بضحكها الذى شاركتها فيه من كل قلبى »[٢٢] . وأعطتها تريز تغييرة ملابس . ومكثت المركيزة لتتناول « وجبة ريفية خفيفة » وكانت فى السابعة والعشرين ، وروسو فى الخامسة والأربعين . ولم تكن باهرة الجمال سواء فى طلعتها أو قوامها ، ولكن رقتها ، ردماثة طبعها ، وروحها المرحة أثارت حياته المظلمة . وفى العصر التالى أرسلت إليه رسالة لطيفة ، مخاطبة إياه باللقب الذى اتخذه بعد أن استوطن جنيف ثانية :

« أيها المواطن العزيز ، أعيد إليك الثياب التى تفضلت بأعارتى إياها . وقد وجدت عند رجوعى طريقا أفضل كثيرا ، ويجب أن أخبرك بمبلغ سرورى بهذا ، لأنه ييسر لى العودة إلى زيارتك . ويؤسفنى أننى لم أمكث إلا قليلا ... وسيكون أسفى أقل إذا كنت أكثر حرية ، واثقة دائما من أننى لا أزعجك . وداعا يا مواطنى العزيز ، وأرجوك أن تشكر للآنسة ليفاسير كل ما أبدته نحوى من عطف . »[٢٣]

وبعد أيام عاد سان – لامبير من الجبهة . وفى أبريل استدعى من جديد للخدمة العسكرية ، وما لبثت الكونتيسة المرحة أن خطرت إلى الإيرميتاج على صهوة جوادها مرتدية ثياب الرجال . وصدم زيها روسو ، ولكنه ما لبث أن أحس بأنه يحتوى امرأة فاتنة . فانطلق مع ضيفته سيرا فى الغابات تاركا تريز لواجباتها المنزلية وأخبرته مدام دودتو عن شدة محبتها لسان لامبير ، وفى مايو رد زيارتها ، فذهب إلى أوبون فى الوقت الذى تكون فيه « وحيدة تماما » كما قالت له . يقول « كنت أحيانا فى رحلاتى المتكررة لأوبون أنام هناك ...

وكنت أراها كل يوم تقريبا طوال ثلاثة أشهر . ورأيت شخصية جولى متمثلة فى مدام دودتو ، ثم لم أعد أرى غير مدام دودتو (فى جولى) ، ولكن بكل أسباب الكمال التى جملت بها معبودة قلبى . »[٢٤]

وأسلم نفسه زمنا لهذا الهذيان المحموم حتى لقد كف عن كتابة قصته ، وراح بدلا من هذا يكتب الخطابات الغرامية التى حرص على أن تعثر عليها فى كوى أشجار أوبون . فقال لها أنه يحب ، ولم يقل من محبوبته ؛ ولكنها عرفت بالطبع . فوبخته ، وأكدت له أنها ملك سان — لامبير جسدا وروحا ، ولكنها سمحت له بمواصلة زياراته وتودده الحار ؛ والمرأة على أى حال تحيا حياة واحدة فقط حين تحب ، وحياة مضاعفة حين يحبها إثنان . « لم تنكر على شيئاً يمكن أن تمنحه أرق الصداقات . ولكنها لم تمنحنى شيئاً يجعلها خائنة . » وهو يروى أنباء ما كانا يخوضان فيه من « أحاديث مستفيضة متكررة ... خلال الشهور الأربعة التى انفقاها فى صلة حميدة لا تكاد تضارعها صلة بين صديقين من الجنسين يحصران نفسهما داخل الحدود التى لم نتجاوزها قط . »[٢٥] وفى روايته لهذه العلاقة نجد الحركة الرومانسية على أشدها : فلا شىء فى قصته يمكن أن يضارع هذه النشوات :

« لقد سكرنا كلانا بخمر الحب — حبها لحبيبها ، وحبى لها ؛ وامتزجت تنهداتنا ودموعنا ... ولم تنس نفسها قط لحظة واحدة فى حميا هذا السكر اللذيذ ، وأؤكد تأكيدا قاطعا إننى أن كنت مرة ، وأنا منساق بحواسى ، قد حاولت حملها على الخيانة ، فإنه لم يكن لى رغبة حقيقية فى النجاح .. ذلك أن واجب نكران الذات تسامى بعقلى ... لقد كان من الممكن أن أقارف الجريمة ، وقد قورفت مائة مرة فى قلبى ؛ ولكن أن الوث شرف حبيبتى صوفى ! أواه ، أممكن هذا ؟ كلا ! لقد قلت لها مائة مرة إنه محال ... فإن حبى لها أعظم من أن يغرينى بتملكها ... تلك كانت اللذة الوحيدة لرجل أوتى مزاجا من أكثر الأمزجة تأججا ، ولكنه ربما كان فى الوقت ذاته من أجبن من أنجبتهم الطبيعة من البشر . »[٢٦]

ولاحظت مدام ديبنيه أن « دبها » لم يعد يزورها الآن إلا لماما ، ومرعان

ما علمت بنبأ رحلاته لأخت زوجها . فآلمها النبأ . وكتبت إلى جريم فى يونيو تقول « من القسوة على أى حال أن يهرب منك فيلسوف فى أقل اللحظات توقعا لهروبه . »[٢٧] وذات يوم فى أوبون وجد روسو « صوفى » تبكى . ذلك أن سان — لامبير نمى إليه خبر عبثها هذا ، وقد أبلغ بالخبر (كما قالت لجان — جاك) « بطريقة سيئة . إنه ينصفنى ، ولكنه مغيظ ... وأخشى ما أخشاه أن تكلفنى حماقاتك الراحة والهدوء بقية أيامى »[٢٨] . واتفقا على أن الذى باح بالسر لسان — لامبير لابد هومدام دبينيه ، لأننا «كنا نعلم أنها تراسله . » أو لعلها باحت به لجريم ، الذى كان يلتى سان — لامبير بين الحين والحين فى وستفاليا . وقد حاولت مدام دبينيه — فى رواية روسو — أن تحصل من تريز على خطاباته التى تلقاها من مدام دوذتو ، واتهم مضيفته بخيانته فى خطاب عنيف :

« هناك عاشقان (صوفى وسان — لامبير (عزيزان على ، وهما وثيقا الارتباط جديران بحب الواحد لصاحبه ... وأحسب أن محاولات بذلت للتفريق بينهما ، وأننى استعملت لبث الغيرة فى صدر أحدهما . ولم يكن الاختيار سديدا ، ولكنه بدا محققا لأغراض الحقد ؛ وأنت التى أشتبه فى أنها مذنبة بهذا الحقد .. وهكذا كان يمكن أن يلصق بالمرأة التى أكن لها أعظم تقدير ... عار قسمة قلبها وشخصها بين حبيبين ، ويلصق بى أنا عار كونى أحد هذين التعيسين . ولو علمت أنك فكرت فى هذا إطلاقا ولو لحظة واحدة فى حياتك ، سواء عنها أو عنى ، لأبغضتك حتى آخر نسمة من حياتى ، ولكنى لا أتهمك بالتفكير فى هذا فحسب ، بل بقوله أيضا .

« أتعلمين كيف أكفر عن أخطائى فى الفترة القصيرة التى أنا مضطر للمكث فيها بقربك ، بفعل ما لا يفعله أحد سواى : بمصارحتك برأى الناس فيك ، وبالصدوع التى عليك أن ترأبيها فى سمعتك[٢٩] » .

وأحزن عنف هذه التهم مدام دبينيه ، سواء أكانت مذنبة أم بريئة (ولا علم لنا بالحقيقة) ، فأبلغتها إلى حبيبها البعيد جريم . وأجاب بأنه قد حذرها من « المآذق الشيطانية » ، التى ستتورط فيها بإنزال روسو النزق الغريب الأطوار

فى الإيرميتاج (٣٠) . ودعت جان — جاك إلى شفريت ، وحيته بالعناق والدموع ، وأجاب على الدموع بمثلها ، ولم تدل له بأى تفسير وصل إليها علمه ، وتعشى معها ، ونام فى بيتها ، ورحل فى الغد مودعا بعبارات الصداقة .

وزاد ديدرو الطين بلة . فقد أشار على روسو بأن يكتب إلى سان — لامبير معترفا بميله لصوفى ، مؤكدا له رغم ذلك وفاءها . ووعد روسو بأن يكتب (فى رواية ديدرو) ولكن مدام دودتو رجته ألا يفعل ، وأن يدعها تنقذ نفسها بطريقتها الخاصة من المآزق التى ورطها فيها هيامه وعبثها . فلما عاد سان—لامبير من الجبهة حدثه ديدرو بالعلاقة ، مفترضا أن روسو قد اعترف بها . ولام روسو ديدرو ورماه بخيانته ؛ ولام ديدرو روسو ورماه بخديعته . ولم يتصرف تصرف الفلاسفة غير سان — لامبير . فقد جاء وصوفى إلى الإيرميتاج ، و « دعا نفسه إلى العشاء معى ... وعاملنى بصرامة ولكن بروح الصداقة . » ولم يوقع عليه عقوبة أشد من النزم والشخير بينما كان جان — جاك يقرأ عاليا خطابه المطول إلى فولتير . على أن مدام دودتو لم تشجع المزيد من اللقاءات بروسو . وأعاد لها الخطابات التى كتبتها له بناء على طلبها ، ولكن حين طلب خطاباته إليها قالت إنها أحرقتها . يقول « جرؤت على الشك فى زعمها هذا ... وما زلت أشك . فلم تلق فى النار قط خطابات كخطاباتى . لقد رأى الناس أن خطابات هلويز (لأبيلار) حارة ! فيا للسماء ! ، فماذا كانوا يقولون فى خطاباتى هذه ؟» (٣١) وأنكفأ إلى عالمه الخيالى مجروحا شاعرا بالخزى ، واستأنف كتابة « هلويز الجديدة » ، وسكب فيه عواطف رسائله المشبوبة لمدام دودتو .

على أن صنوفا جديدة من الذل كانت فى انتظاره حين عاد جريم من الحرب (سبتمبر ١٧٥٧) « لم أكد اتبين فيه جريم القديم » الذى كان فيما مضى « يعده شرفا له أن ألقى عليه نظرة »(٣٢) ولم يستطع روسو أن يفهم العلة فى فتور جريم ، ولم يعرف أن جريم عرف بأمر الخطاب المهين الذى أرسله إلى مدام دبينيه . وكان جريم يقرب من جان — جاك أنانية ، ولكنه فيما عدا ذلك نقيضه عقلا وخلقاً — فهو شكاك ، واقعى ، فظ ، قاس .(٣٣) وهكذا فقد روسو صديقين بخطاب واحد .

٣ — لغط كبير

وحدثت أزمة جديدة حين قررت مدام دبينيه فى أكتوبر ١٧٥٧ أن تزور جنيف . وإليك قصة روسو :

« كتبت إلى تقول « يا صديقى ، سأقوم فورا بالرحلة إلى جنيف ، لأن صدرى ساءت حالته ، وصحتى أعتلت كثيرا ، بحيث يتعين على أن أذهب لاستشارة ترونشان . » وزادت دهشتى لهذا القرار الذى اتخذ هكذا فجأة ، وفى بداية أسوأ طقس فى السنة ... وسألتها من سيصحبها ، فأجابت بأنه إبنها ومعلمه مسيو دليفان ، ثم أردفت بغير اكتراث « وأنت يا عزيزى ، ألا تذهب أنت أيضاً ؟ » ولم يخطر لى أنها جادة فيما تقول ، لأننى فى هذا الفصل كنت لا أكاد أقوى على المضى إلى حجرتى (أى السفر بين لاشفريت والإيرميتاج) فقد رحت أمزح حول الفائدة التى يسديها مريض لآخر . ولم تكن هى ذاتها ، فيما بدا لى ، جادة فى اقتراحها ، وإلى هنا انتهى الأمر »[٣٤] .

وكان له مبررات وجيهة للزهد فى مصاحبة المدام ، فقد حالت دون ذلك آلامه وأوصابه ، ثم كيف يستطيع أن يترك تريز ؟ أضف إلى ذلك أن الشائعات أرجفت بأن مضيفته حبلى ، من جريم على الأرجح ؛ وصدق روسو القصة حينا وهنأ نفسه على النجاة من موقف مثير للسخرية . ولكن المرأة المسكينة كانت صادقة ، فهى تعانى من السل ، ويبدو أنها كانت مخلصة فى رغبتها فى أن يرافقها روسو ، ولم لا يبهجه أن يعود ، على نفقتها ، لزيارة المدينة التى كان يفخر كثيرا بأنه مواطن فيها ؟ وكتب ديدرو ، العالم بشعورها ، إلى روسو يناشده أن يأخذ طلبها مأخذ الجد ويستجيب له ، ولو لما فى ذلك من بعض الرد على إحساناتها . وأجاب روسو بأسلوبه المعهود :

« أحس أن الرأى الذى تراه مصدره غيرك . وفضلا عن عدم ميلى لأن أدع نفسى أساق على غير إرادتى تحت ستار اسمك من شخص ثالث أو رابع ، فإننى ألاحظ فى هذه النصيحة الثانوية نوعا من الغدر لا يتفق وصراحتك ، ويحسن بك أن تكف عنه مستقبلا لأجلك ولأجلى . »[٣٥]

وفى ٢٢ أكتوبر أخذ خطاب ديدرو وجوابه عليه إلى لاشفريت وقرأهما « بصوت عال واضح » على جريم ومدام ديبنيه . وفى الخامس والعشرين من الشهر رحلت قاصدة باريس . وذهب روسو ليودعها وداعا محرجا ، يقول « ولحسن الحظ قامت فى الصباح ، وبقى لى من الوقت متسع للذهاب والغداء مع أخت زوجها » فى أوبون .[٣٦] وفى التاسع والعشرين (كما جاء فى مذكرات مدام ديبنيه) كتب إلى جريم :

« قل لى يا جريم لم يعلن جميع أصدقائى أن من واجبى أن أصحب مدام ديبنيه ؟ أمخطىء أنا ، أم أنهم كلهم مسحورون ؟ ... إن مدام ديبنيه مسافرة فى مركبة أجرة لطيفة ، ويصحبها زوجها ، ومعلم ولدها ، وخمسة خدم أو ستة ... فهل أحتمل أنا السفر فى مركبة أجرة ؟ وهل أطمع فى القيام برحلة طويلة كهذه وبهذه السرعة الكبيرة دون أن يقع لى حادث ؟ وهل على أن أطلب وقوفها فى كل لحظة لأنزل ، أم على آن أعجل بعذاباتى وساعاتى الأخيرة باضطرارى إلى فرض القيود على نفسى ؟ (يلوح) أن أصدقائى المخلصين ... مصممون على إرهاقى حتى الموت »[٣٧] .

وفى ٣٠ أكتوبر غادرت مدام ديبنيه باريس قاصدة جنيف ؛ وفى ٥ نوفمبر (فى رواية المذكرات) رد جريم على روسو :

« لقد بذلت ما وسعنى من جهد لأتجنب الرد القاطع على الدفاع الرهيب الذى وجهته إلى . وأنت تلح على فى أن أرد ... إنه لم يدر بخلدى قط أنه كان من واجبك أن تصحب مدام ديبنيه إلى جنيف . وحتى لو كان دافعك الأول هو أن تعرض عليها صحبتك لها ، لكان من واجبها أن ترفض عرضك ، وأن تذكرك بما يجب عليك نحو مركزك ، وصحتك ، والمرأتين اللتين جررتهما إلى معتكفك ؛ هذا رأيى ... وأنت تجسر على أن تحدثنى بعبوديتك ، أنا الذى كنت طوال أكثر من عامين الشاهد اليومى على كل دلائل الصداقة البالغة الحنان والكرم ، التى منحتها إياك هذه المرأة ، ولو استطعت أن أصفح عنك لرأيتنى غير جدير بصداقة إنسان . أننى لا أريد أن أراك ما حييت ، وسأحسب نفسى

سعيدا إن استطعت أن أطرد من عقلى ذكرى سلوكك . سأطلب إليك أن تنسانى ، وأن تكف عن إزعاجى .»[٣٨]

ومن جنيف كتبت مدام دبينيه إلى جريم : « لقد تلقيت شكر الجمهورية على الطريقة التى عاملت بها روسو واستقبلت وفدا رسميا من صانعى الساعات للغرض ذاته ... إن القوم هنا ينظرون إلى نظرة الإجلال من أجله . »[٣٩] ونبهها ترونشان إلى ضرورة بقائها عاما تحت رعايته الطبية . وكانت تختلف مرارا إلى بيتى فولتير فى جنيف ولوزان . وبعد حين لحق بها جريم ، وقضيا معا ثمانية أشهر فى عيشة سعيدة .(*)

وفى ٢٣ نوفمبر ١٧٥٧ كتب إليها روسو (كما يروى) يقول :

إن كان ممكنا لإنسان أن يموت حزنا لما كنت الآن على قيد الحياة ..... إن الصداقة قد انطفأت بيننا يا سيدتى ، ولكن ذلك الذى مضى وانقضى ما زالت له حقوق ، وأنا احترمها . فأنا لم أنس كرمك معى ، ولك أن تنتظرى منى ما يمكن من عرفان بالجميل لشخص لا أستطيع أن أحبه بعد ...

« أردت أن أغادر الإيرميتاج . وكان ينبغى لى أن أفعل ، ويزعم أصدقائى أنه لابد من بقائى هناك إلى الربيع ، وما دام أصدقائى يريدون هذا فسأبقى هناك إن وافقت . »[٤٠]

وفى أوائل ديسمبر جاء ديدرو لزيارة روسو ، فوجده ساخطا باكيا لما حل به من « استبداد » أصدقائه . وقد وردت رواية ديدرو لهذه الزيارة فى خطابه المؤرخ ٥ ديسمبر إلى جريم :

« إن الرجل مسعور forcen ... لقد زرته ، ولمته على شناعة سلوكه بكل القوة التى منحتنى إياها الصراحة والأمانة . وقد دافع عن نفسه فى ثورة

(*) عادا إلى باريس فى أكتوبر ١٧٥٩ ، وأصبح ابيتها هناك أحد الصالونات الصغيرة وقد فاز كتابها فى التربية بجائزة من الأكاديمية .

غضب أحزنتني ... إن هذا الرجل يقف حائلا بيني وبين عملي ، ويربك عقلي ؛ وكأن بجوارى أحد المحكوم عليهم بالهلاك الأبدى ... أى منظر هذا — منظر رجل شرير ضار ! لا تدعني أراه ثانية ، فهو يحملني على الإيمان بالشياطين والجحيم . »[٤١]

وتلقى روسو ردا من مدام دبينيه فى ١٠ ديسمبر . والظاهر أن جريم كان قد نقل إليها ملاحظات روسو عن « عبوديته » فى الإيرميتاج ، لأنها كتبت إليه بمرارة غير معهودة فيها :

« كل ما يسعنى عمله الآن أن أرثى لك ، بعد أن بذلت لك طوال سنوات عديدة كل أمارات الصداقة الممكنة . فأنت شقى جدا ...

« وما دمت مصمما على مغادرة الإيرميتاج ، ومقتنعا بأنه ينبغى لك أن تفعل ، فإنه يدهشنى أن يقنعك أصدقاؤك بعد إلحاح بالبقاء فيه . أما أنا فلا أستشير أصدقائى أبداً فى أمر واجبى ،وليس عندى ما أزيد فى أمر واجبك . »[٤٢]

وفى ١٥ ديسمبر ، ورغم حلول الشتاء ، غادر روسو الإيرميتاج ومعه تريز وكل متعلقاتهما . أما أمها فقد أرسلها لتعيش فى باريس مع بناتها الأخريات ولكنه وعد بأن يسهم فى نفقاتها . وانتقل إلى كوخ فى مونمورنسى أجره له وكيل للوى — فرانسو دبوريون ، أمير كونتى . هناك ، وقد ولى ظهره لأصدقائه السابقين ، أنتج فى خمس سنوات ثلاثة من أعظم كتب القرن تأثيرا .

٤ — خصامه مع جماعة الفلاسفة

كان مسكنه الجديد يقع فيما سماه « حديقة مون — لوى » وهو « حجرة واحدة » أمامها مرجة ، وفى طرف الحديقة حصن قديم فيه « طاقة خالصة على الهواء . » وكان عليه أن يستقبل زواره حين يجيئون « وسط أطباقى القذرة وقدورى المحطمة » ويرتعد مخافة أن ينخسف « أرض الحجرة التى تهدمت » تحت أقدام ضيوفه . ولم يكترث لفقره ، فقد كان يكسب ما يكفيه

ينسخ الموسيقى ، اغتبط بكونه حرفيا كفئا [٤٣] ، وبأنه لم يعد تابعا لامرأة غنية . وكان يرد هدايا جيرانه اللطفاء حين يرسلونها إليه ، فقد أحس أن من الذل أن يأخذ المرء أكثر مما يعطى . وأرسل له الأمير دكونتى الدجاج مرتين ، فأخبر الكونتيسة دبوفليه أنه سيرد الهدية الثالثة إن جاءت .

ونلاحظ عرضا كثرة الأرستقراطيين الذين ساعدوا ثوار التنوير . لا لموافقتهم على آرائهم بقدر تعاطفهم الكريم مع العبقرية المحتاجة . لقد كان فى نبلاء النظام القديم الكثير من عناصر النبل ، وقد خصت الأرستقراطية روسو بصداقتها رغم تنديده بها . وكان الحرفى المعتز بنفسه ينسى نفسه أحيانا ويفخر بأصدقائه حملة الألقاب ، قال فى معرض حديثه عن مرجته :

« كانت تلك الشرفة قاعة الجلوس التى استقبلت فيها مسيو ومدام لكسمبورج ، والدوق دفيلروا ، وأمير تنجرى ، ومركيز أرمنتير ، ودوقة مونمررنسى ، ودوقة بوفليه(*) ، والكونتيسة دفالنتنوا ، والكونتيسة دبوفلييه ، وغيرهم من نفس الرتبة ... الذين تنازلوا بأن يحجوا إلى مون - لوى » [٤٤]

وكان منزل المرشال والمرشالة دلكسمبررج غير بعيد من كوخ روسو . وما لبثا عقب وصوله أن دعواه إلى العشاء فرفض الدعوة . ثم كرراها فى صيف ١٧٥٨ فرفضها ثانية . ثم أتيا حوالى عيد القيامة فى ١٧٥٩ ومعهما ستة من أصدقائهم النبلاء يتحدونه فى معتكفه . وراعه الأمر فقد اكتسبت المرشالة يوم كانت الدوقة دبوفلية سمعة بأنها فتنت عددا هائلا من الرجال . ولكنها خلفت خطاياها وراءها وغدت فى نضجها امرأة فيها فتنة الأمومة لا مجرد فتنة الجنس ؛ وسرعان ما أذابت تحفظه الخجول وهزته ليشارك فى حديث حى . وتساءل الزوار لم يعيش رجل أوتى هذه المواهب فى هذا الضنك . ودعا المرشال روسو وتريز ليذهبا ويعيشا معه حتى يمكن إصلاح كوخهما ؛ ولكن

(*) نستطيع فى زحمة أفراد آل بوفليه الذين دخلوا التاريخ فى القرن الثامن عشر أن نميز (١) دوقة بوفليه ، التى أصبحت مرشالة الكسمبورج . (٢) مركيزة بوفليه ، خليلة ستانسلاس لسكزنسكى (٣) كونتيسة بوفليه ، صديقة ديفد هيوم وهوارس ولبول .

جان — جاك ظل على مقاومته ؛ وأخيرا اقتنع هو وتريز بأن يسكنا حينا « القصر الريفى الصغير » الواقع فى ضيعة لكسمبورج . فانتقلا إليه فى مايو ١٧٥٦ . وكان روسو أحيانا يزور لكسمبورج وزوجته فى بيتهما الفخم ، هناك كان يغرى بسهولة بأن يقرأ عليهما وعلى ضيوفهما بعض فصول الرواية التى كان يكملها . وبعد بضعة أسابيع عاد هو وتريز إلى كوخهما ولكنه واصل زياراته لآل لكسمبورج ، وظلا هما على وفائهما له طوال تقلبات مزاجه . وشكا جريم من أن روسو « هجر أصدقائه القدامى واستبدل بنا قوما من أعلى الطبقات »[٤٥] ولكن جريم هو الذى نبذ روسو ، وفى خطاب كتبه جان جاك إلى مالزيرب فى ٢٨ يناير ١٧٦٢ رد على من اتهموه بالتنديد بالنبلاء ، وبالتودد إليهم :

« سيدى ، إننى أكره كرها شديدا تلك الطبقات الاجتماعية التى تتسلط على غيرها ... ولا يضايقنى أن أعترف لك بهذا وأنت سليل أسرة مشهورة بعراقتها ... إننى أبغض العظماء ، أبغض وضعهم ، وقسوتهم ، وأهواءهم ... ورذائلهم ... بمثل هذا المزاج ذهبت كانسان يجر جرا إلى قصر (آل لكسمبورج) الريفى فى مونمورنس . ثم رأيت سادته ؛ وقد أحبونى ، وأحببتهم يا سيدى ، وسأظل أحبهم ما حييت ... وإنى لأبذل لهم ، لا أقول حياتى فتلك عطية هزيلة .. بل الفخر الوحيد الذى مس قلبى — وهو ذلك التشريف الذى أتوقعه من الخلف ، والذى سيمنحنيه ما فى ذلك شك ، لأنه حق ، ولأن الخلف منصفون دائما . »

وكان يود أن يحتفظ بصديقة سابقة — هى مدام دودتو ، ولكن سان . . لامبير لامها على الشائعات التى ربطت فيها باريس اسمها باسم روسو ، فاخبرت روسو بأن يكف عن الكتابة لها . وتذكر أنه اعترف لديدرو بحبه لها ، فخلص الآن إلى أن ديدرو هو الذى ثرثر به فى الصالونات و « عقدت النية على مقاطعته إلى الأبد . »[٤٦]

ولكنه اختار أسوأ اللحظات والوسائل ففى ٢٧ يوليو ١٧٥٨ كان هلفتيوس قد نشر فى كتابه « فى العقل » هجوما عنيفا على الكهنوت الكاثوليكى . وأفضت

الضجة المترتبة على هذا الهجوم إلى المطالبة المتصاعدة بحظر « الموسوعة » (التى كان قد صدر منها سبعة مجلدات) وكل الكتابات التى تنتقد الكنيسة أو الدولة . وكان المجلد السابع يتضمن مقال دالامبير المتهور عن جنيف ، الذى امتدح فيه القساوسة الكلفنين على عقيدة التوحيد التى يتكتمونها وناشد السلطات الجنيفية أن تسمح باقامة مسرح . وفى أكتوبر ١٧٥٨ نشر روسو « خطابا إلى مسيو دالامبير عن المسرح » وكان على اعتدال لهجته أشهار حرب على عصر العقل ، وعلى زندقة فرنسة منتصف القرن الثامن عشر وفساد خلقها ، وقد بذل روسو فى مقدمته قصارى جهده فى التبرؤ من ديدرو ، دون أن يذكر اسمه صراحة : « كان من بين أصحابى أرستارخوس » رجل صارم ، عادل ولكنه لم يعد صاحبا لى واست أريد مزيدا من صحبته ، على أننى لن أكف عن الأسف عليه وأن قلبى ليفتقده أكثر حتى من كتاباتى ، » وأضاف فى هامش معتقدا أن ديدرو قد أفشى سره لسان دالامبير :

« إن كنت قد امتشقت حساما على صديق فلا تيأس لأن هناك سبيلا لرد الحسام إليه وإن كنت قد اشقيته بكلامك فلا تخف لأن فى الإمكان مصالحته . أما الإهانة واللوم المؤذى وافشاء السر وجرح قلبه بالخيانة فهذه كلها تسخطه عليك وهو تاركك إلى غير عودة [٤٧] .

أما الخطاب الذى تبلغ صفحاته فى الترجمة ١٣٥ فكان بعضه دفاعا عن الدين كما يبشر به علانية فى جنيف . وكان روسو نفسه موحدا — أى رافضا للاهوت المسيح كما سيدل على ذلك كتاب « إميل » بعد قليل ، ولكنه حين تقدم طالبا المواطنة الجنيفية كان قد أقر بالعقيدة الكلفية الكاملة ، وفى هذا الخطاب دافع عن الدين القديم ، وعن الإيمان بالوحى الإلهى ، باعتبارهما أمرين لا غنى عنهما لاخلاق الشعب . « أن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس إلا الحساب ، إن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس الحساب النفعى للمصلحة الشخصية » ومن ثم كان مجرد (الدين الطبيعى) سيهبط بالأخلاق إلى مستوى لا يزيد على تجنب اكتشاف الذنوب .

ولكن اللاهوت كان مثارا صغيرا للجدل فى حجة روسو ، أما هجمته الأمامية فكانت على اقتراح دلامبير بأن يصرح باقامة مسرح فى جنيف . هنا لم يكن العدو الخفى هو دالامبير ، بل فولتير . فولتير الذى حجب سناء شهرته نزيلا بجنيف ، فخر روسو بمواطنته الجنيفية ، حجبا أثار حنقه ، فولتير الذى جرؤ على تقديم التمثيليات فى جنيف أو قربها ، والذى حث لامبير بلا شك على أن يضمن مقالا فى الموسوعة نداء بانشاء مسرح جنيفى . فماذا ؟ أتدخل فى مدينة اشتهرت بأخلاقها البيورتانية ضربا من اللهو . كان فى كل مكان تقريبا يمجد الفساد الخلقى ؟ أن الدرامات المحزنة تصور الجريمة دائما ، وهى لا تظهر العواطف كما ظن أرسطو ، بل تلهبها ، لاسيما عواطف الجنس والعنف . وأما التمثيليات الهزلية فنادرا ما تعرض الحب الزوجى النقى ، وكثيرا ما تهزأ بالفضيلة ، كما فعل حتى موليير فى مسرحيته « مبغض البشر » . وكل الناس عليمون بأن الممثلين يحيون حياة العربدة والفساد ، وأن معظم ممثلات المسرح الفرنسى الفاتنات هن مضرب الأمثال فى فوضى الجنس ، وبؤر ومصادر الفساد فى مجتمع يعبدهن . وربما كانت شرور المسرح هذه فى المدن الكبيرة مثل باريس ولندن لا تؤثر إلا فى شطر صغير من السكان ، أما فى مدينة صغيرة كجنيف (لا يسكنها أكثر من ١٤,٠٠٠ نسمة (فإن سمومها تتغلغل فى جميع الطبقات ، وتثير العروض أفكارا مولعة بالجديد وحربا بين الأحزاب .[٤٨]

وإلى هنا كان روسو يردد الرأى البيورتانى أو الكلفنى فى المسرح ، ويقول فى فرنسا عام ١٧٥٨ ما قاله من قبل ستيفن جوسون فى انجلتره عام ١٥٧٩ ، ووليم يرين عام ١٦٣٢ ، وجريمى كوليار عام ١٦٩٨ . ولكن روسو لم يقتصر على التنديد . فهو لم يكن بيورتانيا ؛ ومن ثم دعا إلى الرقص والمراقص تحت رعاية الدولة وإشرافها . وقال إنه ينبغى أن توفر أسباب الترفيه العامة ولكن من نوع إجتماعى وصحى ، كالرحلات الخلوية ، والألعاب فى الهواء الطلق ، والمهرجانات ، والاستعراضات (هنا أضاف روسو وصفا نابضا بالحياة لسباق زوارق على بحيرة جنيف .[٤٩]

ويقول لنا روسو أن الخطاب « أصاب نجاحا كبيرا » فقد بدأت باريس

تمل حياة الفساد ؛ ولم يعد هناك لذه فى الانحرافات الخارجة على العرف التى أصبحت هى ذاتها عرفا . فلقد أتخمت المدينة برجال يسلكون مسلك النساء ، ونساء يتحرقن شوقا إلى أن يكن كالرجال . لقد شبعت من الدراما الكلاسيكية وأشكالها الطنانة المتكلفة ورأت حقارة قواد مدام دبومبادور وجنودها أمام جند فردريك الاسبرطيين . وكان الاستماع إلى فيلسوف يمجد الفضيلة تجربة منعشة وسيزداد تأثير « الخطاب » الأخلاقى حتى يشارك هو وكتابات روسو الأخرى فى إحداث عودة للياقة تكاد تكون ثورية فى عهد لويس السادس عشر .

ولم يكن فى وسع الفلاسفة أن يتوقعوا هذا . فالذى أحسوا به فى إعلان روسو هو أنه عمل من أعمال الخيانة ، لأنه هاجمهم فى لحظة خطرهم الأكبر . ففى يناير ١٧٥٩ حظرت الحكومة نهائيا نشر الموسوعة أو بيعها . وحين ندد روسو بأخلاق باريس رماه أخصائه القدامى بالنفاق . وقد تذكروا مطاردته لمدام دودتو ، وحين ندد بالمسرح نوهوا بأنه كتب « كاهن القرية » و « نارسيس » للمسرح ، وأنه كان يختلف إلى المسرح . ورفض سان — لامبير برسالة جافية (١٠ أكتوبر ١٧٦٨) نسخة « الخطاب » التى أرسلها إليه روسو :

« لا أستطيع قبول هدينك ، ولعل لك عذرا — على غير ما أعلم — فى الشكوى من ديدرو ، ولكن هذا لا يعطيك حق إهانته علنا . فأنت لا تجهل طبيعة الاضطهادات التى يعانيها .... ولست أملك يا سيدى إلا أن أقول لك إن هذا العمل الشائن الذى اقترفته صدمنى كثيرا ... كلانا يختلف فى مبادئنا اختلافا أشد من أن يتيح لنا أن ننسجم . فانس أننى موجود ... وأنى أعدك بأن أنسى شخصك ، ولا أذكر عنك شيئا إلا مواهبك . »[٥١]

على أن مدام دينيه حين عادت من جنيف شكرت روسو على النسخة التى بعث بها إليها ، ودعته للعشاء فذهب ، والتقى بسان — لامبير ومدام دودتو آخر لقاء .

ووافاه من جنيف أكثر من عشرة خطابات ثناء . وحظر قضاه جنيف على فولتير عرض أى مسرحيات على أرض جنيف بعد أن شجعهم موقف روسو . ونقل فولتير مواهبه المسرحية إلى تورنيه ، وانتقل هو إلى فرنيه . وأحس

بوجع الهزيمة ، فاتهم روسو بأنه هارب مارق ، وأسف على تردى قطيع « الفلاسفة » الصغير إلى هوة صراع يفنون فيه أنفسهم . وكتب يقول « إن جان — جاك السيىء السمعة هو يهوذا الجماعة »[٥١] ورد روسو بخطاب (٢٩ يناير ١٧٦٠) إلى الراعى الجنيفى بول مولتو :

« أتحدثنى عن ذلك الرجل فولتير ؛ لم يلوث اسم ذلك المهرج رسائلك ؟ لقد دمر ذلك التعس وطنى (جنيف) . ولو كان احتقارى له أقل لكرهته أكثر . وأنا لا أرى فى مواهبه العظيمة إلا شيئا مخزيا يضاف إلى خزيه ، ويحط من قدره بسبب الطريقة التى يسخر بها ... إيه أيها المواطنون الجنيفيون ، إنه يكلفكم غاليا جزاء إيوائكم اه ! »[٥٢]

وأحزن روسو أن يعلم أن فولتير يخرج التمثيليات فى تورنيه ، وأن كثيرا من المواطنين الجنيفيين يعبرون الحدود إلى فرنسا ليشهدوا هذه الحفلات — لا بل ليشارك بعضهم فيها . ووجد استياؤه مبررا آخر للحرب حين طبع خطابه الذى أرسله إلى فولتير عن زلزال لشبونة فى مجلة برلين (١٧٦٠) ، لأن فولتير فيما يبدو أعار المخطوطة فى غير مبالاة لأحد الأصدقاء . فأرسل روسو الآن (١٧ يونيو) إلى فولتير خطابا من أعجب الخطابات فى رسائل هذا العصر الصاخب . قال بعد أن لام فولتير على نشر الخطاب دون إذنه :

« إننى لا أحبك يا سيدى . فلقد آذيتنى أنا تلميذك المتحمس لك أبلغ الأذى . لقد دمرت جنيف جزاء على الملجأ الذى قدمت لك . ولقد نفرت مواطنى من جراء المديح الذى مدحتك به بينهم . وأنت الذى تجعل مقامى فى وطنى شيئا لا أطيقه ، أنت الذى ستضطرنى للموت على أرض غريبة ، محروما من كل تعزيات المحتضرين ، ملقى على كوم من أكوام المهملات فى ازدراء ، بينما يحيط بك كل ما يستطيع إنسان أن يطمع فيه من أسباب التكريم فى وطنى . فأنا باختصار أكرهك ، لأنك هكذا شئت ، ولكنى أكرهك بمشاعر إنسان ما زال فى وسعه أن يحبك لو كنت قد رغبت فى حبى . ولم يبق من جميع المشاعر التى امتلأ بها قلبى نحوك سوى الإعجاب بعبقريتك الرائعة ، وحب

كتاباتك . وإذا كنت لا أكرم فيك غير مواهبك فليس الذنب ذنبي . ولن يوجد قصور أو نقص أبدا فى الاحترام الواجب لها ، ولا فى المسلك الذى يقتضيه ذلك الاحترام . »[٥٣]

ولم يجب فولتير ، ولكنه كان يدعو روسو سرا « المشعوذ » و «المجنون »[٥٤] و « النسناس الصغير » وقد كشف فى رسائله لدالامبير عن نفس لا تقل حساسية وتأججا عن نفس جان — جاك :

« تلقيت رسالة طويلة من روسو . لقد جن جنونا مطبقا ... فهو يهاجم المسرح بعد أن كتب هو نفسه تمثيلية هزيلة رديئة ؛ هو يهاجم فرنسا التى تطعمه ؛ وهو يجد خمسة أضلاع متعفنة أو ستة من برميل ديوجين ويتسلقها لينبحنا ؛ وهو يتخلى عن أصدقائه . ويكتب إلى — إلى ! — أشد ما سود به متعصب الصحائف إهانة ... ولولا أنه قزم حقير لا أهمية له ، انتفخت أوداجه غرورا ، لما كان فى الأمر أذى يذكر ؛ ولكنه أضاف إلى وقاحة خطابه عار التآمر مع متنطعى السوسنيين هنا للحيلولة بينى وبين إقامة مسرح لى فى تورنيه ، أو على الأقل لمنع المواطنين من التمثيل فيه معى . وإذا كان قصده من هذه الحيلة الوضيعة أن يعد لنفسه عودة ظافرة إلى الأزقة الحقيرة التى نشأ فيها ، فذلك فعل وغد ، ولن أصفح عنه ما حييت . ولو أن أفلاطون لعب على لعبة من هذا النوع لانتقمت منه ، فما بالك بتابع خانع لديوجين . إن مؤلف « ألويزا الجديدة » ليس إلا وغدا شريرا . »[٥٥]

فى هذين الخطابين اللذين كتبهما أشهر كاتبين فى القرن الثامن عشر نستشف من وراء تيارات العصر التى يحسبها الناس غير شخصية ، الأعصاب التى اشتد إحساسها بكل لطمة فى الصراع ، والغرور البشرى المشترك الذى تضطرب به أفئدة الفلاسفة والقديسين .

٥ — هلويز الجديدة

إن الكتاب الذى أخطأ فولتير فى تسميته كان طوال ثلاث سنين ملاذا لروسو من أعدائه ، وأصدقائه ، والعالم . بدأه عام ١٧٥٦ وفرغ منه فى

سبتمبر ١٧٥٨ ، وأرسله إلى ناشر فى هولندة ، وظهر فى فبراير ١٧٦١ باسم « جولى ، أو هلويز الجديدة ، رسائل عاشقين جمعها ونشرها ج .ج روسو » . وصياغة الرواية فى شكل رسائل كانت عادة قديمة ، ولكن لعل الذى دعا روسو إلى التصميم عليها هو محاكاته رواية رتشردسن « كلاريسا » .

والقصة بعيدة الاحتمال ولكنها نسيج وحدها . فجولى هى ابنة بارون ديتانج ، وهى فى السابعة عشرة أو نحوها . وتدعو أمها الشاب الوسيم سان ـبرو ليكون معلمها الخاص . ويقع أبيلار الجديد هذا فى غرام هلويز الجديدة ، كما كان يمكن أن تتوقعه أى أم فى دنيا الواقع . ولا يلبث أن يرسل إلى تلميذته رسائل حب حددت اللحن لقرن من القصص الرومانسى :

« إنى لأرتعد كلما تصافحت أيدينا ، ولا أدرى كيف يحدث هذا ، ولكنها تتصافح دوما . وإنى أجفل حالما أحس لمسة أصبعك ، وتأخذنى حمى أو قولى حمى مصحوبة بهذيان فى هذه المتع ؛ وتتخلى عنى حواسى شيئاً فشيئا ، فإذا خرجت هكذا عن طورى فماذا أستطيع أن أقول ، أو أفعل ، وأين أختبىء ، وكيف أكون مسئولا عن سلوكى ؟ »[٥٦] ثم يقترح أن يرحل ولكنه يكتفى بالكلام دون الفعل :

« وداعا أذن ياجولى ، المفرطة الفتنة . . . غداً سأكون رحلت إلى الأبد . ولكن ثقى أن غرامى العنيف الطاهر بك لن ينتهى إلا بانتهاء حياتى ، وأن قلبى المفعم بهذا المخلوق الملائكى ، لن يهبط بنفسه إلى إفساح مكان فيه لحب ثان ، وأنه سيوزع كل ولائه المستقبل بينك وبين العفة ، وأنه لن يدنس لهيب آخر المذبح الذى عبدت عليه جولى[٥٧]» .

وقد تبتسم جولى لهذا التعبد ، ولكن فيها من الأنوثة ما يمنعها من اقصاء مثل هذا الكاهن المبهج عن المذبح . فتطلب إليه أن يؤجل قراره . فالاتصال الكهربى بين الذكر والأنثى قد أحدث بها على أى حال اضطرابا مماثلا ، وسرعان ما تعترف بأنها هى أيضاً قد أحست باللذغة الغامضة : « منذ أول يوم التقينا فيه تشربت السم الذى يسرى الآن فى حواسى

وعقلى ، شعرت به فورا وعيناك ، وعواطفك ، وحديثك ، وقلمك المذنب — كلها تزيد كل يوم أذاه [٥٨] . » ومع ذلك يتعهد بألا يطلب مطلبا أشد إثماً من قبلة « كونى عفيفة وإلا احتقرت ، وسأكون جديراً بالإحترام وإلا عدت كما كنت ، ذلك هو الأمل الوحيد الباقى لى ، والذى يفضل الأمل فى الموت » . ويوافق سان — برو على أن يجمع بين الهذيان والعفة ، ولكنه يعتقد أن هـذا يتطلب معونة خارقة من السماء .

« أيتها القوى السماوية ، . . . انفخى فى روحا تطيق السعادة العظمى ! أيها الحب الإلهى ! يا روح وجودى ، أواه ، اسندنى لأننى أوشكت على السقوط تحت وطأة الوجد ! . . . أواه كيف أحتمل سيل السعادة المتدفق الذى يفيض به قلبى ؟ كيف أطرد هواجس عاشقة خائفة ؟ [٥٩] . وهكذا طوال ٦٥٧ صفحة . فإذا بلغنا صفحة ٩١ قبلته . والكلمات تقصر عن وصف « حالى بعد ذلك بلحظة ، حين شعرت — إذ ارتعشت يداى — برعدة رقيقة — وشفتاك المعطرتان — شفتا جولى حبيبتى — تضغطان شفتى ، وأنا بين ذراعيها ! وبأسرع من البرق انطلقت من كيانى نار مباغتة [٦٠] . فإذا وصلنا الرسالة التاسعة والعشرين وجدنا أنه أغواها ، أو أنها أغوته . ويهيم هو فى عوالم من النشوة ، ولكنها تحسب كل شىء قد ضاع . « إن لحظة غفلة واحدة قد أسلمتنى إلى تعاسة أبدية . لقد سقطت فى وهدة العار التى لامخرج منها [٦١] .

وتموت أم جولى كمدا حين تعلم بأن بكارتها فضت . ويقسم البارون أن يقتل سان — برو ، فيخرج هذا فى رحلة بحرية حول الأرض . وتتزوج جولى فولمار ، وهو روسى كريم المولد ، متقدم السن ، تكفيرا عن ذنبها وطاعة لأبيها ، ولكنها تظل تراسل سان — برو خفية ، وتشعر نحوه بعاطفة أقوى من حبها الواجب عليها لزوجها . ويدهشها أن تجد فولمار إنساناً طيباً ، وفيا ، حريصا على راحتها ، منصفا كريما

مع الجميع ، وذلك رغم إلحاده . وفى رسالة كتبتها لسان — برو تؤكد له أن الرجل والمرأة قد يجدان الرضى فى « زواج المصلحة » ولكنها لن تعرف السعادة الكاملة أبدا . فاعترافها قبل زواجها يثقل ذاكرتها وأخيرا تعترف لزوجها بلحظة الإثم تلك . ويقول أنه علم بها ، وصمم على ألا يذكرها أبدا . ويخبرها بأنه لم يكن إثماً قط ، وتأكيدا لغفرانه لها يدعو سان — برو للحضور والإقامة مع الأسرة معلما خاصاً لطفلهما ، ويحضر سان — برو ؛ ويؤكد لنا المؤلف أن الثلاثة يعيشون معاً فى وفاق حتى يفرق بينهم الموت . ويغيب الزوج العجيب أياما . وتخرج جولى وسان — برو للتجديف على بحيرة جنيف ، ويعبران إلى سافوى ، ويريها الصخور التى كتب عليها اسمها فى منفاه ، ويبكى ؛ وتمسك بيده المرتعشة ، ولكنهما يعودان بريئين من الأثم إلى بيتها فى كلارنس فى اقليم فو [٦٢] .

ويعجبان كيف يمكن لفولمار أن يكون بهذه الطبيعة دون إيمان دينى . ويفسر سان — برو هذه الظاهرة الشاذة ، وهو كجولى بروتستنتى متمسك بدينه :

« ان فولمار الذى أقام فى أقطار كاثوليكية رومانسية لم يغره ما خبره من إيمان أهلها . بأن يرى فى المسيحية رأياً أفضل . فقد رأى أن مذهبهم لايتجه إلا لمصلحة كهنتهم ، وهو يتألف بجملته من حركات مثيرة للسخرية ورطانة بألفاظ لامعنى لها . ولاحظ أن ذوى الفطرة السليمة والأمانة مجمعون على رأيه ، وأنهم لايتحرجون من الجهر برأيهم ، لا بل أن القساوسة أنفسهم فى الخفاء كانوا يهزأون سراً بما يعلمون ويثبتون فى الأذهان علانية ، ومن ثم فكثيراً ما أكد لنا أنه بعد أن أنفق كثيراً من الوقت والجهد فى البحث ، لم يلتق قط بأكثر من ثلاثة قساوسة يؤمنون بالله [٦٣] » . ويضيف رسو فى حاشية ، معاذ الله أن أوافق على هذه التأكيدات القاسية الطائشة ! ومع ذلك يذهب فولمار بانتظام إلى

الخدمات الدينية البروتستنتية مع جولى ، بدافع من احترامه لها ولجيرانه . وترى جولى وسان — برو فيه « أغرب اللامعقول » — إنسانا يفكر تفكير ملحد ويسلك مسلك مسيحى[٦٤] » .

وهو لايستحق اللطمة الأخيرة ، ذلك أن جولى تعهد إلى فولمار وهى على وشك الموت بحمى أصابتها وهى تنقذ ابنها من الغرق — بخطاب غير مختوم يعلن لسان — برو أنه كان على الدوام حبها الوحيد . وفى وسعنا أن نفهم دوام ذلك الحب الأول ، ولكن لم تجزى طول وفاء زوجها وثقته بها بمثل هذا الرفض القاسى وهى على فراش الموت ؟ أن هذا لايكاد يتفق والنبل الذى اضفاه المؤلف على خلق جولى .

ومع ذلك فهى من أعظم اللوحات فى القصص الحديث. وقد استلهمها روسو من وحى ذكرياته الخاصة رغم أن (كلاريسا) رتشردسن أوحت بها فى أغلب الظن ، الفتاتان اللتان قادا جواديهما عبر النهير فى آنسى ، والذكريات التى احتفظ بها فى اعزاز لمدام دفاران حين كانت تبسط عليه حمايتها فى سنوات صباه ، ثم لمدام دودتو ، التى أشعرته بفيض الحب حين وقفت سداً أمام شهوته ، وبالطبع ليست جولى واحدة من هاتين المرأتين ، ولعلها ليست أى امرأة التقى بها روسو طيلة حياته ، بل مثالا مخلقا من أحلامه . وقد أفسد الصورة اصرار روسو على جعل شخوصه كلها تقريباً تتكلم كروسو ، فجولى حين تزيدها الأمومة عمقا تغدو حكيمة من الحكماء ، فتطيل الحديث فى كل شىء من التدبير المنزلى إلى الاتحاد الصوفى بالله . وهى تقول لابد أن نفحص صحة هذه الحجة ، ولكن أى امرأة جديرة بالحب نزلت يوما ما إلى مثل هذه التفاهة .

أما سان — برو فهو بالطبع أشبه الشخوص بروسو ، حساس لكل مفاتن النساء ، تواق للركوع عند أقدامهن التى يحلم بها ، ويسكب عبارات الولاء والحب البليغة التى رددها فى وحدته . ويصفه روسو بأنه لا يفتأ

يأتى عملا مجنونا ثم يحاول أن يثوب إلى رشده [٦٥]. وسان — برو إنسان متزمت أشد التزمت باليقاس إلى لفليس الوغد السافر كما صوره رتشردسن. وهو الآخر لأبد أن ينطق بلسان روسو ، فهو يصف باريس بأنها دوامة من الشرور — غنى فاحش ، وفقر مدقع ، وحكومة عاجزة ، وهواء فأسد ، وموسيقى رديئة ، وأحاديث تافهة ، وفلسفة باطلة ، وأنهيار كامل تقريباً للدين ، والفضيلة ، والزواج ، وهو يردد مقال روسو الأول عن صلاح الإنسان الفطرى وتأثيرات الحضارة المفسدة المحطة ، ويهئ جولى وفولمار على أيثارهما حياة الريف الهادئة الصحية فى كلارنس .

أما فولمار فأكثر الأشخاص أصالة فى معرض روسو . فمن كان النموذج الذى حاكه المؤلف على غراره ؟ لعله دولباخ ، « الملحد اللطيف » ، والبارون الفليسوف ، والمادى الفاضل ، والزوج الوفى لزوجة واحدة ومن بعدها لأختها . أو لعله سان — لامبير ، الذى صدم روسو بتبشيره بالإلحاد ، ولكنه صفح عنه لمغازلته خليلته . ويعترف روسو صراحة باستخدامه النماذج الأصلية الحية والذكريات الشخصية :

« إن قلبى المفعم بما وقع لى ، والذى لم يزل جياشا بالكثير من الأنفعالات العنيفة ، أضاف الشعور بآلامه إلى الأفكار التى أوحى إلى بها التأمل ... وعلى غير وعى منى وصفت المواقف التى كنت فيها آنئذ ، ورسمت صوراً لجريم ، ومدام دبينيه ، ومدام دودتو ، وسان — لامبير ، ولشخصى [٦٦] » .

وخلال لوحات الأشخاص هذه عرض روسو جوانب فلسفته كلها تقريباً . فأعطانا صورة مثالية للزواج السعيد ، ولضيعة تدار بكفاية ، وعدالة ، ورحمة ؛ ولأطفال يربون ليكونوا مزيجا مثاليا من الحرية والطاعة ، ومن ضبط النفس والذكاء . وأستبق الحجج التى سيوردها فى كتابه « إميل » : أن يوجه التعليم أولا لتربية البدن ليكون صحيحا ، ثم لتربية الخلق ليعود النظام الصارم ، وبعد ذلك فقط لتربية الذهن ليعود الجدل العقلى. تقول جولى

« إن السبيل الوحيد لجعل الأطفال طيعين ليس سبيل الجدل العقلى معهم، بل إقناعهم بأن الجدل العقلى فوق سنهم[٦٧] . وينبغى ألا نلجأ إطلاقا للجدل العقلى، أو ألا يكون هناك أى تعليم عقلى ، قبل سن البلوغ . وحرصت القصة حرصاً شديداً على مناقشة الدين . فترى إيمان جولى يغدو الأداة لخلاصها ، وقد ألهمها الاحتفال الدينى الذى قدس زواجها إحساسا بالتطهر والوفاء . ولكنه إيمان بروتستنتى خالص ذلك الذى يشيع فى الكتاب . فسان — برو يسخر مما يبدو له من نفاق القساوسة الكاثوليك فى باريس ؛ ويندد فولمار بعزوبة الكهنة لأنها قناع يخفى وراءه الفجور ، ويضيف روسو بشخصه هذه العبارة : « إن فرض العزوبة على جماعة كبيرة مثل قساوسة الكنيسه الكاثوليكية الرومانية ليس لمنعهم من أن يكون لهم زوجات ، بقدر ما هو لأمرهم بأن يقنعوا بزوجات غيرهم من الرجال[٦٨] » . ويصرح روسو بهذه المناسبة بتأييده للتسامح الدينى ، ويبسطه حتى على الملحدين ، « أن المؤمن الحقيقى لا يتعصب ولا يضطهد غيره . ولو كنت قاضيا ؛ ولو قضى القانون بعقوبة الموت على الملحدين ؛ لبدأت بحرق كل مبلغ يشى بإنسان آخر ، لأنه هو نفسه ملحد[٦٩] » .

وكان للقصة تأثير بالغ فى تنبيه أوربا لمفاتن الطبيعة وروائعها . ففى فولتير ؛ وديدرو ، ودالامبير ، لم تشجع حمى الفلسفة وحياة الحضر الأحساس المرهف بجلال الجبال وجمال ألوان السماء . أما روسو فقد تميز بولادته فى أحضان أروع مناظر أوربا وقعا فى النفوس . وكان قد مشى من جنيف متجولا فى سافوى عبر الألب إلى تورين ، ومن تورين إلى فرنسا؛ وأستمتع بمشاهد الريف وأصواته وعبيره ؛ وأحس بكل شروق شمس كأنه إنتصار الأله على الشر والشك . وقد تصور توافقا صوفيا بين حالات مزاجه والمزاج المتغير للأرض والهواء ؛ وعانقت نشوة حبه كل شجرة وزهرة ، وكل ورقة عشب . وتسلق الألب إلى نصف أرتفاعها ، ووجد نقاء فى الهواء ، خيل إليه أنه يطهر أفكاره ويجلوها . وقد وصف هذه التجارب بأحساس وحيوية جعلا من تسلق الجبال ، لاسيما فى سويسرة ، رياضة من أكبر رياضات أوربا .

ولم يحدث من قبل فى الأدب الحديث أن ظفر الوجدان ، والعاطفة المشبوبة، والحب الرومانسى ، بمثل هذا العرض والدفاع المستفيضين البليغين. فلقد أعلن روسو ، فى تمرده على عبادة العقل من بوالو إلى فولتير ، مكانة الوجدان العليا وحقه فى أن يسمع فى ترجمة الحياة وتقييم القصائد ، وبرواية « هلويز الجديدة » أعلنت الحركة الرومانسية تحديها للعصر الكلاسيكى . وقد سبقتها بالطبع لحظات رومانسية حتى فى عز الكلاسيكية ، مثال ذلك أن أوتوريه دورفيه داعب الحب الريفى فى قصته « لاستريه » (١٦١٠ — ١٦٢٧) ، وأن الآنسة سكوديرى أسهبت فى وصف الغراميات فى قصتها « أرطمين ، أو قورش العظيم » (١٦٤٩ — ١٦٥٣) ، كذلك زاوجت مدام دلا فييت بين الحب والموت فى قصتها « أميرة كليف » (١٦٧٨) ، وأدخل راسين هذا الموضوع فى مسرحيته « فيدر » (١٦٧٧) ، وهى قمة العصر الكلاسيكى ، ونحن نذكر كيف ورث روسو الروايات الغرامية القديمة عن أمه ، وقرأها مع أبيه . أما جبال الألب فان البرشت فون هاللر كان قد تغنى بجلالها (١٧٢٩) ، كذلك تغنى جيمس طومسن بجمال الفصول ورهبتها (١٧٢٦ — ١٧٣٠) . ولا بد أن جان — جاك قرأ قصة بريفوست « مانون لسكو » (١٧٣١) ، وأحاط علما برواية رتشردسن « كلاريسا » فى ترجمة بريفوست (١٧٤٧ — ١٧٤٨) (لأنه كان يقرأ الأنجليزية بصعوبة) . ومن قصة الإغواء تلك التى طالت إلى ألفى صفحة (ولم تكتمل بعد) إقتبس شكل الرسائل فى الرواية لصلاحيته للتحليل النفسى ، وكما دبر رتشردسن لكلاريسا نجية تدعى الآنسة هاو ، كذلك دبر روسو لجولى نجية هى أبنة عمها كلير . ولاحظ روسو فى غيظ أن ديدرو نشر تقريظا حماسيا لرتشردسن (١٧٦١) عقب نشر جولى ، فحجب بذلك سناء قصته جولى .

ولا تقل رواية جولى عن كلاريسا أصالة ومآخذ ، وهى تسمو عنها كثيراً فى أسلوبها والروايتان غنيتان فى شطحات الخيال مثقلتان بالمواعظ . ولكن فرنسا ، التى تبز العالم أسلوبا ، لم تر قط اللغه الفرنسية تتخذ مثل هذا اللون ، والحرارة ، والنعومة ، والإيقاع ، فروسو لم يكن مجرد مبشر

بالوجدان ، إنما كان يملكه ، فكل ما يمسه مشرب بالحساسية والعاطفة . وقد نبتسم لنشواته ولكننا نجد أن ناره تدفئنا . وقد ننكر الخطب المقحمة ونمر بها مرور الكرام ، ولكننا نمضى فى القراءة ، وبين الحين والحين تتجدد حياة القصة بمشهد شعر به المؤلف شعورا حادا . كان فولتير يفكر بالآراء ويكتب بالأبجرامات ، أما روسو فكان يبصر بالصور ويؤلف بالأحاسيس . ولم تكن عباراته ووقفاته بريئة من الصنعة ، فقد اعترف بأنه كان يقلبها وهو فى فراشه حين تقصى النوم عن جفنيه عاطفة الفنان المشبوبة[٧٠] . يقول كانط « لأبد من أن أقرأ روسو إلى أن يكف جمال عبارته عن فتنتى ، وعندها فقط أستطيع أن أفحصه فى روية وتعقل[٧١] » .

ولقيت جولى النجاح فى أعين الجميع إلا الفلاسفة . فوصفها جريم بأنها تقليد هزيل لكلاريسا ، وتنبأ بأن النسيان سيطويها سريعا[٧٢] . وقال فولتير وهو يهدر غضبا (٢١ يناير ١٧٦١) لا تزدنى حديثا عن رواية جان — جاك من فضلك ، فلقد قرأتها لشدة أسفى ، ولشدة أسفه. لو كان لدى من الوقت ما يتسع لأبداء رأيى فى هذا الكتاب السخيف[٧٣] . وبعد شهر أفصح عن رأيه فى كتابه « رسائل حول هلويز الجديدة » الذى نشر بأسم مستعار . فنبه إلى الأخطاء اللغوية ، ولم تبدر منه أى إشارة تدل على تقديره لوصف روسو للطبيعة — وأن كان سيقلد جان — جاك بعد حين بتسلقه ربوة ليتعبد للشمس المشرقة . وتبينت باريس قلم فولتير ، وحكمت بأن « الشيخ » عضته الغيرة بأنيابها .

وإذا ضربنا صفحا عن هذه الوخزات ، فأن روسو إبتهج بالأستقبال الذى لقيه أول عمل مطول له . يقول ميشليه « لم يعهد فى تاريخ الأدب كله نجاح عظيم كهذا[٧٤] . » وظهرت الطبعة تلو الطبعة ، ولكن المطبوع كان أقل كثيراً من الطلب ووقف الجمهور فى طوابير أمام المكتبات لشراء الكتاب ، وكان القراء الملهوفون يدفعون أثنى عشر سوا فى الساعة ليستعيروه ، وقراء النهار يؤجرونه لغيرهم يقرؤنه فى الليل[٧٥] . وروى روسو فى أغتباط أن نبيلة طلبت مركبتها وقد تهيأت للذهاب إلى مرقص فى الأوبرا ، وشرعت تقرأ

جولى خلال ذلك ، وشوقتها القصة تشويقا أغراها بالمضى فيها حتى الرابعة صباحا بينما الخادمة والجياد فى أنتظارها [٧٦] . وقد عزا أنتصاره إلى اللذة التى يجدها النساء فى قراءة قصص الغرام ، ولكن كان هناك أيضا نساء مللن حياتهن خليلات ، وتقن إلى أن يكن زوجات ، وأن يكون لاطفالهن آباء . وتلقى روسو مئات الخطابات فى مونمورنسى يشكره فيها أصحابها على كتابه ، وكثر عدد النساء اللائى عرضن عليه حبهن حتى أنتهى به خياله إلى أنه « ما من امرأة فى المجتمع الراقى لم أكن لألقى التوفيق فى الأتصال بهـا لو حاولته [٧٧] » .

وكان من الطريف أن يكشف إنسان عن سريرته كشفا كاملا كما فعل روسو خلال سان — برو وجولى ، وليس هناك أكثر طرافة وإمتاعا من نفس إنسان تتجرد أمام الناظرين ولو تجردا جزئيا أو لاشعوريا . تقول مدام دستال « هنا مزقت كل أقنعة القلب [٧٨] » . وبدأ الآن سلطان الأدب الذاتى ، تلك السلسلة الطويلة الممتدة إلى زماننا ، من أنشاءات الذات ، من القلوب المحطمة فى صفحات مطبوعة ، من « النفوس الحمياة » التى تسبح فى المأساه جهارا نهارا . وفشا بين الناس الإفصاح عن حرارة العاطفة ، والأعراب عن الأنفعال والشعور ، لا فى فرنسا وحدها بل فى إنجلترة وألمانيا أيضاً . وبدأ يتلاشى الأسلوب الكلاسيكى ، أسلوب ضبط النفس ، والنظام ، والعقل ، والشكل ، وأوشكت دولة « الفلاسفة » أن تدول . لقد أصبح القرن الثامن عشر بعد عام ١٧٦٠ ملكا لروسو [٧٩] .



الفصل السابع

روسو الفيلسوف

١ — العقد الاجتماعى

قبل نشر « هلويز الجديدة » بشهرين كتب روسو إلى مسيو لينبس (١١ ديسمبر ١٧٦٠) يقول :

« لقد طلقت حرفة الكاتب إلى الأبد . وبقيت خطيئة قديمة يجب التكفير عنها فى كتاب مطبوع ، وبعدها لن يسمع الجمهور منى أبدا . ولست أعرف حظاً أسعد من أن يكون الإنسان مجهولا إلا من أصدقائه .... ومنذ الآن سيكون نسخ الموسيقى شاغلى الوحيد [١] » .

ثم كتب ثانية فى ٢٥ يوليو ١٧٦١ :

« ظللت عاقلا إلى الأربعين . ثم تناولت القلم ، وهأنذا أضعه قبل أن أبلغ الخمسين ، وأنا العن فى كل يوم من أيام حياتى ذلك اليوم الذى دفعنى فيه غرورى الأحمق إلى تناوله ، والذى رأيت فيه سعادتى ، وراحتى ، وصحتى ، كلها تتطاير هباء دون أمل فى أستعادتها ثانية [٢] » .

أكان هذا منه تظاهرا ؟ ليس بالضبط . صحيح إنه فى ١٧٦٢ نشر كتابيه « فى العقد الاجتماعى » و « إميل » ، ولكنهما كانا قد اكتملا قبيل ١٧٦١ ، وكانا « الخطيئة القديمة التى يجب التكفير عنها فى كتاب مطبوع » ، وصحيح إنه بعد ذلك كتب ردودا على رئيس أساقفة باريس ، وعلى مجمع الكنائس الجنيفى ، وعلى طلبات من كورسيكا وبولندة بأن يقترح عليهما دستورين ، ولكن هذه المؤلفات كانت مؤلفات مناسبات ، دعت إليها أحداث غير

متوقعة . وقد نشرت « الأعترافات » و « الحوارات » و « أحلام جوال منفرد » بعد موته . وهكذا التزم أساسا بتعهده الجديد . ولا عجب أن يشعر فى ١٧٦١ أنه قد أرهق ونضب ، لأنه كان قد ألف فى خمس سنوات ثلاثة أعمال كبرى ، كان كل منها حدثا فى تاريخ الأفكار .

ومنذ عام ١٧٤٣ يوم كان سكرتيرا للسفير الفرنسى فى البندقية ، هدته ملاحظته لحكومة البندقية بالقياس إلى الحكومتين الجنيفية والفرنسية إلى تخطيط رسالة هامة فى المؤسسات السياسية . وكان « المقالان » شرارتين بعثهما تلك النار ، ولكنهما كانا محاولتين متعجلتين لإثارة الأنتباه بالمبالغة ، ولم تنصف واحدة منهما فكره المتطور . وراح خلال ذلك يدرس أفلاطون ، وجروتيوس ، ولوك ، وبوفندورف . ولم تكتمل قط الرائعة الأدبية التى حلم بها . فروسو لم يوهب الذهن المنظم ، والإرادة الصابرة ، والطبع الهادئ الذى يتطلبه مشروع كهذا يقتضيه الأستدلال العقلى لا الوجدان فقط ، وإخفاء العاطفة لا إعلانها ، وكان مثل هذا الإنكار للنفس فوق طاقته . لقد كان هجرانه للتأليف أعترافا منه بالهزيمة . ولكنه أعطى العالم عام ١٧٦٢ قطعة رائعة من مخططه فى ١٢٥ صفحة نشرت بأمستردام تحت عنوان « فى العقد الاجتماعى ، أو مبادىء القانون السياسى » .

وكلنا يعرف الصيحة الجريئة التى استهل بها الفصل الأول « ولد الإنسان حرا وهو فى كل مكان مكبل بالأغلال » وقد افتتح روسو كتابه بمبالغة مقصودة ، لأنه عليم بأن للمنطق سلطانا منوما قويا ، وقد أصاب فى ضربه على هذه النغمة العالية ، لأن هذه العبارة أصبحت شعار قرن بأكمله . وافترض روسو هنا — شأنه فى « المقالين » — وجود « حالة طبيعية » بدائية لم تكن فيها قوانين ، واتهم الدولة القائمة بتدمير تلك الحرية ، واقترح بديلا عنها « ايجاد شكل من المجتمع يدافع عن شخص كل عضو فيه وعن متاعه ويحميهما بكل ما أوتى ذلك المجتمع من قوة مجموعه ، مجتمع يظل الإنسان فيه رغم اتحاده مع الجميع يطيع نفسه فقط ، ويبقى حراً كما كان من قبل ... تلك هى المعضلة الأساسية التى يقدم لها العقد الاجتماعى الحل [٣] » .

يقول روسو أن هناك عقدا اجتماعياً ، لا كتعهد من المحكومين باطاعة الحاكم ، كما جاء فى كتاب هوبز (اللوياثان) « الوحش » ، بل كاتفاق الأفراد على أن يخضعوا رأيهم ؛ وحقوقهم ، وسلطاتهم لحاجات ورأى مجتمعهم ككل . وكل شخص يدخل ضمنا فى مثل هذا العقد بقبوله حماية القوانين العامة . والسلطة العليا فى أى دولة لا تستقر فى أى حاكم — فرداً كان أو جماعة — بل فى « الإرادة العامة » للمجتمع ، وتلك السيادة لايمكن التخلى عنها أبدا وإن جاز تفويضها جزئيا إلى حين .

ولكن ما هذه « الإرادة العامة » ؟ أهى إرادة جميع المواطنين ؛ أم إرادة الأغلبية فقط ؟ ومن الذين يعتبرون مواطنين ؟ أنها ليست إرادة الجميع ، لأنها قد تناقض كثيرا من الإرادات الفردية . ولا هى دائماً إرادة الأغلبية الذين يعيشون (أو يصوتون) فى لحظة بعينها ، بل هى إرادة المجتمع باعتباره صاحب حياة ووافع مضافين إلى حيوات وإرادات الأعضاء الأفراد . (وروسو ، كمفكر واقعى من العصر الوسيط ، ينسب للجماعة مجتمعة ، أو للفكرة العامة ، واقعا بالإضافة إلى واقع أعضائها الأفراد . فالإرادة العامة أو « روح الجماعة » يجب أن تكون الصوت المعبر لا عن المواطنين الأحياء فحسب ، بل الأموات أو الذين لم يولدوا بعد ، ومن ثم فالذى يعطيها طابعها ليس هو الإرادات الراهنة فحسب ، بل تاريخ الجماعة الماضى وأهدافها المستقبلة . وما أشبهها بأسرة عريقة تفكر فى نفسها على أنها واحدة على مر الأجيال ، وتكرم أسلافها ، وتحمى أخلاقها — (بمعنى أن أباً من الآباء قد يدفعه التزامه قبل حفدته الذين لم يولدوا بعد إلى مناقضة رغبات أبنائه الأحياء ، وأن سياسيا ما قد يشعر بأنه ملتزم بالتفكير لابلغة انتخاب واحد بل أجيال(*) كثيرة .) ومع ذلك فان (صوت الأغلبية ملزم دائما للباقين جميعاً[٤]) . ومن له حق التصويت ؟ كل مواطن[٥] . ومن المواطن ؟ واضح أنه ليس كل بالغ ذكر . وروسو غامض جدا فى هذه النقطة ، ولكنه يمتدح دالامبير لتفريقه بين

(*) العبارة المحتواة بين القوسين تفسير اجتهادى وليست واردة صراحة فى روسو .

« طبقات الناس الأربعة ... الذين يسكنون مدينتنا (جنيف) ، وطبقتان من هؤلاء فقط تؤلفان الشعب . ولم يفهم كاتب فرنسي آخر ... المعنى الحقيقي لكلمة المواطن (٦) .

يقول روسو أن القانون ، في الحالة المثالية ، ينبغي أن يكون التعبير عن الإرادة العامة . فالإنسان بفطرته يغلب عليه الخير ، ولكن له غرائز يجب التحكم فيها ليصبح المجتمع أمراً ممكنا . وليس العقد الاجتماعي تمجيد « حالة الطبيعة » فروسو يتكلم لحظة كما يتكلم لوك أو مونتسكيو لا بل فولتير :

« ان الانتقال من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية يتمخض عن تغير ملحوظ جداً في الإنسان ، لأنه يحل القانون محل الغريزة في سلوكه ، ويضفي على أفعاله ، الفضيلة التي كانت تعوزها من قبل . ومع أنه في هذه الحالة (المدنية) يحرم نفسه من بعض المنافع التي تلقاها من الطبيعة . إلا أنه يكسب نظير ذلك منافع أخرى عظيمة جداً ؛ فقدراته تحفز حفزاً شديداً وتطور تطويراً كبيراً ، وأفكاره توسع كثيراً وروحه كلها تسمو سموا عظيما . ولولا أن مساوىء حالته الجديدة كثيراً ما تهبط به إلى مستوى أدنى من ذلك الذي تركه ، لكان عليه أن يبارك على الدوام تلك اللحظة السعيدة التي نقلته من حالته الأولى إلى غير رجعه ، والتي جعلته كائنا ذكياً وإنسانا بدلا من أن يظل حيوانا غبياً عديم الخيال (٧) .

وهكذا نجد روسو (الذي تكلم يوما ما كما يتكلم فوضوى لا يفلسف كلامه تماما) يناصر بكليته قداسة القانون ، إذا عبر القانون عن الإرادة العامة . فإذا لم يتفق فرد ما كما يحدث في حالات كثيرة -- مع تلك الإرادة كما يعبر عنها في القانون ، حق للدولة إكراهه على الخضوع (٨) . وليس هذا انتهاكا للحرية بل صيانة لها ، حتى للفرد المقاوم ، لأنه بفضل القانون وحده يستطيع الفرد في الدولة المدنية أن يتمتع بتحرره من العدوان ، والسرقة ، والاضطهاد ، وتشويه السمعة ، وعشرات الشرور الأخرى . ومن ثم فإن المجتمع بإكراهه الفرد على طاعة القانون إنما « يكرهه على أن يكون حراً » ف.

الواقع [٩] . وهذه هى الحالة على الأخص فى الجمهوريات ، لأن « طاعة القانون الذى نضعه لأنفسنا هى الحرية » [١٠] .

والحكومة جهاز تنفيذى تفوض فيه الإرادة العامة مؤقتا بعض سلطاتها . وينبغي أن تكون فكرتنا عن الدولة لا على أنها الحكومة فقط ، بل الحكومة ، والمواطنون ، والإرادة العامة أو روح الجماعة . والدولة تكون جمهورية إذا حكمتها القوانين لا المراسيم الأوتقراطية ، وبهذا المعنى يمكن حتى اعتبار الملكية جمهورية إذا حكمتها القوانين لا المراسيم الأوتقراطية ، وبهذا المعنى يمكن حتى إعتبار الملكية جمهورية . أما إذا كانت الملكية مستبدة — أى إذا كان الملك يضع القوانين وينفذها — فليست هناك جمهورية أو دولة ، بل طاغية يحكم عبيدا . ومن ثم رفض روسو الانضمام إلى أولئك الفلاسفة الذين امتدحوا « الاستبداد المستنير » — استبداد فردريك الثانى أو كاترين الثانية سبيلا لدفع الحضارة والإصلاح قدما . وكان رأيه إن الشعوب التى تعيش فى أجــواء قطبية أو مدارية قد تحتاج إلى الحكم المطلق حفاظا على الحياة والنظام ، [١١] أما فى المناطق المعتدلة فيحسن المزج بين الارستقراطية والديمقراطية . والارستقراطية الوراثية « اسوأ الحكومات قاطبة » ، والارستقراطية الانتخابية أفضلها [١٢] ، أى أن أفضل حكومة هى تلك التى تضع القوانين وتنفذها فيها أقلية من الرجال ينتخبون دوريا لتفوقهم الفكرى والخلقى :

أما الديمقراطية بوصفها حكما مباشرا بواسطة الشعب كله فقد بدت لروسوا مستحيلة .

« لو أخذنا هذا اللفظ بمعناه الدقيق لم نجد قط ديمقراطية حقيقية ، ولن توجد أبداً هذه الديمقراطية . فمما يناقض النظام الطبيعى أن تكون الكثرة حاكمة والقلة محكومة . ومما لا يمكن تصوره أن يظل الناس مجتمعين بصفة مستمرة ليتفرغوا للشئون العامة ، وواضح أنهم لايستطيعون إنشاء لجان لهذا الغرض دون تغيير فى شكل الحكومة » .

ثم كم من الظروف التى يصعب الجمع بينها تفترض لهذه الحكومة ؟

أولا دولة صغيرة جداً يمكن جمع الشعب فيها عاجلا ، ويمكن لكل مواطن فيها أن يعرف سائر المواطنين بسهولة ؛ ثانيا ، البساطة التامة فى العادات ، منعاً لتكاثر الأعمال وإثارة المشاكل الشائكة ، ثم قدر كبير من المساواة فى الرتب والثروات بدونه لا تستطيع المساواة فى الحقوق والسلطة البقاء طويلا ؛ وأخيراً قلة الترف أو انعدامه ، لأن الترف مفسدة الأغنياء والفقراء جميعاً — للأغنياء بالاقتناء ، وللفقراء بالاشتهاء . . وهذا هو ماحدا كاتباً شهيراً (مونتسكيو) إلى اعتبار الفضيلة المبدأ الأساسى للجمهوريات ، لأن هذه الظروف كلها لا يمكن توافرها بغير الفضيلة .. ولو كان هناك شعب من الآلهة لكانت حكومة ديمقراطية أما البشر فليست هذه الحكومة البالغة الكمال مما يناسبهم[١٣] .

وقد تغرى هذه الفقرات بسوء التفسير . فروسو يستخدم لفظ «الديمقراطية» بمعنى ندر أن ينسب له فى السياسة أو التاريخ ، وهو أنها حكومة تشرع فيها كل القوانين بواسطة الشعب كله المجتمع فى مجالس قومية . والواقع أن «الارستقراطية الانتخابية» التى فضلها هى ما يجب أن نسميه الديمقراطية النيابية... أى الحكومة التى يتولاها موظفون يختارهم الشعب لما يفترض فيهم من صلاحية عليا . على أن روسو يرفض الديمقراطية النيابية على أساس أن الممثلين أو النواب سرعان ما يشرعون لمصلحتهم لا للخير العام . « أن الشعب الإنجليزى يعتبر نفسه حراً ولكنه يخطىء بذلك خطأ فاحشا ؛ فهو حر فقط خلال انتخاب أعضاء البرلمان ؛ وما إن يتم انتخابهم حتى تسيطر العبودية على الشعب فلا يعود له وزن »[١٤] . فالممثلون يجب أن ينتخبوا ليشغلوا المناصب الإدارية والقضائية لا ليشرعوا ، ويجب أن تشرع جميع القوانين بواسطة الشعب فى جمعية عامة ، وأن يكون لتلك الجمعية سلطة إقالة الموظفين المنتخبين[١٥] . ومن ثم وجب أن تكون الدولة المثالية من الصغر بحيث تسمح لجميع المواطنين بالإجتماع مراراً كثيرة . « وكلما اتسعت الدولة تقلصت الحرية »[١٦] .

أكان روسو اشتراكيا ؟ إن «المقال» الثانى نسب جميع رذائل الحضارة إلى إقرار الملكية الخاصة ، ولكن حتى ذلك المقال رأى أن هذا النظام أعمق

جذورا فى البنيان الاجتماعى من أن يتيح القضاء عليه دون ثورة فوضوية مدمرة . « والعقد الاجتماعى » يسمح بالملكية الخاصة بشرط رقابة الجماعة ، فيجب أن تحتفظ الجماعة بكل الحقوق الأساسية، ولها أن تستولى على الأملاك الخاصة لخير المجتمع ، ويجب أن تحدد أقصى مايسمح للأسرة الواحدة بتملكه [١٧] . ولها أن تؤمن على توريث الملكية ، ولكن إذا رأت الثورة تنحو إلى تركز ممزق فلها أن تستخدم ضرائب التركات لإعادة توزيع الثروة والتخفيف من عدم المساواة الإجتماعى والإقتصادى . « يجب أن يتجه التشريع دائماً إلى الحفاظ على المساواة بالضبط لأن قوة الأشياء تتجه دائماً إلى القضاء عليها [١٨] . ومن أهداف « العقد الإجتماعى » أن يصبح الأفراد الذين قد يكونون مختلفين قوة أو ذكاء متساوين فى الحقوق الإجتماعية والقانونية [١٩] » . ويجب أن تفرض الضرائب العالية على الكماليات . « ان الحالة الاجتماعية لاتقيد الناس إلا إذا ملك كل فرد شيئاً ولم يملك أحد فوق ما ينبغى [٢٠] » . ولم يورط روسو نفسه فى القول بالجماعية ، ولا خطرت بباله قط (دكتاتورية البرولتاريا) ، وكان يحتقر البرولتاريا الوليدة فى المدن ، واتفق مع فولتير على تسميتها (الرعاع أوحثالة المجتمع) [٢١] . وكان مثله الأعلى طبقة فلاحين تعيش مستقلة رخية الحال ، وطبقة وسطى فاضلة تتألف من أسر كأسرة فولمار فى « هلويز الجديدة » وسيتهمه بيير — جوزف برودون بتمجيد البورجوازية» [٢٢] »

ترى أى مكان للدين فى الدولة ؟ لقد شعر روسو أن دينا ما لاغنى عنه للفضيلة ، «ما قامت دولة قط دون أساس دينى» [٢٣] .

« ان الحكماء أن حاولوا الكلام بلغتهم إلى القطيع العام بدلا من لغته لن يستطيعوا ايصال ما يريدون إلى أفهامهم ... ولكى يمكن شعب ناشىء من ايثار الأصول السليمة للنظرية السياسية ... يجب أن تصبح النتيجة سبباً : فالروح الاجتماعية التى ينبغى أن تخلقها هذه المؤسسات يجب أن تسود أساسها نفسه ، ويجب أن يكون الناس أمام القانون ما يجب أن يصبحوه بالقانون . إذن فالمشرع لعجزه عن الالتجاء إلى القوة أو للعقل

يجب أن يلجأ إلى سلطة من نوع مختلف ، قادرة على الكبح دون عنف . . هذا ما دعا آباء الأمم فى جميع العصور إلى الإلتجاء للتدخل الإلهى ، ونسبة حكمتهم هم لآلهتم ، حتى ، تطيع الشعوب بخضوعها لقوانين الدولة كما تخضع لقوانين الطبيعة ، . . دون عائق ، وتحتمل نير الخير العام عن طيب خاطر »[٢٤] .

ولن يتشبث روسو دائماً بهذا الرأى السياسى القديم فى الدين ، ولكنه فى « العقد الاجتماعى » جعل من الإيمان فوق الطبيعى أداة للدولة ، واعتبر القساوسة على أفضل تقدير ضربا من الشرطة السماوية . على أنه رفض اعتبار الكهنة الكاثوليك الرومان كذلك ، لأن كنيستها زعمت أنها فوق الدولة ، فهى إذن قوة مفسحة ، تقسم ولاء المواطن[٢٥] . وفضلا عن ذلك فإن المسيحى — كما زعم — إذا أخذ لاهوته مأخذ الجد ؛ يركز إهتمامه على الحياة الآخرة ، ولا يقيم وزنا يذكر لهذه الحياة الدنيا ، فهو إلى هذا الحد مواطن ضعيف . ومثل هذا المسيحى يكون جنديا وسطا ؛ قد يقاتل دفاعا عن وطنه ، ولكنه لا يفعل إلا تحت إكراه وأشراف مستمرين ، وهو لا يؤمن بشن الحرب دفاعا عن الدولة ؛ لأن له وطنا واحدا فقط — هو الكنيسة . والمسيحية تبشر بالعبودية والتبعية الطيعة ؛ ومن ثم كانت روحها مواتية جدا للاستبداد بحيث أن الطغاة يرحبون بتعاونها . « أن المسيحين الحقيقين خلقوا ليكونوا عبيداً[٢٦] » . وهكذا أتفق ورسو مع ديدرو ، وأستبق جيبون ؛ وكان فى تلك الفترة أشد عنفا فى عدائه للكاثوليكية من فولتير ؛ ومع ذلك شعر بأن دينا ما لا غنى عنه ؛ « دينا مدنيا » تصيغه الدولة وتفرضه فرضا على جميع سكانها . أما عن العقيدة :

« فأن عقائد الدين المدنى يجب أن تكون قليلة ؛ بسيطة ؛ دقيقة العبارة ؛ دون شروح أو تعليقات . فوجود إله قادر ؛ ذكى ؛ خير ؛ ذى بصيرة وتدبر ؛ ثم حياة آخرة ؛ وسعادة الأبرار ؛ وعقاب الأشرار ؛ وقداسة العقد الاجتماعى والقوانين ؛ تلك هى عقائد الدين الإيجابية[٢٧] » .

وهكذا إعترف روسو بعقائد المسيحية الأساسية ؛ على الأقل لأغراض

سياسية ؛ على حين رفض أخلاقياتها لغلوها فى المسالمة والدولية — على العكس تماماً ومما درج عليه الفلاسفة من الاحتفاظ بأخلاقيات المسيحية مع رفض لاهوتها . وقد سمح بأديان أخرى فى دولته الوهمية ، بشرط عدم تعارضها مع العقيدة الرسمية . وهو يتسامح مع الأديان « التى تتسامح مع غيرها » ؛ أما من يجسر على القول « بأنه لاخلاص خارج الكنيسة » فيجب طرده من الدولة ، إلا أن تكون الدولة هى الكنيسة ، والملك هو حبرها الأعظم[٢٨] . » ولا يسمح بانكار البنود الواردة فى ديانة الدولة .

« وإذا كانت الدولة لا تستطيع أكراه أحد على الإيمان بهذه البنود ، فإن فى إستطاعتها أن تنفيه ، لا لزندقته ، بل بوصفه كائنا أرستقراطيا ، عاجزا عن محبة القوانين والعدالة محبة صادقة ، وعن بذل حياته عند الحاجة فى سبيل الواجب . وإذا سلك إنسان — بعد إقراره بهذه العقائد علانية — مسلك من لا يؤمن بها ، كان عقابه الموت[٢٩] » .

وهذه الجملة الأخيرة هى أشهر الجمل فى « العقد الاجتماعى » بعد « ولد الإنسان حرا وهو فى كل مكان مكبل بالأغلال » وإذا أخذت بمنطوقها الحرفى كان معناها إعدام كل من يسلك مسلك من لا يؤمن بالله ، أو الجنة أو النار ، ولو طبقت على باريس ذلك الزمان لأنضبت تلك العاصمة من أهلها . ولعل حب روسو للعبارات المسرفة التى تهز القراء طوح به إلى أن يقول أكثر مما يعنى . ولعله تذكر مجمع أوجزنورج (١٥٥٥) الذى وافق فيه كل الأمراء الموقعين على قراراته على أن يكون لكل منهم الحق فى أن ينفى من أملاكه أى شخص لا يقبل مذهب الأمير . وفى قوانين جنيف إذا أخذت حرفيا (كما حدث فى حالة سرفيتوس) سابقة لوحشية روسو المفاجئة . وقد اعتبرت أثينا القديمة « رفض الأعتراف بالآلهة الرسميين » جريمة كبرى ، كما حدث فى نفى أناكساجوراس وقتل سقراط بالسم ، وكان هذا بالمثل القدر الذى بررت به روما الامبراطورية إضطهادها للمسيحين ، وأخذاً برأى روسو هذا فى معاملة المجرمين يمكن أن يوصف الأمر باعتقاله بأنه من أفعال المحبة المسيحية .

أكان « العقد الاجتماعى » كتابا ثوريا ؟ لا ونعم . فهنا وهناك ، وسط مطالبة روسو بحكومة مسئولة أمام الإرادة العامة ، تهدىء ثائرته لحظات من الحذر ، كما فى قوله : « لا شىء يمكن أن يعدل خطر تغيير النظام العام غير الأخطار الكبرى ، ويجب إلا تعطل السلطة المقدسة للقوانين إطلاقا مالم تكن حياة الوطن فى خطر »[٣٠] . ومع أنه حمل المالكية الخاصة اللوم على كل الشرور تقريباً ، إلا أنه دعا إلى صيانتها لأنها ضرورة يدعو إليها ما آل إليه الإنسان من فساد لا صلاح له . وتساءل ألا تعيد طبيعة الإنسان ، بعد أن يقوم بثورة ، نظما وعبوديات قديمة تحت أسماء جديدة ؟ « إن قوما تعودوا الخضوع لسادة لن يدعوا السيادة تتوقف . . . فهم إذ يحسبون الاباحية حرية ، تسلمهم ثوراتهم إلى أيدى مضللين لا يزيدونهم إلا رسوفا فى إغلالهم[٣١] ».

ومع ذلك كان صوت روسو أكثر أصوات العهد ثورية . ففى هذا الكتاب كان خطابه موجها لكثرة الشعب ، وإن غض من شأن الجماهير ولم يثق بها فى غيره من كتبه . لقد كان يعلم أنه لامناص من عدم المساواة ، ولكنه أدانه بقوة وبلاغة . وأعلن فى غير لبس أو غموض أن من حق الشعب أن يطيح بحكومة تصر على مخالفة الإرادة العامة . وبينما كان فولتير ، وديدرو ود الامبير ، ينحنون للملوك أو الأمبراطورات ، أطلق روسو على الحكومات القائمة صرخة احتجاج قدر لها أن تسمع من اقصى أوربا إلى إقصاها . وبينما إقتصر جماعة الفلاسفة ، الغارقين فى « الحالة الراهنة » على الدعوة لإصلاح تدريجى لشرور معينة ، هاجم جان — جاك النظام الاقتصادى ، والاجتماعى ، والسياسى بجملته ، وبشمول بدا معه كل علاج مستحيلا إلا علاج الثورة . ثم أعلن أنها آتية : « محال أن تعمر ممالك أوربا الكبرى أكثر مما عمرت . لقد كان لكل منها فترة مجدها ، ومآلها بعدها إلى الأضمحلال . . . إن الأزمة تقترب ، ونحن على شفا ثورة[٣٢] » . وتنبأ بوقوع تغييرات بعيدة المدى بعد أن تنشب هذه الثورة : « ستتطلع إمبراطورية روسيا إلى غزو أوربا ، وستغزى هى نفسها . وسيصبح التتار — رعاياها أو جيرانها — سادتها وسادتنا ، بثورة أراها آتيه لا ريب فيها[٣٣] ».

على أن « العقد الاجتماعي» الذى نرى فى نظرة مؤخرة أنه كان أكثر كتب روسو ثورية ، أثار ضجة أقل كثيراً مما أثارته « هلويز الجديده » . فلقد كانت فرنسا مهيأة للانفراج العاطفى والحب الرومانسى ، ولكنها لم تتهيأ لمناقشة الأطاحة بالملكية . وكان هذا الكتاب أكثر ما إنتج روسو إلى ذلك الحين من حجج مدعمة ، ولم يكن تتبعه سهلا كتتبع دعايات فولتير المتألقة . ونحن الذين راعنا مالقى من ذيوع متأخر ، يدهشنا أن نعلم أن شعبيته وتأثيره بدآ بعد الثورة لا قبلها[٣٤]. ومع ذلك نرى دالامبير يكتب لفولتير فى ١٧٦٢ قائلا : « لا جدوى من مهاجمة جان — جاك أو كتابه بصوت عال جداً ، فهـو أشبه بملك فى السوق (« لنزال »[٣٥] — أى بين العمال الغلاظ فى سوق باريس المركزيه ، و — بالتضمين — بين جماهير الشعب) . ولعل هذا كان غلوا فى القول ، ولكن لنا أن نعتبر عام ١٧٦٢ تاريخا لتحول الفلسفه من مهاجمة المسيحية إلى نقد الدولة .

وقل من الكتب ما أثار مثل هـذا النقد الكثير . وقد أشر فولتير على نسخه من « العقد الاجتماعى » بردود على الهامش ، فرداً على ما أشار به روسو من إعدام من يذنب بالكفر الأيجابى كتب «كل إكراه فى العقيدة مرذول[٣٦] » . ويذكرنا العلماء بقدم الدعوى بأن السيادة مستقره فى الشعب ، فقد قدم ما رسيليوس البادواوى ، ووليم أوكم ، وحتى اللاهوتيون الكاثوليك أمثال بيللارمين ، وماريانا ، وسواريز ، هذه الدعوى كأنها الضربة خلف ركب الملوك . وقد ظهرت من قبل فى كتابات جورج بوكانان وجروتيوس ، وملتن ، والجرنون سدنى ، ولوك ، وبوفندورف . . . إن « العقد الاجتماعى » شأنه شأن فلسفة روسو السياسية والأخلاقية كلها تقريباً ، هو صدى وأنعكاس لجنيف بقلم مواطن على بعد كاف يتيح له تمجيده دون أن يحس بمخالبها . لقد كان الكتاب مزيجا من جنيف وأسبرطة ، من « قواعد » كلفن و « قوانين » إفلاطون .

وبين عشرات النقاد ذلك التناقض بين النزعه الفردية فى مقالى « روسو وحرفية القانونية فى «العقد الاجتماعى » . لقد رفض فيلمر فى كتابه **Patriarcha**

(١٦٤٢) قبل مولد روسو بزمن طويل الفكرة التي تزعم أن الناس ولدوا متساوين ، فهم في ميلادهم خاضعون للسلطان الأبوى ولقوانين الجماعة وعاداتها . وروسو نفسه ، بعد الصرخة الأولى للدفاع عن الحرية ، أخذ يبتعد عن الحرية أكثر فأكثر متجها إلى النظام — إلى خضوع الفرد للارادة العامة . والتناقضات التي تلحظها في مؤلفاته هي أساساً بين خلقه وفكره ، فلقدكان فرديا متمردا بحكم مزاجه ، وعلته ، وأفتقاره إلى الأنضباط ، وكان بيئيا (لاشيوعياً إطلاقا ، ولا حتى جماعيا) بحكم إدراكه المتأخر لا ستحالة تكوين المجتمع الفعال من الخوارج . وعلينا أن نحسب حساباً للتطور ، فأفكار إنسان ما هي دالة خبرته وعمره ، ومن الطبيعي للمفكر أن يكون فردى النزعة في شبابه — فيحب الحرية ويبحث عن المثل العليا — وأن يكون معتدلا حين ينضج ، فيحب النظام ويرتضى الممكن . وقد ظل روسو من الناحية العاطفية طفلا طوال حياته ، ينكر العرف ، والمحظورات ، والقوانين ، ولكنه حين فكر تفكيراً منطقيا أدرك أن في الأمكان بقاء الكثير من الحريات في نطاق القيود الضرورية للنظام الاجتماعي ، وانتهى إلى أن يدرك أن الحرية في مجتمع ما ليست ضحية القانون بل ثمرته — وأنها تتسع ولا تضيق بطاعة الجميع لقيود يفرضونها على أنفسهم جماعة . وفي وسع الفوضويين الفلسفيين والشموليين السياسيين جميعاً أن يستشهدوا بروسو تأييداً لدعواهم(٣٧) ، وكلا الفريقين لا حق له في الأستشهاد ، لأنه اعترف بأن النظام أول قوانين الحرية ، والنظام الذى دافع عنه يجب أن يكون التعبير عن الأرادة العامة .

وقد نفى روسو أى تناقضات حقيقية في فلسفته فقال « كل أفكارى متسعة ، ولكنى لا استطيع عرضها كلها مرة واحدة(٣٨) » . وسلم بأن كتابه « في حاجه إلى أن يكتب من جديد ، ولكنى لست أملك من العافية ولا الوقت ما يسمح لى بذلك(٣٩) » ، فحين كانت العافية متاحة له سلبه الأضطهاد وقته ، وحين كف الأضطهاد وأتيح له الفراغ ، كانت العافية قد تضاءلت . وفي تلك السنوات الأخيرة باتت يتشكك في حججه ، « أن الذين يفاخرون بأنهم فهموا « العقد الاجتماعي » فهما تاما أذكى منى » . وقد أغفل تماماً ، من الناحية العملية ، المبادىء التي وضعها فيه ، ولم يخطر بباله قط أن

يطبقها حين طلب إليه وضع دستور لبولندة أو كورسيكا . ولو أنه مضى في خط التغير الذي اتبعه بعد عام ١٧٦٢ لا نتهى به المطاف إلى حضن الأرستقراطية ، والكنيسة ، وربما تحت سكين الجيلوتين .

٢ – اميـــل

(أ) تربيتـــه

في وسعنا أن نغتفر الكثير لكاتب أستطاع في خمسة عشر شهراً أن يصدر « هلويز الجديدة » (فبراير ١٧٦١) و « العقد الاجتماعي » (إبريل ١٧٦٢) ، « واميل » (مايو ١٧٦٢) . وقد نشر ثلاثتها في أمستردام ،ولكن « اميل » نشر في باريس أيضاً ، بإذن من الحكومة حصل عليه مالزيرب العطوف بمخاطرة كبيرة . ومن حق مارك – ميشيل راى ، الناشر الأمستردامي ، علينا أن نحييه تحيه عابرة ، ذلك أنه بعد أن كسب أرباحاً لم يتوقعها من هلويز أوقف على تريز معاشا سنويا مدى الحياة قدره ٣٠٠ جنيه ، وإذ تنبأ لاميل برواج أعظم من « العقد الاجتماعي » (الذي كان قد اشتراه بألف جنيه) دفع لجان – جاك سته الأف جنيه نظير المخطوطة الجديده الأطول من سابقتها .

أما الكتاب فكان بعضه ثمرة مناقشاته مع مدام دبينيه عن تربية ولدها ، وإتخذ أول شكل له في مقال صغير كتب – ليسر أماً طيبة قادرة على أن تفكر – وهي مدام دشنونسو ، أبنة مدام دوپان . وقد قصد به روسو أن يكون تذييلا لقصته « هلويز الجديده» : فكيف ينبغي أن ينشأ أبناء جولى ؟ وخامره الشك لحظه في صلاحية رجل أودع كل إطفاله في ملجأ للقطاء ، وفشل معلما خاصا في أسرة مابليه ، للكلام في موضوع الأبوة والتربية . ولكنه كعادته وجد لذة في إطلاق حبل خياله على غاربه دون أن يعوقه معوق من التجربة . ودرس مقالات « مونتيني » و « تلماك فنيلون » ، ورسالة في الدراسات لرولان ، وكتاب لوك « خواطر في التربية ». وكان « مقاله » الأول تحديا له ، لأنه صور الإنسان خيراً بفطرته ولكن أفسدته الحضاره بما فيها التربية . فهل في الأمكان الاحتفاظ بهذا الخير الفطري وتنميته بالتربية

الصحيحة ؟ لقد أجاب هلفتيوس قبيل ذلك بأن هذا ممكن ، وذلك فى كتابه « عن العقل » (١٧٥٨) ، ولكنه قدم حجة لا مخطط .

أما روسو فقد استهل كتابه برفض الطرق القائمة لأنها تلقن ، بالصم عادة ، أفكارا بالية فاسدة ، وتحاول جعل الطفل آلة طيعة فى مجتمع منحل ، وتمنع الطفل من التفكير والحكم لنفسه ، وتشوهه فتهبط بمستوى قدراته ، وتلوح بملاحظات تافهة وأقوال قديمة مبتذلة . وقد أخمد هذا التعليم المدرسى كل الحوافز الفطرية ، وجعل التربية عذابا يتوق كل طفل إلى تجنبه . ولكن التعليم يجب أن يكون عملية سعيدة فيها تفتح طبيعى ، وتعلم من الطبيعة والتجربة ، وتنمية حرة لقدرات الطفل نحو حياة فياضة لذيذة . يجب أن تكون « فن تدريب الناس [٤١] » والارشاد الواعى للجسم النامى ليبلغ الصحة ، وللخلق ليبلغ الفضيلة ، وللذهن ليبلغ الذكاء ، وللوجدان ليبلغ ضبط النفس وحب العشرة والسعادة .

وكان روسو يؤثر أن يكون هنالك نظام تعليم عام تقوم عليه الدولة ، ولكن بما أن التعليم العام كان يومها فى يد الكنيسة فقد أوصى بتعليم خاص يضطلع به معلم خاص أعزب ينقد أجراً نظير تكريس سنين كثيرة من حياته لتلميذه . وعلى هذا المعلم أن يبعد الطفل ما أمكن عن أبويه وأقاربه مخافة أن تصل إليه العدوى من رذائل الحضارة المتراكمة . وأضفى روسو على بحثه صبغة إنسانية بتخيله أنه قد فوض بكامل السلطة تقريبا ليربى غلاماً طيبا جدا يدعى إميل . وهى فكرة لا يمكن تصديقها ، ولكن روسو وفق فى أن يجعل هذه الصفحات — وعددها ٤٥٠ — أمتع كتاب ألف فى التربية اطلاقا . وقد تناول كانط « إميل » ليقرأه فاستغرق فى قراءته استغراقاً أنساه الخروج للتمشى فى نزهته اليومية [٤٢] .

ومادامت الطبيعة ستكون الهادى والمرشد للمعلم ، فسيعطى الطفل كل الحرية التى تسمح بها سلامته . وسيبدأ باقناع مربيته بأن تحرر الرضيع من أقمطته لأنها تعوق نموه وتطور أطرافه تطورا سليما . ثم يقنع أمه بارضاع طفلها بدلا من أن تعهد به لمرضعه ، لأن المرضعة قد تؤذيه بالقسوة أو الاهمال ،

أو قد تظفر منه - بفضل عنايتها الصادقة به - بتلك المحبة التى يجب بالطبيعة أن توجه للأم باعتبارها أول مصدر ورباط لوحدة الأسرة والنظام الأخلاق . وهنا ساق روسو عبارات كان لها تأثير جدير بالاعجاب على الأمهات الشابات فى الجيل الجديد :

« أتريدون أن تردوا الناس جميعاً إلى واجباتهم الفطرية ؟ إبدأوا بالأم إذن ، وسوف تدهشكم النتائج . فكل الشرور تأتى فى أعقاب هذه الخطيئة الأولى ... والأم التى يغيب أطفالها عن بصرها لاتكتسب الاحترام الكثير ، فليس هنا حياة أسرية ، وروابط الطبقة لاتتقوى بروابط العادة ، وليس هناك وجود بعد للآباء والأمهات والأخوة والأخوات . فهم أغراب تقريباً ، فكيف يحب بعضهم بعضا ؟ ان كلا منهم يفكر فى نفسه .

« أما إذا تنازلت الأمهات بإرضاع أطفالهن ، فسيكون هناك اصلاح فى الخلق سينتعش الشعور الفطرى فى كل قلب ، ولن تشكو الدولة فقرا فى عدد المواطنين . وهذه الخطوة الأولى وحدها ستعيد المحبة المتبادلة ومباهج البيت خير ترياق للرذيلة . عندها يغدو لعب الأطفال الصاخب متعة بعد أن كنا نحسبه شديد الارهاق لنا ، ويزداد اعزاز الأم والأب بعضهما لبعض ويقوى رباط الزواج . . . وهكذا يأتى الشفاء من هذا الشر الواحد باصلاح شامل . فتستعيد الطبيعة حقوقها . وإذا أصبحت النساء أمهات صالحات أصبح الرجال أزواجاً وآباء صالحين(٤٣) .

هذه الفقرات المأثورة جعلت إرضاع الأمهات لأطفالهن شطرا من تغير العادات الذى بدأ فى العقد الأخير من حكم لويس الخامس عشر . وكان بوفون قد أذاع مثل هذا النداء فى العقد السابق ولكنه لم يصل إلى نساء فرنسا . وبدأ الآن ظهور أجمل الصدور فى باريس أعضاء للأمومة فضلا عن كونها مفاتن جنسية ساحرة .

وقسم روسو حياة تلميذه التعليمية إلى ثلاث ، فترات إثنى عشرة سنة طفولة ، وثمانى سنوات صبى ، وعمر غير محدود للإعداد للزواج والأبوة ، وللحياة

الاقتصادية والاجتماعية . ففى الفترة الأولى يكون التعليم كله تقريباً بدنيا وخلقيا ، وعلى الكتب والتعلم من الكتب ، وحتى الديانة أن تنتظر نمو العقل ، فإلى أن يبلغ اميل الثانية عشرة لن يعرف كلمة فى التاريخ ، ولايكاد يسمع ذكر الله (٤٤) . فتربية الجسم يجب أن يشرع فيها أولا . ومن ثم يربى إميل فى الريف لأنه المكان الوحيد الذى يمكن أن تكون الحياة فيه صحية طبيعته :

لم يخلق البشر ليتكدسوا فى كثبان نمل ، بل لينتشروا على الأرض ليفلحوها . وكلما حشدوا معاً فسدوا . والمرض والرذيلة هما النيجتان المحتومتان للمدن المكتظة . . فأنفاس الإنسان تفتك باخوانه البشر . . . والإنسان تفترسه مدننا ، ولن تنقضى اجيال قليلة حتى ينقرض النوع الإنسانى أو ينحط ، فهو فى حاجة إلى التجديد ، وتجديده يكون دائماً من الريف . فأرسلوا أطفالكم إلى الخلاء ليجدوا أنفسهم . ارسلوهم ليستعيدوا فى الحقل المكشوف تلك العافية التى فقدوها فى الهواء الفاسد الذى يملأ مدننا المزدحمة(٤٥) .

شجعوا الصبى على حب الطبيعة والخلاء ، وعلى تربية عادات البساطة وعلى العيش على الأطعمة الطبيعية . وأى طعام ألذ من ذلك الذى زرعه المرء فى حديقته ؟ أن الغذاء النباتى أصح الأغذية ومن شأنه أن يقلل كثيراً من الأمراض والعلل (٤٦) .

ان عدم اكتراث الأطفال باللحم من الأدلة على أن الميل لأكل اللحم غير طبيعى . وهم يؤثرون الأطعمة النباتية واللبن والفاكهة الخ . . فحذار أن تغيروا هذا الميل الفطرى وتجعلوا أطفالكم أكلة للحوم . افعلوا هذا من أجل أخلاقهم أن لم تفعلوه من أجل صحتهم ، إذ كيف نعلل ان كبار أكلة اللحوم هم فى العادة أشد ضراوة وقسوة من غيرهم من البشر(٤٧) .

وبعد الغذاء الصحيح ، والعادات الطيبة يعلم إميل البكور فى الاستيقاظ . «رأينا الشمس تشرق فى منتصف الصيف وسنراها تشرق فى عيد الميلاد ..

لستا توءمي الضحي ، فنحن نلتذ بالبرد[٤٨] . وإميل يكثر من الاستحمام وكلما اشتد عوده قلل من حرارة الماء إلى أن يستحم أخيرا بالماء البارد، بل المثلج ، صيف شتاء . وتفاديا للخطر يكون هذا التغيير بطيئا ، تدريجيا ، غير محسوس[٤٩] . ونادراً ما يلبس على رأسه أى غطاء ، وهو يمشى حافياً طوال السنة إلا إذا خرج من بيته وحديقته . « يجب أن يعود الأطفال على البرد لا على الحر ، فالبرد الشديد لا يضرهم إطلاقا إذا تعرضوا له فى بواكير حياتهم[٥٠] » . وشجعوا محبة الطفل الطبيعية للنشاط والحركة « فلا تتركوه على السكون إن أراد الجرى ، ولا على الجرى أن إراد القعود . . . فليجر ، وليقفز ، وليزعق ما شاء[٥١] » . وأبعدوا عنه الأطباء ما أستطعتم[٥٢] . ودعوه يتعلم بالممارسة لا بالكتب ولا حتى بالتعليم ، دعوه يصنع الأشياء بنفسه ، وأكتفوا باعطائه المواد والأدوات . والمعلم الذكى يرتب المسائل والواجبات ، ويدع تلميذه يتعلم من ضربة تصيب إبهامة أو صدمة تصيب قدمه . وهو يحميه من الأذى البالغ لا من الآلام التى تربيه .

إن الطبيعة خير هاد ، ويجب أن تتبع فى أمر الأذى الذى نعرفه فى هذه الحياة :

« فلتكن قاعدتنا التى لانزاع عليها أن الدوافع الأولى للطبيعة صواب دائما . ليس فى القلب البشرى خطيئة أصليه . . فلا تعاقب تلميذك أبدا ، لأنه لا يعرف معنى الخطأ . ولا تجعله يقول « سامحنى » . . . فهو فى أفعاله التى لاصبغة أخلاقية لها كلها لا يمكن أن يأتى خطأ من الناحية الأخلاقية ، ولايستحق عقابا ولا تقريعا . . . فابدأ بترك بذرة شخصيته حرة فى الإفصاح عن نفسها ، ولا تقسره على شىء ، وبهذا يتكشف لك على حقيقته[٥٣] » .

على أنه سيحتاج إلى التربية الخلقية ، فبغيرها يصبح إنسانا خطرا تعساً . ولكن لا تعظه . فإن أردت لتلميذك أن يتعلم العدل والرحمة كن أنت عادلا رحيما فيقلدك . « القدوة القدوة ! فبدونها لن تنجح فى تعليم أى شىء للأطفال[٥٤] » . وهنا أيضاً قد تجد أساساً طبيعيا . فالخير والشر (من وجهة نظر المجتمع) كلاهما فطرى فى الإنسان ، وعلى التربية أن تشجع الخير

وتثبط الشر . ومحبة الذات عامة ، ولكن فى الأمكان تعديلها حتى لتدفع الإنسان إلى إقتحام الأخطار الداهمة حفاظا على أسرته ، أو وطنه ، أو عرضه. فهناك غرائز اجتماعية تحفظ الأسرة والجماعة كما أن هناك غرائز أنانية تحفظ الفرد(٥٥) . والرحمة قد تنبع من محبة الذات (كما يحدث حين نحب الأبوين اللذين يغذواننا ويحمياننا) ، ولكنها قد تؤتى ثمارا شتى من السلوك الاجتماعى والمعونة المتبادلة . ومن ثم فإن نوعاً من الضمير يبدو أنه عام وغريزى .

« ألق ببصرك إلى كل أمة فى الأرض ، واقرأ كل سفر من أسفار تاريخها ، ففى جميع ألوان العبادة العجيبة القاسية هذه ، وفى هذا التنوع المذهل من العادات والتقاليد ، ستجد فى كل مكان نفس الأفكار (الأساسية) أفكار الخير والشر . . . ففى إعماق قلوبنا مبدأ فطرى للعدل والفضيلة نحكم بمقتضاه — رغم قواعدنا — على إفعالنا ، أو أفعال غيرنا ، أخير هى أم شر ، وهذا المبدأ هو الذى نسميه الضمير(٥٦) » .

ومن ثم ينطلق روسو فى مناجاة سنجدها تتردد حرفياً تقريباً فى كانط :

« إيه أيها الضمير ! أيها الضمير ! أيها الفطرة المقدسة ، والصوت الخالد الآتى من السماء ، الهادى الأمين لإنسان هو جاهل محدود حقاً ، ولكنه ذكى حر ، أيها القاضى المعصوم والفيصل بين الخير والشر ، الذى يجعل الإنسان شبيها بالله ، فيك يكمن سمو طبيعة الإنسان وفضيلة أفعاله ، لست أجد فى نفسى إذا انفصلت عنك شيئاً يرفعنى فوق البهائم — لا شىء إلا إمتياز مؤسف — هو قدرته على أن يهيم من خطأ إلى خطأ بمعونة ذكاء طايق من كل قيد وعقل لا يعرف له مبدأ(٥٧) » .

إذن فالتربية العقليه يجب إلا تبدأ إلا بعد تكوين الخلق الفاضل . ويسخر روسو من نصيحة لوك بمناقشة الأطفال منطقياً :

« أن الأطفال الذين كانوا يناقشون عقليا باستمرار يبدون لى غاية فى البلاهة . فالعقل هو آخر ما ينمو من قدرات الإنسان وأسماها .. وأنت تريد أن تستخدمه لتدريب الطفل المبكر ؟ وجعل الإنسان منطقيا هو الحجر الأعلى

فى التربية الحسنة ، ومع ذلك تريد أن تربى الطفل عن طريق عقله . إنك إذن تبدأ من الطرف الخطأ[٥٨] » .

كلا ، بل يجب أن تؤجل التربية العقليه . « أبق ذهن الطفل (فكره) عاطلا أطول ما تستطيع[٥٩] » ، فإذا كانت له آراء قبل أن يبلغ الثانية عشرة فثق أنها ستكون سخيفة . ولا تزعجه فى هـذه السن بالعلم ، فهذا سباق لأنهاية له ، كل ما نكتشفه فيه إنما يزيدنا جهلا وغرورا أحمق[٦٠] » . فدع تلميذك يتعلم حياة الطبيعة وأساليبها بالتجربة ، دعه يستمتع بالنجوم دون الزعم بأنه يتتبع تاريخها .

ويمكن أن تبدأ التربية العقليه فى الثانية عشرة ، ويجوز لإميل أن يقرأ بعض الكتب . ويستطيع أن ينتقل من الطبيعة إلى الأدب بقراءة روبنصن كروزو ، لأنها قصة رجل جاز — على جزيرة — بمختلف المراحل التى جاز بها الناس من الهمجيه إلى المدنية . ولكن إميل لا يكون قد قرأ كتبا كثيرة حين يبلغ الثانية عشرة ، وسيضرب صفحا عن الصالونات والفلاسفة ، ولن يكترث للفنون ، لأن الجمال الحـق الوحيد كائن فى الطبيعة[٦١] : ولن يصبح أبدا « موسيقيا ، أو ممثلا ، أو مؤلفا[٦٢] » ، بل سيكون قد اكتسب مهارة كافية فى حرفة ما ليكسب قوته بعمل يديه أن اقتضته الظروف يوماً ما (وبعد ثلاثين عاماً سيندم الكثير من المهاجرين الذين لا حرفة لهم على أنهم سخروا كما سخر فولتير من النجار النبيل)[٦٣] . على أية حال يجب أن يخدم إميل المجتمع بيده أو بعقله (رغم أنه وارث لثروة متواضعة) ، « فالرجل الذى يأكل وهو عاطل ما لم يكسبه بجهده ليس إلا لصا[٦٤] » .

(ب) ديانتـه

واخيراً نستطيع أن نحدث إميل عن الله إذا بلغ الثامنه عشرة :

« إنى عليم أن الكثير من قرائى سيد هشهم أن يجدونى متتبعا سير تلميذى خلال سنيه الأولى دون أن أحدثه فى الدين . إنه وهو فى الخامسة عشرة لن يعرف حتى أن له نفسا ، وقد لا يكون فى الثامنة عشرة مهيأ بعد للإلمام

بهذه الحقيقة . . . . ولو كان على أن أصور الغباوة فى أفجع أشكالها لصورت معلما متحذلقا يلقن التعليم الدينى للأطفال ، ولو أردت أن أخرج طفل عن طوره لطلبت إليه أن يشرح ما تعلمه فى دروسه الدينية . . . لاشك أننا يجب ألا نضيع لحظة واحدة إن وجب أن نكون مستحقين للخلاص الأبدى ، ولكن إذا كان تكرار الفاظ معينه يكفى للحصول على هذا الخلاص فلست أرى لم لا نملاء السماء بالزرازير والعقاعق كما نملؤها بالأطفال(٦٥) » .

ثم جرد روسو أمضى سهامه على جماعة الفلاسفة ، رغم إعلانه هذا الذى أثار غضب رئيس أساقفة باريس . وليتصور القارىء فولتير أو ديدرو يقرءان هذا الكلام :

« لقد استشرت جماعة الفلاسفة ، فوجدتهم كلهم سواء فى الغرور ، والجزم ، والدجماطية ، يتظاهرون — حتى فى شكوكيتهم المزعومة — بأنهم عليمون بكل شيء ، لا يثبتون شيئا ، ويهزأ بعضهم ببعض . وقد بدت لى . . . . هذه الخاصة الأخيرة ، النقطة الوحيدة التى أصابوا فيها . فهم ضعاف فى الدفاع رغم تبجحهم فى الهجوم. زن حججهم تجدها كلها مدمرة ، وأحص أصواتهم تجد كلا منهم يتحدث عن نفسه وحده . . . . وما من واحد فيهم — إن تصادف واكتشف الفرق بين الباطل والحق — لا يؤثر باطله على الحق الذى اكتشفه غيره من قبله . فأين الفيلسوف الذى يعف عن خداع الدنيا بأسرها فى سبيل مجده(٦٦) » .

ومع أن روسو واصل تنديده بالتعصب ، فإنه على نقيض بيل أدان الكفر لأنه أشد خطرا من التعصب . وقدم لقراءه « إعلانا بالإيمان » رجا به أن يحول التيار من إلحاد دولباخ ، وهلفتيوس ، وديدرو ، عوداً إلى الإيمان بالله، وحرية الإرادة ، والخلود. وقد تذكر الرئيسين الدينيين — جيم وجاتييه — اللذين التقى بهما فى صباه ، فمزج بينهما وأخرج من المزيج كاهنا وهميا فى سافوى ، وأنطق هذا الكاهن الريفى بالمشاعر والحجج التى بررت (فى نظر روسو) العودة إلى الدين .

ويصور روبسو كاهن سافوى قسيساً على أبرشية صغيره فى الألب الايطاليه . وهو يعترف سرا بشىء من الشكوكية ، ويرتاب فى الوحى الإلهى للأنبياء ، وفى معجزات الرسل والقديسين ، وفى صحة الأناجيل[٦٧]؛ ثم يتساءل كما تساءل هيوم « من يجرؤ على أن يخبرنى كم شاهد عيان يقتضيهم إقناعنا بتصديق معجزة ما ؟ [٦٨] » وهو يرفض صلاة التضرع ، فصلواتنا يجب أن تكون ترانيم لمجد الله ، وتعبيرات عن امتثالنا لمشيئته[٦٩] . وهو يرى الكثير من مواد العقيده الكاثوليكية حديث خرافة أو اساطير الأولين[٧٠] . ومع ذلك يشعر بأنه يحسن خدمة شعبه بكتمان شكوكه ، وممارسة العطف على الجميع والبر بهم (مؤمنين وغير مؤمنين على السواء) . وأداء طقوس الكنيسة الرومانية كلها بأمانة . فالفضيلة ضرورية للسعادة ، والإيمان بالله ، وبحرية الإرادة ، وبالجنه ، وبالنار ، ضرورى للفضيله ، والأديان رغم ما قارفت من جرائم جعلت الرجال والنساء أكثر فضيلة ، أو على الأقل أقل قسوة ولؤما مما كان يمكن أن يكونوا . فإذا بشرت هذه الاديان بعقائد تبدو لنا غير معقولة ، أو إذا ارهقتنا بطقوسها ومراسمها ، وجب أن نسكت شكوكنا فى سبيل الجماعة .

والدين صواب فى جوهره حتى من وجهة نظر الفلسفة . ويستهل الكاهن الكتاب كديكارت بقوله « إننى موجود ولى حواس أتلقى من خلالها الانطباعات ، هذه أولى الحقائق التى تسترعى انتباهى ، وأنا مضطر إلى قبولها[٧١] » . وهو يرفض رأى باركلى : « إن سبب أحاسيسى خارج عنى ، لأنها تؤثر فى سواء كان عندى داع لها أو لم يكن ، وهى تخلق وتهدم مستقلة عنى .. إذن توجد كيانات أخرى فضلا عنى » . ونقطة ثالثة ترد على هيوم وتسبق كانط : انى أجد لدى القدرة على المقارنة بين أحاسيسى ، إذن فقد وهبت قوة ايجابية للتعامل مع التجربة[٧٢] . وهذا العقل لا يمكن تفسيره على أنه شكل من أشكال المادة ، فليس فى فعل التفكير أمارة على عملية مادية أو ميكانيكية . أما كيف يستطيع عقل غير مادى أن يؤثر فى جسم مادى فذلك أمر يجاوز فهمنا ، ولكنه حقيقة تدرك للتو ، ويجب ألا ننكرها لأجل الاستدلال

المجرد . وعلى الفلاسفة أن يتعلموا الاعتراف بأن شيئا ما قد يكون حقيقياً ولو عجزوا عن فهمه — خصوصاً إذا كان يدرك بأسرع من جميع الحقائق .

والخطوة التالية (كما يسلم الكاهن) هي الاستدلال العقلي الخالص ؟ فأنا لاأدرك الله بحسي ، ولكن استدل عقلا على أنه كما أن في أفعالي الارادية عقلا هو السبب المدرك للحركة ، كذلك هناك على الأرجح عقل كوني وراء تحركات الكون . إن الله لايمكن معرفته ، ولكني أشعر أنه تعالى موجود وفي كل مكان . وأبصر قصداً في مئات الحالات ، من تكوين عيني إلى حركات النجوم ، وينبغي ألا أفكر في أن أنسب إلى الصدفة (مهما ازداد تكاثرها «على طريقة ديدرو») تكييف الوسائل وفق الغايات في الكائنات الحية ونظام العالم ، أكثر مما أنسب إلى الصدفة تجميع الحروف تجميعاً للذيذا في طبع الانيادة(٧٣) .

فاذا كان هناك إله ذكي وراء عجائب الكون ، فمحال أنه سيسمح بأن يهزم الحق هزيمة دائمة . ولابد لي من الإيمان بإله خير يؤكد انتصار الخير ، ولو لأتحاشى ذلك الإيمان الكئيب بانتصار الشر . إذن يجب أن أومن بحياة آخرة ، بجنة تجزى فيها الفضيلة . ومع أن فكرة الجحيم تقززني ، وأوثر عليها الاعتقاد بأن الأشرار يصلون نار جهنم في قلوبهم ، فانني متقبل حتى تلك العقيدة الرهيبة إذا اقتضاها ضبط الدوافع الشريرة في الإنسان . وفي تلك الحالة أتوسل إلى الله ألا يجعل آلام الجحيم خالدة(٧٤) . ومن ثم كانت فكرة المطهر باعتباره مكاناً للعقوبة الممكن اختزالها للخطاة جميعاً إلا أشدهم عناداً وعصياناً أكثر انسانية من تقسيم الموتى كلهم إلى فريق المباركين إلى الأبد ، والهالكين إلى الأبد . وهبنا عاجزين عن البرهان على وجود الجنة ، فيالها من قسوة أن ننتزع من الناس هذا الرجاء الذي يعزيهم في أحزانهم ويشدد عزائمهم في هزائمهم(٧٥). ولو انعدم الايمان بالله وبالآخرة ؛ لتعرضت الفضيلة للخطر وتجردت الحياة من معناها ، لأن الحياة في الفلسفة الملحدة صدفة آليه تمر بمئات الآلام إلى موت أليم أبدي .

وعليه وجب أن نتقبل الدين على أنه فى مجموعه عطية كبرى للبشر ولاحاجة بنا إلى أن نعلق أهمية كبيرة على شتى المذاهب التى مزقت المسيحية ، فكلها خير إذا حسنت السلوك وغذت الرجاء . ومن السخف أن نفترض أن أصحاب العقائد والآلهة والأسفار المقدسة الأخرى سوف يحكم عليهم بالهلاك ، «فلولم يكن على الأرض سوى دين واحد ؛ ولو حكم على كل الخارجين عنه بالعقاب الأبدى . لكان إله ذلك الدين أظلم الطغاة وأقساهم[٧٦]. وعليه فلن يعلم إميل لونا بعينه من المسيحية ، ولكنا سنعطيه الوسيلة لأن يختار لنفسه حسبما يرتئيه عقله صوابا[٧٧] . وخير الطرق أن نمضى فى الدين الذى ورثناه عن آبائنا أو مجتمعنا . ونصيحة كاهن روسو الوهمى له هى « عد إلى وطنك ؛ وارجع إلى دين آبائك ، واتبعه بكل قلبك ولا تتخل عنه أبدا فهو بسيط جداً ومقدس جدا ، وما من دين آخر تجد فيه الفضيلة أشد نقاء ، ولا العقيدة أكثر اشباعا للعقل[٧٨] . »

وكان روسو عام ١٧٥٤ قد سبق إلى هذه النصيحة ، وعاد الى جنيف وعقيدتها ، على أنه لم يف بوعد الذهاب اليها والإقامة فيها بعد أن يسوى أموره فى فرنسا . وفى «رسائل من الجبل» التى كتبها بعد عشر سنوات تنكر لمعظم دين آبائه كما سنرى . وفى العقد الأخير من حياته سنجده يوصى غيره بالدين ، ولكنه لايكاد يبدى أمارة على الإيمان الدينى أو الممارسة الدينية فى حياته اليومية . واجمع الكاثوليك والكلفنيون واليسوعيون على مهاجمته هو «واعلان الإيمان» الذى ناب عن عقيدته لأنهما أساسا غير مسيحيين[٧٩]. وصدم التعليم الذى اقترحه لإميل قراءه المسيحيين لأنهم رأوه فى حقيقته تعليما لادينيا ، وخامرهم الظن فى أن فتى من أواسط الشباب ، نشىء على غير دين ، لن يعتنق دينا بعد حين ، إلا لداعى المصلحة الاجتماعية . وقد رفض روسو عقيدة الخطيئة الأصلية والدور الفدائى الذى يؤديه موت المسيح وذلك برغم قبوله الرسمى للكلفنية . وأبى قبول العهد القديم بوصفه كلمة الله ، وذهب إلى أن العهد الجديد «يحفل بأشياء لايمكن تصديقها ، أشياء ينفر منها العقل[٨٠]» . ولكنه أحب الأناجيل لأنها أعظم الأسفار تأثيرا وإلهاما للنفس .

أيمكن أن يكون كتاب اجتمع له كل هذا الجلال والبساطة فى وقت معاً من عمل إنسان ؟ أيمكن أن يكون ذلك الذى احتوى تاريخه فيها مجرد انسان ؟ . . . أى رقة وطهر فى أفعاله ، وأى نعمة تمس القلوب فى تعاليمه ، وما اسمى أقواله ، وما أعمق حكمة مواعظه ، وما أعظم إجاباته سدادا وتمييزا وأى إنسان ، وأى حكيم يستطيع أن يحيا ويتألم ويموت دون ضعف أو تباه ؟ . . . إذا كانت حياة سقراط وموته هما حياة فيلسوف وموته ، فحياة المسيح وموته هما حياة إله وموته[٨١] .

جـ — حبه وزواجه

حين اختتم روسو صفحات كاهن سافوا الخمسين وعاد إلى إميل تصدى لمشاكل الجنس والزواج .

فهل يحدث تلميذه عن الجنس ؟ لاتفعل حتى يسألك . فإذا سألك فاخبره بالحقيقة[٨٢] . ولكن افعل كل ما يتفق والصدق والصحة لكى تؤجل وعيه بالجنس . على أى حال لاتنبه هذا الوعى : « إذا اقتربت السن الحرجة فقدم للشباب من المشاهد ما هو كفيل بالحد من رغباتهم الجنسية لا بإثارتها . . . أبعدهم عن المدن الكبيرة حيث يعجل لباس النساء اللاتى يعرضنه فى زهو وتباه ، وتعجل جرأتهن دوافع الطبيعة وتستبقها ، وحيث يعرض كل شىء على أبصارهم ، لذات يجب ألا يعرفوا عنها شيئاً حتى يبلغوا من العمر ما يمكنهم من أن يختاروا بأنفسهم . . . وإذا أبقاهم ميلهم للفنون فى المدينة فابعدهم عن . . . حياة التبطل الخطرة . واختر بعناية عشراءهم ، وشواغلهم وملاهيهم ، ولاترهم شيئاً غير الصور المحتشمه المثيرة للشفقة . . . وغير حسهم المرهف دون أن تثير حواسهم[٨٣] . »

وأقلقت روسو العواقب الوخيمة لعادة يبدو أنه عرفها معرفة خبير :

« حذار أن تترك الفتى ليلا ولا نهارا ، وعليك على الأقل أن تقاسمه حجرته . وإياك أن تسمح له بالذهاب إلى فراشه حتى يأخذ الكرى بجفونه ، ثم اجعله ينهض بمجرد استيقاظه . . . فلو أنه اعتاد هذه العادة الخطرة

لك . فسيتنبه جسمه ونفسه من تلك اللحظة فصاعداً، وسيحمل إلى الغير آثار . . . أضر عادة يكتسبها شاب » .

ثم يضع هذا القانون لتلميذه .

« إن عجزت عن التحكم فى شهواتك ياعزيزى إميل فإنى أرثى لك ، ولكنى لن أتردد لحظة ، فلن أسمح بالروغان من مقاصد الطبيعة . وإذا كان حتما عليك أن تكون عبداً فإنى أوثر أن أسلمك إلى طاغية قد أنقذك منه ، فهما حدث ، فإنى قادر على تحريرك من العبودية للنساء بسهولة أكثر من عبوديتك لنفسك[٨٤]».

ولكن لا تدع رفاقك يغرونك بالذهاب إلى ما خور ! « فلم يريد هؤلاء الفتيان أغراءك ؟ لأنهم يرغبون فى إفسادك . . . فحافزهم الوحيد هـــو غل دفين لأنهم يرونك خيراً منهم ، فهم يريدون أن يجروك إلى الهوة التى تردوا فيها » .

والزواج خير من هذا . ولكن ممن ؟ يصف المعلم المثل الأعلى للفتاة ، والمرأه ، والزوجة ، ويحاول أن يطبع ذلك المثل على ذهن إميل هاديا له وهدفا فى البحث عن زوجة . وكان روسو يخاف النساء المسترجلات ، المسيطرات ، الوقحات ، ويرى سقوط الحضاره فى تسلط النساء المسترجلات استرجالا متزايداً على الرجال المخنثين تخنثا متزايدا «فى كل بلد تجد أن الرجال من النوع الذى تصنعة النساء . . . . فردوا النساء إلى الأنوثه ، نعد رجالا مرة أخرى[٨٥] » أن نساء باريس يغتصبن حقوق جنس دون أن يردن التخلى عن حقوق الآخر ، وهن لذلك لا يملكن هذه ولا تلك مكتمله[٨٦] » . والقوم يتصرفون بطريقه أفضل فى الأقطار البروتستنتية حيث الحشمة ليست أضحوكة بين المسفسطين بل وعدا يبشر بأمومة أمينة[٨٧] . أن مكان المرأة فى البيت ، كما كانت الحال عند قدماء اليونان ، ويجب أن تقبل زوجها سيدا ولكن يجب أن تكون صاحبة الكلمة العليا فى البيت[٨٨] . وبهذه الطريقة تصان صحة النوع .

ويجب أن تهدف تربية الفتيات إلى أخراج أمثال هؤلاء النساء . يجب أن يربين في البيت على أيدي أمهاتهن ، وأن يتعلمن كل فنون البيت ، من الطهو الى التطريز ، وأن يحصلن الكثير من الدين ، بأسرع ما يمكن ، لأن من شأن هذا أن يعينهن على الحشمة ، والعفة ، والطاعة . وعلى البنت أن تقبل دين أمها دون جدل ، ولكن على الزوجة أن ترتضي دين زوجها[٨٩] على أية حال لتتجنب الفلسفة وتحتقر حياة الصالونات[٩٠] . على أنه يجب إلا تكره الفتاة على الإحجام الغبي ، فينبغي أن تكون خفيفة الروح ، مرحة ، تواقة ، وأن تغني وترقص كما تشتهي ، وتستمتع بكل لذات الشباب البريئة ، ولتذهب إلى المراقص والألعاب الرياضية ، وحتى إلى المسارح — تحت الملاحظة الواجبة وفي صحبة طيبة[٩١] . ويجب العمل على أن يظل ذهنها نشيطا يقظا إن أريد بها أن تكون زوجة صالحة لرجل مفكر « ولابأس بأن يسمح لها بقدر من التدلل » باعتبار هذا جزءا من اللعبة المعقدة التي تختبر بها خطابها وتختار زوجها[٩٢] . ان الرجل هو موضوع الدرسة الصحيحة لجنس النساء[٩٣] .

فإذا ثبت هذا المثل الأعلى للفتاة والمرأة في آمال إميل جاز له أن يخرج ويبحث عن زوجته . وهو الذي يختار ، لاأبواه ولامعلمه . ولكن من واجبه نحوهم ونحو خدمهم عليه سنين طوالا ، أن يستشيرهم في احترام . أتريد أن تذهب إلى المدينة وتتطلع إلى الفتيات اللاتي يعرضن هناك ؟ حسنا جداً ، سنذهب إلى باريس وسترى بنفسك حقيقة هؤلاء الأوانس المثيرات . وهكذا يعيش إميل برهة في باريس ويختلط بـ « المجتمع الراقي » . ولكنه لايجد فيه فتاة من النوع الذي وصفه له معلمه الماكر « إذن وداعاً ياباريس الذائعة الصيت ، بكل ما فيك من ضجيج ودخان وقذارة ، حيث كفت النساء عن الإيمان بالشرف ، والرجال عن الإيمان بالفضيلة ، إننا نبحث عن الحب والسعادة والبراءة ، وكلما بعدنا عن باريس كان خيرا لنا[٩٤] .

وعليه يقفل المعلم وتلميذه إلى الريف ، وإذا هما يصادفان صوفي في قرية هادئة نائية عن الزحام المجنون . هنا (الكتاب الخامس) تتحول

رسالة روسو إلى قصة حب مثالية التصوير ولكنها مبهجة ، تروى ببراعة كاتب قدير . فبعد تلك الأحاديث المسهبة فى التعليم والسياسة والدين ، يعود إلى الشاعرية والخيال ، وبينما تنكب تريز على أشغال بيتها ، يعاود أحلامه بتلك المرأة الرقيقة التى لم يجدها إلا فى لحظات متفرقة من جولاته، ويطلق عليها اسما اشتقه من آخر غرام اشتعل فى قلبه .

وصوفى الجديدة هذه ابنة سيد كان يوما ما ثريا ، يعيش الآن فى عزلة وبساطة قانعتين. فتاة صحيحة الجسم، جميلة ، محتشمة ، رقيقه — ونافعة وتعين أمها بكفايتها السريعة الهادئة فى كل شيء « ما من شيء لاتستطيع عمله بأبرتها[٩٥] » . ويجد إميل المبرر لمعاودة لقائها ، وتجد هى المبرر لمزيد من زياراته . وشيئاً فشيئاً يتضح له أن صوفى حائزة لكل الفضائل التى صورها له معلمه فى صورة مثالية . فيا للصدفة الإلهية ! وبعد أسابيع يصل إلى القمة التى تدير رأسه ، قمة لثم هدب ثوبها . وما هى إلا أسابيع أخر حتى يخطبها . ويصر روسو على أن تكون الخطبة احتفالا رسمياً مهيبا فيجب أن تتخذ كل التدابير — بالطقوس وسواها — للتسامى بقدسية رباط الزوجية وإقرارها فى الذاكرة ، وبينما يرتعش إميل وهو على حافة النعيم، يحمله معلمه العجيب الذى يضرب بالحرية والطبيعة عرض الحائط على ترك خطيبته والغياب عنها عامين والسفر إمتحاناً لحبهما ووفائهما . ويبكى إميل ويصدع للأمر ، فإذا عاد وهو محتفظ بعذريته كأنما بمعجزة وجد صوفى عفيفة فى وفاء ، فيتزوجان ، ويرشدهما المعلم إلى واجبات الواحد نحو صاحبه ؛ فيطلب إلى صوفى أن تطيع زوجها إلا فيما يتصل بالفراش والمأكل « ستهيمنين عليه طويلا بالحب إذا جعلت وصلك له نادرا غالياً . . ؛ وليكرم إميل عفة زوجته دون أن يشكو من برود عاطفتها[٩٦] . ويختتم الكتاب بنصر ثلاثى :

« ذات صباح » يدخل إميل حجرتى ويعانقنى قائلا : « هنىء ابنك يا أستاذى فهو يأمل أن يحظى بعد قليل بشرف الأبوة . ما أعظم المسئولية التى ستتحملها ،وما أشد حاجتنا إليك ! ولكن معاذ الله أن أدعك تربى

الولد كما ربيت الولد ، معاذا الله أن يقوم إنسان غيرى بهذه المهمة اللذيذة المقدسة . . . ولكن واصل مهمة تعليم المعلمين الشابين . أبذل لنا النصح وأشرف علينا . وسيسلس قيادنا لك وسأحتاج إليك ما حييت . . . . لقد أديت واجبك فعلمتنى كيف اقتدى بك ، بينما تستمتع أنت بالفراغ الذى تستحقه جزاء جهودك[٩٧] » .

لقد اتفق العالم عموما بعد قرنين من الثناء ، والسخرية ، والتجربة على أن « اميل » كتاب جميل موح ، ومستحيل . فالتربية موضوع ثقيل ، لأننا نتذكرها فى ألم ، ولانحب أن نسمع المزيد عنها ، ونكره أن تفرض علينا من جديد بعد أن أتممنا مدة الخدمة التى فرضت علينا فى المدرسة . ومع ذلك فقد صنع روسو من هذا الموضوع المنفر رواية تسحر قارئها . فالأسلوب البسيط ، المباشر الشخصى يأسرنا برغم ما شابه من تمجيد بليلغ ، ونحن ننساق للرواية ونسلم أنفسنا لذلك المعلم الكلى العلم ، وأن ترددنا فى إسلام أبنائنا له . ذلك أن روسو ، بعد أن امتدح حدب الأم وحياة الأسرة ، يأخذ إميل من أبويه وينشئه فى عزلة مضادة للفساد عن المجتمع الذى لابد له من العيش فيه بعد حين . وروسو لم يرب أطفالا قط ، لذلك لايعلم أن الطفل المتوسط هو بـ « الطبيعة » لص صغير ، غيور ، جشع ، مسيطر ، ولوانتظرنا حتى يتعلم الانضباط دون أوامر ، والاجتهاد دون تعليم ، لشب إنساناً سيىء التكيف ، بليداً قليل الحيلة ، فوضوياً ، قذر الجسم أشعث الشعر ، لايطاق . وأنى لنا هؤلاء المعلمون الخصوصيون الراغبون فى تكريس عشرين عاما من حياتهم لتربية طفل واحد ؟ تقول مدام دستال (١٨١٠) أن هذا الضرب من العناية والاهتمام . . . يضطر كل رجل إلى تكريس حياته كلها لتربية مخلوق آخر ، ولا تتاح الحرية فى النهاية إلا للاجداد ليهتموا بمصالحهم[٩٨] .

وأكبر الظن أن روسو أدرك هذه الصعوبات وغيرها بعد أن أفاق من نشوة تأليف كتابه . فقد جاءه فى ستراسبورج عام ١٧٦٥ أحد المتحمسين له وهو يتدفق ثناء وقال له « سيدى انك ترى رجلا ينشىء أبناءه على المبادىء التى أسعده أن يتعلمها من كتابك اميل » . وقال روسو

غاضبا » هذا أسوأ لك ولأبنك[٩٩] . وفى الرسالة الخامسة من « رسائل من الجيل » بين أنه لم يؤلف إميل للآباء العاذيين بل للحكماء « لقد أوضحت فى المقدمة أن اهتمامى كان بتقدم خطة نظام جديد للتربية لينظر فيه الحكماء ، لا طريقة يستخدمها الآباء والأمهات[١٠٠] » . فهو كمعلمه افلاطون انتزع الطفل من أذى أبويه مؤملا أن يصبح صالحاً لتربية اطفاله بعد ان اكتملت له التربية المنقذة . وكأفلاطون « ذخر فى السماء أنموذجا لحالة أو طريقة مثالية ، حتى « يشهدها كل راغب ، فإذا شهدها استطاع أن يوجه نفسه وفقها[١٠١] » . وقد اذاع على الناس حلمه هذا ، عسى أن يحمل الإلهام فى بلد ما ، لبعض الرجال والنساء ، ويعين على صلاح الحال . ولقد فعل .



الفصل الثامن

روسو المنبوذ

١٧٦٢ — ٦٧

١ — الهروب

عجيب أن يفلت من الرقيب كتاب يحوى ما حوى إميل من هجوم صريح على كل شيء إلا أسس المسيحية ، وأن يطبع فى فرنسا . و لكن الرقيب كان مالزيرب المتسامح العطوف . وقبل أن يأذن بالنشر حث روسو على أن يحذف فقرات من المؤكد أنها تدفع الكنيسة إلى العداء النشيط . ولكن روسو رفض . ولقد نجا زنادقة آخرون من الاضطهاد لأشخاصهم بالتخفى وراء أسماء مستعارة ، أما روسو فقد ذكر اسمه بشجاعة على صفحات غلاف كتبه .

وبينما ندد جماعة الفلاسفة بإميل باعتباره خيانة أخرى للفلسفة ، أدانه أحبار فرنسا وقضاة باريس وجنيف باعتباره مروقا من المسيحية . وأعد رئيس أساقفة باريس ، عدو الجنسنين ، للنشر فى أغسطس ١٧٦٢ رسالة قوية تهاجم الكتاب . وكان برلمان باريس المناصر للجنسنين مشغولا بطرد اليسوعين ، ولكنه أراد رغم ذلك أن يبدى غيرته على الكاثوليكية ، وأتاح له ظهور إميل فرصة ليضرب ضربته دفاعا عن الكنيسة . واقترح مجلس الدولة الذى كان يخوض حربا مع البرلمان ، ويكره أن يكون دونه غيرة على سلامة العقيدة ، أن يلقى القبض على روسو . فلما نمى الخبر إلى أصدقاء روسو من النبلاء نصحوه بالرحيل فورا عن فرنسا . وفى ٨ يونيو بعثت إليه مدام دكريكى رسالة تشى بانفعالها . قالت : لاريب فى أن أمراً صدر بالقبض عليك . فاستحلفك بالله أن تهرب . . . إن حرق كتابك ان يضيرك أما شخصك فلا يطيق السجن . فاستشر جيرانك (١) .

أما الجيران فكانا مرشال ومرشالة لكسمبورج . وقد خشيا أن يتورطا فى الأمر لو قبض على روسو [٢] ، فحثاه هما وأمير كونتى على الهروب إلى سويسرة ، وأعطوه مبلغا من المال وعربة ليعبر بها الطريق الطويل من فرنسا إلى سويسره . وأذعن روسو على مضض . وترك تريز فى رعاية المرشالة . وبرح مونمورنى فى ٩ يونيو . فى ذلك اليوم حضر مرسوم بالقبض عليه ولكنه نفذ ببطء رحيم ، لأن الكثيرين من رجال الحكومة سرهم أن يتركوه يهرب . وفى ذلك اليوم ذاته قال الأستاذ أومير جولى دفلورى لبرلمان باريس وهو يلوح بنسخة من إميل :

« يبدو أن هذا العمل ألف لهدف واحد هو رد كل شىء إلى الدين الطبيعى ، وتطوير ذلك النظام الإجرامى فى خطة المؤلف لتربية تلميذه ...

وأنه ينظر إلى جميع الأديان على أنها تستوى فى الخير ، وعلى أنها كلها منبعثة من مناخ الناس ، وحكومتهم وطبعهم . . وأنه بناء على هذا يجرؤ على هدم صحة الكتاب المقدس والنبوات ، ويقينية المعجزات الواردة فى الأسفار المقدسة . وعصمة الوحى ، وسلطان الكنيسة . . وهو يسخر من الدين المسيحى ويجدف عليه . ذلك الدين الذى هو وحده من صنع الله .

ومؤلف هذا الكتاب الذى جرؤ على وضع اسمه عليه يجب القبض عليه بأسرع ما يمكن . ومن الأهمية بمكان ، أن تجعل العدالة — من المؤلف وأولئك الذين . . » شاركوا فى طبع هذا الكتاب وتوزيعه — مثلا وعبرة للناس بكل صرامة » .

ومن ثم فقد أمر البرلمان :

بأن يمزق الكتاب المذكور ويحرق فى فناء القصر (قصر العدالة) أسفل السلم الكبير ، بيد كبير الجلادين ، وعلى كل الذين يملكون نسخا من الكتاب أن يسلموها إلى المسجل لإبادتها ، ومحظور على الناشرين طبع هذا الكتاب أو توزيعه ، وسيقبض على جميع بائعيه وموزعيه ويعاقبون طبقا لنص القانون الصارم ، ويجب القبض على ج — ج روسو وزجه فى سجن الكونسيرجرى فى قصر العدالة [٣] .

وفى ١١ يونيو مزق وحرق إميل كما نص الأمر، ولكن روسو كان قد وصل إلى سويسرة . أمرت الحوذى أن يقف لحظة دخولى إقليم برن وخرجت من مركبتى، وخررت على وجهى، وقبلت الأرض وصحت فى غمرة فرحى :

« حمدا لك أيتها السماء، حامية الفضيلة، إننى ألمس أرضاً للحرية [٤]. »

ولم يكن مطمئناً كل الاطمئنان . فواصل ركوبه إلى إيفردون ، قرب الطرف الجنوبى لبحيرة نوشاتل ، فى مقاطعة برن ، وهناك مكث شهرا مع صديقه القديم روجان . أيبحث عن منزل فى جنيف ؟ ولكن فى ١٩ يونيو أدان مجلس الخمسة والعشرين الذى يحكم جنيف كلا من « إميل » و« العقد الاجتماعى» لأنهما خارجان على التقوى ، فاضحان، وقحان، مفعمان بالتجاديف والافتراءات على الدين . وقد جمع المؤلف تحت ستار الشك كل ما من شأنه أن يضعف المقومات الرئيسية للدين المسيحى المنزل ، ويهزها ويهدمها . . . ويتعاظم خطر الكتابين ووجوب شجبهما لأنهما مكتوبان بالفرنسية (لا باللاتينية التى لا تعرفها غير القلة) بأسلوب شديد الإغراء ، منشوران باسم مواطن جنيفى [٥] .

وعليه فقد أمر المجلس بحرق الكتابين ، وحرم بيعهما ، وأصدر مرسوماً بالقبض على روسو إذا دخل يوما ما أرض الجمهورية . ولم يعترض قساوسة جنيف على هذا التبرؤ من أشهر أبناء جنيف الأحياء . ولا ريب فى أنهم شعروا بأن أى عطف يبدونه لمؤلف « إعلان بإيمان كاهن سافوى » ، سيؤكد ما كشفه دالامبير عما يبطنونه من ميول للتوحيد، وانقلب عليه يعقوب فيرن الذى ظل صديقا له سنين كثيرة، وطالب بأن يسحب روسو أقواله . يقول روسو وهو يذكر ذلك الموقف « لو سرت بين الجماهير أى شائعة عنى لأضرت بى، وقد عاملنى كل مروجى الشائعات والمتفيقهين كأننى تلميذ يهدد بالجلد لأنه لم يحسن حفظ درسه الدينى [٦] .

وتأثر فولتير من موقف غريمه ، فلقد قرأ إميل ، وتعليقاته ما زالت ترى على نسخته المحفوظة بمكتبة جنيف . وفى خطاب مؤرخ ١٥ يونيو كتب عن الكتاب « إنه خليط تهرف به مرضعة بلهاء فى أربعة مجلدات بها أربعون

صفحة ضد المسيحية من أجرأ ما عرفنا . . . وهويقول في الفلاسفه من الأشياء المؤذية قدر ما يقوله في المسيح ، ولكن الفلاسفة سيكونون أكثر تسامحا من القساوسة[٧] . على أية حال أعجبه « إعلان الإيمان » فقال عنه خمسون صفحة كاملة ، ولكنه أضاف « من المؤسف أن يكون كاتبها . . . وغدا كهذا[٨]. وكتب إلى مدام دودفان سأحب مؤلف كاهن سافوى ، مهما فعل ومهما يفعل[٩] . . ولما سمع أن جاك طريد لا مأوى له صاح « فليأت إلى هنا (إلى قريته) . . يجب أن يأتي . سأستقبله بذراعين مفتوحتين . سيكون هنا سيداً أكثر مني . سأعامله كأنه ابني[١٠]». وبعث بدعوته إلى خمسة عناوين مختلفة ، ولابد أنها وصلت إلى أحدها ، لأن روسو أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يرد عليها[١١] . وفي ١٧٦٣ جدد فولتير الدعوة ، فرفضها روسو ، واتهم فولتير بأنه حرض مجلس الخمسة والعشرين على إدانة « العقد الاجتماعي » و « إميل» . . ولكن فولتير أنكر التهمة ، وبحق فيما يبدو .

وفي بواكير يوليو ١٧٦٢ أخطر مجلس شيوخ برن روسو بأنه لايستطيع السماح بوجوده في اقليم برن ، وأن عليه أن يرحل عنه في بحر خمسة عشر يوما وإلا واجه السجن . وتلقى خلال ذلك خطابا رقيقا من دالامبير ينصحه بأن يحاول الاقامة في إمارة نوشاتل ، وكانت تقع في قضاء فردريك الأكبر ، ويحكمها ايرل ماريشال جورج كيث ، الذي قال عنه دالامبير إنه سيستقبلك ويعاملك كما كان الآباء في العهد القديم يستقبلون ويعاملون الفضيلة المضطهدة[١٢] . وتردد روسو ، لأنه كان قد انتقد فردريك زاعما أنه طاغية في ثياب فيلسوف[١٣] . ومع ذلك قبل في ١٠ يوليو ١٧٦٢ دعوة ابنة أخي روجان ، مدام دلاتور ، بأن ينزل بيتا تملكه موتييه — ترافير ، على خمسة عشر ميلا جنوب شرق مدينة نوشاتل في بقعة سيصفها بوزويل بأنها واد برى بديع تحيط به الجبال الشاهقة[١٤]. وحوالى ١١ يوليو تقدم جان — جاك بالتماس إلى الحاكم ، وبما تميز به من تواضع وإباء . كتب إلى : (ملك بروسيا) .

« لقد قلت فيك الكثير من السوء ، وأغلب الظن أنى قائل فيك المزيد منه ؛ ولكننى وأنا مطارد من فرنسا ومن جنيف ، ومن مقاطعة برن ، جئت ألتمس ملجأ فى ولاياتك . . . سيدى ، لم أستحق منك فضلا ، ولا أطلب فضلا ، ولكننى أحسست بأن من واجبى أن أصرح لجلالتك بأننى فى قبضتك ، وانى شئت أن أكون كذلك ، لجلالتك أن تتصرف معى كما تشاء » .

وكتب فردريك إلى كيث فى تاريخ غير مؤكد ، وهو لم يفرغ بعد من حرب السنين السبع :

« يجب أن ننقذ هذا الشقى المسكين . فذنبه الوحيد أن له آراء غريبة نحسبها سديدة ، سأرسل إليك مائة كروان ، فتفضل باعطائه منها ما يحتاج اليه . وأظنه سيقبلها عينا بأسهل مما يقبلها نقدا ، ولولا أننا نخوض حرباً ، ولولا أننا أفلسنا ، لبنيت له كوخا بحديقة حيث يستطيع العيش كما عاش فى ظنى أباؤنا الأولون . . . . أظن أن روسو المسكين قد اختار المهنة الخطأ ، فواضح أنه ولد ليكون ناسكا مشهورا ، وأبا من آباء البرية يشتهر بنسكه وجلده لجسده . ختاما أقول أن نقاء أخلاقيات صاحبك المتوحسن يعدل عدم منطقية عقله[١٥] » .

أما المريشال ، الذى يقول روسو إنه قديس بخيل ، عجوز ، شارد الذهن ، فقد أرسل اليه الزاد والفحم والخشب ، واقترح أن يبنى له بيتاً صغيراً . وفسر جان — جاك هذا العرض بأنه آت من فردريك ، فرفضه ، « ولكن منذ تلك اللحظة تعلقت به تعلقاً صادقاً حتى أصبحت أهتم الآن بمجده قدر ما كنت أرى انتصاراته إلى ذلك الحين ظالمة[١٦] . وفى أول نوفمبر ، والحرب قاب قوسين من نهايتها ، كتب إلى فردريك يصف مهام السلم :

« مولاى :

أنت حامى وولى نعمتى ، وان لى لقلبا خلق ليعرف الجميل ، وأريد أن أبرىء نفسى معك ان استطعت . تريد أن تعطينى الخبز ، أفليس بين رعاياك من يعوزه الخبز؟ أبعد عن عينى ذلك السيف الذى يومض ويجرحنى ... أن سيرة الملوك الذين أوتوا همتك عظيمة ، وأنت لاتزال بعيدا عن ساعة منيتك ، ولكن الوقت كالسيف ، وليس أمامك لحظة واحدة تضيعها . أو تستطيع ان تعتزم الموت دون أن تكون أعظم الرجال قاطبة .

ولو أتيح لى يوما أن أرى فردريك العادل المرهوب يملأ بلاده فى نهاية المطاف بشعب سعيد سيكون أباً له ، إذن لذهب جان — جاك روسو علو الملوك ، ليموت فرحا فى أسفل عرشه[١٧] » .

ولم يرد فردريك ردا وصل إلينا علمه ، ولكن حين ذهب كيث إلى برلين أخبره الملك بأنه تلقى توبيخاً من روسو[١٨] .

وحين خيل لجان — جاك أنه ضمن بيتاً يقيم فيه ، أرسل إلى تريز لتلحق به . ولم يكن واثقا من أنها ستأتى ، لأنه أحس قبل ذلك بزمن طويل بفتور محبتها له ، وعزا هذا إلى توقفه عن الاتصال الجنسى بها ، لأن « الاتصال بالنساء كان يؤذى صحتى[١٩] » . فلعلها الآن تؤثر باريس على سويسرة . ولكنها حضرت . وكان لقاء ذرفا فيه الدموع ، وتطلعا أخيرا إلى بضع سنين ينعمان فيها بالسلام .

٢ — روسو ورئيس الأساقفة

ولكن السنوات الأربع التالية كانت أشق مالقيا . ذلك أن قساوسة نوشاتل الكلفنين أدانوا روسو علانية بالهرطقة ، وحظر القضاة بيع إميل . « واستأذن روسو راعى الكنيسة فى موتييه فى أن ينضم إلى شعب كنيسته ، ربما ليهدىء ثائرة القساوسة ، أو مدفوعا برغبة صادقة فى اتباع مبادىء كاهن سافوى ، (أما تريز فظلت كاثوليكية) ، فقبل . واختلف إلى الكنيسة للصلاة ، وتناول القربان » بعاطفة من القلب ، وعيناى تملؤهما دموع الحنان[٢٠] . » وأعطى الساخرين منه سلاحا باتخاذه الزى الأرمنى — قلنسوة من فراء ،

وقفطان ، وحزام . وأتاح له الروب الطويل أن يستر آثار حصر البول الذى ابتلى به . وكان يختلف إلى الكنيسة فى هذا الزى ، وارتداه وهو يزور اللورد كيث ، الذى لم يعلق عليه إلا بتحيته بعبارة (السلام عليكم) . وواصل الإضافة إلى دخله بنسخ الموسيقى ، ثم أضاف إليها الآن أشغال الأبرة ، وتعلم صناعة الدنتلا . كنت أحمل كالنساء مخدتى فى زياراتى ، أو اجلس لأشتغل بالأبرة عند باب بيتى .. وأتاح لى هذا أن انفق وقتى مع جاراتى دون أن أحس مللا .. [٢١]

وأغلب الظن أن الناشرين أقنعوه فى هذه الفترة (أواخر ١٧٦٢) بأن يبدأ كتابه « اعترافات » وكان قد أقسم أن يعتزل التأليف ، ولكن هذا لن يكون تأليفاً بقدر ماهو دفاع عن خلقه وسلوكه ضد عالم من الخصوم ، لا سيما ضد تهم جماعة الفلاسفة وشائعات الصالونات . أضف إلى ذلك أنه كان مضطراً إلى الرد على عدد كبير من مختلف الرسائل . وقدم له النساء على الأخص بخوراً معزباً من إعجابهم الشديد ، لا لتعاطفهن فحسب مع المؤلف المطارد لرواية مشهورة ، بل لأن نفوسهن كانت تهفو للرجوع إلى الدين ، ولم يرين فى « كاهن سافوى » وصانعه عدوا حقيقياً للدين ، بل المدافع الشجاع عنه ضد إلحاد يشيع الكآبة فى النفوس . لمثل هؤلاء النساء ولرجال عديدين ، غدا اب الاعتراف ، ومرشداً للنفوس والضمائر . وقد نصحهم بأن يقيموا على دين شبابهم أو يعودوا إليه ، ضاربين صفحاً عن كل الصعوبات التى يوحى بها العلم والفلسفة . فتلك العجائب البعيدة التصديق ليست هى الجوهر ، ولا ضير فى تنحيتها فى صمت ، إنما العبرة بالإيمان بالله وبالخلود ، فبهذا الإيمان والرجاء يستطيع الإنسان أن يتسامى فوق كل كوارث الطبيعة التى لا تفهم ، وكل آلام الحياة وأحزانها . وطلب كاثوليكى شاب متمرد على دينه تعاطف روسو ، فأجابه روسو ناسياً تمرداته ألا يهتم كثيرا بالتوافه العارضة . « لو أننى ولدت كاثوليكيا لظللت كاثوليكيا ، علما بأن كنيستك تضع قيداً صحياً على شطحات العقل البشرى الذى لا يجد قرارا ولا شاطئاً حين يريد سبر أعماق الأشياء السحيقة [٢٢] » . وأشار على جل طلاب الحكمة هؤلاء

بالهروب من المدينة إلى الريف ، ومن التكلف والتعقد إلى البساطة الطبيعية للحياة ، والرضا الهادىء بالزواج والأبوة .

وأحبت النساء اللاتى صدمهن القساوسة المتعلقون بالحياة الدنيا ورؤساء الدين المتشككون ، هذا المهرطق الزاهد الذى ندَّدت به جميع الكنائس ، وإن اقتصر هذا الحب على الرسائل . فقالت مدام دبلو ، النبيلة المحترمة ، لجماعة من النبلاء والنبيلات ، « مامن شىء يمنع امرأة ذات حس مرهف صادق من تكريس حياتها لروسو إلا أسمى ضروب العفة ، لو كانت واثقة من أنه سيحبها حبا حارا [٢٣]. وحسبت مدام دلاتور بعض ماجاء فى خطاباته لها من مجاملات اعترافاً بالحب ، فاستجابت برقة وحرارة وتدفق وبعثت إليه بصورتها ، مؤكدة أنها لا تنصفها . وابتأست حين أجاب بهدوء رجل لم يرها قط [٢٤]. إلا أن معجبات أخريات تمنين لو قبلن الأرض التى يمشى عليها ، وأقامت بعضهن مذابح له فى قلوبهن ، ودعاه بعضهن المسيح المولود من جديد . وكان يصدقهن أحياناً ، ورأى فى نفسه المؤسس المطلوب لدين جديد [٢٥] .

وسط هذا التمجيد كله ، أثار الشعب عليه كاهن أعلى من كهنة التمويل (الهيكل) — كأنما لتأكيد القياس — ليدينوه ثائر خطرا . ففى ٢٠ أغسطس ١٧٦٢ أصدر كرستوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، رسالة لجميع الكهنة فى أسقفيته ليقرءوا على شعبهم ، ويعلنوا على الملأ ، اتهامه لإميل ذا التسع والعشرين صفحة . وكان رجلا صارم العقيدة طاهر السمعة ، حارب الجانسنيين والموسوعية والفلاسفة ؛ وبدا له الآن أن روسو ، بعد ماظهر من انفصاله عن الملحدين ، قد انضم إليهم فى مهاجمة الإيمان الذى يرتكز عليه فى رأى رئيس الأساقفة نظام فرنسا الاجتماعى كله وحياتها الأخلاقية بأسرها .

واستهل اتهامه بالاستشهاد بمـــا جاء فى رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس :

« ستأتى أزمنة صعبة لأن الناس يكونون محبين لأنفسهم . . متعظمين ،

مستكبرين ، مجدفين ، . غير طائعين لوالديهم متصلفين ، محبين للذات ، دون محبة الله ... أناس فاسدة أذهانهم ومن وجهة الإيمان مرفوضون(٢٦) .

وهاهى قد جاءت تلك الأزمنة مافى ذلك شك :

« إن الكفر الذى تشجعه جميع الشهوات يلبس كل لبوس ليكيف نفسه على نحو ما وفق جميع الأعمار ، والأشخاص والطبقات . . . فقد يستعير أسلوباً خفيفاً لطيفاً لعوبا ، ومن هنا الحكايات الكثيرة التى تستوى بذاءة وزندقة (رويات فولتير) ، وترفه عن الخيال لأنها غواية للعقل ومفسدة للقلب . وقد يدعى الرجوع إلى الأصول الأولى للمعرفة متظاهرا بعمق آرائه وسموها ، ويزعم له سندا إليها ، لكى يخلع نيراً يقولون إنه يجلل البشر بالعار . وقد يعلو صوته كأنه امرأة غضبى فيهاجم الغيرة الدينية ، ومع ذلك يبشر بالتسامح الشامل بحماسة . وقد يمزج الجد بالهزل فى جمعه بين هذه الأساليب الكلامية المختلفة ، ويخلط الحكم بالفحش ، والحقائق الكبيرة بالأخطاء الكبيرة ، والإيمان بالتجديف ، ويأخذ على عاتقه — باختصار — التوفيق بين النور والظلمة ، وبين المسيح وبليعال »(٢٧) .

وقال رئيس الأساقفه أن هذه الطريقة لجأ اليها إميل بصفة خاصة ، فهو كتاب حفل بلغة الفلسفة دون أن يكون فلسفة حقاً ، وطفح بنتف من المعرفة لم تثر المؤلف ، وكل ما تفعله أنها تربك قرءاه لامحالة . أنه رجل مولع بمفارقات الآراء والسلوك ، يجمع بين بساطة العادات وخيلاء الفكر ، بين الحكم القديمة وجنون التجديد ؛ وبين احتجاب عزلته ورغبته فى أن تعرفه الدنيا بأسرها . إنه يندد بالعلوم ، ثم يصادقها . إنه يمتدح روعة الانجيل ، ثم يدمر تعاليمه . لقد أقام نفسه معلماً للنوع الإنسانى ليخدعه ، ومرشدا للشعب ليضل العالم ، ونبياً للقرن ليهدمه ، فيالها من مغامرة (٢٨) .

وهال رئيس الأساقفة ما اقترحه روسو من إغفال ذكر الله أو الدين لإميل حتى يبلغ الثانية عشرة أو حتى الثامنة عشرة ، فمعنى هذا أن « الطبيعة

كلها تكون قد تحدثت عبثاً بعظمة الخالق . . وأن كل تعليم خلقى سيفقد مساندة الإيمان الديني . ولكن الإنسان ليس بطبيعته خــيراً كما زعم المؤلف . فهو يولد ملوثا بالخطيئة الأصلية ، وهو يشارك فى افساد البشرية العام . والمعلم الحكيم — وخير المعلمين كاهن ترشده النعمة الإلهية — يتوسل بكل وسيلة سليمة ليغذى دوافع الخير فى الناس ، ويقتلع دوافع الشر ، ومن ثم فهو يطعم الطفل بلبن الدين الروحى ، لكى ينمو نحو الخلاص . . وبهذا التعليم وحده يمكن أن يغدو الطفل عابدا مخلصا للإله الحق ، وواحداً من رعايا الملك الأوفياء[٢٩] . وأن الكثير من الخطايا والجرائم ليظل باقياً حتى بعد هذا التعليم المجتهد ، فما بالك بها إذا حرم الطفل منه . إن سيلا عرما من الشر يغرقنا فى هذه الحالة[٣٠]» .

وقال رئيس الأساقفة فى ختام كلامه إنه لهذه الأسباب :

« بعد استشارة عدة أشخاص عرفوا بورعهم وحكمتهم ، وبعد التضرع لإسم الله القدوس ، ندين هذا الكتاب لأنه يحوى تعليما بغيضا من شأنه أن يقلب القانون الطبيعى وأسس الدين المسيحى ، وأن يرسى مبادىء تناقض تعليم الأناجيل الخلقى ، وينحو إلى تكدير سلام الدول ، وتزعم الثورة على سلطان الملك ، ولأنه يتضمن الكثير جدا من الدعاوى الباطلة المفترية المفعمة بالحقد على الكنيسة ورعاتها . . لذلك نحظر صراحة على جميع الأشخاص فى أسقفيتنا أن يقرأوا الكتاب المذكور أو يقتنوه ، وإلا وقعوا تحت طائلة العقاب[٣١] . »

وطبع هذه الرسالة « بامتياز الملك » وسرعان ما وصلت إلى موتيه — ترافير . وقرر روسو أن يرد عليها ، وهو الذى كان على الدوام مصمما على الكف عن الكتابة . وقبل أن يضع قلمه (١٨ نوفمبر ١٧٦٢) كان قد أطلق له العنان حتى بلغ الرد ١٢٨ صفحة ، وطبع بامستردام فى مارس ١٧٦٣ ، بهذا العنوان : « من جان — جاك روسو المواطن الجنيفى إلى كرستوف ديمومون رئيس أساقفة باريس » . وسرعان ما أدانه برلمان باريس ومجمع جنيف . ورد روسو على الهجوم الذى شنه عليه مذهبا أوربا الكبيران

بالهجوم عليهما جميعا . وراح الرومانسى المجول الذى نبذ من قبل جماعة الفلاسفة يكرر الآن حججهم بجرأة مستهترة .

واستهل رده بسؤال مازال يسأله جميع الخصوم بعضهم لبعض فى هذا الجدل الذى لاينتهى . « لم يتحتم على أن أقول أى شيء لك يا صاحب النيافة ؟ وأى لغة مشتركة يمكننا أن نتحدث بها ، وكيف نستطيع أن يفهم الواحد منا الآخر[٣٢] ؟ وأبدى أسفه لأنه ألف كتباً على الاطلاق ، وهو لم يفعل إلا حين بلغ الثامنة والثلاثين ، وقد جره إلى هذه الغلطة أنه لاحظ مصادفة ذلك « السؤال التعس » الذى وجهته أكاديمية ديجون ، ودفعه نقاد المقال إلى الرد عليهم ، ثم أفضى كل جدل إلى جدل جديد . . . فألفيتنى ، إن جاز التعبير ، أغدو مؤلفا فى سن يهجر فيها المؤلفون التأليف عادة . . ومنذ ذلك الحين إلى اليوم اختفت الراحة والأصدقاء[٣٣]» . وزعم أنه فى حياته كلها كان :

« أكثر حماسة منى استفادة . . ولكنى كنت مخلصاً فى كل شيء . . بسيطا طيعا ، وإن كنت مرهف الحس ضعيفا ، أفعل الشر كثيرا وأحب الخير دائماً . . أتبع عواطفى أكثر من مصالحى . . أخشى الله دون أن أخشى الجحيم .. أجادل فى الدين ولكن دون إباحية . لاأحب الكفر ولاالتعصب ، ولكنى أمقت المتعصبين أكثر مما أمقت الملحدين . . وأعترف بأخطائى لأصدقائى واعلن آرائى للعالم كله[٣٤]» .

وأحزنته إدانة الكاثوليك لإميل أقل مما أحزنته إدانة الكلفنين . فهو الذى كان يعتز بلقبه « مواطنا جنيفيا » هرب من فرنسا أملا فى أن يتنفس فى مسقط رأسه نسيم الحرية ، وأن يجد فيه من الترحيب ما يعزيه عما لقى من اذلال كثير . أما الآن» فماذا أقول ؟ إن قلبى ينفلق ؛ ويدى ترتعد ، والقلم يسقط منها ، وعلى أن أصمت . . ويجب أن اجتر فى الخفاء أشد أحزانى مرارة [٣٥] . فهاهو الرجل الذى اجترأ فى قرن اشتهر بالفسلفة ، والعقل والإنسانية ، على أن يدافع عن قضية الله ، ها هو قد وسم ؛ وحرم وطورد من بلد إلى بلد ، ومن ملجأ إلى ملجأ ، دون اكتراث لفقره ، ولارحمة

لأمراضه » ثم وجد ملاذا آخر الأمر عند « ملك مستنير ذائع الصيت » وأنزوى فى قرية صغيرة رابضة بين جبال سويسرة ، ظانا أنه فى النهاية ، واجد العزلة والهدوء ، ولكن طاردته حتى هناك لعنات الكهنة .. أن رئيس الأساقفة هذا ، « الرجل الفاضل ، النبيل النفس ، الكريم المحتد » ، كان ينبغى أن يوبخ هؤلاء المضطهدين ، ولكنه بدلا من هذا أصدر لهم الأذن فى غير خجل ، « وهو الذى كان يجب أن يدافع عن قضية المظلومين[٣٦] ..

وأحس روسو أن أشد ماساء رئيس الأساقفة هو تعليم روسو أن الناس يولدون اخيار ، أو غير أشرار على الأقل ، وقد أدرك بومون أنه لو كان هذا حقا ، ولو لم يكن الإنسان ملوثا منذ مولده بوراثته خطيئة آدم وحواء ، لسقط التعليم بكفارة المسيح ، وهذا التعليم لب العقيدة المسيحية . ورد روسو بأن تعليم الخطيئة الأصلية لم يذكر بوضوح فى أى مكان من الكتاب المقدس . وقد إدرك أن رئيس الأساقفة قد صدمه الأقتراح بتاحيل تعليم الدين ، فرد بأن تربية الأطفال على أيدى الراهبات والقساوسة لم تقلـــل من الخطيئة أو الجريمة ، فهؤلاء الأطفال بعد أن يكبروا يفقدون خوفهم من الجحيم ، ويؤثرون للذة صغيرة حاضرة على الجنة التى وعدوا بها . ثم ما بال هؤلاء القساوسة انفسبهم — أتراهم نماذج للفضيلة فى فرنسا المعاصرة[٣٧] ؟ ومع ذلك « فأنا مسيحى ، مسيحى بأخلاص ، طبقاً لتعليم الأنجيل ، لا مسيحى متلمذ للقساوسة ، بل تلميذ للمسيح » . ثم أضاف روسو وعينيه على جنيف « إننى فى سعادتى بالولادة فى أقدس وإعقل دين فى الأرض ، مازلت متعلقاً تعاقا لا أنفه ام فيه بأيمان آبائى . وأنا مثلهم أتخذ من الأسفار المقدسة والعقل القواعد الوحيدة لأيمانى[٣٨] ... وأحس بلوم من أخبروه بأنه « مع أن كل أصحاب العقول الذكية يفكرون كما تفكر ، فأنه ليس من الخير أن يفكر العوام على هذا النحو » .

« ذلك ما يتصايحون به على من كل جانب ، ولعله ماكنت أنت نفسك قائله لى لو كنا وحيدين فى مكتبك . هكذا الناس ، فهم يغيرون لغتهم مع ملابسهم ، ولا يقولون الحق إلا وهم فى أروابهم ، أما فى ثيابهم التى

يبدون فيها أمام الناس فلا يعرفون إلا أن يكذبوا . وهم ليسوا مخادعين غشاشين أمام وجوه البشر فحسب ، بل إنهم لا يخجلون من أن يعاقبوا كل من يأبون أن يكونوا غشاشين كذابين علانية مثلهم ، مخالفين فى ذلك ضمائرهم[٣٩].

وهذا الخلاف بين ما نؤمن به وما نبشر به هو سر الفساد فى الحضارة العصرية . أن هناك تحيزات ينبغى أن نحترمها ، على ألا تحيل التربية إلى خداع هائل وتقوض الأساس الخلقى للمجتمع[٤٠] . فإذا أصبحت هذه التحيزات قتالة فهل نسكت على جرائمها ؟

« لست أقول ، ولا أرى ، أن الدين الحسن لا وجود له ... ولكن الذى أقوله . . . . أنه ما من دين من الأديان التى سادت لم يثخن الإنسانية بالجراح . وكل المذاهب عذب بعضها بعضا ، وكلها قدم لله قربان الدم البشرى . وأيا كان مبعث هذه التناقضات فهى قائمة ، فهل من الأجرام الرغبة فى إزالتها[٤١] ؟

وقبيل ختام رده دافع روسو عن إميل دفاع المحب المتيم بكتابه ، وتساءل لم لم يقم لمؤلفه تمثال .

« هبنى أرتكبت بعض الأخطاء ، لا بل كنت دائما مخطئا ، أفلاشفاعة لكتاب يشعر المرء فى كل جزء فيه — حتى فى أغلاطه وحتى فى الضرر الذى قد يكون فيه — بالحب الصادق للخير وبالغيرة على الحق ؟ . . كتاب لا يشع غير السلام ، واللطف ، والصبر ، وحب النظام ، وطاعة القوانين فى كل شىء ، حتى فى أمر الدين . كتاب تؤكد فيه قضية الدين تأكيداً رائعاً ، وتحترم فيه مكارم الأخلاق احترا ما كبيراً . . . . ويصور الشر فيه على أنه حماقة ، والفضيلة على أنها شىء محبب للنفوس . . . أجل ، إننى لا اخشى أن أقولها . فلو أن فى أوربا حكومة واحدة مستنيرة حقاً . . لخلعت على مؤلف إميل أسباب التشريف العلنية ، ولأقامت له تمثالا . . . ولكن خبرتى الكبيرة بالبشر تمنعنى من أن أتوقع تقديراً كهذا وأنا لم أعرفهم معرفة تكفى لأن أتوقع ذلك الذى أتوه » .

ولكنهم أقاموا له التماثيل .

٣ — روسو والكلفنيون

لم يبتهج بخطاب روسو الذى وجهه إلى كرستوف بومون غير بعض أحرار الفكر فى فرنسا وبعض المتمردين السياسيين فى سويسرة . وجاءت من البروتستنت معظم الردود « المفندة » لدعاوى روسو والموجهة إلى المؤلف . ورأى قساوسة جنيف الكلفنيون فى الخطاب هجوما على المعجزات وتنزيل الكتاب المقدس ، والإغضاء عن هــذه الهرطقات معناه التمهيد من جديد للخطر الذى عرضهم له دالامبير . وغضب روسو من إحجام الأحرار الجنيفيين عن الجهر بالدفاع عنه ، فارسل (١٢ مايو ١٧٦٣) إلى مجلس جنيف الكبير يتخلى عن مواطنته .

وقد حظى عمله هذا ببعض التأييد المسموع . ففى ١٨ يونيو رفع وفد إلى الرئيس الأول للجمهورية « إحتجاجا غاية فى التواضع والاحترام من مواطنى جنيف وسكان مدنها » شكا فيها شكا من مظالم ، من أن الحكم الصادر على روسو غير قانونى ، وأن مصادرة نسخ إميل من مكتبات جنيف كانت عدوانا على حقوق الملكية . ورفض مجلس الخمسة والعشرين الاحتجاج . وفى سبتمبر أصدر المدعى العام ، جان روبير ترونشان (ابن عم طبيب فولتير) ، خطابات مكتوبة من الريف « للدفاع عن إجراءات المجلس المختلف عليها . وناشد « المحتجون » روسو الرد على ترونشانى . وإذ لم يكن بروسو أى نية فى البعــد عن الشر ، فقد نشر (ديسمبر ١٧٦٤) تسعة « خطابات مكتوبة من الجبل » — وهى رد من بيته الجبلى على أوليجاركية السهل الجنيفى . وكان ساخطاً أشد السخط على القساوسة والمجلس جميعا ، فهاجم الكلفنية كما هاجم الكاثوليكية ، واحرق بذلك معظ جسر من خلفه .

وقد وجه الخطابات من الناحية الشكلية لزعيم المحتجين . واستهلها بتناول الأذى الذى لحق به من جراء الإدانة المتعجلة لكتبه وشخصه ، دون أن تتاح له أى فرصة للدفاع . واعترف بعيوب كتبه . « لقد وجدت أنا نفسى الأخطاء الكثيرة فيها . ولست أشك فى أن غيرى قد يرون فيها اخطاء أكثر ،

وأنه مازالت هناك أخطاء أخرى لم أدركها لا أنا ولا غيرى . . . فبعد الاستماع إلى الطرفين سيحكم الجمهور . . وسينجح الكتاب أو يسقط ، وتنتهى القضية عند هذا[٤٣] . ولكن أكان الكتاب مؤذيا ؟ أيمكن أن يقرأ انسان « هلويز الجديدة » « وإعلان إيمان كاهن سافوى » ثم يعتقد حقا أن مؤلفها قصد هدم الدين ؟ صحيح ان الكتابين حاولا تدمير الخرافة لأنها شر بلاء رزئت به البشرية ، ولأنها محنة الحكماء وأداة الطغيان[٤٤] . ولكن ألم يؤكدا ضرورة الدين ؟ ان المؤلف يتهم بعدم ايمانه بالمسيح ، وهومؤمن بالمسيح ولكن بطريقة مختلفة عن طريقة متهميه .

انا نعترف بسلطان المسيح ، لأن فكرنا يوافق على تعاليمه ولأننا نجدها تعاليم سامية . ونحن نسلم بالوحى منبثقاً من روح الله ، دون أن نعرف كيف . . وإذ نقر بسلطان إلهى فى الانجيل ، فاننا نؤمن بأن المسيح بشر بهذا السلطان ، ونحن نقر بفضيلة فى سلوكه تفوق فضيلة البشر ، وبحكمة فى تعليمه تفوق حكمة البشر . »

وأنكر الخطاب الثانى حق مجلس مدنى فى الحكم فى قضايا الدين (ناسيا العقد الاجتماعى) . وفى إدانة إميل انتهاك لمبدأ أساسى من مبادىء حركة الاصلاح البروتستنتى ، وهو حق الفرد فى أن يفسر الكتاب المقدس لنفسه[٤٥] .

« لو برهنت لى اليوم انى فى مسائل الدين مضطر للاذعان لقرارات غيرى ، فسأتحول إلى الكاثوليكية غدا[٤٦] » . وسلم روسو بأن دعاة الأصلاح البروتستنتى أصبحوا بدورهم مضطهدين للتفسير الفردى[٤٧] . ولكن هذا لا يبطل المبدأ الذى لولاه لكانت ثورة البروتستنت على السلطة البابوية ظالمة . واتهم القساوسة الكلفنيين (باستثناء راعى) بأنهم اعتنقوا روح الكاثوليكية المتعصب ، ولو كانوا أوفياء لروح الاصلاح البروتستنتى لدافعوا عن حقه فى نشر تفسيره الخاص للكتاب المقدس . وجاد الآن بكلمة ثناء على رأى دالامبر فى قساوسة جنيف :

« أن أحد الفلاسفة يلقى عليهم نظرة عجلى ، ثم يتغلغل إلى أعماقهم ،

فيرى أنهم أريوسيون ، سوسينيون ، فيقول هذا ، ويحسب أنه بهذا القول يشرفهم ولكنه لايدرك أنه يعرض مصالحهم الدنيوية للخطر ، وهو الأمر الوحيد الذى يقرر على العموم إيمان البشر فى هذه الدنيا(٤٨) . »

وفى الخطاب الثالث تناول اتهامه برفض المعجزات . فنحن إن عرفنا المعجزة بأنها خرق لقوانين الطبيعة ، فلن نستطيع أبدا أن نعرف هل الشيء معجزة أم غير معجزة ، لأننا لانعرف كل قوانين الطبيعة(٤٩) . فحتى فى ذلك العصر كان كل يوم يشهد معجزة جديدة يحققها العلم ، لامخالفا بذلك قوانين الطبيعة ، بل بفضل معرفته بها معرفة أعظم .

كان الأنبياء فى قديم الزمان يستنزلون النار من السماء بكلمتهم ، أما اليوم فالأطفال يفعلون هذا بقطعة صغيرة من الزجاج (المشتعل) . ان يشوع أوقف الشمس ، وأى واضع للتقاويم يستطيع الوعد بمثل هذه النتيجة إذا حسب كسوف الشمس(٥٠) . وكما أن الأوربين الذين يجرون عجائب كهذه بين الهمج يعدهم هؤلاء آلهة ، فكذلك معجزات الماضى — حتى معجزات المسيح — ربما كانت نتائج طبيعية فسرتها الجماهير خطأ بأنها تعطيلات إلهية للقانون الطبيعى(٥١) . ولعل لعازر الذى أقامه المسيح من بين الأموات لم يكن فى حقيقة الأمر ميتا . ثم ، كيف يمكن أن تثبت معجزات معلم صدق تعليمه ، إذا كان معلمو التعاليم المعتبره عموما تعاليم كاذبة قد أجرو معجزات قيل إنها أيضاً حقيقية ، كما حدث حين بارى سحرة مصر هارون فى تحويل العصى إلى حيات ؟(٥٢) . ان المسيح حذر من « المسحاء الكذبة » الذين يعطون آيات عظيمة وعجائب(٥٣) .

كان روسو قد بدأ خطاباته بغرض مساعدة المحتجين من رجال الطبقة الوسطى ، ولم يطلب توسيعا لحق الانتخاب فى اتجاه ديمقراطى ، لا بل انه فى الخطاب الرابع يلتزم بالرأى بأن الارستقراطية المنتخبة هى خير أشكال الحكم ، وأكد لحكام جنيف أن المثل الأعلى الذى رسمه فى «العقد الاجتماعى» كان فى صميمه متفقا مع الدستور الجنيفى (٥٤) . ولكن فى الخطاب السابع أخبر أصدقاءه من البورجوازية المحتجة أن الدستور لايقر سيادة المواطنين

ذوى الحقوق الانتخابية إلا خلال الإنتخابات للمجلس العام ومؤتمره السنوى ، أما فى باقى السنة فالمواطنون مجردون من السلطة . وفى تلك الفترة الطويلة كلها يكون مجلس الخمسة والعشرين الصغير هو الحكم الأعلى فى القوانين ، وفى مصير جميع الأفراد تبعا لذلك ، والواقع أن المواطنين والبورجوازين الذين يبدون أصحاب سيادة فى المجلس العام ، يصبحون بعد فضه عبيدا لسلطة استبدادية اسلموا بغير دفاع لرحمة خمسة وعشرين مستبدا[٥٦] .

وكان هذا اقرب إلى الدعوة للثورة . ولكن روسو استنكر هذا الملجأ الأخير . ففى خطابه الأخير اثنى على البورجوازية باعتبارها اعقل طبقة فى الدولة ، واكثرها حبا للسلام ، محصورة بين طبقة اشراف غنية ظالمة ، وجماهير متوحشة غبية[٥٧] . ولكنه نصح المحتجين بالصبر والمصابرة ، وبأن يركنوا إلى العدالة والزمن لينصفاهم من مظالمهم .

واعضبت « خطابات الجبل » هذه اعداء روسو وساءت اصدقاءه . . وأفزعت هرطقاته القساوسة الجنيفيين ، وزادهم فزعاً إدعاؤه أنهم يشاطرونه أياها . فانقلب الآن فى عنف على القساوسة الكلفنيين ورماهم بأنهم « رعاع غشاشون ، بطانة غبية ، وذئاب مسعورة » . « وأعرب عن إيثاره للكهنة الكاثوليك البسطاء فى القرى والمدن الفرنسية[٥٨] . ولم يستعن « المحتجون » بالخطابات فى حملتهم الناجحة لنيل المزيد من السلطة السياسية ؛ واعتبروا روسو حليفاً خطراً لا يركن إليه ، فاعتزم ألا يشارك بعدها بأى نصيب فى السياسة الجنيفية .

٤ — روسو وفولتير

كان قد تساءل فى الخطاب الخامس ، لم لم يوح « المسيو فولتير » الذى « طالما زاره » أعضاء المجلس الجنيفيون ، لهم « بروح التسامح تلك التى لا ينى عن التبشير بها ، والتى يحتاج هو إليها أحياناً ؟ وأجرى على لسان فولتير حديثا خيالياً[٥٩] يحبذ فيه حرية الكلام للفلاسفة بحجة أن قلة لا تذكر

هى التى تقرأ لهم . وكان تقليده لأسلوب فولتير الخفيف الرشيق بارعا . ولكنه صور حكيم فرنية معترفا بتأليفه لكتاب نشر حديثا أسمه « عظلة الحمسين » وكان فولتير أنكر أبوته غير مرة لأنه زخر بالمرطقات . ولاندرى أكان كشف روسو للسر متعمداً خبيثاً ؟ على أى حال هذا ما رآه فولتير ، وحنق منه أشد الحنق ، لأنه عرضه لإمكان طرده من فرنسا من جديد ، فى الوقت الذى كان مسقراً فيه فى فرنية .

وصاح حين قرأ الخطاب الواشى « ياللمجرم ! يا للوحش ! كان يجب أن أضربه بالنبوت — نعم ، سآمر بضربه بالنبوت فى جباله عند ركبتى مربيته ؛ » وقال متفرج « أرجو أن تهدىء روعك ، لأنى أعلم أن روسو ينوى أن يزورك ، وسيكون فى فرنية قريباًجداً » .. وصاح فولتير وقد بدت عليه نية الأذى « آه ، فليأت فقط » .

« ولكن كيف ستستقبله ؟ »

« سأقدم له العشاء ، وأعطيه فراشى ، وأقول له » هاك عشاء طيبا ، وها هو أفضل فراش فى البيت ؛ فتفضل بقبول الأثنين وانعم بالسعادة هنا (٦١) » .

ولكن روسو لم يحضر . وثأر فولتير لنفسه بأصداره (٣١ ديسمبر ١٧٦٤) كتيباً بقلم مجهول ، سماه « عواطف المواطنين » هو لطخة من أشد اللطخ التى تلوث خلقه ومهنته سوادا . ولابد من نقل ماجاء به ليصدق القارىء :

« أننا نرثى للأحمق ، ولكن حين تستحيل حماقته جنونا فاننا نوثق رباطه . ذلك أن التسامح — وهو فضيلة — يصبح عندها رذيلة . . . . . لقد غفرنا لهذا الرجل رواياته ، التى آذى فيها اللياقة والحياء كما آذى المنطق السليم . وحين خلط الدين بقصصه ، أضطر قضاتنا إلى محاكاة قضاة باريس . . . . وبرن . . . واليوم ألا يفرغ الصبر حين ينشر كتابا جديداً يعتدى فيه إعتداء مجنونا على الدين المسيحى ، وعلى الأصلاح البروتستنتى الذى يدعيه ، وعلى كل خدام الأنجيل المقدس وكل هيئات الدولة ؟ — إنه يقول بجلاء ، وباسمه

صراحة ، ليس فى الانجيل معجزات نستطيع أخذها حرفياً دون أن نطلق عقولنا . . . .

« أهو عالم يجادل العلماء ؟ لا . . . بل رجل مازال يحمل آثار فجوره المخزية . . . ويجر معه من بلد إلى بلد ، ومن جيل إلى جيل ، المرأة التعسة التى كان سبباً فى موت أمها ، والتى ألقى باطفالها على باب مستشفى . . . جاحداً كل مشاعر الطبيعة ، كإنكاره لمشاعر الشرف والدين . . .

« أيريد أن يطيح بدستورنا بتشويهه ، كما يريد أن يطيح بالمسيحية التى يدعيها ؟ يكفى أن ينذر بأن المدينة التى يزعجها تنكره . . . . فإذا ظن أنها تمتشق الحسام [أى تقوم بثورة] بسبب [إدانة] إميل ، فليضف هذه الفكرة إلى سخافاته وحماقاته . . ولكن يجب أن يخبر بأننا إن ترفقنا فى عقاب رواية فاجرة ، فإننا سنقسو فى عقاب خائن لئيم[٦١] . »

وكان هذا الكلام فعلة مخزية لا يشفع لهـا غضب فولتير ولا أمراضة ولاشيخوخته ، (وكان الآن فى السبعين) .

لأعجب إذا كان روسو لم يصدق قط (وحتى فى يومنا هـذا لا نكاد نصدق) أن فولتير هو كاتبه ، بل نسبه إلى القس الجنيفى فيرن ، الذى أكد عبثاً أنه ليس كاتبه . وأذاع روسو فى لحظة من أجمل لحظاته ردا على « العواطف » (يناير ١٧٦٥) :

« أريد أن أدلى ببساطة بالتصريح الذى يبدو أنه مطلوب منى بهذا المقال . فما من علة صغيرة أو كبيرة ، كما يدعى المؤلف ، قد لوثت قط جسدى . والعلة التى أصابتنى ليس هناك أدنى شبه بينها وبين تلك المشار إليها فقد ولدت معى ، ويعرف ذلك الذين رعونى فى طفولتى ، الباقون على قيد الحياة . وهى معروفة للسيدات مالوان ، وموران ، وتيرى ، وداران . . . فإذا وجدن فى هذه العلة أقل أمارة من أمارات الفجور ، فأنى أرجوهن أن يلعننى ويفضحننى . . والمرأة العاقلة التى يقدرها العالم ، والتى تعنى بى فى كوارثى . . لا يشقيها إلا مشاطرتها لشقائى . أما أمها فهى فى

الواقع فياضة بالحياة ، وفى صحة سابغة ، رغم شيخوختها [فقد عمرت إلى الثالثة والتسعين] . ولم ألق قط ، ولا تسببت فى إلقاء أى أطفال على باب مستشفى ولا فى أى مكان آخر . . . ولن أزيد . . اللهم إلا القول بأننى حين يحضرنى الموت أوثر أن أكون قد ارتكبت ما يتهمنى به المؤلف ، عن أن أكون كاتب كتيب كهذا . .(٦٢)

ومع أن تسليم روسو أطفاله لملجأ للقطاء (لا إلقاءهم فى العراء بالضبط) كان موضوعاً يعرفه المقربون فى باريس (فقد اعترف به للمرشالة لكسمبورج) ، فإن نشر فولتير كانت أول إفشاء علنى لهذا السر . وخامر جان — جاك الظن فى أن مدام دبينيه أفشته عند زيارتها لجنيف ، واقتنع الآن بأنها هى وجريم وديدرو كانوا يأتمرون لتشويه سمعته . وقد هاجم جريم روسو فى هذه الفترة غير مرة فى « الرسائل الأدبية(٦٣) » . وفى خطابه المؤرخ ١٥ يناير ١٧٦٥ فى معرض الحديث عن « خطابات من الجبل » أنضم إلى فولتير فى أتهام روسو بالخيانة : « إن وجد فى أى مكان على الأرض جريمة تدعى الخيانة العظمى ، فهى ولاريب فى مهاجمة الدستور الأساسى لدولة بالأسلحة التى استخدمها روسو ليطيح بدستور وطنه » .

والشجار الطويل الذى نشب بين فولتير وروسو من أفجع اللطخ التى لوثت وجه حركة التنوير . لقد باعد بينهما مولدهما ومركزهما . ففولتير ، ابن الموثق الموسر ، تلقى تعليما حسنا ، لا سيا فى الدراسات القديمة ؛ أما روسو المولود فى أسرة فقيرة وشيكة التفكك ، فلم يتلق أى تعليم نظامى ، ولم يرث أى تقليد كلاسيكى ، وقد قبل فولتير القواعد الأدبية التى وضعها بوالو — «أحب العقل ، ولتستق كل كتاباتك من العقل بهاءها وقيمتها(٦٤) . » أما فى رأى روسو (كما فى رأى فاوست وهو يغوى ما رجريت بروسو.) فإن « الوجدان كل شيء(٦٥) . » وكان فولتير لا يقل عن جان — جاك حساسية وسرعة أنفعال ، ولكنه عادة كان يرى من سوء الأدب أن يترك الأنفعال يشوه فنه ، وقد اشتم فى دعوة روسو للوجدان والغريزة لاعقلية فوضوية فردية تبدأ بالثورة وتنتهى بالدين . وقد شجب فولتير بسكال ، أما روسو

فردده كالصدى . وكان فولتير يعيش كما يعيش أصحاب الملايين ، أما روسو فكان ينسخ الموسيقى ليكسب قوته . وكان فولتير خلاصة كل لطائف المجتمع ، أما روسو فكان يشعر بالقلق فى المجتمعات ، وكان أقل صبرا وأضيق صدراً من أن يحتفظ بصداقة صديق . وكان فولتير ابن باريس ، وربيب مرحها وترفها ، أما روسو فكان طفل جنيف ، بورجوازيا مكتئبا ، وبيورتانيا يكره تمييز الطبقات الذى يجرحه ، وألوان البذخ التى لا قدرة له على الأستمتاع بها ، ودافع فولتير عن الترف لأنه يداول مال الإغنياء بتشغيل الفقراء ، أما روسو فادانه لأنه « يطعم مائة فقير فى مدننا ويسبب هلاك مائة ألف فى قرانا(٦٦) » وذهب فولتير إلى أن آثام الحاضرة ترجحها فنونها وما توفره من أسباب الراحة ، أما روسو فكان لا يشعر بالراحة فى أى مكان ، ويندد بكل شىء تقريباً . وأصغى المصلحون إلى فولتير ، واستمع الثوار إلى روسو .

إن هوراس وليلول حين قال إن « هذه الدنيا ملهاة لمن يفكرون ، ومأساة لمن يشعرون(٦٧) . » أجمل فى سطر واحد ، على غير قصد منه ، حياة أعظم عقلين من عقول القرن الثامن عشر تأثيرا فى الناس .

٥ – بوزويل يلتقى بروسو

فى رواية بوزويل لزيارات خمس قام بها لجان – جاك فى ديسمبر ١٧٦٤ تصوير غاية فى اللطف لروسو . فلقد أقسم ذلك المعجب الذى لامهرب منه يمينا مغلظة (٢١ أكتوبر) أنه « لن يكلم ملحدا ، ولن يتمتع بامرأة ، قبل أن يلقى روسو(٦٨) » وفى ٣ ديسمبر شد رحاله من نوشاتل إلى موتييه – ترافير . وحين بلغ برو فى منتصف الطريق وقف بنزل وسأل ابنة صاحبه ماذا تعرف عن فريسته . وكان جوابها مقلقا :

« إن المسيو روسو يحضر هنا كثيراً ويمكث أياما مع مدبرة بيته ، الآنسة ليفاسير . وهو رجل لطيف جداً ، له وجه جميل ، ولكنه لا يحب أن يأتى الناس ويحملقوا فيه كأنه رجل له رأسان . ياللسماء ! أن فضول

الناس لا يصدق ؛ أن كثيرين ؛ كثيرين يأتون ليروه ؛ وكثيراً ما يرفض لقاءهم . إنه مريض ، ويكره أن يزعجه أحد[٦٩] » .

ولكن بوزويل واصل رحلته بالطبع . وفى موتييه نزل بفندق القرية .

« وأعددت خطابا لمسيو روسو أخبرته فيه أن سيداً أسكتلنديا عتيق الطراز فى الرابعة والعشرين قدم بأمل لقائه . وأكدت له أننى جدير باحترامه . . . وفى خاتم خطابى بينت له أن لى قلبا وروحاً . . . والخطاب آية فى بابه حقاً . وسأحتفظ به ما حييت برهانا على أن فى قدرة روحى أن تتسامى[٧٠] » .

وكان خطابه — الذى كتبه بالفرنسية — مزيجا بارعاً من السذاجة المتعمدة والأعجاب الذى لايرد :

« إن كتاباتك ياسيدى أذابت قلبى . ورفعت روحى . وألهبت خيالى . صدقنى سيبهجك أن تلتقى بى . إيه ياسان — برو العزيز ! أيها المعلم المستنير ! أى روسو البليغ المحبوب ! يحدثنى قلبى بأن صداقة شريفة حقاً ستولد اليوم.. لدى الكثير الذى أحدثك به . ومع أننى لست إلا شابا فقد خبرت من الوان الحياة ما سيدهشك . . . ولكنى أتوسل اليك أن تلقانى وحدك . . . ولا أدرى هلا أفضل أن ألقاك إطلاقا من أن ألقاك أول مرة فى صحبة . وأنى مترقب ردك بفارغ الصبر[٧١] .

وأرسل له روسو كلمة يقول إن فى استطاعته الحضور إذا تعهد بأن تكون زيارته قصيرة . وذهب بوزويل « مرتديا سترة وصدرية قرمزية بدانتيللا مذهبة ، وبنطلون ركوب من جلد الغزال ، ومنتعلا حذاءا طويلا . وفوق ذلك كله لبست معطفا كبيرا من وبر الجمل الأخضر المبطن بفراء الثعلب » . وفتحت تريز الباب « فتاة فرنسية قصيرة رشيقة أنيقة » . وقادته صعدا إلى روسو — رجل ظريف أسمر اللون فى زى الأرمن ... وسألته عن صحته فقال : « مريض جدا ولكنى طلقت الأطباء » . وأعرب روسو عن اعجابه

بفردريك وازدرائه للفرنسيين — « شعب جدير بالاحتقار ، ولكنك ستجد نفوسا عظيمة في أسبانيا » . بوزويل : «وفى جبال اسكتلندة» . وقال روسو عن اللاهوتيين أنهم « سادة يقدمون تفسيرا جديدا لشئ من الأشياء ويتركونه مغلقا على الأفهام كما كان » . وناقشا أحوال كورسيكا ، وقال روسو أنه قد طلب اليه أن يشرع لها قوانين ، وبدأ بوزويل تحمسه الدائم لاستقلال كورسيكا . ثم صرفه روسو بعد قليل ، قائلا أنه يود التمشى منفردا .

وفى ٤ ديسمبر استأنف بوزويل الحصار . وتحدث معه روسو مليا ، ثم صرفه : انك « تزعجنى . هذا طبعى ولا حيلة لى فيه . » بوزويل : « ارفع الكلفة معى » . روسو « امضى » . وصحبت تيريزا بوزويل إلى الباب وقالت له « لقد عشت مع المسيو روسو اثنين وعشرين عاما ، ولن أتخلى عن مكانى لأكون ملكة فرنسا . وأنا أحاول الانتفاع بالنصيحة الطيبة التى يسديها إلى . وإذا مات سأضطر إلى دخول الدير[٧١]

وطرق بوزويل الباب مرة أخرى فى ٥ ديسمبر . وتأوه روسو « يا سيدى العزيز ، يؤسفنى عجزى عن التحدث إليك كما أشتهى » بوزويل : نحى هذه الأعذار وأثار الحديث بقوله : لقد اعتنقت الكاثوليكية وأنوى الاختفاء فى دير روسو ياللحماقة ! . . بوزويل : « أخبرنى بحق أأنت مسيحى ؟ » وقرع روسو صدره وأجاب : « نعم إننى أعتز بأنى مسيحى . » بوزويل (الذى كان مصاباً بالاكتئاب) قل لى : هل تعانى من الاكتئاب ؟ روسو : لقد ولدت هادئاً ، وليس بى ميل طبيعى للاكتئاب. لقد أصابتنى به الكوارث التى حلت بى . بوزويل :ما رأيك فى الأديار ، والكفارات ، والعلاجات التى من هذا النوع ؟ روسو : كلها سخافات . بوزويل : هل لك يا سيدى أن تضطلع بارشادى الروحى ؟ روسو : لاأستطيع . بوزويل: سأعود . روسو : لا أعد بلقائك . إننى أعانى ألماً ، اننى احتاج إلى مبولة كل دقيقة[٧٢] .

فى عصر ذلك اليوم ، فى بيت القرية كتب بوزويل فى أربع عشرة

صفحة" مجملا لحياتى وبعث به إلى روسو . وقد اعترف فيه بحادث زنا أتاه ، وسأل روسو ألا يزال فى امكانى أن أجعل نفسى رجلا ؟ وعاد إلى نوشاتل ، ولكنه كان بباب روسو مرة أخرى فى ١٤ ديسمبر . وأخبرته تريز أن سيدها مريض جدا ، وأصر بوزويل ، واستقبله روسو « ووجدته جالسا وهو فى غاية الآلم » . روسو : لقد غلبتى العلل ، وخيبات الأمل ، والحزن . إننى استعمل مجسا . كل إنسان يعتقد أن من واجبى أن أصغى له . . عد فى العصر . موزوبل : وكم تطول زيارتى ؟ روسو : « ربع ساعة ، لاأكثر . بوزويل :عشرين دقيقة . روسو : هيا انصرف . ولكنه لم يتمالك نفسه من الضحك .

وعاد موزويل فى الرابعة وهو يحلم بلويس الخامس عشر . « إن الأخلاق تبدو لى أمرا غير يقينى . فأنا مثلا أحب أن يكون لى ثلاثون امرأة . ألا أستطيع أن أشبع تلك الرغبة ؟ لا . ولكن انظر ، لوكنت غنيا لاستطعت أن اتخذ عددا من الفتيات ، وأحبلهن ، وبهذا يزداد النسل . ثم أعطيهن مهوراً ، وأزوجهن لفلاحين طيبين سيسعدون جداً بالزواج منهن . وهكذا يصبحن زوجات فى نفس السن التى كن يتزوجن فيها لوظللن أبكاراً ، وأكون أنا من ناحيتى قد أفدت بالاستمتاع بعدد كبير من مختلف النساء » فلما لم يقع من نفس روسو هذا الفرض الملكى ، سأله « أخبرنى من فضلك كيف أكفر عن الشر الذى ارتكبته ؟ وأجاب روسو جوابا ذهبياً « ليس هناك تكفير عن الشر إلى الخير(٧٤) . وطلب بوزويل إلى روسو أن يدعوه للغداء ، وقال روسو « غدا » وعاد بوزويل إلى الفندق منتعشا غاية الانتعاش .

وفى ١٥ ديسمبر تناول الطعام مع جان — جاك وتريز فى المطبخ ، وقد وجده نظيفا مشرقا . وكان روسو رائق المزاج ، ولم تبد عايه علامات الاضطرابات العقلية التى ستظهر فيما بعد . وكان كلبه وقطته على وفاق مع بعضهما البعض ومعه . « ووضع بعض الطعام على صينية خشبية ، وجعل كلبه يرقص حوله وغنى روسو .. لحنا مرحا بصوت

رخيم وذوق رفيع . وتحدث بوزويل فى الدين .. « ان الكنيسة الانجليكانية أفضل المذاهب عندى . روسو : نعم ، ولكنها ليست الإنجيل . ألا تحب القديس بولس ؟ انى احترمة ، ولكنى أحسبه مسئولا إلى حد ما عما فى رأسك من اختلاط . لوعاش لكان قسيسا انجليكانيا .

الآنسة ليفاسير : أستلقى المسيو دفولتير يا سيدى ؟ بوزويل : بكل تأكيد. ثم إلى روسو : ان المسيو دفولتير لايحبك . روسو : أن المرء لا يحب من أذاهم أذى شديداً . أن حديثه ممتع جداً ، لا بل إنه يفضل كتبه . وطال وزويل المكث فوق ما تحتمله الضيافة ، ولكن حين ودع « قبلنى روسو مرات ، وضمنى بين ذراعية برود رقيق » . فلما وصل بوزويل إلى الفندق قالت ربته سيدى : أظنك كنت تبكى . ويضيف إننى احتفظ بذكرى هذه الكلمات إطراء صادقا لإنسانيتى (٧٥) .

٦ — دستور لكورسيكا

بعد أن زار بوزويل فولتير فى فرنيه ، مضى فى رحلته إلى ايطاليا ونابلى وكورسيكا ، ربما بحث من روسو . وكانت كورسيكا بزعامة باسكالى دى باولى قد حورت نفسها من سيطرة جنوه (١٧٥٥) ورحب روسو فى « العقد الاجتماعى » من قبل بمولد الدولة الجديدة .

ما زال فى أوربا بلد واحد مفتوح للمشرع ، انه جزيرة كورسيكا . والبسالة والأصرار اللذان برهن بهما هذا الشعب الشجاع على قدرتة على استرداد حريته والدفاع عنها يستحقان المعونة من انسان حكيم يعلمهم كيف يحتفظون بها . ونفسى تحدثنى بأن هذه الجزيرة الصغيرة سوف تدهش أوربا يوما ما (٧٦) . »

ولو أخذ رأى فولتير لرأى أن روسو آخر رجل فى أوربا يصح دعوته للتشريع . ولكن الذى حدث أن جان — جاك تلقى فى ٣١ أغسطس ١٧٦٤ الخطاب الآتى من ماتيو بوتافوكو ، المبعوث الكورسيكى لدى فرنسا :

« لقد ذكرت كورسيكا ياسيدى فى « عقدك الاجتماعى » على نحو يتيه به وطننا . وهذا الثناء من قلم مخلص كل الإخلاص كقلمك . . .أوحى بالرغبة القوية فى إنك يمكن أن تكون المشرع الحكيم الذى يعين الأمة على الحفاظ على الحريات التى إقتنتها بدم كثير . وإنى إدرك بالطبع أن المهمة التى أجرؤ على الالحاح عليك فى الأضطلاع بها تحتاج إلى معرفة خاصة بالتفاصيل ... ولكنك إن تفضلت أن تقبل المهمة فسأزودك بكل المعرفة الضرورية لإنارتك. وسيبذل المسيو باولى . . . قصاراه ليرسل اليك من كورسيكا كل المعلومات التى قد تحتاج إليها . ويشاطرنى رغبتى هذا الزعيم المرموق ، لا بل جميع اخوانى المواطنين الذين أتيح لهم الإطلاع على إعمالك ، ويشاركوننى مشاعر الاحترام التى تشعر بها أوربا كلها نحوك ، والتى أنت أهل لها لأسباب كثيرة جداً(٧٧) » .

ورد روسو (١٥ أكتوبر ١٧٦٤) بقبول المهمة ، وطلب تزويده بالمعلومات عن طبيعة الشعب الكورسيكى ، وتاريخه ، ومشاكله . واعترف بأن العمل قد يكون « فوق طاقتى وإن لم يكن فوق تحمسى » . ثم كتب إلى بوتافيوكو ، فى ٢٦ مايو ١٧٦٥ يقول : غير أنى أعدك أنه لن يكون لى إهتمام فيما بقى لى من أجل غـــير نفسى وكورسيكا ، وكل ماعدا ذلك من أمور سأقصية عن إفكارى (٧٨)» . ثم عكف من فوره على وضع « مشروع دستور لكورسيكا » .

واقترح روسو فى مشروعه و « العقد الاجتماعى » فى ذاكرته ، أن يوقع كل مواطن على تعهد ملزم لا رجعة فيه بوضع نفسه — « جسدى وأملاكى وارادتى ، وكل قدراتى » — تحت تصرف الأمة الكورسيكية(٧٩) . وحيا « الكورسيكيين البواسل » الذين ظفروا باستقلالهم ، ولكنه نبههم إلى أن فيهم رزائل كثيرة — كالكسل ، وقطع الطريق ، والعداوات ، والوحشية — ومعظمها ناجم عن كراهيتهم لسادتهم الأجانب . وخير علاج لهذه الرزائل أن يعيشوا عيشة زراعية خالصة . وينبغى أن توفر القوانين كل إغراء للشعب ليلزم الأرض بدلا من التجمع فى المدن ، فالزراعة تعين على الخلق الفردى

والصحة القومية ، أما التجارة بأنواعها والمالية فتفتح الأبواب لكل ضروب الغش والاحتيال ، ويجب على الدولة ألا تشجعها . ويجب أن يكون السفر كله على الأقدام أو على ظهور الدواب ، وأن يكافأ الزواج المبكر والأسرة الكبيرة ؛ وأن تسقط المواطنة عن الرجال الذين يظلون عزابا إلى الأربعين . ويجب خفض الملكية الخاصة وزيادة ملكية الدولة.. « بودى أن أرى الدولة المالك الوحيد ؛ ولا يصيب الفرد من لمكية المشتركة إلا بنسبة خدماته [٨٠]» ، وينبغى إلزام السكان بفلاحة أراضى الدولة إذا إقتضى الأمر ، وأن تشرف الحكومة على التعليم كله ، وعلى الآداب العامة كلها ؛ وأن تشكل الحكومة نفسها على غرار الولايات السويسرية (الكنتونات) .

وفى ١٧٦٨ اشترت فرنسا كورسيكا من جنوه ؛ وجردت عليها جيشا ؛ وعزلت باولى ، وأخضعت الجزيرة للقانون الفرنسى . وكف روسو عن المضى فى مشروعه ؛ وندد بالغزوة الفرنسية لأنها إنتهاك « لكل عدل ؛ وإنسانية ؛ وحق سياسى ، وتفكير سليم[٨١] » .

٧ — اللاجىء

ظل روسو عامين يحيا حياة متواضعة هادئة فى موتيية ؛ يقرأ ؛ ويكتب ويرعى مرضه ، ويعانى من إصابة بعرق النسا (أكتوبر ١٧٦٤) ؛ ويحتفى بالزوار الذين تجيزهم تريز بعد الفحص . وقد وصفه أحدهم وصف عارف بالجميل فقال :

« أنك لا تتصور أى سحر فى الاجتماع به ؛ ولا أى إدب صادق فى سلوكه ؛ ولا أى عمق من الهدوء والبشاشة فى حديثه . ألم تتوقع صورة مغايرة تماماً لهذه الصورة ؛ وألم تصور لنفسك مخلوقا غريب الأطوار ؛ جادا دائما لا بل فظا أحيانا ؟ فيالها من غلطة ! إنه يجمع إلى سمات اللطف الكثير نظرة من نار ؛ وعينين لم ير قط مثل لحيويتهما . فأذا تناولت موضوعا يهتم به ، تكلمت عيناه ، وشفتاه ، ويداه — وكل ما فيه . وأنت تخطىء كل الخطأ أن تصورته إنسانا لا يكف عن التذمر . فهو على النقض يضحك مع الضا حكين ويثرثر ويمزح مع الأطفال ؛ ويسخر من مديرة منزله[٨٢] » .

ولكن القساوسة المحليين كانوا قد أكتشفوا مافى « إميل » و«خطابات الجبل » من هرطقات ، ورأوها فضيحة أن يمضى هذا الوحش فى تلويث سويسرة بوجوده فيها . ورغبة فى تهدئة ثائرتهم عرض (١٠ مارس ١٧٦٥) أن يتعهد ، فى وثيقة رسميـــة « بالا ينشر أبدا أى كتاب جديد فى أى موضوع دينى ، لا بل أن يتناوله عرضا فى أى كتاب جديد آخر . . . وأكثر من ذلك أننى سأظل شاهدا ، بمشاعرى وسلوكى ، بالقيمة العظمى التى أعلقها على سعادة الإتحاد بالكنيسة[٨٣] » . وإستدعاه مجمع كنيسة نه شاتل للمثول أمامه والرد على تهم المرقطة الموجهة إليه ، فالتمس إعفاءه : « يستحيل على رغم صدق نيتى أن أحتمل جلسة طويلة[٨٤] وهـــو ما كان الحقيقة المؤلمة » . وانقلب عليه راعى كنيسته ، وندد به فى مواعظ علنية متهما أياه بأنه عدو المسيح[٨٥] . وألهبت هجمات القساوسة شعب أيرشيلتهم ، فراح بعض القرويين يحصبون روسو إذا خرج للتمشى . وقرب نصف ليلة ٦ — ٧ سبتمبر أيقظته هـــو وتريز حجارة تقذف على جدرانهما وتحطم نوافذهما . وأخترق حجر كبير الزجاج وسقط عند قدمه . واستدعى جار له — وكان موظفاً فى القرية — بعض الحراس لإنقاذه ، وتفرق الجمع ، ولكن إصدقاء روسو الباقين فى موتييه نصحوه بأن يبرح المدينة .

وأتته عدة عروض تقدم له الملجأ « ولكنى كنت متعلقاً بسويسرة تعلقا منعنى من أن أصمم على الرحيل عنها مادام فى إستطاعتى العيش فيها[٨٦] » . وكان قد زار قبل عام « الإيل دسان — بيير » ، الجزيرة الصغيرة الواقعة فى وسط بحيرة بيين ، ولم يكن على الجزيرة سوى بيت واحد — هو بيت الوكيل ، وخيل لروسو أن المكان بقعة مثالية لعاشق للعزلة يكرهه الناس . وكان يقع فى كانتون برن التى طردته قبل عامين ، ولكنه تلقى تأكيدات غـــير رسمية بأن فى إستطاعته الإنتقال إلى الجزيرة دون أن يخشى الأعتقال[٨٧] .

وهكذا ، حوالى منتصف سبتمبر ١٧٦٥ ؛ بعد ستة وعشرين شهراً فى موتييه ؛ ترك هو وتريز المنزل الذى أصبح عزيزا عليهما ، وذهبا للأقامة مع

أسرة الوكيل فى مكان لا يتيح إنعزاله « لا للجمهور ولا لرجال الكنيسة تكديره[٨٨] » . «وخيل إلى أننى سأكون فى تلك الجزيرة أشد إنعزالا عن الناس . . . . وأن البشر سيكونون أسرع نسيانا لى[٨٩] » . ورغبة فى تغطية نفقاته أعطى الناشر دوبيرو حق نشر كل كتبه ؛ « وجعلته مستودع جميع أوراقى ؛ بشرط صريح هـــو ألا يستعملها إلا بعد موتى ؛ لأن غاية أمانى كانت أن اختم حياتى فى هدوء ؛ دون أن أفعل شيئاً يعيدنى مرة أخرى إلى ذاكرة الجماهير[٩٠] » . وعرض عليه المريشال كيث معاشا سنويا قدره ألف ومائتا جنية ؛ فوافق أن يأخذ نصفه . ودبر معاشا آخر لتريز . واستقر معها على الجزيرة وهو لا يتوقع من الحياة شيئاً آخر . وكان الآن فى سنته الثالثة والخمسين .

وبعد ثلاثة عشر عاماً — فى آخر سنة فى عمره — ألف كتاباً من أروع كتبه اسمه « أحلام متجول وحيد » وصف فى بلاغة مخففة معيشته على جزيرة سان — بيير «كانت أول وأهم متعة أتوق إلى تذوقها بكل حلاوتها هى حياة الدعة اللذيذة[٩١] » . وقد رأينا فى غير هذا الموضع مبلغ إعجابه بلينايوس ؛ أما الآن ، وفى يده احد كتب عالم نبات سويدى ؛ فقد بدأ يعدد ويدرس النباتات التى وجدها على ملكه الصغير . أو كان إذا صحا الجو يفعل كما يفعل تورو على بركة فولدن :

« كنت أرتمى وحيداً فى زورق أجدف به إلى وسط البحيرة حين يكون الماء هادئا . هناك ؛ وأنا ممدد بطولى كله فى الزورق ؛ وعيناى إلى السماء كنت أترك نفسى للماء يحملنى هونا كما يشاء ؛ ساعات عدة أحيانا ، وأنا غارق فى مئات الأحلام المبهجة[٩٢] » .

ولكن راحته لم تطل حتى على هذه المياه . ذلك أن مجلس شيوخ برن أمره فى ١٧ أكتوبر ١٧٦٥ بأن يرحل عن الجزيرة والمقاطعة خلال خمسة عشر يوماً . وغلبته الحيرة والهزيمة «فالتدابير التى كنت قداتخذتها تأمينا لموافقة الحكومة الضمنية ، والهدوء الذى تركت فيه لأستقر ، وزيارات العديدين

من أهل برن لى»، كل هذا حدا به إلى الاعتقاد بأنه الآن فى مأمن من الازعاج والمطاردة . والتمس من مجلس الشيوخ شيئاً من التفسير والتأجيل ، واقترح بديلا يائسا لحكم النفى :

« لست أرى لى غير سبيل واحد ، ومهما بدأ رهيباً ، فأنى سأتخذه لا دون نفور فحسب ، بل برغبةشديدة إذا تفضل أصحابالسعادة بالموافقة . وذلك إننى إن طاب لهم سأقضى مابقى لى من أجل سجينا فى إحدى قلاعهم ، أو فى أى مكان آخر فى ضياعهم يرون اختياره . وسأعيش فيه على نفقتى ، وسأقدم ضمانا بالا أكلفهم أى نفقة . وأقبل إلا أحمل ورقا أو قلما ، أو أكون على اتصال بأى إنسان فى الخارج . فقط اسمحوا لى ، مع بعض الكتب ، بالأحتفاظ بحرية المشى بين الحين والحين فى حديقة ، وسيرضينى هذا .

أكان ذلك ايذانا بأنهيار عقله ؟ أنه يؤكد لنا عكس هذا :

« لا تظنوا أن وسيلة تبدو بهذا العنف هى ثمرة اليأس . فعقلى فى تمام الهدوء فى هذه اللحظة . وقد ترويت فى إتخاذ قرارى ، ولم أنته إليه إلا بعد تفكير عميق . وأرجو أن تلاحظوا أنه إذا بدا هــذا قرارا شاذا فإن وضعى أكثر شذوذا . فالحياة المضطربة التى أكرهت على أن احياها سنوات عديدة دون انقطاع ، خليقة بتعذيب رجل موفور العافية ، فما بالكم بعليل تعس براه التعب وسؤ الحظ ، ولم يعد له الآن من أمنية إلا أن يموت فى هدوء وسلام[٩٣] » .

وكان رد برن أن أمرته بالرحيل عن الجزيرة وعن كل اقليم برن خلال أربع وعشرين ساعة[٩٤] .

فإلى أين يمضى ؟ كان لديه دعوات إلى بوتسدام من فردريك ، وإلى كورسيكا من باولى ، وإلى اللورين من سان — لا مير ، وإلى امستردام من ناشره رى ، وإلى إنجلترة من ديفد هيوم . فنى ٢٢ أكتوبر كتب إليه هيوم الذى كان يومها سكرتيرا للسفارة البريطانية فى بارس يقول :

« أن محنتك العجيبة التى لم يسمع بمثلها ، فضلا عن فضيلتك وعبقريتك

لابد أن تثير عواطف كل إنسان فينحاز إليك ، ولكنى أعلل نفسي بأنك واجد فى انجلترة أمانا مطلقاً من كل اضطهاد ، لا بفضل ما تمتاز به قوانيننا من روح سمحة فحسب ، بل بفضل الاحترام الذى يكنه كل الناس هناك لشخصيتك (٩٥) » .

وفى ٢٦ أكتوبر غادر روسو جزيرة سان — بيير ورتب أن تظل تريز جينا فى سويسرة ، ورحل هو إلى ستراسبورج ، ومكث فيها شهراً كاملا دون أن يستقر على رأى . وأخيرا قرر أن يقبل دعوة هيوم إلى انجلترة ، ومنحته الحكومة الفرنسية جوازا بالحضور إلى باريس . هناك التقى به هيوم أول لقاء ، وما لبث أن شغف به ، وتحدثت باريس كلها عن عودة للنفى . وكتب هيوم يقول « محال وصف أو تصور تحمس هذه الأمة لروسو . . . فلم يظفر شخص قط بمثل ما ظفر به من اهتمام القوم . . . لقد حجب بهاء فولتير وسواه حجباً تاماً(٩٦) » .

ولكن الصداقة الوليدة أصيبت بصدع فى المهد ومن العسير هنا أن نحدد الحقائق بدقة أو نرويها دون تحيز . ففى أول يناير ١٧٦٦ أرسل جريم إلى قرائه التقرير الآتى :

دخل جان — جاك روسو باريس فى ١٧ ديسمبر . وفى الغد تمشى فى حدائق اللكسومبرج وهو يرتدى زيه الأرمنى ، وإذ لم ينبه أحد إلى الأمر فأن احداً لم ينتفع بالمشهد . وقد أسكنه الأمير كونتى فى التامبل حيث يعقد الأرمنى المذكور بلاطه كل يوم. كذلك يتمشى يوميا فى ساعة معينة فى الشوارع الكبيرة القريبة من مسكنه(*). وها هو ذا خطاب تداولته الايدى فى باريس خلال مكثه هنا ، وقد لقى نجاحاً كبيراً(٩٨) » .

وهنا نقل جريم خطابا زعم أن روسو تلقاه من فردريك الأكبر . وكان

(*) قارن خطاب روسو لصديقة دلوز : « وددت او استطعت الخروج وزيارتك ، ولكنى مضطر لرجائك أن تحضر أنت إلى تحاشيا للإعلان عن قلنسوتى الارمنية فى الشوارع » .

قد زيفه على روسو هوراس وليول . ولندع وليلول نفسه يتحدث عنه فى خطاب له إلى ﻫ . س كونواى فى ١٢ يناير ١٧٦٦ .

« أن الفضل فى شهرتى الراهنة لتأليف تافه جداً ، ولكنه أثار ضجة لا تصدق . ذلك إننى كنت ذات مساء فى بيت مدام جوفران أسخر من إدعاءات روسو وتناقضاته ، وقلت إشياء أضحكتهم . فلما عدت إلى البيت دونتها فى خطاب ، وأريتة فى الغد هلفيتيوس ودوق نفرنوا ، وقد سرا به كثيراً حتى إنهما ، بعد الأشارة على بعض الأخطاء اللغوية . . . . شجعانى على اطلاع الناس عليه . وأنا كما تعلم يطيب لى أن اهزأ بالدجالين سواء السياسيين منهم أو الأدباء مهما عظم قدر مواهبهم ، لذلك لم أنكر الفكرة . وسرت النسخ مسرى النار ، وهأنذا «اصبحت موضة et me voici à la mode . . . . وإليك الخطاب (وهو مترجم حرفيا عن فرنسية وليول) :

ملك بروسيا إلى مسيو روسو عزيزى جان — جاك

لقد لفظت جنيف وطنك ، لقد جعلتهم يطاردونك من سويسرة ، البلد الذى أطريتة كثيراً فى كتاباتك ، وقد أصدرت فرنسا أمرا باعتقالك . فتعال إلى إذن ، فأنا معجب بمواهبك ، وتمتعنى أحلامك ، وهى (بهذه المناسبة) تشغلك فوق ما ينبغى وأطول مما ينبغى . وعليك أن تكون فى النهاية حكيما وسعيداً . لقد أثرت ما يكفى من الاقاويل بسبب غرائب لاتليق برجل عظيم بحق . فأثبت لخصومك أن فى استطاعتك احيانا أن تكون معقولا ، فمن شأن هذا أن يغيظهم دون أن يؤذيك . إن بلادى تقدم لك معتكفا هادئا ، وإننى أرجو لك الخير ، وأحب أن إساعدك إذا إستطعت أن تستطيب مقامك . أما إذا واصلت رفض معونتى ، فتأكد أننى لن أخبر أحدا بالأمر . وإذا اصررت على إجهاد نفسك لتجد نكبات جديدة ، فأختر ما يحلو لك منها ، فأنا ملك ، وفى إستطاعتى أن أحصل لك منها على مايلبى رغباتك ، وسأكف عن اضطهادك حين تكف عن أن تجد فخرك فى أن تضطهد — وهو بالتأكيد ما لن يحدث لك أبدا بين خصومك .

صديقك المخلص فردريك (٩٩)

أما وليول فلم يحدث له أن التقى بروسو قط . ولم يجد عقله الرفيع الثقافة ، وثراؤه الموروث معنى فى كتابات روسو . وقد عرف عيوب روسو وحماقته من حفلات عشاء مدام جوفران ، حيث كان يلتقى ديدرو وجريم . وأغلب الظن أنه لم يدرك أن روسو الحساس إلى درجة العصاب ، قد دفعته إلى مشارف الأنهيار العقلى سلسلة من المجادلات والضيقات . ولو كان وليول على علم بهذا حقا لكانت دعابته قاسية قسوة شائنة . على أننا ينبغى أن نضيف أنه حين طلب هيوم رأيه فى إيجاد معتكف لروسو فى إنجلترة ، تعهد وليول بأن يمد الطريد بكل ضروب المعونة[١٠٠] .

أكان هيوم على علم بهذا الخطاب ؟ يبدو أنه كان موجودا ببيت مدام جوفران حين لفق أول الأمر ، وقد إتهم بأنه « شارك » فى تحريره[١٠١] . وقد كتب إلى المركيزة دباربنتان فى ١٦ فبراير ١٧٦٦ :

« إن الدعابة الوحيدة التى سمحت بها لنفسى فى أمر خطاب ملك بروسيا المزعوم كانت على مائدة عشاء اللورد أو سورى[١٠٢] » . وفى ٣ يناير ١٧٦٦ قام هيوم بزيارة وداع لضيوف البارون دولباخ وأخبرهم بآماله فى إنقاذ « الرجل القصير القامة » من الأضطهاد وتوفير أسباب السعادة له فى انجلترة . أما دولباخ فتشكك قائلا يؤسفنى أن ابدد الأمال والأوهام التى تخدعك ، ولكنى أقول لك إنه لن يمضى طويل زمن حتى ينقشع عنك الوهم بصورة محزنة . إنك لا تعرف صاحبك ، وأصارحك بأنك تحتضن ثعبانا فى صدرك[١٠٣] » .

وفى صباح الغد غادر باريس إلى كالية فى مركبتى اجرة هيوم وروسو مع جان — جاك دلوز وسلطان كلب روسو . ودفـع روسو نفقاته بعد أن رفض عروض هيوم ومدام دبوفليه ، ومدام دفرديلان بمده بالمال . فلما بلغوا دوفر (١٠ يناير) عانق روسو هيوم ، وشكره لأنه أتى به إلى بلد تسوده الحرية .

٨ — روسو فى انجلترة

وصلوا إلى لندن فى ١٣ يناير ١٧٦٦ ولاحظ المارة زى روسو — قلنسوته الفراء ، وروبه الارجوانى ، وحزامة ، وأوضح لهيوم أنه يشكو مرضا يجعل سراويل الركوب القصيرة غير مريحة له(١٠٤) . واقنع هيوم صديقه كوفواى بأن يقترح معاشاً للغريب الكبير ، ووافق جورج الثالث على منحه مائة جنيه فى العام ، وأبدى رغبة فى أن يلقى عليه نظرة سريعة بصفة غـــير رسمية . وحجز جاريك لروسو وهيوم مقصورة فى مسرح درورى لين فى مواجهة المقصورة الملكية فى ليلة تقرر فيها حضور الملك والملكة . ولكن حين زار هيوم روسو لقى عنتا شديدا فى اقناعة بأن يترك كلبه الذى مزق نباحه بسبب حبسه قلب الغريب المنفى . وأخيرا « إحتويت روسو بين ذراعى و . . . . حملته على المسير فى شىء من الإكراه(١٠٥)» . وبعد الحفل دعى جاريك روسو إلى عشاء لتكريمة وهنأه روسو على تمثيله : « سيدى ، لقد جعلتنى اذرف الدموع على مأساتك ، وأبتسم لملهاتك ، مع مع أننى لم أكد أفهم كلمة من لغتك » .

وإلى هنا كان هيوم على الجملة مسرورا غاية السرور بضيفه . وكتب إلى مدام دباربنتان بعد وصوله إلى لندن بقليل يقول :

سألتنى رأيى فى جان — جاك روسو . وأنى بعد أن راقبته فى جميع النواحى . . . . أصرح بأننى لم أعرف رجلا أكثر منه لطفا ولا أكرم خلقا . فهو رقيق ، متواضع ، ودود ، نزيه ، مرهف الحس ، فإذا بحثت عن عيوب فيه لم أجد سوى قلة صبر مفرطة ، وميل لاحتضان شبهات ظالمة فى خير أصدقائه . . . أما عن نفسى فبودى لو أمضيت حياتى فى صحبته دون أن يكدر علاقتنا مكدر . أن فى سلوكه بساطة عجيبة . وهو فى الأمور العادية طفل بمعنى الكلمة . وهذا من شأنه أن يسهل . . . لمن يعيشون معه أن يسوسوه(١٠٦) » .

ثم يقول : « إن له قلبا حارا ممتازا ، وفى الحديث كثيراً ما تشتد حماسته

إلى ما يشبه الالهام . وإنى أحبه حباً جما وأرجو أن يكون لى فى وده نصيب . . . لقد تنبأ لى فلاسفة باريس إننى لن أستطيع اصطحابه إلى كاليه دون شجار ، ولكنى أحسبنى قادرا على العيش معه طوال حياتى فى صداقة وتقدير متبادلين . وأعتقد أن من أكبر أسباب انسجامنا أن كلينا لا يحب الجدل ، وهذا ليس حالهم . ويسؤهم منه أيضاً ظنهم إنه مغال فى الدين ؛ ومن الغريب حقاً أن يكون فيلسوف هـــذا الجيل ، الذى لقى أشد اضطهاد أكثرهم تدينا [١٠٧] . . . أن به شوقا إلى الكتاب المقدس ، وهو فى الحق أفضل من المسيحيين قليلا[١٠٨] » .

على أنه كان هناك صعوبات . ففى لندن ، كما فى باريس ؛ توافد النبلاء والنبيلات ، والمؤلفون والنواب على بيت السيدة آدمز فى شارع بكنجهام ، حيث أسكن هيوم روسو . وسرعان ما ضاق بهذه المجاملات ، ورجا هيوم أن يجد له بيتا بعيدا عن لندن . وجاء عرض بالعناية به فى دير ولزى ، فأراد أن يقبله ، ولكن هيوم اقنعه بأن يسكن مع بدال فى تشيزيك على التيمز على ستة أميال من لندن . . فانتقل إلى هذا المنزل روسو وسلطان فى ١٨ يناير وأرسل الآن فى طلب تريز ، وأزعج مضيفه وهيوم باصراره على وجوب السماح لها بالجلوس إلى المائدة معه . وشكا هيوم فى خطاب إلى مدام دبوفايه .

« إن مسيو دلوز.. يقول أن الناس يرونها شريرة محبة للشجار والثرثرة، ويظنون أنها أهم سبب فى رحيله عن نوشاتيل (موتييه) . وهو نفسه يعترف أنها من الغباء بحيث لاتعرف فى أى سنة ميلادية نحن ولا فى أى شهر من السنة ، ولا فى أى يوم من الشهر أو الأسبوع ، وأنها لاتستطيع أن تتعلم أبدا القيم المختلفة للعملة فى أى بلد . ومع ذلك فهى تحكمه حكما مطلقا كما تحكم المربية طفلا . وقد اكتسب كلبه هذه السيادة فى غيابها، فحبه لهذا المخلوق يفوق كل تعبير أوتصور[١٠٩] .

ووصلت تريز خلال ذلك إلى باريس فاستقبلها بوزويل وتطوع باصطحابها إلى انجلترة . وفى ١٢ فبراير كتب هيوم إلى مدام دبوفليه

يقول « جاءنى خطاب فهمت منه أن الآنسة مسافرة على جناح السرعة فى صحبة صديق لى ، وهو شاب فى غاية الطيبة ، وفى غاية اللطف ، وفى غاية الجنون . . وبه من الولع بالأدب ما يجعلنى أتوجس من حدث مؤذ لشرف صديقنا[١١٠] . وقد ادعى بوزويل أنه برر هذا الإحساس السابق . وقد جاء فى صفحات فى يوميته ، تالفة الآن[١١١] ، أنه شارك تريز فراشها فى نزل ثانى ليلة بعد رحيلهما عن باريس . ثم ليالى عديدة بعدها . ووصلا إلى دوفر باكرا فى ١١ فبراير . وتقول اليومية : « الأربعاء ١٢ فبراير . ذهبت صباح أمس إلى الفراش مبكرا جدا ، وفعلتها مرة ، والجملة ثلاث عشرة . كنت فى الحق محبا لها . وفى الثانية بعد الظهر قمنا فى رحلتنا . فى ذلك المساء صحب تريز إلى هيوم بلندن ووعدها بأنه « لن يذكر علاقتهما الغرامية حتى مماتها أو ممات الفيلسوف . »

وفى المرة الثالثة عشرة أسلمها إلى روسو . ولقيها بقبلات كثيرة . . وقد بدا فى حال من الشيخوخة والضعف حتى «إنك (بوزويل) لم يعد فيك حماسة له[١١٣] طبعاً . »

وفى تشيزيك ، كما فى موتييه ، تلقى روسو من البريد أكثر مما أراد ، وشكا من نفقات البريد التى كان عليه أن يدفعها . وذات يوم ، حين جاءه هيوم بـ «شحنة» من لندن ، رفض تسلمها ، وطلب اليه أن يردها إلى مكتب البريد . ونبهه هيوم أن موظفى البريد فى هذه الحالة سيفتحون الخطابات المرفوضة ويطلعون على أسراره . وتطوع الاسكتلندى الصبور بأن يفتح ما يرد من رسائل روسو إلى لندن وإلا يأتيه إلا بما يراه هاما منها . ووافق جان — جاك ، ولكنه سرعان ما توجس شرا من عبث هيوم ببريده .

وأتته دعوات للغداء ، شاملة للآنسة ليفاسير عادة ، من الأعيان فى لندن فاعتذر روسو من قبولها بحجة مرضه ولكن السبب على الأرجح هو كرهه إظهار تريز أمام علية القوم . وكان يبدى رغبته فى الانزواء فى أعماق الريف . فلما سمع رتشرد ديفنيورت برغبته هذه من جاريك ،

عرض عليه بيتا فى ووتن بداربيشير على ١٥٠ ميلا من لندن . فقبله روسو مغتبطا . وأرسل ديفنبوت مركبة تنقله هو وتريز ، وشكا روسو من أنه يعامل معاملة المتسولين ، وأردف قائلا لهيوم « ان كانت هذه حقا حيلة من حيل ديفنبورت ، زأنت عليم بها موافق عليها ، وما كان فى امكانك أن تسىء إلى بأكثر من هذا » . وبعد ساعة (كما يقول هيوم)، جلس فجأة على ركبتى، وطوق عنقى بيديه، وقبلنى بكل حرارة ثم قال وهو يبلل وجهى كله بالدموع : «أممكن أن تصفح عنى يا صديقى العزيز ؟ انى بعد جميع دلائل الود التى تلقيتها منك ، أجازيك النهاية بهذه الحماقة وهذا المسلك السىء . ولكن لى رغم ذلك قلبا جديرا بصداقتك ، وأنا أحبك وأقدرك ، ولم تضع على سدى أقل مكرمة من مكرماتك » فقبلته وعانقته عشرين مرة بفيض من الدمو(١١٣) .

وفى الغد ٢٢ مارس انطلق جان - جاك وتريز قاصدين ووتن ، فلم يرهما قط بعدها . ولم يلبث هيوم أن كتب إلى هيوبلير تحليلا بصيرا بحالة روسو وخلقه .

كان مصمما تصميم البائس على الاندفاع إلى هذه العزلة رغم كل اعتراضاتى ، وأنا أتوقع أنه سيكون تعسا فى موقفه ذلك كما كان فى الواقع تعسا فى جميع المواقف . فسيكون محروما تماما من أى شغل يشغله ، ومن الأصحاب ومن أى تسلية من أى نوع تقريباً . لقد قرأ أقل القليل فى حياته، وطلق الآن كل قراءاته طلاقا بائنا، ولقد رأى أقل القليل من الدنيا وليس به أى فضول ليرى أو يلاحظ . والواقع أنه لا يملك الكثير من المعرفة ، وكل ما فعله طوال حياته أنه أحس فقط، واحساسه فى هذه الناحية مرهف إلى حد لا أعرف له مثيلا ، ولكنه مع ذلك يشعره بالألم بأحد مما يشعره باللذة ، وما أشبهه برجل لم تنزع عنـــه ثيابه فحسب ، بل جلده أيضا . ثم دفع به فى ذلك الموقف ليصارع قوى الطبيعة الغاشمة الصاخبة التى تلم على الدوام بهذا العالم الأسفل(١١٤) .

ووصل روسو وتريز إلى ووتن فى ٢٩ مارس . وراقه البيت الجديد لأول وهلة . فوصفه فى خطاب لصديق بنوشاتل : « بيت منعزل ... ليس واسعا جدا ولكنه مناسبا جدا ، شيد فى منتصف الطريق على جانب واد ، وأمامه « أبدع مخضرة فى الوجود » ومشهد طبيعى من مروج ، وأشجار ، ومزارع متفرقة ، وعلى مقربة منه طرق للتنزه على ضفاف غدير . وفى أسوأ الأجواء أخرج فى هدوء لجمع النباتات[115] » . وكان آل ديفنبورت يشغلن قسما من البيت حين يلمون به ، وبقى به خدمهم ليعنوا بالفيلسوف و « مديرة بيته » . وأصر روسو على أن يؤدى لديفنبورت ثلاثين جنيها فى العام نظير الأجرة والخدمة .

ولم تعمر سعادته أكثر من أسبوع . ففى ٣ ابريل نشرت مجلة لندنية تسمى « سانت جيمس كرونكل » بالفرنسية والانجليزية خطاب فردريك الأكبر المزعوم إلى روسو ، دون اشارة إلى كاتبه الحقيقى . وحز الأمر فى نفس جان — جاك حين نمى اليه الخبر ، وزاد من ألمه أن محرر المجلة رهو وليم ستراهان كان صديقا قديما لهيوم . يضاف إلى هذا ان نغمة الصحف البريطانية فى حديثها عن روسو تغيرت تغيرا واضحا منذ برح تشزيك : فكثرت المقالات التى انتقدت الفيلسوف الغريب الأطوار ، واحتوى بعضها على أشياء اعتقد أن هيوم وحده هو الذى يعرفها ، ويمكن أن يزود بها الصحف . على أى حال شعر أن واجب هيوم كان يقتضيه أن يكتب شيئاً للدفاع عن ضيفه الأسبق . وسمع أن الاسكتلندى كان يسكن بلندن البيت الذى يسكنه فرانسوا ترونشان : ابن عدو جان — جاك فى جنيف ، وأغلب الظن أن هيوم كان الآن على علم تام بنقائص روسو .

وفى ٢٤ إبريل كتب روسو إلى سانت جيمس كرونكل ما يأتى :

« لقد عدوت ياسيدى على الاحترام الذين يدين به كل فرد للملك بأن نسبت علنا إلى ملك بروسيا خطابا إمتلأ مبالغة وغلا ، وكان يجب بناء عليه أن تعرف إنه ماكان يمكن أن يصدر عنه . لا بل إنك جرؤت على نقل

توقيعه كانك رأيته مكتوبا بيده . وإنى أخبرك يا سيدى أن هذا الخطاب زيف فى باريس ، ومما يحزننى ويمزق قلبى أن المحتال الذى كتبه له شركاء ضالعون معه فى انجلترا . وواجبك نحـــو ملك بروسيا ، ونحو الحقيقة ، ونحوى أيضاً ، يقتضيك أن تنشر خطابى هذا ، الموقع بامضائى ، تصحيحا لخطأ لا شك إنك كنت تلوم نفسك على ارتكابه لو علمت أى مؤامرة خبيثة سخرت لها . وأنى إقدم لك خالص تحيتى .

جان — جاك روسو[116]

وفى وسعنا الآن أن نفهم لم ظن روسو أن هناك « مؤامرة » عليه . فمن غير خصومة القدامى ، فولتير ، وديدرو ، وجريم ، وغيرهم من نجوم التنوير ، يمكن أن يدبروا هذا التغير الفجائى فى لهجة الصحف البريطانية من الترحيب والتكريم إلى الهزء والتحقير ؟ وفى نحو هذه الفترة نشر فولتير « خطابا إلى الدكتور ج . ج . يانسوف ، غفلا من أسمه ، أعاد فيه ذكر الأشارات المؤذية للشعب الانجليزى فى كتابات جان — جاك — كقوله إنهم ليسوا فى الحقيقة أحرارا ، وأنهم شديدو الولع بالمال ، وانهم ليسوا بطبيعتهم طيبين . واعيد نشر أكثر الفقرات ايذاء فى كتيب فولتير فى دورية لندنية تسمى (للويلدز ايفننج نيوز [117]) .

وفى ٩ مايو كتب روسو إلى كونواى يطلب اليه وقف المعاش الذى يمنح له مؤقتا . والح عليه هيوم فى قبوله ، فرد عليه روسو بأنه لايستطيع قبول أى امتياز يأتيه من وساطة هيوم . وطالبه هيوم بالتفسير . ويبدو ن روسو قد انتقل الآن إلى حالة من الشك والغيظ . ففى ١٠ يوليو بعث إلى هيوم بخطاب من ثمانى عشرة صفحة من القطع الكبير ، لا يسمح طوله المفرط بنقله هنا كاملا ، ولكنه من الأهمية البالغة لهذا الشجار الأشهر بحيث يقتضينا الأمر ان نتذكر بعض فقراته الرئيسية : « انى مريض يا سيدى ، وليس بى كبير ميل للكتابة ، ولكن بما أنك طلبت التفسير ، فلابد من تقديمه لك . . . .

«انى أعيش خارج العالم ، واجهل الكثير مما يدور فيه . . . ولاأعرف إلاماأشعربه .؟؟

« انك تسألنى فى جرأة من هو الذى يتهمك ؟ انه يا سيدى الرجل الوحيد فى العالم كله الذى . . . أود لصديقة ، انه انت . . . وإذ اشير إلى ديفد هيوم بشخص الغائب ، فانى جاعلك الحكم فيما ينبغى أن يكون رأيى فيه . »

واعترف روسو فى إسهاب بافضال هيوم ، ولكنه اردف :

«أما إذا تحريت عن الخير الحقيقى الذى صنعته بى ، فان هذه الخدمات ظاهرية أكثر منها جوهرية ، . . فأنا لم أكن نكرة تماما بحيث اننى لو وصلت وحيدا ، .لما لقيت عونا ولامشورة .. وإذا كان مستر ديفنبورت قد تفضل باعطائى هذا المسكن فهولم يفعل ذلك لإرضاء مستمر هيوم الذى لم يكن يعرفه . . وكل الخير الذى أصابنى هنا كان يصيبنى بالطريقة ذاتها بدونه (هيوم) ولكن الشر الذى أصابنى ما كان يقع لى . إذ لم يكون لى أعداء فى انجلترا؟وكيف يوم يتفق أن يكون هؤلاء الأعداء بالضبط أصدقاء لمستر هيوم ؟

« وقد نمى إلى أيضاً ان ابن المشعوذ ترونشان ، ألد خصومى ، لم يكن فقط صديق مستر هيوم بل محسوبه أيضا ، وانهما يسكنان معا ....

« وكل هذه الحقائق مجتمعة تركت فى انطباعا جعلنى قلقاً . . . وفى الوقت نفسه لم تصل الخطابات التى كتبتها إلى وجهتها ، وتلك التى تلقيتها كانت مفتوحة ؟ وهذة كلها تناولتها يد مستر هيوم .

« ولكن ما الذى حدث لى حين رأيت خطاب ملك بروسيا المزعوم منشورا فى الصحف العامة ؟ . . لقد كشف لى شعاع من النور ، سر ما طرأ على اتجاه الشعب البريطانى نحوى من تغير فجائى إلى حد مذهل ؟ ورأيت فى باريس مركز المؤامرة التى تنفذ فى لندن . . فحين نشر هذا الخطاب

المزعوم فى لندن لم ينبس مستر هيوم ببنت شفة ، ولا كتب لى شيئاً ، وهو العليم ولا ريب بأنه خطاب زائف . . . .

« لم يبق لى غير كلمة واحدة أقولها لك . إن كنت مذنبا فلاتكتب إلى ، إذلا جدوى من الكتابة ، وثق انك لن تخدعنى . ولكن ان كنت برئياً فتضفل بتبرير نفسك . . وإلا فوداعا إلى الأبد[١١٨] » .

وكان رد هيوم موجزا (٢٢ يوليو ١٧٦٦) ولم يجب عن التهم ، لأنه خلص إلى أن روسو مشرف على الجنون . وكتب إلى ديفنبورت يقول ان جاز لى ان ابذل النصح فهو أن تمضى فيما بدأته من حسنة حتى يحبس كلبه فى مستشفى المجاذيب[١١٩] ... فلما سمع ان روسو ندد به فى خطابات أرسلها إلى باريس (كخطابه إلى الكونتيسة دبوفليه فى ٩ابريل ١٧٦٦)، بعث إلى دبوفليه صورة من خطاب جان — جاك الطويل . فردت على هيوم بما يلى :

« ان خطاب روسو فظيع ، انه مبالغ جدا ولا عذر له فيه اطلاقا ... ولكن لاتحتسبه قادرا على الكذب أو الخداع ، ولا تتصور انه دجال أو وغد، ان غضبه بلا مبرر حق ، ولكنه غضب مخلص ، وليس لدى فى هذا أى شك ...

« واليك ما اتصوره السبب فيه . لقد سمعتهم يقولون ، ولعله أخبر ، انك صاحب عبارة من خير ما ورد فى خطاب مستر ولبول — وانك قلت مازحا وانت تتحدث باسم ملك بروسيا « ان شئت الاضطهاد ، فأنا ملك ، وأستطيع اضطهادهم نيابة عنك بأى نوع تريد» وأن مستر ولبول . . . قال انك صاحب هذه العبارة . فان صح هذا ، وعلم به روسو ، فهل تعجب ان يثور سخطه . . . وهو المرهف الحس ، الغضوب ، السوداوى المزاج ، المتكبر[١٢٠] .

وفى ٢٦ يوليو كتب ولبول إلى هيوم يحمل نفسه كل اللوم — دون الإعراب عن أى ندم — فى أمر الخطاب المزيف ، ويدين « قلب روسو

الجحود الشرير»[١٢١] ، ولكنه لم ينكر ان هيوم كان له يد فى الخطاب . وكتب هيوم إلى دولباخ يقول « انك محق تماما ؛ فروسو وحش » . وسحب الكلمات الرقيقة التى وصف بها من قبل خلق روسو [١٢٢] . فلما سمع من ديفنبورت ان جاك ... جاك يكتب «اعترافاته» افترض أن روسو سيذيع رأيه فى الأمر على الملأ . ونصحه آدم سمث ، وطورجو والمرشال كيث ، بأن يتحمل الهجوم صامتا ، ولكن جماعة الفلاسفة فى باريس يقودهم دالامبير ، حرضوه على أن ينشر روايته عن نزاع ذاع خبره فى عاصمتين . وعليه فقد أصدر (اكتوبر ١٧٦٦) عرضا موجزا للنزاع الذى ثار بين السيدين هيوم وروسو ، صاغه بالفرنسية دالامبير وسوار ، وبعد شهر ظهر بالانجليزية . وأذاع جريم مضمونه على نطاق واسع « فى خطاب الاشتراك » الذى كتبه فى ١٥ اكتوبر ، فتردد صدى المشاجرة فى جنيف ، وامستردام ، وبرلين ، وسانت بطرسبورج . وضاعفت الضجة أكثر من عشر نشرات ، ونشر ولبول روايته للنزاع ، وهاجم بوزويل ولبول ، ورمت مدام دلاتور فى « مجمل عن مسيو روسو » ، هيوم بأنه خائن ، ووفاه فولتير بمزيد من البيانات عن نقائص روسو وجرائمه ، وعن اختلافه الى أماكن سيئة السمعة ، وعن أعمال التحريض التى أتاها فى سويسره[١٢٣] . أما جورج الثالث فقد تابع المعركة بفضول شديد[١٢٤] . وأرسل هيوم الوثائق المتعلقة بها إلى المتحف البريطانى[١٢٥]

ووسط هذه الضجة الكبرى لزم روسو الصمت الرهيب . ولكنه صمم الآن على العودة إلى فرنسا أيا كان الخطر والثمن . فقد اكتأب لرطوبة مناخ انجلترا وتحفظ الخلق الانجليزى ، وكانت العزلة التى نشدها فوق ما يطيق ، ولم يكن قد بذل أى جهد فى تعلم الانجليزية فوجد مشقة فى التفاهم مع الخدم . ولم يستطع الحديث إلا مع تريز — التى ما فتئت كل يوم تلح عليه فى أن يأخذها إلى فرنسا . ودعماً لخططها أكدت له ان الخدم يبيتون دس السم له . وعليه فى ٣٠ ابريل كتب إلى مالك بيته الغائب يقول :

« غدا أترك بيتك يا سيدى .. ولست اجهل الكمائن التى تدير لى ، ولا عجزى عن حماية نفسى ، ولكننى عشت يا سيدى ، ولم يبق لى الآن أنهى بشجاعة حياة قضيت بشرف . . وداعا سيدى . سآسف دوما على المسكن الذى ابرحه الآن، ولكن أسفى سيكون أكثر لأننى وجدت فيك مضيفا غاية فى اللطف ، ومع ذلك لم استطيع أن اجعل منه صديقا[١٢٦] .

وفى أول مايو فر مع تريزعلى عجل وفى رعب . وتركا حقائبهما ومالا الوفاء بإيجار ثلاثة عشر شهرا . . ولجهلهما بجغرافية انجلترا استقلا مختلف وسائل الانتقال غير المباشرة، وقطعا شطرا من الطريق على الإقدام ، وظلا عشرة أيام تائهين لايعرف أحد مستقرهما . وأعلنت الصحف عن اختفائهما، ثم ظهرا فى ١١ مايو فى سبولدنج يلنكولنشير ، ومنها وجدا طريقهما إلى دوفر، وهناك استقلا سفينة إلى كاليه فى ٢٢ مايو . بعد أن قضيا فى انجلترا ستة عشر شهرا ؛ وكتب هيوم إلى طورجو وغيره من الأصدقاء طالبا اليهم أن يمدوا يد المعونة للمنبوذ الذى عاد الآن وحيدا مهجوا إلى فرنسا، وهو من الناحية القانونية لايزال تحت طائلة الأمر باعتقاله .



المراجع

CHAPTER I

1. Rousseau, *The Confessions of Jean-Jacques Rousseau*, I, 22.
2. *Ibid.*, 4.
3. I, 156-57; II, 70, 321.
4. Saintsbury, *History of the French Novel*, I, 391.
5. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 174.
6. Lanson, G., *Histoire de la littérature française*, 801.
7. *Encyclopaedia Britannica*, XIX, 587a.
8. Rousseau, *The Confessions*, I, 3.
9. *Ibid.*, 8.
10. 9.
11. 11.
12. 13.
13. 9.
14. 16.
15. 22.
16. 41.
17. 44.
18. *Ibid.*; Lemaître, *Jean-Jacques Rousseau*, 290; Mann, Thomas, *Three Essays*, 156.
19. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, I, 51 f.
20. Rousseau, *The Confessions*, I, 69.
21. Rousseau, *Les Confessions*, I, 140.
22. *The Confessions*, I, 117-19.
23. *Ibid.*, 76.
24. 76.
25. 106.
26. 91.
27. 92.
28. 96.
29. 104.
30. 107.
31. 116.
32. 122.
33. 130.
34. 154.
35. 138.
36. 148.
37. 160.
38. 178.
39. *Les Confessions*, I, 238.
40. *Ibid.*; *The Confessions*, I, 178.
41. *Ibid.*, 224.
42. 195.
43. Josephson, *J.-J. Rousseau*, 111.
44. *Ibid.*, 113-14.
45. *The Confessions*, I, 247, 250.
46. *Ibid.*, 259.
47. 262.
48. 265.
49. *Ibid.*
50. 296.
51. 295.
52. 300.
53. Josephson, 132.
54. *Ibid.*, 133.
55. *The Confessions*, I, 305.
56. Letter of Frederick, 1762, in Gooch, *Frederick the Great*, 145.
57. *The Confessions*, I, 309.
58. *Ibid.*, 310.
59. *Ibid.*, II, 139.
60. Martin, Henri, *Histoire de France*, XVI, 83; Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 209.
61. Josephson, 140.
62. Morley, John, *Rousseau and His Era*, I, 127; Hendel, C. W., *Citizen of Geneva*, 208.
63. Diderot, *Essai sur les règnes de Claude et Néron*, Ch. 67.
64. Marmontel, *Memoirs*, I, 321.
65. *The Confessions*, II, 21.
66. *Ibid.*, 32.
67. Rousseau, *Discourse on Arts and Sciences*, in *Social Contract and Discourses*, 130.
68. *Ibid.*, 132.
69. 134.
70. 134.
71. 146.
72. 151.
73. 142.
74. 151.
75. 135.
76. 139.
77. 153.
78. 153.
79. Rousseau, preface to *Narcisse*.
80. Michelet, *Histoire de France*, V, 371.
81. Grimm, *Correspondance littéraire*, IX, 49.
82. Bayle, Pierre, *Réponse aux questions d'un provincial*.
83. Rousseau, *Reveries of a Solitary*, Book VI, pp. 127-32.
84. *The Confessions*, II, 21.
85. Lemaître, 92.
86. Letter of July 15, 1756, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 142.
87. Marmontel, *Memoirs*, I, 321.
88. *The Confessions*, II, 34.
89. *Ibid.*, 48.
90. 49.
91. 51.
92. 56; Goncourt, E. and J. de, *Madame de Pompadour*, 143.
93. Faguet, *Rousseau artiste*, 192.
94. Grimm, II, 307.

95. Rousseau, *Reveries*, 111.
96. In Faguet, *Rousseau artiste*, 193.
97. Musée, St.-Quentin.
98. Levey, Michael, *Painting in 18th-Century Venice*, 155.
99. Marmontel, *Memoirs*, I, 169.
100. Épinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, II, 52.
101. *Ibid.*; Masson, *La Religion de Rousseau*, I, 184-85.
102. Preface to *Narcisse*.
103. Masson, I, 182.
104. Michelet, *Histoire de France*, V, 428.
105. *The Confessions*, II, 63.
106. *Ibid.*, 58.
107. Rousseau, *Discourse on the Origin of Inequality*, in *Social Contract . . .*, 157.
108. *Ibid.*, 159.
109. 160.
110. 239.
111. Nietzsche, *Thus Spake Zarathustra*, 129.
112. Rousseau, *Discourse on the Origin of Inequality*, *loc. cit.*, 181.
113. *Ibid.*, 169.
114. 175.
115. 222.
116. Rousseau, *Social Contract*, Book I, Ch. ii.
117. Second *Discourse*, in *Social Contract . . .*, 214.
118. *Ibid.*, 207.
119. 220-22.
120. 238.
121. 242-44.
122. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, in Cassirer, *The Question of Rousseau*, 54.
123. Second *Discourse*, *loc. cit.*, 236.
124. End of second *Discourse*.
125. Mumford, Lewis, *The Condition of Man*, 275.
126. Helvétius, *Treatise on Man*, II, xx.
127. Duclos, *Considérations sur les moeurs*, 11.
128. Lemaitre, 122.
129. Second *Discourse*, *loc. cit.*, 175, 246.
130. Voltaire, *Works*, XXIa, 227-30.
131. *Ibid.*
132. *The Confessions*, II, 65.
133. *Social Contract*, 271.
134. *Ibid.*, 272.
135. 281.
136. 269.
137. 262.
138. 253.
139. 260.
140. 256.
141. *The Confessions*, II, 40.
142. *Ibid.*
143. Masson, I, 181.
144. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 181.
145. *The Confessions*, II, 40.
146. Grimm, *Correspondance*, II, 239.
147. Sainte-Beuve, II, 195n.
148. *Ibid.*, 180.
149. 191.
150. 213.
151. Morley, *Rousseau*, I, 272.
152. Macdonald, Frederika, *Jean Jacques Rousseau*, II, 83.
153. Source lost.
154. Toth, Karl, *Woman and Rococo in France*.
155. Hobbes, *De Corpore*, Ch. xxv.
156. Toth, 194; Josephson, 194; Faguet (*Vie de Rousseau*, 214) thought Mme. d'Épinay had been infected by Dupin de Francueil.
157. Épinay, II, 85.
158. *Ibid.*, 130.
159. Josephson, 149.
160. *The Confessions*, II, 81.
161. *Ibid.*, 66.
162. Letter to Malesherbes, Jan. 26, 1762.
163. Épinay, II, 128; Sainte-Beuve, II, 187; Morley, *Rousseau*, I, 274.

CHAPTER II

1. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 4.
2. Frederick the Great, *Histoire de la guerre de Sept Ans*, 388.
3. Dorn, W. L., *Competition for Empire*, 306.
4. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power upon History*, 74.
5. Aldis, Janet, *Madame Geoffrin*, 200.
6. Goodwin, A., *The European Nobility in the 18th Century*, 113.
7. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 346.
8. Walpole, H., *Memoirs of . . . the Reign of George the Second*, II, 73; Marmontel, *Memoirs*, I, 175.
9. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, V, 72.
10. Levron, Jacques, *Pompadour*, 174.
11. Treitschke, H. von, *Life of Frederick the Great*, 149.
12. Mann, Thos., *Three Essays*, 163.
13. Dorn, *Competition for Empire*, 15.
14. Treitschke, *Frederick*, 181.
15. Carlyle, *Friedrich*, V, 263-69; Martin, H., *Histoire de France*, XV, 497; Reddaway, *Frederick the Great*, 198; Coxe, *History of . . . Austria*, III, 370.
16. Reddaway, 199.
17. Gooch, G. P., *Frederick the Great*, 334.
18. Reddaway, 201.
19. Dorn, 300; *Cambridge Modern History*, VI, 251.
20. Gooch, *Frederick*, 334.
21. *CMH*, VI, 402.
22. Coxe, *History of . . . Austria*, III, 369.
23. *Ibid.*
24. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 33.
25. Gooch, *Frederick*, 43.

16. Coxe, 379.
27. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 369; Carlyle, *Friedrich*, V, 479.
28. *Ibid.*, 523.
29. 527.
30. 534; Sainte-Beuve, II, 373
31. *Ibid.*, I, 219; Brandes, *Voltaire*, II, 77.
32. Sainte-Beuve, II, 372.
33. Martin, H., *France*, XV, 522.
34. Michelet, *Histoire de France*, V, 402.
35. Dorn, 323.
36. Michelet, V, 402.
37. Carlyle, VI, 22.
38. *Ibid.*, V, 547.
39. Jahn, *Life of Mozart*, I, 47.
40. Carlyle, VI, 42; Robinson, J. H., *Readings in European History*, 395.
41. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, II, 173.
42. Acton, Lord, *Lectures on Modern History*, 197.
43. Carlyle, VI, 63.
44. Martin, XV, 527.
45. *Ibid.*, 528.
46. Carlyle, VI, 63.
47. Dorn, 338.
48. Carlyle, VI, 115.
49. *CMH*, VI, 290.
50. Wilhelmine, *Memoirs*, vii.
51. *Ibid.*, *ix*.
52. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 44.
53. Carlyle, VI, 265.
54. Coxe, *History*, III, 407.
55. Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, 259.
56. Carlyle, VI, 322, 386.
57. Martin, XV, 533.
58. Dorn, 363.
59. Voltaire and Frederick, *Letters*, 262; Carlyle, VI, 399.
60. Martin, XV, 565.
61. Voltaire and Frederick, *Letters*, 271.
62. Coxe, III, 425.
63. Dec. 25, 1761, by the Russian calendar.
64. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 229.
65. *Ibid.*, 227.
66. 295.
67. Gooch, *Frederick*, 64.
68. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 305.
69. Macaulay, *Essays*, II, 185.
70. Voltaire and Frederick, *Letters*, 245; Mann, *Three Essays*, 210.
71. Gooch, *Frederick*, 64.
72. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 192.

CHAPTER III

1. Du Hausset, *Memoirs of Mme. de Pompadour*, 97.
2. Goncourts, *Madame de Pompadour*, 338-42.
3. *Ibid.*, 200.
4. Aldis, *Madame Geoffrin*, 129.
5. Lewis, D. B. Wyndham, *Four Favorites*, 42.
6. Goncourts, *Mme. de Pompadour*, 317.
7. *Ibid.*, 319; Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 451.
8. Mitford, Nancy, *Madame de Pompadour*, 234.
9. Levron, Jacques, *Pompadour*, 260.
10. Bancroft, George, *Literary and Historical Miscellanies*, 91.
11. See Stryienski, *Eighteenth Century*, 189.
12. Mitford, *Pompadour*, 234.
13. Ercole, Lucienne, *Gay Court Life*, 236.
14. Mitford, 234-35.
15. Taine, H., *Ancient Regime*, 338.
16. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 181-82; Martin, H., *France*, XVI, 236.
17. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 253.
18. Nussbaum, F. L., *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 213.
19. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 54.
20. Mousnier and Labrousse, *Le Dix-huitième Siècle*, 135.
21. Du Hausset, *Memoirs*, 27.
22. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 352.
23. Rousseau, *La Nouvelle Héloïse*, in Ducros, Louis, *French Society in the 18th Century*, 193.
24. Parton, James, *Life of Voltaire*, II, 329.
25. Voltaire, *Works*, VIIb, 56.
26. Goldoni, *Memoirs*, 359.
27. Taine, *Ancient Regime*, 308.
28. Cru, R. L., *Diderot as a Disciple of English Thought*, 61.
29. Ducros, *French Society*, 325.
30. Martin, H., *France*, XVI, 163; Acton, *Lectures on Modern History*, 326.
31. Higgs, Henry, *The Physiocrats*, 18.
32. Say, Léon, *Turgot*, 47, 67.
33. Turgot, *Éloge de Gournai*, in Martin, *France*, XVI, 165.
34. Mirabeau *père* in Higgs, 21
35. Higgs, 24.
36. Wolf, A., *History of Science, Technology, and Philosophy in the 18th Century*, 730.
37. Higgs, 37.
38. Warwick, C. F., *Mirabeau and the French Revolution*, 146.
39. Higgs, 68.
40. In Sée, Henri, *Les Idées politiques en France au xviiie siècle*, 161.
41. Pomeau, René, *La Religion de Voltaire*, 405.
42. Hume, letter to Morellet, July 10, 1769.
43. Voltaire, *Works*, Ib, 247-48, 265.
44. In Gay, Peter, *Voltaire's Politics*, 169n.
45. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, Book IV, Ch. ix.
46. Higgs, 135.

4. Besterman in Voltaire, *Love Letters to His Niece*, 9.
5. Chaponnière, 203.
6. Parton, II, 475.
7. Letter of July 4, 1782, in Desnoiresterres, *Voltaire*, VI, 288.
8. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 283.
9. *Ibid.*, 293.
10. 302.
11. Low, D. M., *Edward Gibbon*, 144.
12. Desnoiresterres, VI, 290; Chaponnière, 202.
13. Parton, *Life of Voltaire*, II, 481.
14. *Ibid.*
15. Desnoiresterres, I, 131.
16. Noyes, A., *Voltaire*, 550.
17. Torrey, N. L., *The Spirit of Voltaire*, 189.
18. Desnoiresterres, VII, 335.
19. *Ibid.*, 335.
20. Parton, II, 480.
21. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Malady—Medicine."
22. Molière, *Le Malade imaginaire*.
23. Chaponnière, 202; Parton, II, 480.
24. Voltaire, art. "Malady."
25. Parton, I, 529.
26. Chaponnière, 202.
27. Brandes, *Voltaire*, II, 312.
28. Parton, II, 263.
29. Desnoiresterres, V, 324.
30. Parton, II, 471.
31. Chaponnière, 202.
32. Lanson, *Voltaire*, 197.
33. Desnoiresterres, VII, 482.
34. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 201.
35. Faguet, *Literary History of France*, 507.
36. Lanson, *Voltaire*, 197.
37. Torrey, 34.
38. Lanson, 197.
39. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XXXIX, 546.
40. *Works*, VIIIb, 286.
41. *Philosophical Dictionary*, art. "Ancients and Moderns."
42. Michelet, *Histoire*, V, 426.
43. Parton, II, 489.
44. Brunetière, 361.
45. Torrey, 176.
46. Letter of Mar. 12, 1766.
47. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, Ch. xxxix.
48. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 335.
49. Letter of Frederick to Voltaire, June 10, 1759.
50. Letter of July 2, 1759.
51. Voltaire and Frederick, *Letters*, 266.
52. *Ibid.*, 358.
53. 363.
54. Brandes, II, 241.
55. Desnoiresterres, VI, 391.
56. *Phil. Dict.*, art. "Peter the Great."
57. Robespierre, speech of 18 Floréal, Year II, in Hazard, *European Thought*, 265.
58. Parton, II, 260.
59. Chaponnière, 238.
60. Gibbon, *Memoirs*, 154n.
61. Parton, II, 556.
62. Voltaire, *Mémoires*, in Parton, I, 141.
63. Letter to Frederick, January, 1737, in Voltaire and Frederick, 41.
64. *Phil. Dict.*, art. "Property."
65. *Ibid.*
66. *Ibid.*
67. Letter to Dr. Daquir in Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 228.
68. *Phil. Dict.*, art. "Equality."
69. Lacroix, Paul, *The Eighteenth Century in France*, 47.
70. *Phil. Dict.*, art. "Country" ("Pays").
71. Voltaire, *L'A, B, C*, in Sée, *Les Idées politiques*, 84.
72. *Phil. Dict.*, art. "Laws."
73. *Essai sur les moeurs*, xii, 161, in Gay, *Voltaire's Politics*, 181.
74. *Mérope*, Act. II, Sc. ii.
75. Michelet, *French Revolution*, 47.
76. In Parton, II, 544.
77. Desnoiresterres, VI, 240.
78. Casanova, *Memoirs*, II, 406-7.
79. Letter of Oct. 28, 1773.
80. *Phil. Dict.*, art. "Democracy."
81. Letter of Sept. 20, 1760.
82. In Gay, 236.
83. *Phil. Dict.*, art. "Government," Sec. 3.
84. *Ibid.*, Sec. 6, slightly transposed.
85. *Phil. Dict.*, art. "Equality."
86. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 415.
87. Quoted in Black, *Art of History*, 48.
88. *Phil. Dict.*, art. "Law, Civil and Ecclesiastical."
89. In Hearnshaw, *Social . . . Ideas of Some Great French Thinkers*, 157.
90. Art. "Execution."
91. Art. "Torture."
92. In Gay, 307.
93. Art. "Wit."
94. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 146.
95. *Ibid.*, 228.
96. Black, 29.
97. *Candide*, last chapter.
98. In Pomeau, 261.
99. Desnoiresterres, V, 24.
100. Brandes, *Voltaire*, I, 118.
101. Torrey, 10.
102. Letter of Aug. 28, 1751.
103. Brandes, *Creative Spirits of the 19th Century*, 138.
104. *Ibid.*, 142; Höffding, H., *Jean Jacques Rousseau and His Philosophy*, 80; Desnoiresterres, VI, 310.
105. *Ibid.*
106. Mme. de Graffigny in Parton, I, 392.

107. Hume, letter of Apr. 26, 1764, in Gay, 81.
108. Torrey, 131.
109. Letter to Thieriot, Dec. 10, 1738.
110. Torrey, 131.
111. *Ibid.*
112. Voltaire, *English Notebooks*, in Gay, 353.
113. *Phil. Dict.*, art. "Solomon."
114. Desnoiresterres, V, 157; Parton I, 106.
115. See letter of March, 1737, to Moussinot, in *Works*, XXIa, 190.
116. Parton, II, 520.
117. *Ibid.*, I, 507.
118. *Ibid.*, 144.
119. Morley, *Voltaire*, in Voltaire, *Works*, XXIb, 96.
120. Parton, II, 600.
121. In Noyes, *Voltaire*, 536.
122. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 61.
123. Pomeau, 462.
124. Desnoiresterres, II, 239.
125. In Torrey, 197.
126. Desnoiresterres, VI, 287.
127. Torrey, 91.

CHAPTER VI

1. Rousseau, *Émile*, p. 371.
2. *The Confessions*, II, 84.
3. Josephson, 190.
4. *Ibid.*; *The Confessions*, II, 84.
5. *The Confessions*, II, 88.
6. Diderot, *Le Fils naturel*, Act. IV, Sc. iii.
7. Brockway, W., and Winer, B., *Second Treasury of the World's Great Letters*, 195.
8. *Ibid.*, 201.
9. *The Confessions*, II, 107.
10. *Ibid.*, 99.
11. Rousseau, *Collection complète des oeuvres*, I, 424.
12. *Ibid.*, I, 428.
13. 431.
14. 438.
15. 442.
16. 449.
17. 443.
18. Desnoiresterres, V, 141.
19. *The Confessions*, II, 105.
20. Épinay, Mme. d', *Memoirs*, II, 329.
21. *Ibid.*, 334.
22. *The Confessions*, II, 102.
23. Josephson, 213.
24. *The Confessions*, II, 114-15, 110.
25. *Ibid.*, 113.
26. 114-16.
27. Josephson, 220.
28. *The Confessions*, II, 118.
29. *Ibid.*, 121.
30. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 193.
31. *The Confessions*, II, 133. Several of Mme. d'Houdetot's letters to Rousseau survive, and a few of his to her; see Martin, H., *France*, XVI, 91n.
32. *The Confessions*, II, 136.
33. Sainte-Beuve, II, 213.
34. *The Confessions*, II, 144.
35. *Ibid.*, 146.
36. 147.
37. Épinay, III, 130-32; Josephson, 249.
38. Épinay, III, 140-42.
39. *Ibid.*, 186.
40. *The Confessions*, II, 154.
41. Josephson, 252.
42. *The Confessions*, II, 155.
43. Letter of Nov. 26, 1758, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 160.
44. Lemaître, *Rousseau*, 174.
45. Josephson, 308.
46. *The Confessions*, II, 165.
47. Rousseau, *Politics and the Arts*, 7.
48. *Ibid.*, 121.
49. 125-26.
50. *The Confessions*, II, 165.
51. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 97, 105.
52. Hendel, *Citizen of Geneva*, 169; Desnoiresterres, VI, 85.
53. Chaponnière, 169; Josephson, 278.
54. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 33.
55. Josephson, 279.
56. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, Part I, Letter I.
57. Letter II.
58. Letter IV.
59. Letter V.
60. Letter XIV.
61. *Rousseau juge*, p. 139.
62. *Ibid.*, Part IV, Letter XVII.
63. Part V, Letter V.
64. *Rousseau juge*, p. 186.
65. *Ibid.*, Part V, Letter X.
66. *The Confessions*, II, 163.
67. In Hendel, *J.-J. Rousseau, Moralist*, II, 47.
68. *Rousseau juge*, Part VI, Letter VI.
69. Part V, Letter V.
70. *The Confessions*, I, 101.
71. Kant, Fragment 618, in Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 6.
72. Texte, J., *Rousseau and the Cosmopolitan Spirit*, 236.
73. Desnoiresterres, VI, 87.
74. Michelet, *Histoire*, V, 427.
75. *Ibid.*
76. *The Confessions*, II, 213.
77. *Ibid.*, 211.
78. Maritain, *Three Reformers: Luther, Descartes, Rousseau*, 119.
79. Taine, *Ancient Regime*, 271.

CHAPTER VII

1. Hendel, *Citizen of Geneva*, 179.
2. *Ibid.*, 195.

3. Rousseau, *Social Contract*, Book I, Ch. v.
4. *Ibid.*, IV, ii.
5. IV, i.
6. I, vii.
7. I, viii.
8. I, vii.
9. II, iv.
10. I, viii.
11. Vaughn, *Political Writings of Rousseau*, I, 81.
12. *Social Contract*, Book III, Ch. v.
13. III, iv.
14. III, xv.
15. III, xviii.
16. III, i.
17. I, ix.
18. II, xi.
19. I, end.
20. II, i.
21. Letter to Mme. d'Étang, in Cobban, *Rousseau and the Modern State*, 193.
22. Cobban, *Rousseau*, 211.
23. *Social Contract*, IV, viii.
24. II, vii.
25. IV, viii.
26. *Ibid.*
27. *Ibid.*
28. *Ibid.*
29. *Ibid.*
30. IV, vi.
31. In Cobban, *Rousseau*, 55.
32. *Émile*, p. 157.
33. *Ibid.*
34. Cobban, *In Search of Humanity*, 168.
35. Voltaire, *Works*, XXIb, 332.
36. Havens, *Voltaire's Marginalia*, 68, in Gay, *Voltaire's Politics*, 268.
37. *Cf. Social Contract*, II, iv; Talman, *Origins of Totalitarian Democracy;* Crocker, *Rousseau et la philosophie politique*, p. 111.
38. *Social Contract*, II, v.
39. Faguet, *Rousseau penseur*, 397.
40. *Ibid.*
41. *Émile*, preface.
42. Boyd, *Educational Theory of Jean Jacques Rousseau*, 297.
43. Rousseau, *Émile*, 13.
44. *Ibid.*, 216.
45. 26.
46. 156.
47. 118.
48. 133.
49. 27.
50. 92.
51. 50.
52. 21-22, 46.
53. 56-58.
54. 341.
55. 253.
56. 251.
57. 254.
58. 53.
59. 58.
60. 167.
61. 149, 306.
62. 160.
63. Martin, H., *France*, XVI, 98.
64. Rousseau, *Émile*, 158.
65. *Ibid.*, 220.
66. 230.
67. 261-62.
68. 263.
69. 257.
70. 272.
71. 232.
72. *Ibid.*
73. 238-49.
74. 245-47.
75. Letter of Oct. 5, 1758, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 152.
76. *Émile*, 261.
77. 223.
78. 275.
79. See Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 256.
80. *Émile*, 272.
81. 271-72.
82. 179.
83. 192.
84. 298-99.
85. Letter of Nov. 5, 1758, in Hendel, *Citizen*, 158.
86. In Faguet, *Rousseau penseur*, 111.
87. Émile, 351; Hendel, *J.-J. Rousseau*, II, 23.
88. *Émile*, 330, 370.
89. 340.
90. 341, 371.
91. 337, 350.
92. 350.
93. 349.
94. 320.
95. 357.
96. 443.
97. 444.
98. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 125.
99. Seillière, *J. J. Rousseau*, 132, in Maritain, *Three Reformers*, 125.
100. Rousseau, *Collection complète des oeuvres*, IXb, 157.
101. Plato, *Republic*, No. 592.

CHAPTER VIII

1. Hendel, *Citizen of Geneva*, 232.
2. *The Confessions*, II, 243.
3. *Collection complète*, IXa, pp. *v-x*.
4. *The Confessions*, II, 253.
5. *Collection*, IXb, 4.
6. *The Confessions*, II, 255.
7. In Torrey, *Spirit of Voltaire*, 110.
8. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 33.
9. Voltaire, letter of July 26, 1764.

10. In Brandes, *Voltaire*, II, 97.
11. *Ibid.*, 98; Desnoiresterres, VI, 320-23.
12. Hendel, *J.-J. Rousseau*, II, 252.
13. *The Confessions*, II, 257.
14. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 226.
15. In Gooch, *Frederick the Great*, 138.
16. *The Confessions*, II, 264.
17. Hendel, *Citizen of Geneva*, 252.
18. *The Confessions*, II, 265.
19. *Ibid.*, 259.
20. 270.
21. 265-66.
22. Letter of July 22, 1764, in Masson, P. M., *La Religion*, III, 171.
23. In Goncourts, *Women of the 18th Century*, 287.
24. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 138.
25. Masson, III, 73-75.
26. 2 Timothy iii, 1 f.
27. *Collection complète*, IXa, pp. *xi-xiii*.
28. *Ibid.*, p. *xiii*.
29. P. *xiv*.
30. P. *xvi*.
31. P. *xxxix*.
32. P. 1.
33. 2.
34. 4.
35. 7.
36. 8.
37. 26-28.
38. 55.
39. 63.
40. 65-66.
41. 70-71.
42. 121-22.
43. 8.
44. 15.
45. 42.
46. 44.
47. 47.
48. 50.
49. 83.
50. 86.
51. 87-89.
52. Exodus vii, 9-12.
53. Matthew xxiv, 24.
54. *Collection complète*, IXa, 201-2.
55. *Ibid.*, 210-12.
56. 244-45.
57. 334.
58. Letter of Mar. 8, 1765, in Masson, P. M., *La Religion*, III, 206-7.
59. *Collection complète*, IXa, 184-85.
60. Morley, *Voltaire*. in Voltaire, *Works*, XXIb, 97.
61. In Faguet, *Vie de Rousseau*, 318-20.
62. *Rousseau juge de J.-J.*, I, *ii-iv*.
63. Grimm, *Correspondance*, May 15, 1763, Dec. 15, 1763, Jan. 15, 1765; see also Masson, P. M., II, 126-40.
64. Boileaux-Despréaux, Nicolas, *L'Art poétique*, lines 37-38.
65. Goethe, *Faust*, Part I, Everyman's Library translation, p. 116.
66. *Collection complète*, I, 196n.
67. Horace Walpole, letter of Dec. 31, 1769, to Horace Mann.
68. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switz.*, 150.
69. *Ibid.*, 215.
70. 217.
71. 219.
72. 229.
73. 230-31.
74. 254.
75. 258-68.
76. In Vaughn, *Political Writings of Rousseau*, II, 293.
77. Macdonald, Frederika, *Jean Jacques Rousseau*, II, 118.
78. Vaughn, II, 369n.
79. *Ibid.*, 350.
80. 338.
81. Letter of Feb. 26, 1770.
82. Morley, *Rousseau and His Era*, II, 94.
83. Letter of Mar. 10, 1765.
84. Letter of Mar. 29, 1765.
85. Macdonald, F., II, 123.
86. *The Confessions*, II, 301.
87. *Ibid.*
88. Letter of Oct. 1, 1765.
89. *The Confessions*, II, 302.
90. *Ibid.*
91. Rousseau, *Reveries*, 106.
92. *Ibid.*, 108; *cf. The Confessions*, 308.
93. Morley, *Rousseau*, II, 117.
94. *The Confessions*, II, 312.
95. Hendel, *Citizen of Geneva*, 326.
96. Burton, *Life of David Hume*, II, 299.
97. Macdonald, F., II, 166.
98. *Ibid.*, 213-14.
99. Walpole, Letter of Jan. 12, 1766.
100. Macdonald, II, 168.
101. Lemaitre, 322; Macdonald, II, 172.
102. *Ibid.*, II, 171.
103. Morellet, *Mémoires*, in Mossner, *Life of Hume*, 575.
104. *Ibid.*, 517.
105. 518.
106. Faguet, *Vie de Rousseau*, 332.
107. In Burton, *Hume*, II, 304, 309.
108. Hume, letter to Lord Charlemont, in Mossner, 523.
109. Mossner, 519.
110. *Boswell on the Grand Tour: Italy, Corsica, France*, 279.
111. But summarized by Col. Robert Isham, who read them before their destruction by the executors.
112. *Boswell on the Grand Tour: Italy . . .*, 277-81.
113. Mossner, 521.

114. *Ibid.*, 523.
115. Letter of May 10, 1766, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 336.
116. Letter of Apr. 24, 1766, in Hendel.
117. Josephson, 460.
118. Macdonald, F., II, 186-209.
119. Mossner, 529.
120. Macdonald, II, 171.
121. *Ibid.*, 174.
122. Josephson, 464; Morley, *Rousseau*, II, 133.
123. Josephson, 467.
124. Morley, II, 135.
125. *Ibid.*
126. Josephson, 471.
127. Faguet, *Vie de Rousseau*, 361; Ségur, *Julie de Lespinasse*, 203.

فهرس

الصفحة

الصفحة